

ملحمة السَّراسْوة

رواية

التكوين

أحمد صبري أبو الفتوح

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

أبو الفتوح، أحمد صبري.
ملحمة المراسوة "التكوين": رواية/ أحمد صبري أبو الفتوح.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٢

ص، سم.

تدمك: ١ ١٤٨ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان.

٨١٣

رقم الإيداع/ ٢١٠٨٣/ ٢٠١١

أسرار تدركها الجياد

في طريق عودته من زيارة قبر جدته الكبرى في جبانة الحجايزة داهم أحمد السرسي شعور بالخطر، وما أن خرج من زمام الحجايزة ودخل في نطاق كفر سعد حتى شعر بوحشة ورهبة، وبصورة غامضة أدرك أن الطريق غير ما كانت عليه في رحلة الذهاب.

الشمس وهي في طريقها إلى الغروب خلف شبراسندى تلكأت برهة فوق الأفق الغربي وصبغته بلون الدم، في مثل هذا الوقت يكون الناس في طريقهم للعودة من الغيطان، يسوقون بهائمهم أو يسحبونها، وتكون الجلبة الآتية من القرى القريبة أوضح ما تكون، هي الفرصة الأخيرة قبل أن يطبق الظلام وتنغلق الأبواب على الأحياء.

لكن الطريق وعلى غير العادة خالية، كما لو أن الغيطان لم تكن وهو في طريق الذهاب غاصة بالناس والبهائم والقطعان، وكما لو أن القرى القريبة لم تكن تمارس طقوسها اليومية لمقدم الأصيل، وهي الطقوس التي تتسارع وتتسارع حتى تصل إلى حد اللهوجة فيما النهار يوشك على السقوط في بحيرة الليل.

شيء ما أوحى إليه بأن ما يجرى له صلة بعدم تعامله مع التهديد الذى أطلقه جاره الأعرابى عبد الله الجياصى بالجدية الواجبة، وأنه كان يجب عليه أن يحذر أشد الحذر من غضبته وقدرته على الفتك بخصومه، وكان الأعرابى عندما بلغه خبر حصول أحمد على الأبعدية المجاورة لأراضى عهدته -وكان طامعا فى أخذها لنفسه- قد أقسم ليرمّلن زوجاته وليوقدن على عظام أرامله البائسات نارا حامية، وليستعبدن طفليه الرضيعين، كل ذلك قبل أن يطل على الدنيا قمر جديد، لكن صداقات أحمد مع أعيان المنطقة جعلته -برغم حداثة عهده بالمكان والناس- لا يتعامل مع التهديد بما ينبغى، وفضل أن يظهر أمام أهل القرى المحيطة بمظهر الواثق من أن كلمات الأعرابى ليست إلا دخانا تبدد فى الهواء، و لم يقابل تحذيرات أمه وجدته الأم الخبيرة وزوجاته وعماله وأصدقائه بالاهتمام الواجب.

كان معتليا ظهر مهرة صهباء اشتراها من صحراء بلبيس بمعاونة صديقيه الحاج سويلم عمدة الحجايزة والتاجر الطوخى صهره الجديد، أحس بأن الطريق تبدو غير طبيعية، وقبل أن يفكر فيما يجب أن يفعل فوجئ بجفول مهرته، وكاد يسقط من فوقها، لكنها رفعت رأسها وأرهفت أذنيها ودقت بقوائمها الأرض، ثم أخذت ملء رئتيها من هواء الطريق قبل أن تنطلق كالسهم.

حاول أن يوقفها، فلقد كان منزعجا بشدة، وغاضبا من جفولها واندفاعها، لكنه لم يتخط المحاولة، إذ سرعان ما غمره يقين بأن وراء ما يحدث سرا لا يدركه، ووجد نفسه قابضا على مقدمة السرج ومتشبثا بالركابين ومنثنيا للأمام، من ورائه كانت أطراف عباءته ترفرف فى الهواء،

وقبل أن يمر بمحاذاة مضارب الأعرابي انطلقت في وجهه عشرات البنادق، آتية من مكان قريب، لا يتجاوز بضع أقصاب. الطلقات تصفر في أذنيه فيما الصهباء طائرة لا تلامس أقدامها الأرض، وبعد أن كانت الطلقات تواجهه صارت تأتيه من جانبه الأيسر، وسرعان ما لاحقته من الخلف، لكنها طاشت.

أصوات انفجار البارود أخرجت الناس في القرى المحيطة، اعتلوا أسطح الدور ليشاهدوا المنظر الذي ربما لا يتكرر في حيواتهم مرة ثانية، وبرغم ابتعاده عن مرمى الطلقات ظلت الصهباء تسابق الريح، في طريقها مرت بأمه مريم وجدته الأم الخبيرة ومعهما شام زوجته الجديدة، وبزوجتيه حورية وسرية وعلى كتفيهما الصغيران موسى وسيد احمد، ولم تتوقف إلا عند أعتاب الدار.

دقات قلبه طغت على أنفاس الصهباء، هبط إلى الأرض، مريم أول من وصلت إليه، ومن خلفها تواترن، شاحبات شحوب الموت، قلبه يدق بأسرع من خطوهن، وقبل أن يتفوه بكلمة واحدة كانت أمه تفتش في جسده، اطمأنت إلى سلامته وأخذته في حضنها، ولم تجد زوجاته إلا أجزاء من ملابسه فأمسكن بها متلهفات، وقبل أن تصل إليه يد جدته الأم الخبيرة سقطت الصهباء على قائميها الأماميين.

الدماء تنزف بغزارة من جرحين عميقين في كتفها الأيسر ومقدم بطنها، أراد أن يطرحها أرضا فقاومت بشدة، ولما نجح حاولت أن تنهض من جديد، لكنه تمكن منها، استسلمت ومدت رأسها وحمحمت، كانت تشكو ألمها، شق جلبابه وراح يدسه في الجرحين محاولا إيقاف النزيف،

لكن الدماء كانت تتفجر من جديد. استمرت محاولاته دقائق، ولكنها سرعان ما استكانت، ومن عينيها الزائغتين أسقطت وهى تسلم الروح بلورتين انحدرتا فوق الصدغين المرتجفين، ثم انسحب النور من عينيها إلى الأبد.

أتراني وأنا أقرأ القرآن على روح الصهباء القديمة كنت على حق؟!.

فلطالما قرأت وأنا طفل كثيرا مما أحفظه من آيات وأدعية، وهبتها إلى روح الصهباء، التى افتقدت ذات أصيل بعيد جدى الأكبر أحمد الثانى.

عبرت القصة الحزينة قرنا وربع القرن من الزمان حتى وصلت إلى، لكنها لم تفقد شيئا من زخمها ورهافتها، حتى أننى وأنا اتكور فوق الكروبتة(*) إلى جوار جدتى وأنصت بكل جوارحى للحكاية الحزينة كنت عاجزا عن أن أمنع دموعى من السقوط، فكانت تنحدر من الجفنين وتتكوم هناك عند بداية الوجنتين، وعندما تصير قوية بالقدر الكافى تصعد الوجنتين وتنحدر بسرعة على جانبى الفم، وربما تلتقى أسفل الذقن الصغيرة أو تتسرب إلى زاويتى الفم، فأتذوق طعمها المالح وأشعر ببعض العزاء.

كبرت وصرت شابا، وجمعتنى الظروف بواحد ممن أثق فى قدرتهم على التمعن فى الأمور، وسألته عن ذلك الأمر، وحتى لا يظن بى الظنون رأيت أن يبدو سؤالى وكأنه على سبيل المزاح، لكنه أجابنى:

– إنها من مخلوقات الله، ولها من صلواتنا ما نخلص النية فيه.

(*) سرير خشبى بدائى فسيح، لها حواجز خشبية مرتفعة من جهات ثلاث، تستخدم فى الجلوس عند حافتها كأنها كنبة بلدية إلى جانب استخدامها فى النوم.

ليال طويلة كنت أقضيها وأنا اضمد جراح الصهباء، أحلام ممتدة لا تنقطع، كان أراني جدى الأكبر احمد السرسى، وأنا اشق ملابسى لأكتم جرح الصهباء فترفض ملابسى أن تتمزق، وفى مرات عديدة كنت أفقد القدرة على تحريك يدى، وسرعان ما أفقد الحركة فى كل أجزاء جسدى، وبعد برهة أستيقظ على شلل رهيب يجعلنى غير قادر حتى على مجرد تحريك إصبع واحد من أصابعى، وعاجزا عن ملء رئتى بالشهيق.

فى مرات عديدة كنت أستيقظ على أصوات أخواتى وهن يتسامرن إلى جوارى، وأتلهف على أن تهزنى إحداهن لينفك أسرى، وإذ يصيبنى اليأس وأفقد القدرة على التعمق فى التنفس إلى الحد الذى يعيدنى إلى الحياة اجاهد لأدفع اليأس عنى، ومن جديد احاول تحريك قدمَى، وادفعهما ببطء شديد إلى السقوط من فوق حافة السرير، ساحبتين جسدى كله، فتعيدنى السقطة إلى الحياة، وأنهض وأنا لا أصدق أننى تخلصت من الكابوس الرهيب، حيث يتفجر الدم من جروح الصهباء وتعجز أعضائى عن الفعل، أى فعل، وأبدأ من خلال ضحكات أخواتى فى الصراخ فى وجوههن، فهن لم يستجبن لتوسلاتى المشلولة ومعاونتى لأقوم بحركة إرادية سريعة تعيدنى إلى الحياة.

ما الذى شعر به أحمد السرسى وهو يحاول دون جدوى إنقاذ مهرته؟!، وكيف استطاع أن يعبر تلك المحنة الكبيرة؟!، محنة أن تكون مدينا لأحد ثم يرحل حتى من قبل أن تمتن لما فعله من أجلك؟!، كل ذلك كان ينعكس فى أحلامى وأنا طفل، ثم وأنا شاب فى مقتبل سنوات الرجولة، ويوم أن اهتديت إلى قرارى بكتابة حكايات أسرتى تبدل الوضع، فبدلا من أن أرى

ذلك التاريخ منبثقا وعلى نحو أشوه أثناء نومى، صرت أراه وأنا مفتوح العينين، وأيضا وأنا مغمض العينين، ليس بشكل أشوه هذه المرة، ولكن فى صورة أحداث حقيقية تجرى أمام عينى، لا ينقصنى إلا أن أمد قدمى فأصير فى قلبها.

رفض أحمد السرسى أن يسحب عماله جثة الصهباء ويذهبوا بها إلى تل الذئاب، وصمم على دفنها فى مقبرة، و لم تكن هى المقبرة الأولى لحيوان من ذلك النوع فى تاريخ الأسرة.

قبل أن تُدْفَن الصهباء امتلأت الدار بالناس، شاع الخبر فجاءوا من كل صوب، من الحجايزة وكفر سعد وغزالة والمقاطعة، ومن شبراسندى وبرقين، وحتى من أبى داوود وكفر غنام، ولما لم يأت أحد من كفر عزام حيث يستقر عمّا أحمد فى غيطانها أرسلت أمهما الأم الخبيرة سرا فى طلبهما، فهما ليس فقط عما حفيدها الأثير، ولكنهما صهراه أيضا، لكن الرسول أتى بأخبار جعلت من مناسبة الحزن والغضب مناسبتين.

قال إنه لم يجد مضاربهم هناك، ولما توجه إلى دار الشيخ عزام أخبروه بأنهم استيقظوا ذات صباح فلم يجدوهم هناك، مضوا دون أن يخبروا بعزمهم على الرحيل، ولا أحد يعرف وجهتهم، فهمت الأم الخبيرة أن ابنيها نفذا تهديدهما، ما أن علما بخبر حصول ابن أخيهم على الأبعدية حتى خلعا أوتادهما من المكان الذى آواهما عامين أو يزيد ورحلا بنية الاختفاء.

امتحان شديد القسوة واجهه أحمد السرسى، فإما يجتازه وتترسخ قدماه فى المكان، وإما يفشل فيهلك قبل أن يتمكن من خلع أوتاده هو

الآخر والرحيل إلى غير رجعة، ينظر إلى الذين يتقاطرون على داره من كل صوب ويفترشون الأرض فى جرنه فيشعر بالطمأنينة، وبأنه قادر على مواجهة الأعرابى حتى آخر الشوط، ولكنه سرعان ما يتخيل أطلال مضارب عميه فى غيطان كفر عزام فيفت الأمر فى عضده، فالآن، والآن فقط، يشعر بأنه وزوجاته وولديه الرضيعين وأرامله ليسوا إلا ضعفا مركبا بعددهم، فوجود عميه غير بعيد منه كان بالنسبة له عامل أمان، لم يشعر بقوته إلا عندما رحلوا، وبرغم أنه لوح عقب وفات الجدة الكبرى بإمكانية إشراك عميه فى وراثة نصيبها من الأبعدية، إلا أنهما لم يأبها للأمر، فتحدث مع الأم الخبيرة وعرض أن يعطيهما ما يريدون، بالإضافة إلى نصف نصيب الجدة الكبرى.

التعبير الذى عكسته ملامح الأم الخبيرة وهى تتلقى العرض بإشراك ولديها فى ميراث الجدة الكبرى كان منطبعا فى ذاكرته، وسيظل يتذكره ويتصرف على مقتضاه إلى أن توافيه المنية، ففى ذلك الأصيل البعيد كان يجلس إلى جوارها ويتباحث معها بصوت غير مسموع، والموضوع يدور حول كيفية لم شمل الأسرة من جديد، ولما قدم عرضه صمتت قليلا قبل أن تطلب لولديها مائة فدان، لاتقل فدانا واحدا، هكذا قالت، وفوجئت بحفيدها يومئ برأسه موافقا، ويقبض على يديها وينحنى يقبلهما، وعندما رفع رأسه رأى فى وجهها ذلك التعبير الآسر، الذى هو خليط من الحب والشفقة والامتنان، وشىء من آثار السنين لمع بذكريات الأسلاف الراحلين.

لكن عميه أصما آذانهما، والكلمات وما حملته من وعود ضلت

طريقها إليهما، ظنهما أنه سرعان ما سينكشف كل شيء وتأتي قوات الباشا لتقبض عليهم، وتسوقهم رجالا ونساء، كبارا وصغارا، إلى حيث يجري تعذيبهم، حتى ليتمنون الموت فلا يجدونه، قبل أن يُرْفَعُوا على الخوازيق وتُسْتَأصَل شأفتهم، ولا يبقى على وجه الأرض واحد من أبناء سيد احمد "الثاني".

أحمد كان قد تسلل إلى قلوب الكثيرين من أهل المكان، فها هم عمد(*) القرى المحيطة الذين توافدوا على داره يقترحون عليه أن يتقدم بشكوى للأغا حاكم المركز في السنبلاوين ويتهم الشيخ عبد الله بمحاولة قتله، وعبثا حاول أحمد أن يسوف لكنهم أصروا، وفي قطار طويل من الخيل والمطايا حملوه إلى المركز، وخوفا من الهجوم وهو غائب تركوا رجالا مسلحين ظاهرين يحرسون أهله وداره وقطعانه، ويقومون على الأفدنة القليلة التي كان قد استزرعها، في أول محاولة لنقل الأرض من مجرد سبخة إلى أرض زراعية حقيقية.

(*) بعد أن استتب الأمر لمحمد علي باشا ابتدع تنظيما إداريا جديدا لدولته، ومثلما أعيد تنظيم الولايات والكشوفيات وصارت مديريات ومراكز شمل التنظيم القرى أيضا فصارت وحدات إدارية محددة، لكل منها زمام معلوم، وعلى رأس كل منها عمدة يختاره الباشا عن طريق عماله في المراكز والمديريات، وجرى تقسيم القرى إلى حصص، على رأس كل منها شيخ يعاون العمدة، ويتبع العمودية مجموعة من الخفراء على رأسهم شيخ لهم، وهي كلها مناصب إدارية ذات طبيعة أمنية، وهذا هو التنظيم المتبع حتى اليوم، لم يدخل عليه إلا تعديلان لاحقان، أحدهما هو الاستعاضة عن منصب العمدة في بعض القرى بإنشاء نقطة للبوليس، وثانيهما هو إنشاء وحدات إدارية محلية على مستوى القرية، وفقا لنظام الحكم المحلي، ومعها يظل منصب العمدة واحدا من المناصب الإدارية التي تتبع وزارة الداخلية.

فى الطريق إلى المركز، وبرغم أنه محاط بكل من ذهبوا معه كان أحمد السرسى مهزوما من داخله، إذ لا يعنى رحيل عميه إلا أنه خالف إجماع الأسرة، مثله مثل رجل القطعان ورجل الاستطلاع، وهذا يحزنه بشدة، ويجعله غير قادر على التفكير على نحو صائب، وهو قبل كل شيء خائف من مقابلة الأغا وجها لوجه، فها هى الأحداث تقوده لأن يذهب إلى من يحثون عنه فى عقر دارهم، يذهب بقدميه، وذلك فى حد ذاته كفيل بجعله يبدو وكأنه شبح، وطوال الطريق من داره -حيث تحرك الركب- وحتى مقر الأغا كان مشلول التفكير، وهو الأمر الذى أوقعه فى المزيد من الخوف.

لم يكن ليغفل دلالة أنه يسير ضمن قطار طويل من ذوى الحيثية فى المكان، يتقدمهم الشيخ دسوقى عمدة المقاطعة والحاج سويلم عمدة الحجايزة والشيخ هيكل عمدة كفر غنام والحاج على أبو سيد احمد عمدة برقين والحاج اسماعيل عمدة شبراسندى، وقبل أن يصل الركب إلى السنبلاوين لحق بهم الشيخ أبو كريمة عمدة كفر سعد، إذ لم يكن -برغم صلته الوثيقة بالجياصى- ليخالف إجماع عمد المنطقة، وعند مقر الأغا فوجئوا بوجود الحاج رضوان عمدة أبى داوود، فلقد أبى برغم بعد قريته عن الأحداث إلا أن يرافق الركب فى الشكاية من الأعرابى الذى يعيث فى المنطقة فسادا، وكان قد أحيط من قبل الشيخ دسوقى علما بما حدث، وبما ينتوى زملاؤه عمله.

فى الجانب الآخر كان الجياصى مشغولا بتوقيع العقاب على رجاله الذين أمطروا الفتى بالطلقات و لم تصبه طلقة واحدة، عشرة من الرماة

يقفون أمامه منكسي الرؤوس، وبعد أن بصق في وجوههم قيدهم بنفسه، جمع أيديهم إلى أرجلهم وربطها معا، وطرحهم بين ثنايا تل اللجة لتنهشهم الذئاب في الليل.

غضبته عارمة، يرفض أن يشاركه أولاده الطعام، ويأمر بأن يتواروا من أمام عينيه، بل ويقسم إن رأى ظل أحدهم ليقطعن رقبته، حتى أخوته، يرفض أن يلتقيهم وغريمه على قيد الحياة، كما يرفض قولهم إن عدوه محصن بقوى خارقة صدت عنه البارود، وإن كان يربط من طرف خفي بين قولهم وبين ما يعرفه عن اللعنة التي تصيب من يفكر في الزواج من نسائهم، ويتمثَّل ذلك الكم الهائل من الأوراق التي يخفيها الفتى لديه والتي تحمل في طياتها أخبار الأولين ومفاتيح المردة والشياطين الذين يعاقرهم طوال الوقت، وتخلصاً من إحساسه بالفشل يقول في نفسه إن غريمه ليس إنسانا كما يكون الإنسان، وإنه ابن اللعنة وعليه أن يجيد التعامل معه حتى ينال منه.

اجتماع الإخوة والأبناء ليروا ما الذي يمكنهم عمله لتفادي غضبة الشيخ أسفر عن خطة، مهاجمة دار غريمهم وقتل كل من فيها، ثم إضرام النار في كل شيء، يريدون أن يجعلوا من الفتى عبرة لكل القرى المجاورة، قالوا إن هيبتهم على المحك، وما لم ينتصفوا لأنفسهم وينتقموا انتقاما تتحدث عنه الأجيال اللاحقة فإن الفلاحين الزعر سيجترئون على مقامهم، ولن تقوم لهم من بعد قائمة.

لم يكن الجياصي على علم بما فعله العمد، واصطحابهم أحمد إلى

السنبلاوين لمقابلة الأغا. خاف الوشاة الاقتراب من الشيخ الذى كان هائجا كثور غاضب، وبرغم أن كل ذى عينين لا بد ورأى تلك الجموع التى افترشت الأرض فى الجرن الفسيح المقابل لدار أحمد، إلا أنه وأخوته وأبناءه فسروا الأمر على أنه مجرد تطفل من أهالى المنطقة، ذهبوا لينظروا ما يحدث ويكسروا رتابة أيامهم، و لم يعط أحد من كل رجال الشيخ ذلك الجمع أية أهمية.

وفى السنبلاوين استمع الأغا ذو الشوارب الضخمة والعينين الرماديتين الضيقتين والبطن العظيمة بفتور إلى ما يقوله العمد المحيطون بشاب حديث السن، لم يفطن إلى الرعب الذى يشكل ملامح الشاب الذى يختلس النظر إليه، إلى شاربه ورأسه الضخم وبطنه العظيمة، فلقد كان غارقا فى البحث عن طريقة للالتفاف حول ما يقوله العمد ضد صديقه الأعرابى.

ما كان يدور فى رأس أحمد هو ذلك الشبه الغريب بين الأغا والمملوك القديم قفل، وعندما يلتفت يمنة أو يسرة تزداد الملامح قربا إلى درجة تثير الرجفة فى جسده، والمحيطون به من العمد أرجعوا رجفته إلى الغضب الذى يستولى عليه من جراء الاعتداء الذى استهدفه، و لم تكن عينا الأغا لتصل إلى أعماق تدربت على التخفى وإظهار ما يخالف الباطن على مدى أكثر من ثلاثة أعوام.

واستدعى الأغا كاتبه ليدون تفصيلات الشكوى فكاد أحمد يسقط مغشيا عليه، وسأله الكاتب عن اسمه وكنيته ولقبه. لم تخرج الكلمات من فمه، رفضت وتخفت وراء حشرجة فسرها الكاتب بالرهبة من مواجهة

الأغا ورجاله، و لم يعرف أحمد بعد أن استرد شيئا من رباطة جأشه كيف اهتدى إلى الإجابة بأنه أحمد احمد سيد احمد... وفقط، و لم يطلب منه أحد أية إضافة.

في رحلة العودة أصر على اصطحاب العمد لتناول الطعام، فلقد أمر وهو في طريقه إلى الأغا بذبح عجل قامت على تجهيزه سيدة الطهي الأسرى مريم، وعندما جاء وقت الأصيل امتدت الأسمطة هنا وهناك، وتصدر العمد السماط الرئيس وراحوا يتناولون طعام الشاب الذى أحاطوه برعايتهم وقبلوه بينهم، واعتبروه واحدا من خاصة أهل منطقتهم.

تقول الحكايات إن مريم أرسلت في طلب المعلم "أبو سنة"(*) الطباخ الشهير المقيم بالسنبلاوين، والذى ستحترف أسرته مهنة الطبخ بعد ذلك وحتى وقتنا الحاضر، وقدم الطباخ الشهير أطباقا حازت دهشة وإعجاب الضيوف، فلقد عمل الرجل من قبل في قصور العديد من الأمراء، وزار الآستانة ودمشق والكثير من المدن قبل أن ينتهى به المطاف إلى العودة إلى مسقط رأسه، ويتخصص في إعداد الولائم لعلية القوم.

أعقب الوليمة اجتماع ضم العمد المتواجدين وصاحب الدار والصهر الحاج محمد الطوخي، الذى وصل مع مقدم الليل، فلقد طلبت شام من الحاج سويلم ليلة الحادث أن يرسل في طلبه، ووصل مع رجاله مع مقدم ليل اليوم الثالث، في الاجتماع أنهى إليهم الحاج رضوان عمدة أبى داوود أنه يعرف بوجود علاقة قوية بين أغا المركز والشيخ عبد الله الجياصي، وأنه

(*) كتبتها على هذا النحو لأحافظ على كنية الطباخ الذى ينتمى إلى أسرة شهيرة تعرف في السنبلاوين بهذا الاسم.

فى النهاية لن يفعل شيئا، سيتركهم ينتظرون وينتظرون حتى تبرد همتهم، وبعدها سينقلب الأعرابى على أحمد ويكون أكثر شراسة من ذى قبل.

وقرروا أن يتوجهوا من غدهم إلى الأغا الأكبر فى المديرية، فهو على علاقة مباشرة بإبراهيم باشا ابن الوالى، وإذا استطاعوا أن يجمعوا توقيعاتهم على شكوى جماعية ضد الأعرابى فإنهم إذا لم يقبضوا عليه ويرسلوه إلى "مصر" ليحاكم أمام الباشا سيطردونه من المكان، ليهيم من جديد فى متاهات الصحارى، بعد أن يكونوا قد قلموا أظافره، ومن ثم يطهرون المنطقة من شروره.

لم يكن مر على زواج أحمد السرسى من شام ابنة التاجر الطوخى إلا أسابيع قليلة عندما انكشف أمر حصوله على الأبعدية، ففى ذلك اليوم الذى عاد فيه من المنصورة وأعلن على أسرته نبأ حصوله على الأبعدية، وهو اليوم الذى غابت فى ليله الجدة الكبرى وماتت مع قدوم الفجر، فى ذلك اليوم لم تكن صفقة الموافقة على منحه الأبعدية قد وقعت كاملة، إذ كان قد دفع جزءا من رسوم الحصول عليها، كما دفع البرطيل الذى طلبه الأغا، وتأجل دفع الباقى حتى يتم تقدير مساحة الأرض على وجه رسمى.

شهور عديدة قطعها مشوار الحصول على الأبعدية، احتاجوا فيها إلى خرائط مساحية أسقطوا عليها المنطقة المزمع بيعها، وسافر أحمد إلى المنصورة مرات ومرات إلى أن حصل على الخرائط المطلوبة، رسمها من أجله مساح فرنسى كان من بين المهندسين الذين استعان بهم محمد على باشا فى إعادة قياس الأرض فى عموم البلاد على القصبة الجديدة،

من جنوبها وحتى بحيرات ومستنقعات الشمال، وبعد انتهاء مهمتهم فضل البعض البقاء فى مصر، وامتهنوا إلى جانب أعمال أخرى كثيرة رسم الخرائط التى يتطلبها منح الأراضى والأبعديات وفقا للقواعد الجديدة التى وضعها الباشا، حتى يكون على علم بكل من يضع يده على أقل قطعة من الأرض فى البلد الذى سيمكنه من الانطلاق نحو حلمه الكبير فى تكوين الإمبراطورية التى ستقوم كما يأمل على أنقاض الدولة العثمانية.

تم تقدير الأرض وفقا للقياس بالقصبة الجديدة، وانتهوا إلى أنها تبلغ ثلاثمائة وعشرين فدانا وبضعة قراريط، وبعد أسابيع عديدة أوشك فيها على أن يفقد الأمل فى الحصول على الأرض حمل له الشيخ دسوقى خبر استدعائه إلى مقر الأغا الأكبر حاكم المديرية، ليدفع باقى المطلوب ويحصل على التقسيط، أو شهادة منح الأبعدية، منحة من الباشا الذى يجلس هناك فى قصره المطل على النيل فى "مصر" المحروسة، والذى يواصل رجاله البحث عن قتلة رجله الأثير المملوك قفل.

فى ذلك الوقت كان أحمد غارقا حتى أذنيه فى أمر الزواج من شام ابنة صديقه التاجر الطوخى، وكانت مريم قد تصنعت الغضب وهى تستمع إليه بعد انتهاء أربعين الجدة الكبرى، وهو يبلغها بالرغبة فى الزواج من الفتاة، لكن قلبها فى الحقيقة كان يرقص بين أضلاعها، إذ سيملأ ابنها الدار بذريته، وتمعنت فى داخلها، وتذكرت ذلك اليوم الذى خشيت فيه أن ينقطع دابرها عندما تأخر حمل زوجتيه، والآن فإن ابنها هو نفسه الذى يفاتحها فى أمر الزواج من امرأة ثالثة.

وإذ وقف ينتظر إجابتها طال به الانتظار، فلقد كانت لما تزل هناك، خيالها يحوم حول مضارب كفر عزام، وهي تقلب الرأى فى أمر الابن الذى لا توجد إشارة واحدة على وجود بوادر حمل لدى أى من زوجتيه، ثم تعود إلى واقعها دون أن يدرك، فترى طفليه الأثيرين، موسى وسيد احمد، وتسترجع كلماته التى نطقها لتوه، عن رغبته في زوجة ثالثة، بالسعادة التى تفور فى داخلها، وباللهفة التى يغلفها الحرص والاصطبار، وأخيرا فإنها وفى اللحظة التى تخيلت فيها أنها تقف وتتلقفه فى حضنها أشاحت عنه كأنها تواصل الغضب.

تهديد العمين بالرحيل يطن دائما فى أذنيه، ولأنه كان قد عقد العزم على إتمام الصفقة أيا كانت النتائج قرر بينه وبين نفسه أن يوطد علاقته بحلفاء من المكان، أول شيء فكر فيه هو مصاهرة أسرة من الأسر الكبيرة فى المنطقة، وقال لأمه وهو يجاهد ليقنعها برأيه إن ذلك هو بالضبط ما فعله النبى، وفيما هى تصلى وتسلم راح يؤكد أنه لا يتزوج من أجل الزواج، فتحته زوجتان يتمنى أى رجل لو تزوج إحداهما، ولكن الأم الحصيفة منعت ابتسامة كانت بسبيلها للتهلل فوق ملامحها الحلوة وقالت:

– لا أقول حرفا إلا بعد استشارة الأم الخبيرة.

بعد رحيل الجدة الكبرى تدهورت صحة الأم الخبيرة، ولزمت حجرتها معظم الوقت، واحتاج الأمر إلى أن تقوم سربة على شئونها إلى جانب شئون سيد احمد الصغير، فيما حاولت حورية أن تقوم ببعض شئونها بالإضافة إلى شئون صغيرها موسى، لكن اعتلال صحتها حرمها من ذلك،

ولما أدركت مريم أن الأعمال المطلوبة في الدار أكثر من طاقة الزوجتين نشطت بنفسها لتساعد في الأمر، فكانت تقوم على خدمة عمتها أثناء الليل حتى لا توقظ سرية، ومن ثم تكسبها في عمل جديد وشاق طوال اليوم التالي، وأيضا كانت تساعد في تنظيف الدار وفي الطهي وفي الإشراف على القطعان.

احتاج الأمر من مريم إلى الكثير من الجهد لتفاتح الأم الخبيرة، فالحجة التي ساقها أحمد لزواجه الثالث لا تنطبق على الزوجة التي اختارها، فالتاجر الطوخي ليس من المنطقة، والزواج من ابنته لا يضمن له أسرة حليفة في المكان كما يقول، ودونها وإفهام الأم الخبيرة بأن ذلك الزواج يضمن محالفة الحاج سويلم صعاب قد لا تنجح أبدا في تخطيها، وحتى لو أنها استطاعت أن تضم الجدة إلى صف حفيدها فكيف سيكون الأمر مع الزوجتين بنتي عميه؟!، وفي النهاية كيف سيكون تصرف العمين القابعين على بعد خطوات في مضاربهما في جوار كفر عزام؟!.

لكن الأم الخبيرة – ومن حيث لا تدرى مريم – هي من يسرت عليها الأمر، فهي كعادتها في متابعة مريم في صمت أدركت أنها تظل مستيقظة طيلة الليل، وتكرر الأمر ليلة بعد ليلة، في تلك الليالي كانت مريم تبحث عن مدخل للحديث معها في الأمر، وفي الليلة التي أجمعت أمرها على مفاتحتها جاءها صوت الجدة الواهن:

– لا بد أنه أمر خطير ياابنة أخي، هذا الذى يحرمك النوم كل هذه الليالي.

عقدت الدهشة لسان مريم، وهداها تفكيرها إلى تصنع النوم حتى لا تتلعثم إذا أجابتها، لكنها سرعان ما حذرت نفسها من الاستهانة بذكاء عمتها، وحدسها الذى لا يخيب، لذا انقلبت على جنبها وواجهتها:

– لا أعرف كيف أفاتحك فى الأمر يا عمتى.

سألت الجدة منزعجة:

– أهو أحمد؟!.

تريثت مريم قليلا قبل أن تجيب:

– هو يا عمتى.

واعتدلت جالسة فوق السرير فجاهدت الأم الخبيرة لتنهض هى الأخرى، لكنها احتاجت ليدى مريم لتتمكن من الجلوس، وقبل أن تسأل عن الأمر بادرتها مريم:

– له أيام يلح فى طلب مفاتحتك فى الأمر.

وتنهدت قبل أن تردف:

– يريد أن يتزوج يا عمتى.

نطقت الكلمات فى استنكار، كانت وكأنها ستبكى، ولا تدرى ما الذى يتوجب عليها أن تفعله، وصمتت فى انتظار رد فعل عمتها، لم يأتها غير طنين الليل فى الجرن القريب، وصرير الجنادب الليلية فى الأراضى الشاسعة المحيطة، واضطرت لمواصلة الحديث:

– لى أيام أحاول أن أثنيه عن عزمه.

وبلهجة من تدافع عن نفسها أردفت:

- قلت له إن زوجتيك لا تستأهلان منك هذا، فلقد انحازتا إليك عندما اختلفت مع عميك، ورعيا قطعانك، وولدتا لك موسى وسيد احمد.

وحاولت أن تبتلع ريقها، لكن حلقها كان جافا، فاكتفت بلعق شفتيها واضافت:

- لكنه طلب أن أفاتحك فى الأمر، قال إنه يريد أن يتحالف مع أسر المنطقة، وإنه يفعل كما فعل الرسول.

وانشغلت بالصلاة والسلام على النبى انتظارا لصوت الأم الخبيرة، لكن طنين الصمت وصرير الجنادب كانا يواصلان المجىء عبر النوافذ المغلقة، والأبواب التى لا تحجب عنهما أسرار الليل.

بالقسوة الشعور الذى انتابها وهى تجلس فى انتظار كلمات الأم الخبيرة!، وباللعذاب الذى عاشته فى اللحظات التى سبقت حديثها!، لكن الأم الخبيرة كانت تمعن النظر فى داخلها، وربما تكون وهى تغوص فى الأعماق قد عادت إلى زمن بعيد كانت فى أمس الحاجة للعودة إليه، وجاهدت لتستلقى من جديد، لكنها اعتمدت على نفسها هذه المرة، وما أن تمكنت من الاستلقاء حتى أعطت مريم ظهرها وبدا أنها فى طريقها للاستغراق فى النوم.

لم يطل العذاب بمريم، جاءها صوت الأم الخبيرة كحلم قادم من بعيد، فى البدء كانت الكلمات تختلط بالطنين والصرير، حتى أن مريم انحنت

مرات لتلتقط الأحرف والكلمات، لكنها سرعان ما اعتادت الصوت الخفيض، ومن خلال الأحرف الطيفية كأنها السراب قالت الأم الخبيرة إنها تدرك الآن بوضوح أن العودة إلى ديارهم تبدو بعيدة بعيدة، وأن بعثرة أبنائها على طول الطريق من سرس حتى هنا قدر لا يستطيع أحد أن يتداركه، حتى لو قام سيد احمد "الثانى" نفسه من قبره، فإذا كان قدر حفيدها أن يؤسس للعائلة فى دار الغربة التى بلا نهاية فلتدعه يفعل.

كلمات صريحة ومباشرة، وبرغم هذا لم تشعر مريم بأى قدر من الراحة، وعلت أنفاس الأم الخبيرة لكن مريم ظلت مستيقظة، ومن بعيد جاءها صوت رجحت أنه أذان الفجر قادم من ناحية المقاطعة، وراودها الحنين إلى النوم لكنها تحاملت على نفسها ونهضت لتصلى الفجر.

عندما طلعت الشمس أصرت على أن تقدم الإفطار لعمتها بنفسها، أرادت أن تتأكد من أن الحديث الذى دار بينهما فى جوف الليل كان حقيقيا، فلقد خرجت إلى الجرن بعد أن فرغت من صلاة الفجر، وعجزت عن أن تصدق أن ما حدث كان حقيقيا، ربما يكون ابنها قد شعر بوجودها هناك، تحوم حول المخزن والحظيرة الكبيرة، لكنه آثر أن يظل فى حجرته ولا يقطع عليها إحساسها الحائر بين اليقين والهواجس.

لم تعد إلى الدار إلا مع مطلع النهار، وعندما حملت الطعام وولجت الحجرة فاجأتها الأم الخبيرة:

– لا ترددى طويلا فى إخبار زوجتى ابنك، وإذا أخبرتيهما الآن هنا وأمامى فليذهب ابنك لينهى الأمر.

انتهى كل شيء في ذلك الصباح، سقطت حورية مغشيا عليها، وحملتها سرية ووضعتها إلى جوار جدتها، تسللت اليد الخبيرة تدلك صدرها وتلقن القلب الجزع أسرار الصلابة، وعند باب الحجرة جلست سرية تقلب الأمر في عقلها المشوش، تعلم أن ما يريده أحمد لن يثنيه أحد عن إتمامه، واستشعرت للمرة الأولى حرائق الغيرة التي نهشت صدر حورية ذات يوم، والتمست لها الأعذار، ما جعلها تنهض بعد قليل لتساعد في تدليك الصدر المتوتر، ولتؤكد على أنها وحورية ستكونا يدا واحدة في مواجهة الزوجة القادمة.

لم يعلن الأمر للصهرين القابعين في مضاربهما في كفر عزام، فوجئا في إحدى زياراتهما له بالزوجة الجديدة تخطر في الدار مع ابنتيهما، ولما اختلت بهما الأم الخبيرة وأخبرتهما بأمر الزواج تركاها وانصرفا دون الاستماع إلى كلمة أخرى، ولم يمرا بابن أخيهما في الجرن ليلقيا عليه السلام، وكان أحمد قد رآهما يدخلان الدار فآثر أن يتأخر في اللحاق بهما ريثما تخبرهما الأم الخبيرة.

وها هما لم ينتظرا كثيرا في مكانهما، حملا زوجتيهما وأولادهما وغادروا إلى وجهة غير معلومة، تنفيذا للتهديد الذي سبق وأعلناه بلا مواربة، فما أن علما من صديقهما الشيخ عزام والذي صار عمدة لكفر عزام بخبر حصول ابن أخيهما على الأبعدية حتى تبخرا من المكان، ولم يُعْلِما أحدا بقرارهما، وكما تزوج أحمد بابنة التاجر الطوخي دون أن يعلمهما بالأمر، وتركهما يغضبان ولم يبال، تركاه ومضيا إلى حال

سبيلهما، دون أن يباليا أيضا بما سيلقاه في صراعه مع الأعرابي، الذى تركهما ذات يوم ليعيش في جواره.

وكان عندما قرب موعد دخوله بعروسه أن احتاج إلى الحجرة الرابعة في الدار لتكون للزوجة الجديدة، فلقد خشى إن هو أسكنها أحد المقعدين أن يزيد من جراح ابنتى عميه، لذا جلب البنائين وأقام خارج الدار مندرة(*) كبيرة للضيوف، وهى المندرة التى حفلت باجتماع العمد والأعيان الذى تقرر فيه التوجه إلى المنصورة لتصعيد الأمر إلى حاكمها، بدلا من أغا المركز الذى يقبل الرشا وتحركه الأهواء.

(*) بالرجوع إلى المعجم الوجيز الصادر عن مجمع اللغة العربية في مادة نظر وجدت كلمة "منظرة" على أنها مكان في البيت يعد لاستقبال الزائرين، ولكنى فضلت أن أسميها المندرة لأن وقعها في الأذن دارج، وأيضا فهو نوع من التنزل الذى يلم بالكاتب بين الحين والحين.

الرهائن

موعد الذهاب إلى الأغا الأكبر فى المنصورة تحدد له يوم يوافق مرور أسبوع بأكمله على يوم الاجتماع الذى انعقد فى المندرة الكبيرة، على الجانب الآخر كان الجياصى يسابق الزمن، فلقد ألقى رجاله القبض على الطباخ أبى سنة ومساعده وهما عائدين إلى السنبلاوين بعد انتهاء الوليمة. الوقت كان قرب انتصاف الليل، والدابتان اللتان تقلان الطباخ ومساعده كانتا تغذان السير وترهفان الآذان، وقبل أن يبلغا برقين فوجئا بمن يهبطون عليهما من السماء، لا يدريان من أين خرج هؤلاء الناس، ولا كيف باغتوهما، وإذ حاول الطباخ الشهير أن يُعَرِّف بنفسه جاءته ضربة أسقطته من فوق الدابة مغشيا عليه.

قبل أن يرسل إليه الأغا بخبر الشكوى التى قدمها غريمه وبأمر الذين اصطحبوه إلى هناك عرف الشيخ من الطباخ ومساعده بأمر تلك الشكوى، وعدد له الأسيران أسماء المجتمعين فى مندرة غريمه من العمد والأعيان، وتحت التعذيب والكى بالنار أدلى الرجلان بما انتهى إلى سمعيهما من معلومات عن المشوار المزمع القيام به إلى الأغا الأكبر فى المنصورة، ومع

مقدم الليل التالى حُمِل الرجلان على دابتيهما، وبعد أن تجاوزوا بهما برقين وصاروا بمحاذاة طرانيس العرب ألقوهما على قارعة الطريق وقفلوا عائدين.

خبر غياب أبى ستة ومساعده عرفه المجتمعون فى مندرة أحمد السرسى فى الصباح الباكر، فلقد أرسل ذووهما بمن يسأل عنهما، ولما تأكد للجميع اختفاؤهما أيقنوا أنهما ولا بد وقعا فى قبضة الأعرابى.

صار كل طرف يتصرف وهو عالم بما يتويه خصمه، المجتمعون فى مندرة أحمد السرسى واثقون من أن الأعرابى يعلم بانعقاد عزمهم على الذهاب إلى المنصورة، بل وإلى أبعد من ذلك إن اقتضى الأمر، وبأنهم يتدبرون أمرهم ويجتهدون ليتوقوا انتقامه، والجياصى موزع بين المبادرة بالانتقام من الذين زينوا لغريمه شكايته لدى الأغا واصطحبوه إلى هناك، وذلك حتى يعزل الفتى، ومن ثم ينفرد به وهو بلا حول ولا قوة، وبين ضرورة الانتهاء من أمر الفتى أولاً وقبل أى شىء آخر، بعملية خاطفة تنهى المعضلة من أساسها، وتقتلع المشكلة من جذرها، وما يتبقى بعد ذلك لن يكون إلا نزهة، فيها يستطيع أن ينفرد بالعمد المذكورين الواحد بعد الآخر، ومن أجل الاستقرار على واحد من هذين الطريقين يضطر إلى الحنث بيمينه - إذ كان قد أقسم على ألا يرى وجوه أخوته وأبنائه وغريمه لما يزل على قيد الحياة - فيسارع بجمعهم ليشاركوه الرأى فى المسألة التى لا تحتمل التأجيل.

وفى الاجتماع المشحون بالتوتر والغضب تختلط الرؤى، فالرغبة الحارقة فى الانتقام تتجاوز حدود العقل، وكما اضطر الشيخ إلى الحنث

بيمينه اضطر أيضا إلى التجاوز عن الرغبة فى تحطيم رؤوس المجتمعين، يغمض عينيه حتى ينزفوا آخر قطرة من أحقادهم ثم يوجه إليهم السؤال: هل يبدأ بتأديب العمد الذين زينوا الأمر للفتى أم يبادر بالانتقام من الفتى نفسه؟، والمجتمعون وقد صاروا أكثر هدوءا وعقلا يرون أن يبدأوا بالفتى، ثم ينظرون ماذا يكون من أمر أرباب الغواية، وحتى يتجنبوا شياطين غريمهم وعواقب أوراقه ومردته فليحشدوا السحرة الموجودين بالصحراء من بلبيس وحتى حدود سيناء مع الشام، وقد كان. اجتمع السحرة فى خيمة أعدها لهم الشيخ، وطفقوا يحرقون أشياء كثيرة، وفوق مساحات من الرمال يسوونها براحاتهم يرسمون نقوشا غامضة ثم يطمسونها بعد قراءة كلمات مرتبكة وأحرف بدت لسكان المضارب مسكونة بأرواح صارمة.

أما المجتمعون فى مندرة أحمد السرسى فيتوقعون كل ما يمكن للأعرابى وأعوانه أن يفكروا فيه، وحتى لا يداهمهم ينظرون فى الأمر مليا، وكما يطرح الرجل على نفسه ثم على أعوانه السؤال المتعلق بمن يبدأ الانتقام منه يطرحون هم أيضا على أنفسهم نفس السؤال: من أين سيبدأ الشيطان معركته؟، وينتهون بعد نقاشات مستفيضة إلى أنه سيبدأ بالضرب فى أضعف النقاط، ليحقق نصرا سريعا يرضى غروره ويرد هيبته التى تضررت بخروج أحمد عليه وبفشل رجاله فى النيل منه.

يقولون إنهم لو وضعوا أنفسهم فى موضع الرجل لأسرعوا بالتخلص من المشكلة الرئيسة، حتى يكون الظفر بالمعركة تاما، ولا يعود لاجتماع المجتمعين أية فائدة، ويقدرون أن يبدأ الرجل بالهجوم على صاحب

النار التى يجتمعون فيها، والهدف من الهجوم هو الإجهاز على الأسرة الجديدة بالكامل، لكنهم لا يستبعدون الاحتمالات الأخرى، فقد يبادر الشيطان بالانتقام من عمدة كفر سعد باعتباره الأقرب إليه بدرجة تثير غيظه، فالمسافة بين مضارب الشيخ وبين كفر سعد لا تتعدى بضع عشرات من الأقصاب، ووجود عمدة هذه القرية بالذات مع المحتشدين ضده عند الأغا يصيبه بجرح شديد الايلام، ويجعل صدره ضيقا لا يفرجه إلا أن يسارع بالانتقام منه ومن القرية كلها، فلا بد وأنه يخشى الآن أن يتجرأ على مقامه أهل القرية الملاصقة لمضاربه، فإذ يفعلها عمدتهم ويفلت بها فمن يضمن ألا تتكرر الفعلة من الفلاحين الزُغر، كما اعتاد أن يطلق على أهل القرى المحيطة.

لم يكونوا ليغفلوا عن غدره وطرائقه الجهنمية فى اغتنام الفرص، وبدلا من التركيز على أمر واحد يفضلون أخذ كامل الحذر، فلربما يهاجم الشيطان فى الموضعين فى وقت واحد.

فرق من الفلاحين يتقدمها الخفراء، والمشدات تتناوب الحراسة عند مداخل كفر سعد طوال الليل، ولا تغفل الحجايزة وغزالة والمقاطعة عن أن تفعل نفس الأمر، وإن بصورة أقل حدة، أما فى دار أحمد السرسى فإن نوبات الحراسة التى كانت ظاهرة يتقرر أن تكون متخفية، وكان التاجر الطوخى قد استقدم رجالا من بلده البعيد، وزودهم ببنادق وسيوف وشماريخ، وكذلك فعل الحاج سويلم والشيخ الدسوقى، فيما اكتفى الشيخ هيكل والحاج على أبو سيد احمد والشيخ اسماعيل والحاج رضوان بالمتابعة والاحتشاد من أجل المشوار القريب إلى المنصورة.

الرعب يشل تفكير النساء فى الدار المشغولة بالأغراب طوال الوقت، فرجلهم الذى لم يمض على زواجه الجديد أسابيع قليلة لا يدخل أية حجرة من حجرات زوجاته، فضلا عن حجرة الأم الخبيرة وأمه، فهو طوال الوقت مع هؤلاء الذين يقبعون فوق سطح الدار وفى المقاعد، أو الآخرين الذين يختبئون بداخل الحظيرة أو المخزن الكبير، وقد يقضى الليل بطوله مرافقا للذين يجلسون مستيقظين طوال الليل فى المندرة الكبيرة.

وبفعل الانصهار فى الأزمة تقترب شام من ضرتيها، بنتى العم حورية وسرية، لم يعد هناك محل لأن تنفذا عزمهما على التكتل فى مواجهتها، ولا يخفى على أى منهما أن جزءا من الأمان الذى يعيشونه يعود إلى أولئك الرجال الذين جلبهم أبوها من بلده البعيد، والذين يعتلون سطح الدار والمندرة الكبيرة، ولا يكفون عن تصويب بنادقهم فى الاتجاه المتوقع قدوم المهاجمين منه.

وشيئا فشيئا صارت تقوم على رعاية الصغيرين موسى وسيد احمد فيما تقوم حورية بمساعدة عمتها فى إعداد المزيد من الطعام للرجال، فهم لا يكفون عن الأكل طوال اليوم، وفيما تقوم سرية برعاية جدتها التى كانت مشحوذة الحواس بصورة مذهلة، تسمع دبيب النملة وتشعر بأطياف القادمين من بعيد، وتبكى فى السر خذلان ابنيها لحفيدها الذى توجد تحته ابنتيهما، وكثيرا ما كانت تتساءل: ماذا لو أنها لم تسمح لحفيدها بالزواج من الفتاة التى يقوم رجال أبيها على حراستهم؟!.

شعر الناس بتحركات غريبة تجرى فى مضارب الأعرابى، أفراس جديدة لا تكف عن التوافد، على ظهورها رجال غريبو الأطوار، يظلون فوق

ظهورها معظم الوقت، ولا يكفون عن التسابق والتراشق بالرماح، كأنهم داخلون في حرب، ورصد الراصدون من أهالي كفر سعد والحجايزة، ورجال من أصدقاء الحاج سويلم، وأقرباء للشيخ دسوقي من "مقاطعة" فاقوس رجالا كثيرين من الأعراب يفدون طوال الوقت من الصحراء القريبة، وجهتهم مضارب كبير قبيلتهم، ولا يعودون إلى الأماكن التي قدموا منها، وحتى إذا عاد البعض منهم فإنه سرعان ما يأتي وبصحبته المزيد من الرجال، ولما أُخبِر المجتمعون بانقطاع وفادة القادمين من الصحراء قدر المجتمعون في مندرة أحمد السرسي أن الهجوم وشيك.

تحت جنح الليل نقلوا النساء والأطفال إلى دار الشيخ دسوقي في المقاطعة، وجاهدت مريم لتظل مع ابنها لكن الأم الخبيرة نهرتها بصوتها الواهن، وطلبت منها أن تكف عن التشبه بالرجال، ولما لم تجد بدا من الانصياع للأمر سارت إلى جوار دابتها قليلا ريثما اختفت عن الأنظار ثم امتطت الدابة وانتظمت في القافلة التي خرجت في اتجاه القرية القريبة، حيث لا تبعد المقاطعة إلا مسير أقل من نصف ساعة.

طوال الطريق كانت تتحسس البندقية التي سهرت الليل لتحشوها بالحشار والبارود، فلقد أقسمت على الملأ ألا تترك ابنها وحده في مواجهة الأعرابي، حتى ولو كان المئات يحيطون به، فستكون أمامه في كل موضع، ومن ورائه وعلى الجانبين، وستلقى عنه الطعنات، و لم يساور الأم الخبيرة الشك لحظة واحدة في أنها ستبر بقسمها.

أعلن الرجل الذى بصاحب القافلة أن إحداهن تخلفت، وهزت الأم الخبيرة رأسها في الظلام، تيقنت أن مريم غافلت الجميع وعادت لتكون

إلى جوار ابنها، وما تدرى إلا وحورية تنخرط فى البكاء، وعبثا حاولت شام وسربة أن تمنعاها من الاسترسال، لكنها انخرطت إلى درجة يصعب معها إنهاء الشوط قبل بلوغ غايته، وغاية الشوط كما يعلم الجميع هو السقوط فى حالة من السكون والانعدام أقرب ما تكون إلى الإغماء.

تقول إنها وهى فى تلك الحالة تسمع كل شيء وتدرك ما يدور من حولها لكنها لا تستطيع أن تكون جزءا منه، إذ تكون فاقدة للقوة بصورة يصعب تفسيرها، فلا تقدر على تحريك ذراع أو قدم، أو حتى فتح عينيها على وجوه المحيطين.

تتمنى لو أنها عادت مع عمتها لتكون إلى جوار أحمد فى معركة حياتهم الفاصلة فى هذا المكان، ولو أنها استطاعت أن تتعلم استعمال البندقية مثلما تفعل عمتها، لكن سربة كانت تكتفى بالنظر فى الظلام وتقرأ كل ما تعلمته من أدعية، صدرها لم يكن منقبضا، وهذا يعنى أن أحمد سيكون فى أمان، وأدركت ربما لأول مرة لماذا تزوج أحمد من الطوخية، إنه يريد أن يحقق فى جيل واحد ما تحققه الأسرة العادية فى عدة أجيال، وكانت قد اقتربت من ضرتها الجديدة بصورة جعلتها تكتشف فيها الكثير من الخصال الحميدة التى يندر تواجدها مجتمعة فى واحدة من النساء.

شام تحمل معها على المطية الصغيرين موسى وسيد احمد، وتحيطهما بذراعيها وتكتم عن نفسها وعن الآخرين أعراضا غريبة انتابتها فى الأيام الأخيرة، شعور بالامتلاء، وعزوف عن الطعام، بل وتأذ من مجرد رائحته، وأخيرا ميل إلى التقيؤ عند الاستيقاظ. لم يكن لديها من شك فى أن كل

ذلك يعنى أنها تحمل فى ابن ثالث لأحمد السرسى، لكن أحداث الأعرابى وتطوراتها لم تمكنها حتى من مفاتحة حماتها فى الأمر، وهى لا تعرف كم سيسعد الخبر مريم ويهون من وطأة الأحداث التى تجرى.

وكانت مريم قد توقفت للحظات فيما الركب يمضى فى طريقه إلى المقاطعة غارقا فى ظلام الليل، وبعد قليل لم يعد يصلها منه إلا الأصوات الخفيضة التى سرعان ما تتلاشى كأنها بقايا أحلام قصيرة، فى قلب ذلك الليل البعيد رأت كل السنوات القادمة، أحفادها يجوسون خلال الأرض ويصاهرون كل الأسر المنتشرة فى القرى المحيطة، وأراضيهم الشاسعة تخرج زرعها الأخضر الجميل الذى يحيل الحياة إلى جنة حقيقية.

تعجبت من أفاعيل الخيال الذى لا يساير الحال الذى هم فيه ثم لوت عنق مطيتها وعادت إلى ابنها، ولما اكتشفوا غيابها منعت الأم الخبيرة الرجل المصاحب للركب من العودة للبحث عنها، وهناك قرب الدار أصابت الوحشة قلب مريم، فالصمت يخيم فوق المكان، وبدا كما لو أنه لا أحد هناك، لكنها تعرف أنهم يقبعون فى مكان ما، ربما وراء الحظائر أو فى أحد أركان الجرن، وتعرف أن الكثيرين منهم يعتلون سطح الدار ويقبعون فى المقاعد ومعهم بنادقهم، لذا اتجهت مباشرة إلى الدار حتى يخرج من يعترضها، وكان الخارج هو ابنها، أحمد بنفسه، قال بصوت خفيض مرتعش:

– أو عدت يا أماه؟!.

تناولت يده الممدودة وقبلتها، ثم جذبته واحتضنته بشدة، فى ذلك

الحضن قالت كل شيء، لكنها لم تشأ أن يظلا طويلا على الحال التي كانا عليها فبادرته:

- ماذا لو أرسلنا فريقا ليهاجم مضاربهم بدلا من أن ننتظر قدومهم؟!.

ولم تستطع أن ترى آثار الاقتراح على وجهه فأكملت:

- هذا يوقع الوهن في صفوفهم.

أحمد هو أدرى الناس بأمه، وإذا كانت قدمت رأيها في صورة اقتراح فإنها تعرف كيف تنفذه، وتذكر كيف أنه عند رحيل نسائه قبل ساعات تفقد البندقيتين فلم يجد إحداهما، وعرف على الفور أنها معها، وأنها ستعود لتلحق به في حربه الفاصلة مع الأعرابي، وحمد الله أنها لا ترى الدمعتين اللتين انحدرتا من عينيه وهو يستمع إلى حديثها الهامس.

لم تمر ساعة حتى انطلق فريق من الرجال متسللا تحت جنح الظلام ومتوجها إلى مضارب الشيخ ليهاجم مؤخرتهم، لم يكن أحد من كل الموجودين يقدر على مجرد الاعتراض على وجود الأم إلى جوار ابنها في تلك الساعة الفاصلة، ساعة تدشين بقاء الأسرة في المكان إلى الأبد، أو رحيلها عنه إلى الأبد أيضا، ولم تشأ أن تكون معوقة لما يقومون به فابتعدت قليلا بدعوى أنها ستكون فوق سطح الدار مع رجال صهره التاجر الطوخي، الذي كان هو وفريق آخر من الرجال يقبعون هناك عند مشارف الدار، يختبئون في المصارف التي كان أحمد قد حفرها لتمهيد قطعة أخرى من الأرض للزراعة.

كل من كان فى دار أحمد السرسى فى تلك الليلة، فوق الأسطح أو فى أركان الجرن أو عند المشارف لا يعلمون عن تخطيط الأعرابى إلا أنه سيهجم على غريمه ليستأصل شأفته، فلقد حرموا أية مساعدة تطلعهم على خفايا ما يدور هناك، فى المضارب التى تضطرم بالنار وتغلى مراجلها، منذ فشلت خطة قتل أحمد وهو عائد من زيارة قبر جدته الكبرى.

لكن اللجوء إلى التوقع وتسقط الأخبار والبحث من ورائها مكنهم من توقع الكثير من الأمور، ويكفى أنهم استطاعوا أن يرصدوا العشرات من الفرسان الذين وفدوا من الصحراء إلى المضارب، وهو ما جعلهم يؤكدون أن الهجوم المرتقب سيشترك فيه مائة رجل على الأقل، ولما لم يكن فى مكنتهم تدبير أعداد مماثلة لهم نفس الخبرة فى القتال لجأوا إلى الحيلة للايقاع بالمغيرين.

إصرار مريم على الذهاب إلى هناك، حيث المضارب الغامضة التى لا يعرفون ما يدور بداخلها فتح الباب على مصراعيه للاجتهاد، فها هم الرجال يعترفون بأن الانتظار لصد الهجوم كان فى الحقيقة موقفا سلبيا، فحتى لو بحثوا عشرات التوقعات التى يخرجون منها منتصرين فالبنادق التى فى حوزتهم لا تزيد على عشر، جمعوها من كل البلاد المحيطة، وهى إن كانت موزعة فى مناطق مختارة بدقة إلا أنها لا تكفى لصد المهاجمين.

لم يعد بوسع أحد أن يمنع مريم من فعل أى شىء، حتى الاشتراك فى القتال وإطلاق البندقية بنفسها، و لم يكن فى وسع أحد أن يرى تينك الدمعتين اللتين انحدرتا فوق وجنتيها المتوردتين، وهى تتذكر زوجها

الغالى أحمد "الأول" وهو يعلمها تعبئة الخشار والبارود وإطلاق النار، ولم يكن بمكنة ابنها وقد انشغل بدوره المحدد فى الخطة أن يتابعها أينما تذهب، لذا فإنها بعد نصف ساعة من ذهابهم كانت تقبع عند مشارف مضارب الأعرابى التى تموج بالحركة فى الظلام.

الليل بلا قمر، والسماء ابتلعت نجومها، والظلام يطبق فوق كل شىء، استقرت خلف تلة صغيرة عند مشارف المضارب، أغمضت عينيها ثم فتحتهما لتساعد على تثبيت نفسها فى المكان، وخيل إليها أنها ترى شيئا مما يجرى هناك، وفى غمرة الإحساس بالفرح أكدت أنها تستطيع أن تسمع أيضا بعضا من الأحاديث التى تدور.

أين كلابهم التى لا تكف عن النباح طوال الليل؟!، على المارين فى الطريق من بعيد، وعلى الخيالات التى تتوهمها طوال الوقت، لا بد أنهم حبسوها فى مكان ما حتى لا تفضح تحركاتهم، يا لتدابير القدر!، إنهم من حيث يريدون التمعن فى السرية يمكنون خصومهم من الاقتراب أكثر وأكثر، حتى لكأن مريم ترى بالضبط ما يفعلون، وتسمع ما يقولون، ولما عرفت أنهم أرسلوا رسلهم تحت جنح الليل ليسقطوا أخبار معسكر ابنها ضحكت، فلقد فكر الأعرابى بطريقتها، ولم يشأ أن يهاجم بلا مقدمة تدله على ما يجعل النصر سريعا ومؤزرا.

الآن عليها أن تعود لتمد ابنها وفريقه بالمعلومات الجديدة، ولكن ماذا إذا انكشف أمر عودتها، ورصدتها العيون التى لا تعرف بالضبط أين يقبعون، وفكرت فى الأمر مليا، فعودتها محتومة، وإلا ما فائدة المعلومات

التى توصلت إليها. انسحبت بهدوء صوب تل اللجة، ومن هناك قطعت الأراضى الزلقة حتى صارت عند تخوم الدار، ودارت دورة شبه كاملة حول المكان، وولجت من الطريق القادم من المقاطعة.

انطلقوا تحت جنح الليل يبحثون عن العيون التى أرسلها الأعرابى لترصد تحركاتهم، ابتعدوا عن الدار قدر الإمكان ثم اقتربوا منها من كل اتجاه حتى عثروا على أحدهم، وقبل أن يصدر عنه ما ينبه رفاقه انكبوا عليه وكمموا فمه، وفى لمح البصر ابتعدوا به عن المكان، ودخلوا به الدار من جهة المقاطعة، وبالدهشتهم عندما نظروا فى وجهه.

إنه الابن الأكبر للشيخ عبد الله، ليس أحمد فقط هو الذى يعرفه وإنما الكثيرون من الرجال المتأهبين للمعركة، ولم يكونوا فى حال تسمح بإضاعة الوقت، فلقد استخدموا معه قدرا كبيرا من القسوة ليدل على الرجال الذين معه، كانوا أربعة، وقعوا جميعا ببنادقهم فصار لديهم خمس بنادق إضافية، وكانت من البنادق الحديثة الخفيفة السهلة التعمير والإطلاق.

لم يصمد الرجال الخمسة كثيرا، فأمام أسياخ الحديد المحماة فى النار أدلوا بكل التفصيلات، فالأعرابى يقف هناك فى المضارب منتظرا قدوم أحدهم لإبلاغه بتفصيلات ما اهتدوا إليه من أمر أحمد ومجموعة العمد الذين يناصرونه، ولما كان الليل عند منتصفه فضلوا أن يخرجوا بالأسرى إلى مكان آخر، مكان يحتفظون بهم فيه، ورأوا ضرورة إخبار الشيخ بوقوع ابنه فى قبضتهم، واستقروا على إطلاق سراح واحد من الأسرى لينقل بنفسه نبأ وقوع الابن الأكبر فى الأسر.

مريم هى التى اقترحت أن يذهب الرجل فى حال تنبئ عما سيلاقيه المهاجمون إذا أقدموا، فلقد اعترف الأسرى بأن الهجوم الوشيك يستهدف حياة الأسرة بأكملها، حتى الطفلين الرضيعين، ومن يتواجد معهم من الرجال، أيا كانوا، وبتأثير من تلك الاعترافات اقترحت مريم -وكانت قد صارت وسط الرجال بلا أى تحفظ - أن يقطعوا أصابع الرجل ويشرطوا وجهه بسكين، وليتمكنوا من فعل ذلك كان لزاما أن يجثموا عليه ليمنعوا صراخه الذى علا حتى لكأنه أسمع كل القرى المحيطة.

ألقوا به قبل أن يصلوا إلى مشارف المضارب فانطلق يعدو كالمجنون، الصرخات تسبقه إلى هناك حيث ينتظر الشيخ، لقد جرى تغيير جذرى على الخطة التى وضعوها وقضوا الأيام يبحثون احتمالاتها، فها هم الآن يحيطون ببنادقهم الخمس عشرة مضارب الأعرابى الرهيب، وها هم بعد أن سمعوا بآذانهم الرجل وهو يبلغ الشيخ من خلال البكاء بما حدث يطلقون البنادق فى اتجاه المضارب، مسترشدين بالأصوات القادمة من البراح الذى يجتمع فيه الفرسان.

أصابت الطلقات البعض منهم، إذ سمعوا أصوات صراخ وصهيل خيول وهرج شديد جعلهم يعاودون الكرة، وكانوا فى هذه المرة يحكمون التصويب، آخر شيء كان يمكن للأعرابى أن يتوقعه هو أن تهاجم مضاربه، وأن يؤسر ابنه الأكبر، الفارس الذى طالما قال للناس إنه لا يشق له غبار، ولكن هذا الفارس الآن أسير لدى الفلاحين الزُغر، هؤلاء الذين اعتاد هو وكل الأعراب أن يعاملوهم باحتقار، ولعل هذا الأمر بالتحديد هو الذى كان يقتله، ويجعله غير قادر على أن يصدق ما يجرى أمام عينيه.

إطلاق النار تواصل طوال الليل، وكان المهاجمون يغيرون من مواقعهم في كل مرة، إذ ما أن تنطلق البنادق في اتجاه المضارب وفي مستوى إطلاق يتيح إصابة أي شخص أو حيوان يتواجد فوق الأرض حتى يتلقفها فريق التعمير ويبتعد بها قليلا، حتى إذا ما أعادوا تعميرها يكون الرجال قد أخذوا مواضع جديدة ليطلقوا منها.

الأعيرة التي انطلقت من المضارب في اتجاه المهاجمين طاشت كلها، وعندما اهتدى المهاجمون إلى مكان تجمع الخيول وأطلقوا النار في اتجاهها صهلت بشدة وقفزت الحواجز وانطلقت هائمة على وجوهها في قلب الليل، منها ما اهتدى إلى شوارع كفر سعد فاقتادها الناس الذين كانوا يرقبون الحرب من فوق الأسطح إلى حظائرهم، ومنها ما انزلق في أوحال الأراضي المالحة التي تحيط بتل اللجة فتخبطت في الوحل حتى طلع عليها النهار، ومنها ما اهتدى إلى فضاء التل الرحيب فسمرته الذئاب في موضعه تمهيدا للانقضاض عليه، بيد أن الخيول المتوترة الخائفة كانت تستدير طوال الوقت وترفس بأرجلها في الهواء، كأنها تطرد العواء الذي تعلن به الذئاب عزمها على الانقضاض.

مع الفجر ظهرت بوادر الهزيمة في مضارب الأعرابي، قلت أصوات البارود التي تنطلق ردا على المهاجمين، وقال أناس من الحجايزة وكفر سعد وغزالة إنهم رأوا بأعينهم عشرات من الأعراب يفرون في اتجاه أولاد صقر، وكانوا يركضون على أقدامهم بعد أن فرت خيلهم، وتمكن الناس في كفر سعد من الإمساك بعشرة من الفارين ومعهم بنادقهم فارغة، إذ كان البارود قد نفذ من جراء إضطرارهم إلى الإطلاق العشوائي الذي

ظلوا عليه حتى انبلج الصبح، فلقد ركبهم فى الظلام وهم أنهم معرضون لاقتحام المضارب فى أية لحظة، ومن ثم فإنهم كانوا يطلقون البارود عشوائيا وطوال الوقت، حتى نفذت الذخيرة.

مع طلوع الصبح استقر كل شىء، المهاجمون انسحبوا إلى دار أحمد السرسى، وبصحبتهم الأعراب الذين وقعوا فى أيدى أهالى كفر سعد، صار بحوزتهم أكثر من خمس وعشرين بندقية، وأصرت مريم على ربط الأسرى بالحبال إلى مزاود البهائم بالحظيرة الكبيرة، وتقييدهم حتى لا يتمكنوا من الفرار، وعينوا لحراستهم مجموعة من رجال الصهر الطوخى.

قوة صغيرة تتبع الأغا قوامها خمسة أفراد لا غير وصلت مع مقدم الظهر، فلقد أرسل العمد المجتمعون فى مندرة أحمد السرسى مندوبا عنهم ليبلغ بما وقع من الجياصى وعصابته، لم يرسلوا المندوب إلا مع قرب طلوع الصبح لما تأكد لهم النصر المبين، وهروب الأعراب وتشتتهم، و لم يذكروا شيئا عن الهجوم الذى قادوه على المضارب، فلقد عزموا على تصوير الأمر باعتبار ما كان يخطط له الشيخ، وعلى ذلك أبلغوا بقيام عصابة العربان بالهجوم على دار أحمد السرسى بغرض إفناء الأسرة عن آخرها، لولا أن الجيران من القرى المحيطة كانوا هناك، وتمكنوا من القبض على البعض منهم، وليوغروا صدور الحكام على الأعرابى أبلغوا بأن سبب الهجوم هو الاعتراض على الأمر العالى بمنح رب الأسرة الأبعدية المعروفة.

لم يذكروا شيئا عن مصير الابن الأكبر للشيخ والرجال الأربعة الذين كانوا بصحبته، لكن القوات التى يقودها آمر من بقايا المماليك رفضت

استلام الأسرى، وطلب الآمر الاحتفاظ بهم ريثما يصله تكليف محدد بكيفية التصرف فى شأنهم.

فى المضارب دبت الفوضى فى كل مكان، ودار الشيخ الخاصة بالحريم لم ينقطع منها الصراخ طوال الليل، فخبر تمكن الفلاحين من الإمساك بالابن الأكبر ورفاقه وقع على رأس الشيخ وحريمه كالصاعقة، فالرجل قبل أى شيء لم يكن ليصدق أن الفتى الذى قدم إليهم ذات يوم ليبحث عن علاج لزوجته، والذى تمكن بنعومة من أن يحظى بجواره ويبنى دارا ودوارا وحظائر ومناظر، هو نفسه الذى يقف الآن فى مواجهته، يقارعه، وينتصر عليه، بل ويقبض على فخر أبنائه ودرة تاجه.

ولعل هذا الشعور بالمهانة والغضب هو الذى أوقع الشيخ فى خطأ لم يكن الأغا الصديق فى السنبلاوين ليغض الطرف عنه مهما كانت صلته به، فما أن تخطت القوة الصغيرة يتقدمها الآمر المملوكى حدود المضارب متوجهة للحصول على إفادة الشيخ قبل وضع تقرير عن الحادث حتى انطلقت البنادق تهاجم القادمين فسقط الآمر مضرجا فى دمائه، ولفظ اثنان من الجنود أنفاسهما فى لحظات.

ثلاثة قتلى بينهم ضابط علوى أرداهم غضب الشيخ وغروره وتهوره، وربما لو أنه لم يفعل لما حدث ما تقوله الحكايات التى تناقلتها الأجيال.

أتصور أنهم هناك فى دار أحمد السرسى - وقد عرفوا بأمر قتل الآمر وجنديين معه - غمرهم شعور بأنهم كسبوا المعركة، فلقد تمرد الرجل ليس على أمر عال بمنح غريمه الأبعدية، ولكن على الوالى نفسه، وقتل أحد

ضباطه واثنين من جنوده، ولا يجهل المجتمعون في المندرة كيف يكون رد فعل الباشا على مجرد عصيان أوامره، بله أن يُقْتَلَ أحد ضباطه واثنان من عساكره.

في دار الشيخ دسوقي وصلت الأخبار مع انبلاج الصبح، حملها خفراء عاينوا بأنفسهم الهجوم على مضارب الأعرابي، لم تذق أعين النساء النوم حتى لحظة أتاهن خبر النصر، لكن الصغيرين موسى وسيد احمد كانا يغطان في النوم، ترعاهما شام الطوخية، المزهوة برجال أبيها، و لم تتمالك حورية فارتمت في حضن جدتها الأم الخبيرة، وبكت كما لم تبك من قبل، كانت تبكي أشياء كثيرة، تبكي اضطرارها لترك حبيبها وهو يحارب أخطر معاركه، و لم تتمكن من أن تكون إلى جواره، وتبكي فرحتها بنجاته من الخطر المحدق الذى يحيط به، وتبكي خذلان أبويها له وفرارهما من المكان إلى وجهة غير معلومة، ولما رأتها سرية تغرق في الدموع انخرطت في البكاء هي الأخرى، لكن بكاءها كان صامتا ومتدبرا، وتمنت لو تستطيع أن ترتمي في حضن جدتها هي الأخرى، لكنها لم تشأ أن تقدم على ذلك، فلقد منعها ذلك الهاتف الذى يلازمها على الدوام، ويحرمها الحق في أن تبدى ضعفها أمام الآخرين، حتى لو كانوا من أهلها.

والأم الخبيرة كانت وهي تمسح على رأس حورية تدخل في مناطق اجتهدت طوال الوقت لتغلق أبوابها، فالآن، والآن فقط، يستطيع أى خطأ يسير أن يفضح سرهم الرهيب، ويستطيع أى جندى من الجنود أن يسبر غورهم ويكشف سترهم، ويعرف أنهم هم الذين يفرون من وجه الباشا بعد أن قتلوا واحدا من أخلص رجاله.

الذى لم تعرفه الأم الخبيرة أن حفيدها فى هذا الصباح فعل ما كان كفيلا بأن يوقع قلبه فى رجليه لمجرد أن يخطر على باله أن يفعله، هو نفسه أو أحد من أفراد أسرة تواصل على مدى الأيام الهروب إلى الأمام فرارا بأرواحها، ففى غفلة من كل المتواجدين هناك فى داره وجد نفسه مدفوعا برغبة لا تقاوم فى البوح.

دوافعه كانت غامضة، حتى على نفسه، لكن شيئا فى أعماقه كان يدفعه لأن يفعل، فجنود الباشا ورجاله من كافة الرتب سيحيطون به فى الأيام القادمة، وسيمطرونه بأسئلة من كل نوع، أما الأسئلة التى ستوجه إليه والسائل فى مواجهته فيمكنه التعامل معها مباشرة، لكنه لا يعرف كيف ستكون الأسئلة التى ستجرى من وراء ظهره، وقد يفعلون ذلك أيضا مع أحد من أهله، وهذا ليس مكمن الخطر، إذ الخطر الحقيقى يكمن هناك، فى تلك الأروقة الباردة التى سيسألون فيها رجال الإدارة عنه، وبرغم أى شىء يكون قد ربط بينه وبين مجموعة العمد فى صراعهم مع الأعرابى إلا أن الحقيقة سرعان ما ستظهر جلية، لا يشوبها شك، فالفتى الرائع، هكذا سيقولون لرجال الباشا، قدم إلى المنطقة من عامين لا أكثر، وكان قريبا من الأعرابى فى البداية، حتى بدأ الصراع بينهما، وكان له أعمام فى جوار كفر عزام، لكنهم رحلوا.

لن يكف رجال الباشا عن التفتيش فى ماضيه، والبحث عن موطنه الذى قدم منه، وإذا كان للأعرابى أصدقاء من بين رجال الباشا فسيجتهدون لإثبات أى شىء ضده، وسيصلون لا محالة إلى هناك، فى سرس، حيث

لا أحد يعرف شيئا عنهم منذ غادروا، وحيث لا يعرف هو أيضا شيئا عما حدث هناك منذ رحلوا.

الأقرب إليه من العمد هو الحاج سويلم عمدة الحجايزة، وهو فى نفس الوقت الصديق الصدوق لحميه التاجر الطوخى، ومن ثم فلقد فكر أول ما فكر فى مفاتحة حميه فى الأمر، ومن ثم البوح بالسر للحاج سويلم، لكن شيئا ما لم يستطع أن يدركه على نحو واضح جعله يحجم، ربما الخجل من حميه الذى استعمله فى سوق المحلة للوقوف على أخبار المطاردات التى تلاحقهم، والخجل أكثر لإقدامه على الزواج من ابنته وهو يخفى سرا بهذا الحجم، والذى لو كان عرفه الصهر لرفض إعطاءه ابنته بغير حاجة إلى تأكيد.

نعم، لقد ارتكب فى حق الرجل خطأً لا يغتفر، وربما بالإضافة إلى ذلك خجل من الحاج سويلم نفسه، الذى وقفت علاقته به عند حد القطيعة ذات يوم لإصراره على إخفاء السر عنه، حتى وهو يطلب نصرته.

باللمأزق الذى كان يعيشه الجد القديم أحمد "الثانى" فى ذلك اليوم البعيد، وبالحيرته وهو يصرخ من أعماقه بحثا عن سبيل للخروج من الوهدة التى ألقاه فيها قدره العجيب، والذى وضعه وأسرته المكونة من خمس من النساء وطفلين رضيعين فى مواجهة حاسمة مع الحقيقة، وعلى ما يبن لى أنا الحفيد الذى ينتمى للجيل الخامس من نسله فإنه تصرف على نحو لا أملك إلا أن أقف أمامه مبهورا، بل وعاجزا عن أن أصفه بما يليق، فلقد اعترف لنفسه أن إفشاء سر بذلك الحجم وعلى ذلك القدر من الخطورة

ينبغي أن يشاركه فيه أحد، وها هي مريم على بعد خطوات منه، وهي ليست مجرد أم، إنها سليلة نوع من النساء يصعد بهن الزمان حتى أيامه الأولى، ورثت عنهن الحكمة والرزانة والتدبر، حتى صرن مضرب الأمثال في تاريخ الأسرة العريقة، وإذا كان الظرف لا يسمح بعقد اجتماع للأسرة الصغيرة يتدبرون فيه أمرهم، فإن حكيمة الأسرة وزهرتها تقف على بعد خطوات منه، بل هي على أهبة الاستعداد لبذل الروح من أجله.

حجرتها في عمق الصالة لم تضمهما منذ فترة، لكنها في تلك الليلة البعيدة ضمتهما كما لم تضمهما من قبل، أبلغها بهواجسه، وبما انتهى إليه من ضرورة أن يشاركهم أحد سرهم الرهيب، أحد يمكنه أن يصد عنهم غائلة بدت أقرب مما كانوا يتصورون، ففي أية لحظة قد ينكشف السر ويساقون إلى حيث يستأصل الباشا شأفتهم، حتى الطفلين الرضيعين.

وافقته على استبعاد صهره التاجر الطوخي والحاج سويلم، فمن جهة هم فعلا مخطئون إلى حد الإجرام في حق الرجل، ومن جهة فإن المكان الذي يتواجدون فيه لا يتبع عمودية الحاج سويلم، وإذا ما أراد رجال الباشا أن يسألوا عنهم أحدا فلن يكون سوى الشيخ دسوقي، إذ هو عمدة القرية التي تقع دارهم في زمامها.

كل الطرق كانت تصب في اتجاه الشيخ دسوقي، وتساءلا سويا: ألم يفعل من أجلهم الكثير وهم يسعون للحصول على الأبعدية؟، وتراءت لكل منهما في خياله مضاربهم عند مشارف كفر عزام، والمصير الغامض الذي تاهت في خضمة بقية الأسرة، وربما شعرا بالندم لإقدامهما على

الحصول على الأرض التى يخوضون من أجلها الحرب، والتى كانت السبب فيما هم فيه.

القرار صائب، لكن لحظة البوح بالسر قاتلة، ارتعد أحمد وهو يسقط فى براثنها، وانبثق العرق من كل مسامه حتى سقط من ذقنه، لكن المفاجأة التى كادت تقتله هى أن الرجل الذى أنصت إليه بكل جوارحه لم يندهش مما سمع، ولم تظهر على ملامحه أية تعبيرات عما يفكر فيه، وبعد أن صمت أحمد تطلع فى ملامح الرجل ليعرف مصيره، لكنه عجز عن الوصول إلى إدراك ما يدور فى داخله، وأخيرا نكس رأسه وانكفأ على إحساس هائل بالندم، وتمنى للحظات لو كان قُطِع لسانه ولم يبح بالسر، وجاءته الكلمات أخيرا محملة بشىء من المرح:

– نعرف أن من ورائك سرا خطيرا يا فتى.

وكاد يصعق:

– تعرفون؟!!.

فاجابه الرجل:

– لم يكن ذلك ليغيب عن فطنتنا.

وبعد قليل من الصمت أردف:

– لكنى لا أصدق بعد أنك أنت ذلك الفتى الذى يوجد اسمه فى جيب كل عمدة فى بر مصر.

حد السيف

الفارق بين ما حدث وما كان يمكن أن يحدث هو المبادرة التى قام بها أحمد السرسى عندما اصطفى بمشورة من أمه الشيخ الدسوقى ليفضى إليه بسره الرهيب، وبرغم اكتشافه أن معظم المحيطين به من العمد - على ما قال الشيخ دسوقى - يعرفون على نحو أو آخر أن من ورائه هو وأسرته أمرا جللا، إلا أن مبادرته بالاعتراف للرجل جعله يبذل قصارى جهده بين رفاقه ليتبنوا قضيته مع الأعرابى، حتى أنهم اتفقوا على حمايته حتى آخر لحظة.

فى أول رد على محاولة إثارة التساؤلات حول سيرته هو وأسرته من قبل أصدقاء الأعرابى فى المديرية كثف العمد الاتصالات، وصعدوا الأمر حتى بات كل مسئول فى المديرية وعلى رأسهم الأغا الكبير يفهمون الأمر على أنه فى الأساس تمرد من الجياصى ضد أوامر الباشا، وما عدا ذلك من تساؤلات حول هذا الوضع أو ذاك، أو حول هذا الشخص أو ذاك ليست سوى حواش لا يقصد منها إلا البحث عن سبيل لمنجاة الأعرابى المتمرد، الذى لم يكتف بالاعتراض على الأمر العالى والحرب ضده، وإنما

قتل رجال الباشا وضباطه، فى سابقة قد تغرى بالاتباع إذا ذهبت بغير حساب.

بناء على مشورة الشيخ الدسوقى اختبأ أحمد وراء مجموعة العمد والأعيان الذين يحيطون به، وأجابوا هم بأنفسهم وعلى رأسهم الشيخ دسوقى والحاج سويلم عن التساؤلات التى أثيرت عن أصله وفصله، وفى كل مرة تتضخم التساؤلات أو تصل إلى نقطة حرجة كانوا يعمدون إلى إثارة موضوع تمرد الشيخ وعجز المديرية عن الأخذ بناصيته، والتلويح بتصعيد الأمر إلى ولى النعم.

حفظ الشيخ دسوقى على الفتى سره، وكان عند وعده بعدم الحديث عنه حتى يبوح الفتى بنفسه، حتى صديقه الحاج سويلم، والذى لحظ فى ذلك اليوم انفراد الرجلين ببعضهما البعض، كما لحظ توتر مريم وقطعها المكان جيئة وذهابا لتحفظ على الحديث الذى يدور بين ابنها والعمدة خصوصيته وسريته، اقول حتى الحاج سويلم لم يشأ أن يضع الشيخ دسوقى فى موضع الاختبار فيما يتعلق بذلك السر الذى جمعه بالفتى، وعندما فاتحه صديقه التاجر الطوخى فى الأمر وأفضى إليه بشكوكه حول زوج ابنته، تلك الشكوك التى تضخمت لديه يوما بعد يوم، وشعر من بعدها بفداحة الجرم الذى ارتكبه فى حق ابنته، اكتفى الحاج سويلم بطمأنته، مذكرا إياه بأن دار الفتى وأرضه يقعان فى زمام عمودية الشيخ دسوقى، وأن الأمر لا يخرج عن ذلك، وسيظل الحاج سويلم على عهده بعدم التطرق إلى ذلك السر لأعوام عديدة، وربما يكون قد رحل قبل أن يعرف حقيقة أحمد والسر الذى يخفيه.

شيئا فشيئا صار الشيخ دسوقي هو الذى يتولى الإجابة عن أحمد فى كل ما يوجه إليه من أسئلة، وكذلك فعل الحاج سويلم، ومجموعة العمد الذين اجتمعوا فى مندرة أحمد السرسى، ليتدبروا أمر الخلاص من الأعرابى الذى عاث فى منطقتهم فسادا.

وفى تدبير لا تنقصه الحكمة وجد المأسورون أنفسهم يُحْمَلون على أجنحة الليل معصوبى الأعين، من مكان إلى مكان، ومن بلد إلى بلد، حتى استقروا نهائيا فى دار أحد أصدقاء الشيخ عزام فى قرية شبراهور القريبة من السنبلاوين، وهناك عرف الرجال الذين يحتجزونهم أن الثلاثة المأسورين مع بكرى الأعرابى هم أبناء إخوته، وحالهم لدى الأعرابى لا يقل عن حال ابنه.

لكن الرجال العشرة الذين عرف الأغا بأمرهم، والذين وقعوا فى أيادى أهالى كفر سعد ظلوا حبيسى الحظائر مربوطين إلى المزاود، يتناولون طعامهم وشرابهم كما تفعل البهائم، أيديهم مقيدة وراء ظهورهم وأرجلهم مصفدة إلى بعضها البعض، ومشدودة إلى أوتاد غرست فى مواضع متقابلة تمنعهم من الحركة فى أى اتجاه.

المتطفلون على أسرار معسكر الأعرابى قالوا إن الرجال الذين بقوا إلى جوار الشيخ رحلوا تحت جنح الليل، و لم يبق معه إلا أخوته وأبناؤهم، فضلا عن النساء اللاتى كن يفتتحن النهار بصراخ غريب يشبه الزغاريد، ويستقبلن الليل بنحيب مصحوب بلطم الخدود وحمل التراب فوق الرؤوس، ولما كان ذلك الأمر يفت فى عضد الرجال القليلين الذين بقوا من حوله، فإن المتطفلين قطعوا فيما نقلوه من أخبار بأن الشيخ كان فى

كل مرة تنطلق فيها تلك الصرخات يسـتل كرباجه السوداني ذا الأطراف المتعددة المسـقية بالزيت ويهبط به على وجوههن وظهورهن وأكتافهن، ولكن كل ذلك لم يكن ليثنيهن عن إتمام المراسـم التي يفتـحون بها النهار ويسـتقبلون بها الليل.

الوسـاطة حملها الشيخ أبو كريمة عمدة كفر سعد، أرسل الأعرابي في طلبه فلم يشأ أن يسـتشر أحدا من رفاقه من العمد، حتى لا يثنيه، توجه إلى مضارب الأعرابي، لا يصحبه في مشواره إلا أحد مشايخ البلد وخفير يضع في كتفه بندقية قديمة.

استقبلته النسوة بالزغاريد الصراخية والتراب الذي ينثرنه فوق رؤوسهن، وفي الخيمة الكبرى وجد الشيخ ليس كما رآه من قبل، كان في السـابق يتكيء على مسـاند من القطن ويمد رجليه في وجوه القادمين أو الجالسـين في حضرته، لكنه هذه المرة يجلس متربعا ويداه معقودتان فوق بطنه الضخم، وشاربه متدل، فمنذ أنهى إليه رجله خبر الإمسـاك ببكريه وأبناء إخوته أهمل هندامه.

كلابه لم تكن هناك لتمارس هوايتها في النباح وقطع المشاوير الاستعراضـية حول الأسيجة، والأفراس المطهمة التي تزهو بنفسـها وبالفرسان الذين يمتطون ظهورها ممنطقين بأحزمة جميلة وعلى أكتافهم بنادقهم المتأهبة للانطلاق لم تكن هناك أيضا، ففي ذلك اليوم البعيد كانت مضاربه بائسـة.

الأعرابي الجالس متربعا ويداه معقودتان فوق بطنه العظيم انطلق يذكر

العمدة بما فعله من أجل أهل المنطقة، فهو من يوم أتى إلى المكان امتنع اللصوص عن مجرد التواجد فى محيط كل القرى التى يشملها بحمايته، وهو الذى جعل من منطقتهم مكانا معروفا للحكام، وهو الذى لم يتوان عن نصرة كل من لجأ إليه، حتى ذلك الفتى المداهن الذى استغل جواره ليسرق أرضه، وها هو يحتجز ابنه البكرى وأبناء أخوته، ورجالا من قبيلة هو شيخها أبا عن جد.

والعمدة الذى جلس دون أن يمد يده للجالس هناك فى عمق الخيمة انتظر حتى انتهى الرجل من إلقاء خطابه وسأل فى اقتضاب:

- والمطلوب؟!.

لكن الأعرابى تجاهل السؤال وواصل النسج على المنوال، تساءل كيف يقدر ولد يمكنه أن يسحقه بإصبعين لا غير على أن يضحك على ذقون عمد فى حجم الحاج على أبو سيد احمد والشيخ هيكل والحاج رضوان والشيخ دسوقى والحاج اسماعيل، فضلا عن الشيخ عزام، وأيضا ذلك الرجل الذى رسموه عمدة وهو لا يصلح حتى لأن يكون مشدا، يقصد الحاج سويلم، وتساءل:

- ألا تعرفون أن هذا الولد غامض هو وأهله، وربما يكون هاربا من وجه الحكام؟!.

وأردف قبل أن يفتح العمدة فمه:

- ألم تسألوا أنفسكم أين ذهب ذووه الذين كانوا فى جوار الشيخ عزام؟!، ألم تسألوا أنفسكم لماذا فروا؟!.

وصمت، لكن أبا كريمة ظل على صمته هو الآخر انتظارا للمزيد.

الأعرابى يغلى كمرجل، بطنه العظيمة ترتج من فرط الغضب، وصدغاه ينتفخان كأن وجهه سينفجر، وإذ يحلق فى وجه أبى كريمة ينتظر إجابة تفتح بابا للحوار أعاد عليه العمدة السؤال:

- والمطلوب؟!.

- أريد ابنى، وأبناء إخوتى، أريد رجالى لا ينقص منهم أحد.

أبو كريمة يعرف أن الرجل ليس فى حال تمكنه من وضع الشروط لعودة أسراه، وأن المسألة فى كل الأحوال ليست إلا مسألة وقت، فلقد أخذ رجال الأوجاقلو الضابط والجنديين القتيلين وذهبوا بهم إلى السنبلاوين، ولن تمر ساعات حتى يعودوا بعتادهم، وحسبما يرى فإن الأعرابى الذى يتصنع التماسك لم يعد معه من يعين على منازلة رجال الباشا، لذا فضل أن يوجه للرجل سؤالا ثانيا:

- وماذا تراك فاعلا بشأن مقتلة الضابط والجنديين؟!.

وصرخ الرجل فى وجهه:

- وما شأنك أنت يا بوز الإخص؟.

الكلمات خرجت من فم الأعرابى فى غير تبصر، وأبو كريمة الذى يجلس غير بعيد أضمر فى نفسه شرا، ولكنه بعد هنيهة رأى أن ينصرف بغير أن يشتبك معه، فلقد أدرك حجم الخطأ الذى ارتكبه فى حق نفسه وفى حق قريته، بل وفى حق زملائه من العمد الذين تعاهدوا على نصرة الفتى، ليس من أجله فى المقام الأول، ولكن من أجل أنفسهم وقراهم.

خشي أن يحتجزه الأعرابي هو ومن معه ليقايض به ابنه وأبناء أخيه ورجاله العشرة المحتجزين في حظيرة غريمة، وهو إذا فعل لن يمنعه أحد، فالبندقية التي تقبع فوق كتف الخفير لا تجدي شيئا، فمن تبقى لدى الأعرابي من رجال يحيطون بالخيمة من كل اتجاه، بل إن الكثيرين منهم يجلسون في معيتهم، أو يقفون من حولهم داخل الخيمة، ولا أمل في الخروج إلا بالحيلة، وهو مشهور بها بين كل رجال المنطقة، والأعرابي يعرف ذلك، لذا رأى أن يبلغ الأعرابي بأن احتجاز الرجال العشرة هو بأمر من رجال الأغا، وعاد الأعرابي يهدد:

- سأحرق بلادكم من أول بيت وحتى آخر عشة.

ويهدر:

- سأقتل كل نفس فيها.

ويواصل من أعماقه التي تصعد مع بطنه:

- سأجعل من حياتكم مأتما لا ينتهي.

.بمكنة أبي كريمة أن يتسم ليعطي الانطباع بعدم اكتراثه بالتهديد الذي ينطلق في وجهه مصحوبا برذاذ هادر كأنه المطر، لكنه .بما جبل عليه من سعة حيلة أطرق إلى الأرض، واغتنم لحظة صمت كان الأعرابي يبتلع فيها ريقه وقال:

- حتى لا يخيب مسعاى يستحسن البدء بولدك ورفاقه.

كل دقيقة تمر كانت تؤكد لأبي كريمة أنه اخطأ على نحو لا يغتفر، صحيح أن رجال قريته يحيطون بالمضارب، لكنه ورجليه الآن في قبضة

الأعرابى، ولا سبيل للخروج إلا بحيلة عظيمة، حيلة تجعل الأعرابى وكأنه خرج ظافرا من اللقاء.

خبرته بالأعرابى هى التى أنقذته، بدأ بأن لوح له بإمكانية إطلاق سراح ابنه البكرى وأبناء أخوته، ثم راح يعمل على أن يجعل من الأمر كما لو أنه فى متناول اليد، وقال كأنه يدخل فى مفاوضات معه:

– ومن يضمن ألا تنتقم من الفتى بعد ذلك؟.

فاندفع الأعرابى غاضبا:

– وما شأنكم به؟!، انفضوا عنه فيعود كل شىء إلى ما كان.

مضى الرجل فى الطريق الذى تمناه أبو كريمة، وها هو يلوح بإمكانية التصالح مع العمد شريطة أن يتخلوا عن الفتى، لكن العمدة الذى اشتهر بالحكمة أبى إلا أن يواصل الشوط مع الأعرابى حتى نهايته، فقال فى حرج متصنع:

– ولكنك بهذا توقعنا فى حرج كبير يا شيخ العرب، فلقد أعطينا الفتى كلمتنا.

الغضب يكاد يذهب بعقل الأعرابى، فهو لم يمر من قبل بمثل ما يمر به فى هذه اللحظة، وهو لأول مرة فى حياته يواجه الهزيمة، لكنه لا يواجهها مع الحكومة أو الوالى، أو حتى مع قبيلة معادية، وإنما مع واحد من الفلاحين الزعر كما يسميهم، والعمدة الذى يحاوره ليس هو الآخر إلا فلاحا أزعر لا يساوى أدم نعجة نافقة من نعاجه، ولكنه يضطر

اضطرارا لإطالة أمد الحديث معه ليطلق أبناءه المأسورين، وقال وهو يكتم غضبه في كرشه الضخم:

- بإمكانكم أن تلحسوها.

وسرعان ما أوضح:

- تلك الكلمة التي أعطيتموها له.

ثم استدرك بعد قليل من الصمت:

- إلا إذا حمل أرامله ورحل عن هنا.

واغراه صمت أبي كريمة بأن يضيف:

- ساعتها لن يكون لي معه ثار.

وأمعن النظر في عيني العمدة:

- ولا معكم.

في ذلك اليوم البعيد دار النقاش بين الرجلين واحتدم، الأعرابي يفرض شروطه للعفو عن الفتى والعمد الذين يناصرونه، وأبو كريمة يمتصه حتى آخر قطرة، ويمد له حبل الحديث حتى يخرج كل ما في داخله، وقرب نهاية الحديث كان النصر ماثلا أمام عيني الأعرابي حتى أن أبا كريمة سأله مختتما الحديث ومتأهبا للانصراف:

- أهناك شيء آخر يا شيخ العرب؟.

فأجابه الأعرابي:

- إطلاق رجالي العشرة، وتغريم الفتى مقابل خيولي التي فرت وسرقها

الزعر في القرى المحيطة، وأغنامي وأبقاري التي نفقت من جراء إطلاق النار على مضاربي.

وانصرف أبو كريمة دون أن يصافح الأعرابي، مكتفيا بإلقاء السلام.

لم يصدق أبو كريمة ورجلاه اللذان يرافقانه أنهم يخرجون بالفعل من المضارب الغاضبة، وفي كل خطوة يخطونها كانوا يتوقعون شيئا ينال منهم، فعهدهم بالأعرابي أنه غادر، لكنه تركهم يمضون، فلقد كانت الأماني ماثلة أمام عينيه، وكأن أبناءه عادوا إليه بالفعل، وخشي أخوته ورجاله الذين حضروا النقاش أن يراجعوه فيما يفعل، فهم وحتى اللحظة لم ينسـوا أن فشلهم في قتل الفتى يوم أن كان عائدا من الحجايزة بعد زيارة قبر جدته هو الذي أوصلهم إلى ما هم فيه.

خيم الصمت على العمد المجتمعين في مندرة أحمد السرسي، ومن كان غائبا منهم أرسلوا في طلبه فجاء على الفور، وبرغم إنكارهم على أبي كريمة تصرفه إلا أنهم لم يقفوا كثيرا عند ذلك، فرحمة الله أبقت عليه وعلى رفيقيه حياتهم وحريتهم.

وصلت إلى مسامعهم معلومات حول استدعاء الأعرابي للتحقيق معه بمعرفة الأغا مدير المديرية، بناء على أمر من الجناب العالي إلى المدير في صورة "معية تركي"(*) لا يحتمل أي لبس، ولا بد أن تكون تلك المعلومات قد وصلت إلى الأعرابي أيضا، وفسر لهم تهاونه مع أبي كريمة

(*) كانت أوامر الوالي المكتوبة في ذلك الوقت تسمى "معية تركي" باعتبار أن التعبيرات العثمانية لما تزل تطلق على كل شيء، وبعد أن حصل ولاة أسرة محمد علي على لقب الخديوي صار الأمر المكتوب يسمى فرمانا.

كل شيء، فأصدقاء الأعرابى وبخاصة صديقه الأغا فى السنبلاوين أعلموه بما جرى ليتدبر أمره.

قالوا إن تصرف الأعرابى لا يخرج عن احتمالين، فإما يفر بمن تبقى معه من الرجال فى اتجاه الصحراء، تاركا مضاربه وأراضى عهدته الشاسعة التى يزرعها من أجله الفلاحون سخرة، وإما أن ينتظر ويماطل حتى يحرر أبناءه، وفى الحالة الثانية فإنهم لا يأمنون تصرفه اللاحق، إذ قد يلجأ بدافع الانتقام إلى مهاجمة قرية من القرى المحيطة وهو ينسحب، ليعمل فى أهلها القتل، ويحرق دورها وينهب دوابها ومخازنها كما اعتاد أن يفعل فى بداية عهده بالمكان، قبل أن يستقر به المقام ويتحصل على الفردة من كل القرى المحيطة بغير قتال.

يعرفون أن المديرية بكل هيلمانها لا تختص بتأديب العربان، وكل ما يمكن عمله تنفيذا لأمر الجناب العالى هو الإرسال فى طلب الرجل للتحقيق معه فى المنصورة، لا أكثر، فإذا امتنع أو ماطل لا يمكن إجباره على المضى معهم، فلقد سبق وأمر محمد على باشا بتشكيل قوات خاصة لردع وتأديب العربان، وكان هدفه من ذلك إقرار الأمن فى الريف المصرى، بمقاومة اعتدائهم على الفلاحين ونهب دورهم وغيطانهم، وبموجب أمر منه تشكلت قوات غير نظامية فى مجموعات يطلق على كل منها لفظ "أوردى"(*)، كل "أوردى" يتكون من حوالى مائتين إلى أربعمائة جندى، ويرأسه قائد تركى يسمى "سرسوارى"، وجميع تلك القوات من راكبى الخيول المسلحين بالبنادق والسيوف، تصاحبهم عند الضرورة مجموعات

(*) تحريف لكلمة "أوردو" أى جيش باللغة التركية.

من رجال المدفعية، بمدافعهم المحمولة على عربات، ومن المشاة المسلحين ببنادق جديدة بعد تدريبهم على النظم الحديثة للحرب.

بل إن شئون العربان بصفة عامة – وليس أمر تأديبهم فقط – أحيلت بموجب إجراءات اتخذها الباشا إلى "سرسوارى أوردى الباشبوزوق" الذى يعسكر فى المديرية قرب المنصورة، ومن ذلك الوقت لم يعد لجهات الإدارة اختصاص بشئون العربان، حتى ولو وصل التمرد إلى حد القتل، فالسرسوارى فضلا عن قيادته للأوردى المختص بتأديب العربان يعد حاكما لعربان المديرية التى تعسكر فيها قواته.

الكل على علم إذن بأن الوقت لا يزال ممتدا أمام الأعرابى لينا ور كما يريد، فأصدقاؤه فى المديرية وفى مقر الكشوفية فى المركز يعلمونه بكل شيء أولا بأول، والجميع بمن فيهم الأعرابى نفسه يعلمون بأمر تلك الغارات التى شنتها قوات الأوردي‌ان لضبط عربان قبيلة أولاد على الفارين إلى درنة، وتلك التى استهدفت مقاومة الحركات العدائية التى أبدتها قبيلة الجليلات فى بنى مزار، وما حدث من تلك القوات كذلك عندما هاجمت عربان جهمة وأدبتهم واقتصت منهم لتكرار تعديهم على الأهالى.

لكن الأمر بتحريك تلك القوات لا يتم إلا بأمر من الباشا شخصيا، فمهما تحددت المهام وتشكلت لتنفيذها القوات فإن محمد على باشا ظل يحتفظ بكل خيوط اللعبة فى يده، حتى لا يلحق بالأعراب الأذى دون وجه حق، هكذا قال، ويكون ذلك سببا فى إثارتهم ومن ثم شق عصا الطاعة عليه، والجياصى يعلم باليقين أن الإدارة عاجزة عن فعل أى شيء حياله، فرأس الذئب الطائر فيما حدث بخصوص نهب قبيلتى الحرابى

والهنادى(*) دون إذن من الباشا بنفسه يشل أى قدرة للإدارة على فعل أى شيء.

لا مفر إذن من أن يلاعبوا الأعرابى أياما حتى تنطلق من معسكراتها جنود أوردى الباشبوزوق يتقدمهم الأغا سرسوارى، وهو لن يتحرك إلا بعد أن يكتب مدير المديرية للباشا بامتناع الأعرابى عن المثول أمامه للتحقيق، فى واقعتين محددتين أثبتا فى المكاتبات المتبادلة، التمرد ضد أوامر الجناب العالى بمنع الأبعدية لواحد من رعاياه وقتل ضابط وجنديين من ضباط وجنود الجناب العالى، بقصد مصمم عليه.

الوضع فى البلاد متوتر إلى أقصى حد، ومحمد على باشا يقف عند الحافة تماما، فإما يتحقق ما خطط له بإنشاء ملك تكون قاعدته مصر، يتبعها السودان والأراضى التى فتحها فى الجزيرة العربية والشام، والعراق إن أمكن فتحه، وإما ينهار البناء الضخم فوق رأسه، فبرغم أنه لم يتكلم العربية أبدا إلا أنه وبتفكير عبقرى وجد أن وحدة التاريخ واللغة والدين تربط تلك البلدان بما يرشح لنجاح امبراطورية تنشأ منها معا. الشام فى نظره أهم تلك البلدان جميعا لمصر، فحدودها الشمالية عند جبال طوروس تعتبر حاجزا طبيعيا بين الكتلة العربية التى يحلم بتكوين امبراطوريته منها وبين الدولة العثمانية، فضلا عن تطلعه إلى موارد الشام من أخشاب وزيوت ومعادن. إما يكون له ما أصبح فى متناول يديه ولا ينقصه إلا

(*) فلقد حدث أن قامت بعض الأوجاقات بمهاجمة قبيلتى الحرابى والهنادى لتأديبهما دون أن يكون الهجوم بأمر من الباشا شخصيا، ووصلت أخبار الهجوم إلى مسامع الباشا فأجرى محاكمة لقادة تلك الأوجاقات ووصلت العقوبات إلى حد إعدام بعضهم.

المزيد من الجسارة والعمل الدؤوب، وإما الأخرى، وهو ما لن يسمح بحدوثه أيا كانت التضحيات، وهو طوال الوقت لا يغفل عن أن أهم شيء في المعادلة حتى ينطلق إلى هدفه بنجاح هو استتباب الأمن في مصر، قاعدة إمبراطوريته المرتقبة.

شهور العسل بينه وبين الباب العالى ولت إلى غير رجعة، والعداوة بينهما أمست حقيقة يدركها العالم كله، فلقد استغل حاجة السلطان العثمانى إلى إخماد ثورة الوهابيين فى نجد والحجاز بعد فشل ولاته فى الشام والعراق فى إخمادها، وأرسل قواته إلى هناك حيث نجح فى القضاء على الثورة باسم السلطان، وفعل نفس الشيء وأكثر فى مواجهة الثورة التى اندلعت ضد الحكم العثمانى فى عموم اليونان، وعلى الأخص فى شبه جزيرة المورة مهد اليونانين الأصليين، ووصلت انتصارات قواته فى المواجهات إلى حد الاستيلاء على أثينا ومحاصرة بقايا الثوار الذين كان الأوروبيون المتطوعون يقاتلون فى صفوفهم، ولكنه فى النهاية لم يحظ بامتنان مخدومه ورضاه فى نهاية الأمر.

وكانت معاهدة لندن بين روسيا وانجلترا وفرنسا فى العام 1827 قد استبقت الأحداث ونصت على فصل اليونان عن الدولة العثمانية نهائيا، على أن تبقى للباب العالى عليها السيادة الإسمية فقط، ولما رفض السلطان أرسلت الدول الثلاث أساطيلها إلى شواطئ اليونان استعدادا للتدخل بالقوة، وحاصرت الأساطيل الثلاثة خليج نفارين حيث كان الأسطولان المصرى والعثمانى راسين فى مياهه، وفجأة وعلى غير استعداد حدث الصدام، وتمكنت الأساطيل الثلاثة من تحطيم الأسطولين، المصرى والعثمانى.

السلطان الغاضب مما حدث لأسطوله أسرع ودعا المسلمين للجهاد، ورحبت روسيا بإعلان الحرب الدينية، ووجدتها فرصة لتنال مأربها في أملاك الرجل المريض، ودخلت قواتها على الفور إلى بعض الأملاك العثمانية المجاورة لها، وحتى لا تنفرد بالتدخل العسكري والتهام الكعكة وحدها سارعت كل من انجلترا وفرنسا إلى التدخل، فنزلت القوات الفرنسية في شبه جزيرة المورة، فيما وصل الأسطول الانجليزي إلى مياه الإسكندرية لتهديد محمد علي في عقر داره حتى يأمر بانسحاب قواته من المورة، وكان السلطان قد طلب من محمد علي أن تشترك قواته مع القوات العثمانية في صد الغزو الروسي.

لكن موقف محمد علي كان حرجا، فلقد تحطم أسطوله في نفارين، ولا قبل له بمواجهة القوات الروسية والفرنسية في وقت واحد، وإذ وجد أن الحكمة تقتضي أن يبتعد عن مشكلة المورة أمر ابنه إبراهيم بالانسحاب من تلك الجبهة، والجلاء عن كل بلاد اليونان، وصعد الخلاف الذي كان شبه كامن بينه وبين السلطان العثماني إلى السطح.

بالبناء على وعد سابق من الباب العالي طلب محمد علي تعويضا عما تكبده من خسائر جسيمة، لكن السلطان الحاقد على واليه لم يبر بوعده، ولم يمض طويل وقت بعد الجلاء عن المورة حتى أتاح عبد الله والي عكا الفرصة التي كان ينشدها محمد علي لغزو الشام، بذريعة رفضه تسليم آلاف المصريين الفارين من التجنيد، أو المهاجرين بأموالهم فرارا من دفع الضرائب أو المصادرة، وكانت حجة والي عكا أنهم رعايا الدولة العثمانية، وأنهم أحرار في الإقامة في أي أرض من أراضي الدولة.

رفع والى عكا شكواه من تهديد محمد على إلى السلطان العثمانى، وأمره السلطان بعدم الاذعان للتهديد فزحفت القوات المصرية بقيادة ابراهيم باشا فى اتجاه الشام، وصدر الأمر الشاهنشاهى بتعبئة القوات العثمانية، وأثناء حصار القوات المصرية لعكا أصدر السلطان فرمانا بعزل محمد على من ولاية مصر، لكن القوات المصرية كانت قد تقدمت كثيرا، ودخلت دمشق وحمص وحماه وحلب بعد أن ألحقت هزائم قاسية بالقوات العثمانية.

وقبل أن يلتقط السلطان أنفاسه عبرت القوات المصرية جبال طوروس إلى آسيا الصغرى، وتقدمت فى الأناضول حتى وصلت إلى قونيه، وعند أبوابها وقع صدام مروع منيت فيه الجيوش العثمانية بهزيمة حاسمة، و لم يعد أمام الجيش المصرى إلا أن يسلك الطريق المفتوح إلى الآستانة، لكن محمد على رأى أن يوقف تقدمه عند كوتاهية.

بقى الجيش المصرى يواجه حرب استنزاف طويلة، فالسلطان يغضبه أن ينتصر عليه أحد ولاته، والقوى الأوروبية مجتمعة وبخاصة انجلترا ترفض رفضا باتا أن تنشأ الامبراطورية التى يأمل فيها محمد على، لكونها تقف حجر عثرة فى طريق الاستيلاء على أملاك رجلها المريض، وأيضا لأنها تشكل تهديدا حاسما لمصالح انجلترا فى الهند بتحكمها فى طريق التجارة إليها، وفى مياه البحر الأحمر التى يعج بسفن شركة الهند الشرقية.

هل كان الأعرابى عبد الله الجياصى يراهن على أن الباشا فى مثل هذا الظرف الدقيق لن يقدم على إغضاب قبائل محاربة مثل قبائل السعدنى كى لا يعودوا إلى الإغارة على قوافل التجارة الإنجليزية وهى فى طريقها إلى

السويس حيث تنتظرها مراكب شركة الهند الشرقية؟، أظنه كان يفعل، فعدم اكتراثه بما ينتظره ينبئ عن فهم للظرف الذى تمر به البلاد ويمر به الباشا، بالإضافة إلى غروره، ورفضه تصديق هزيمته أمام مجموعة من الفلاحين الذين يفتقرون إلى الإلمام بأبسط قواعد القتال.

والأيام توالت، فلا الأعرابى ذهب للتحقيق تلبية لنداء الأغا المدير، ولا قوات أوردى الباشبوزوق يتقدمها الأغا سرسوارى كبست مضاربه، وتواصلت مفاوضات إطلاق سراح أبناء الأعرابى ورجاله بغير انقطاع، وإن عن طريق آخر غير طريق العمدة أبى كريمة.

وشيئا فشيئا خفت الأرجل عن دار أحمد السرسى، وبعد أن كان الناس يكتفون بالقدوم مع مقدم الليل ويقضون شطرا من الليل معه صاروا لا يأتون إلا لماما، أو عندما يُرْسَل فى طلبهم.

أحمد كان أول من تنبه إلى ما يدور، فالأعرابى الذى كان ملهوفا من قبل على أبنائه ورجاله صار يسوف فى المفاوضات هو الآخر، بل إنه دأب فى الأيام القليلة الأخيرة على إثارة موضوعات هامشية من مثل بحث أثمان بقراته ونعاجه، أو الاختلاف على الثمن الذى حدده أحمد لمهرته الصهباء، فى الحقيقة كان الأعرابى يراهن على الوقت، وعلى انفراط عقد الاجتماع الذى أدى إلى هزيمته فى تلك الليلة، وهذا بالضبط ما نبه أحمد إلى أن الأعرابى يستثمر الوقت، لكنه كان خجلا من مناقشة الأمر مع الشيخ الدسوقى أو الحاج سويلم، فكأنه إذا فعل يدعوهم إلى الدخول فى حرب ثانية مع المضارب التى تعاود الاحتشاد بالفرسان، والذين سبق وفروا من ساحة المعركة فى الليلة الشهيرة.

ومريم التي كانت أقرب إلى ابنها من نفسه أدركت كل همومه، فهو لا يش لها ولا لجدته الأم الخبيرة كما اعتاد في كل وقت، حتى في أحلك الظروف، وبادرت من تلقاء نفسها بمفاتحة الحاج سويلم في الأمر، كان معزوما على الغذاء لديهم هو والصهر الطوخي، وبعد أن فرغا من تناول الطعام قدمت للموضوع بالتعجب من قدرة الأعرابي على الصبر على فراق ولده البكري وأبناء إخوته، فضلا عن رجاله من أبناء قبيلته، ولما انخرط الحاج سويلم في الضحك من الأعرابي المهزوم حذرته:

– الأعرابي يراهن على من سيضحك أخيرا.

فانسحبت ضحكات الرجل إلى داخله، وران الصمت على المكان.

خبرة الحاج سويلم معها تدعوه إلى أن يأخذ حديثها على محمل الجد، فالكلمات التي قالتها توحي بأنهم نسوا المعركة، وما جعله يهتم لحديثها بأكثر مما توقعت هي أن الشيخ عزام نقل إليه في الصباح قلق أصدقائه في شبراهور من استمرار تحفظهم على الرهائن لديهم، هذا فضلا عن أن أحدا من الحكام لم يرسل في طلب الرجال المربوطين لما يزالون في الحظيرة، وهو ما يعني أن مؤامرة من العيار الثقيل تحاك في الخفاء، ومرور الوقت قد يجردهم من أسلحتهم فلا يعود لديهم شيء يفاوضون الأعرابي عليه.

ما زاد من حدة الأمر أن أحمد سمع في جوف الليلة السابقة حديثا دار بين رجلين من رجال صهره التاجر الطوخي، كانا يعتليان سطح الحظيرة ويتناجيان، ولا يدريان بأن أحدا يسمعهما، وكانا يتساءلان: إلى متى يظلون هنا، وعن قلقهما على أهليهما هناك في بلدهم البعيد، ساعتها تمنى لو تنشق الأرض وتبتلعه فلا يعود موجودا في الحياة، فهو لم يكتف

بالتغرير بصهره، وإنما ورطه فى حرب لا ناقة له فيها ولا جمل، وليته صارحه بحقيقته، إذن لكان قراره بالوقوف إلى جواره ونصرته مبنيا على معلومات حقيقية، لكنه أخفى عنه كل شىء، وتزوج من ابنته بناء على غش لا يمكن إنكاره.

وكان رجال من كفر سعد ممن يعملون فى إصلاح أرض الأبعدية قد أنهوا إليه أن رجال الشيخ الذين فروا من الميدان يعودون، فرادى وجماعات، محملين ببنادق جديدة ويعتلون خيولهم، صحيح أنهم لا يعودون إلا فى جوف الليل، لكنهم يحتشدون فى المضارب حتى أنها عادت إلى الحياة والنشاط بصورة ملحوظة، ولدى أول بادرة للتمرد أوقع الشيخ عقابا قاسيا على الفلاحين الذى يزرعون أراضيه الشاسعة، غير آبه بالقرى المحيطة وبعمدها الذين تجمعوا ضده منذ أيام قليلة ثم انفرط عقدهم.

كل تلك الحقائق وضعوها على بساط البحث فى اجتماع ضيق ضم الشيخ دسوقى والشيخ أبا كريمة إلى جانب أحمد السرسى والحاج سويلم والتاجر الطوخى، وابتعدت مريم عن الاجتماع إذ لم يعد ابنها فى حاجة إلى سعيها، فهى فتحت الباب وأزالت عنه حرج البداية، وهذا يكفى.

فى ذلك الاجتماع اتخذوا قرارات هامة تتعلق بمستقبل وجود الأعرابى بين ظهرانيهم، فالحقيقة التى اعترفوا بها – المجتمعون منهم والغائبون – أن الهجوم الذى قادوه ضد مضارب الشيخ لم يكن بهدف نصرة الفتى الذى اختار العيش بينهم وفقط، بل هو فى الجانب الأكبر انتقام مما فعله بهم الأعرابى على مدار سنين طوال، إذ له فى المكان أكثر من خمس عشرة

سنة، على مدارها فعل بهم كل ما يمكن ان يتخيله إنسان، وما لا يمكن أن يتخيله أيضا، كبس قراهم، ونهب بيوتهم وأجرانهم وزرائبهم وصوامع غلالهم، وفى بعض الأوقات ومن باب المزاح والتفكه والرغبة فى قضاء سهرة طيبة يسخر فيها من عجزهم كان يحلو له أن يستولى على دواجنهم، هم إذن فى معظم ما قاموا به كانوا يتقمون لكرامتهم التى لطالما أهدرها الشيخ ورجاله، حتى أنهم وهم عمد تلك القرى كانوا يدفعون للأعرابى الإتاوات سرا، وفى معظم الأحيان كان الرجل يضن عليهم حتى بمجرد التظاهر بالكرامة، فيتعمد فضحهم فى مجالسه والتندر عليهم، بل ويغرى بهم من يعرف من اللصوص وقطاع الطرق، حتى صارت أحوالهم قبل مجىء أحمد إلى المنطقة مباشرة لا تسر عدوا ولا حبيا.

وحده الحاج سويلم كان هو الذى رفض دفع الأتاوة، وعبثا حاول الأعرابى كبس قريته، لكنه منى بفشل ذريع، إذ كانت قسوة الحاج سويلم واتساع رقعة عزوته دافعا لأن يجيش الأتباع والخفراء للحراسة طوال الوقت، ما مكنهم من صد الهجوم تلو الهجوم، كما كانت سببا فى عجز الأعرابى عن الحصول على عيون من أهل قريته، فلقد اكتشف الحاج سويلم ذات مرة أن أحدهم يعمل عينا للأعرابى فقبض عليه وسلمه لرجال سملوا عينيه وقطعوا لسانه، وألقوه خارج القرية ليفر إلى غير رجعة، هذا بالإضافة إلى أنه كان بالفعل صديقا مقربا لأكثر من شيخ من شيوخ فخذى السنابجة والفرايات من قبائل السعدنى التى يشغل الأعرابى مشيخة أكبر أفخاذها، المحاليف، وكان يعرف الكثير عن خلافات الشيخ داخل قبيلته، ويستعين بخصومه فيها كلما احتاج الأمر لمواجهته مواجهة حاسمة.

اتفقوا على أن يجتمع إليهم فى الغد كل من يمكن حشده من الرجال، من المقاطعة وأبى داوود السباخ وشبراسندى وبرقين وكفر عزام وكفر غنام وكفر سعد والحجايزة وغزالة، وكل القرى التى اصطلت بنيران الأعرابى على مدى أكثر من خمس عشرة سنة، فضلا عن رجال الصهر الطوخى الذين يشكلون عصب القوات التى يمكنهم حشدها، وذلك ليحثوا إمكانية إنذار الرجل بالرحيل عن المنطقة، من خلال مظاهرة قوة ترتعد لها فرائصه، وإلا يقوموا بالهجوم عليه من جديد، ولا يتركوه ينجو هذه المرة.

سيبعثون إليه بالرسالة مع أحد رجاله، بعد أن يسملوا عينيه ويقطعوا أطرافه كما اقترح الحاج سويلم، الذى كان طوال الوقت يؤكد أن عبد الله الجياصى لا يفهم إلا لغة القوة، ولما لم يكن أحد من الحاضرين يستطيع أن يفعل ذلك أرسلوا فى طلب بعض من أبناء الليل الذين يسكنون قرية الهجارسة القريبة، والتى تتبع مركز كفر صقر فى مديرية الشرقية.

الرجال المطلوبون لم يأتوا إلا مع مطلع النهار، وقبل أن يمارسوا عملهم طلبوا طعاما للفطور، وقدمت لهم شام صينية من النحاس عليها خبز خارج لتوه من الفرن وعسل وجبن وقشدة صابحة، و لم يكونوا قد شرعوا حتى فى تناول الطعام عندما صرخ الرجال من فوق الأسطح.

تهليل وتكبير كأنما انشقت السماء عن الملائكة، أو كأن الأرض مادت بالطغاة والجبارين، وخرجوا لاستطلاع الأمر فراعهم ما رأوا، مضارب الأعرابى لم تعد هناك حيث كانت تثوى فى الجنوب الشرقى، لا أثر للخيام ولا للأسيجة، من كانوا فوق الأسطح هبطوا على عجل، فى محاولة للحاق

بأولئك الذين اندفعوا فى اتجاه المكان الذى كان يعج بالعربان حتى ليلة الأمس، وكانوا كلما اقتربوا يتأكد لهم أن ما يرونه ليس وهما، أو زيغ بصر، مروا فى طريقهم بتل اللجة، الذئاب كانت فى مخابئها انتظارا لمقدم الليل، ووصلوا إلى أعتاب المكان، واندهشوا أكثر، فلقد غادروا دون أن يتركوا شيئا من ورائهم، غادروا بناء على خطة منظمة، ربما استغرقت الليل بطوله، و لم يتركوا حتى مجرد شقفة من بقايا فخار مكسور.

وقبل أن يفيقوا من دهشتهم اهتزت الأرض من تحت أقدامهم، ونظروا فى اتجاه الغرب، فوق الطريق القادم من اتجاه برقين كانت قوات كبيرة محمولة على الخيول تنهب الطريق نهبا، يتقدمهم رجال يرفعون البيارق السوداء، ويجرون عربات تحمل مدافع كبيرة، أخيرا جاء سرسوارى أوردى الباشبازوق، يتقدم قواته المحمولة والراجلة، ولكن بعد أن منحوا الأعرابى فرصة كافية للنجاة.

عزبة أحمد سيد أحمد

فر عبد الله الجياصى، وفى رحلة الهروب داهم رجاله بعض دور كفر سعد، وقليل من الدور عند أطراف الحجايزة، و لم يسلم منه أهالى أبى الشقوق وغيرها من البلدان القريبة التى تتبع مديرية الشرقية، لكنه رحل، وتلك الحقيقة ظلت لأسابيع بل لشهور غير مصدقة، ففى غزالة وكفر سعد والحجايزة وبرقين وكفر غنام وأبى قراميط وأبى الشقوق وأبى العاص والهجارسة وسنجها وشبراسندى وبرقين والمقاطعة وأبى داوود السباخ، بل وفى الربع والسمارة والبيضاء وصدقا والخمسة وكفر سنجاب وكمى الأمديد كان الناس ينامون على حقيقة أن الأعرابى ورجاله رحلوا إلى غير رجعة، إلا أنهم كانوا ينتفضون فى نومهم كالمعتاد، ويستيقظون على أصوات خمش فى أبواب دورهم وحظائرهم ومخازنهم، ويخرجون ليقابلوا السكون فى الخارج، فلقد حملهم النوم المتقطع إلى يقين بأن رحيل الأعرابى ليس إلا خدعة من آلاف الخدع التى تمكن بها من السيطرة على المنطقة بكاملها، والتى أخضع بها كل أثريائها ومساتيرها - إن كان قد بقى فى نطاقها أثرياء ومساتير - لابتزازه، فدرجوا على دفع الفردة التى حددها على كل منهم.

يتذكرون الجرائم التى ارتكبها فى حق كل من قاومه، ثم كل من نوى أو فكر فى مقاومته ووصله خبر النية أو التفكير، فلكم أحرقت دور وزروع على وشك الحصاد!، ولكم سرقت ماشية وركائب أو قتلت قتلا!، ولكم نهبت صوامع غلال ومخازن تبن وأعلاف!، أو أحرقت!، وقبل كل ذلك لكم قتل رجال!، أخذوا من دورهم وقتلوا بدم بارد ثم ألقى بهم على قوارع الطرق!، لا لشىء إلا لوشاية، نقلها أناس عملوا بالغواية أو بالتهديد عيونا للرجل، فلم يكن فى نظرهم قابلا لأن ينهزم بأى حال.

نعم، رحل الأعرابى، وجاءت قوات أوردى الباشبوزوق يتقدمها الأغا السرسوارى، بزعبوطه الأحمر الطويل وحصانه الأبيض الذى ينخر من خطمه فى اشمئزاز، ومن خلف قواته الراكبة تجر البغال عربات المدافع المستعدة للإطلاق، والتى ما أن رآها الناس حتى تجمعوا من حولها، وطلبوا من الجنود فى سذاجة أن يطلقوها ولو لمرة واحدة، لكن جنود المشاة على الجانبين كانوا حريصين على إبعادهم ومواصلة الدق بأرجلهم فوق الطريق، فى خطوات منتظمة تبعث على الانتشاء.

مجيئ الأوردى لم يكن خيرا كله، فبرغم أنهم لم يطلقوا طلقة واحدة و لم يقبضوا حتى على فروج من مضارب الأعرابى الهارب، إلا أنهم حَمَّلوا أحمد السرسى علوفة خيولهم وبغالهم، وطعام عساكرهم الذين يربون على المائتين، كما طلب الأغا السرسوارى مبلغا من المال كحق للطريق، وفى غفلة من ضباطه وجاويشية عساكره همس فى أذن أحمد مخفضا المبلغ للنصف على أن يقبضه بعيدا عن أعين الجميع.

أحمد كان ينتوى الرفض، حرضه عليه العمد الذين هرعوا لاستقبال

الأوردى، والذى لم يروه فى حياتهم من قبل، وحده كان الشيخ دسوقى صامتا، وكان أحمد يعرف أسباب صمته، فهو الوحيد من بين الجالسين الذى يعرف سره. مريم كانت هناك، تضع أذنها على النافذة لتلتقط الحديث، وتعرف ما يجرى، قلبها كان يدق خوفا على ابنها بأكثر مما فعل يوم قتلوا المملوك الهالك، وعندما بلغ الحديث مبلغا رأت ألا يتعداه سارعت بإرسال أحد رجال الصهر الطوخى فى طلب ابنها، وعندما مثل بين يديها ابتسم، يعرف أنها هى التى أرسلت فى طلبه، وأن ما سمعته فى المندرة الكبيرة لم يرق لها.

وكانت قد أرسلت أيضا فى طلب الصهر الطوخى ليشاركهما الرأى، أو إن شئنا الدقة ليشاركهما التنفيذ، وكان يشرف على إطعام الجنود، فلقد كانت واثقة من أن ابنها بما جبل عليه من ذكاء، وفطنة لا بد مستمع لنصحها، وفى انتظار قدوم الطوخى قالت لابنها فى حزم:

- سندفع للرجل ما يطلبه، ولا تجادلنى.

لم يعترض أحمد، بل إنه فى الحقيقة سر لقولها، فلقد كان منذ دقيقة واحدة يفكر فى طريقة يفلت بها من حصار العمد الذين يجتمعون فى المندرة، لا يريد أن يتطور الأمر ويدخل فى عداوة مع أحد أركان الحكم، فالسرسوارى القادم بجيشه وكما عرف من الموجودين ضابط تركى أثير لدى محمد على باشا وولده إبراهيم، وموقف الأسرة فى المكان لا يتحمل أى تبعة من تبعات الرفض أو الاعتراض، بل إن أحمد السرسى وهو يتظاهر بالإنصات إلى اعتراضات أصدقائه من العمد وتحليلاتهم كان فى الحقيقة مشغولا بالبحث عن طريقة يدفع بها المبلغ دون أن يعرف أحد منهم، فهو

أيضا لا يريد - وقد فعلوا من أجله كل ما فعلوا - أن يظهر بمظهر الذى لا يستمع إلى نصحهم، وما قد يستتبع ذلك من انفضاضهم من حوله، ومن ثم انقطاعه فى المكان الذى أوشك أن يكون هو وأسرته الصغيرة ركنا من أركانه، وعينا من أعيانه، وهم ولا ريب الذين مكنوه من ذلك، لذا فإنه وما أن قالت أمه ما قالت حتى نظر فى وجهها معابثا، فلقد كان يحلو له فى الأوقات العصيبة أن يمازحها:

- وكيف سندفع يامريم؟!.

وأشار صوب المندرة:

- وهؤلاء لن ينصرفوا إلا مع انصراف الأوردى، إن لم يكن بعده؟!.

وكأنما انتظر الصهر الطوخى حتى يفرغا من همسهما الحاد فقدم بعد آخر كلمة قالها أحمد، ولم تتردد مريم فى أن تبلغه قرارها، طلبت منه أن يجد وسيلة يسلم بها المبلغ المطلوب للسرسوارى دون أن يدرك أحد من الموجودين، وما أن أبدى الرجل استعداده للاضطلاع بالمهمة حتى أخرجت من بين ملابسها كيسا به المبلغ المطلوب وسلمته له، ولم يتمالك أحمد، فلقد قبض على الكيس وأفرغه، واستبقى نصفه فقط ثم أعطاه إلى صهره، وعندما شهقت مريم خوفا مما فعل ابنها أسر إليهما بما كان من أمر السرسوارى معه.

كل شىء جرى كما خططوا له، مريم وابنها وصهره الطوخى، وبمباركة من صمت الشيخ دسوقى، الذى لم يشأ أن يتطفل على سر يراه جليا كرأى العين، فلقد قدم الأغا السرسوارى من مكان انتظاره خارج نطاق الدار

ليشرف على إطعام جنوده، وبينما هو يدور حول الأسمطة الممتدة والتى يتحلق حولها الجنود الجائعون امتدت يد الصهر الطوخي إلى يده وسلمتها الكيس، وفى غمضة عين عرف الكيس طريقه إلى داخل ملابسه.

حمد الأغا السرسوارى تلك الطريقة التى حصل بها على النقود، فبإمكانه أن يختص بها وحده، فلقد تم الأمر بعيدا عن أعين الجميع، ضباطه وجنوده الذين كانوا منخرطين فى التهام الطعام، والعمد الذين تحتويهم المندرة الكبيرة والذين كانوا يلفظون بما لا يمكنه فهمه من كلمات مبتورة، تأتيه بين الحين والآخر، وكانت نظراته فى مرواحه ومجيئه تنبئ عن عظيم الامتنان.

مع العصر انصرف الأوردى، وعلى الملأ أعلن الأغا السرسوارى أنه لن يصر على أخذ حق الطريق إكراما للعمد الذين استقبلوه فى الصباح بالترحاب، وإكراما للشاب الذى أكرم وفادتهم وحمل نفسه عناء إطعام أكثر من مائتى شخص، وكانوا قد التهموا عجلا كاملا، طقطقت بلحومه القدور فوق الكوانين الجبارة التى امتدت بطول الجرن الكبير.

أوداج العمد وهم يسمعون إلى الكلمات العربية المهشمة التى ينطقها بصعوبة الأغا السرسوارى انتفخت، لكن الشيخ دسوقى كان يتسم فى تفهم، وكذلك كان الحاج سويلم، الذى لم يهضم أبدا تخلى الأغا عن مطالبه لمجرد أنهم قابلوه بما أسره، أو لمجرد أنه وجنوده وضباطه التهموا عجلا كاملا حتى كاد العمد يخرجون من المولد بلا حمص، لكن الآخرين كانوا يتناوبون التعليقات، فمن قائل إنه لم ير فى حياته كلها تركيا

له أخلاق الأغا، ومن قائل إنهم ليسوا قليلى القيمة ليقبض الرجل الرشا في وجودهم، ومن قائل إن ما حدث يرفع الباشا فى أنظار شعبه ورعاياه، وكأنما يتمنون لو يصل حديثهم إليه، أو إلى ولده إبراهيم.

يومان لا أكثر وعادت إلى الأسرة طمأنينتها، لكن مريم التى لا تعرف الطمأنينة راحت تفتح أبواب الحديث حول كل ما من شأنه أن ينغص عليهم حياتهم، قالت إن رحيل الأعرابى مهما بدا نهائيا لن يكون إلا مؤقتا، إذ سرعان ما سيجد وسيلة لترضية رجال الباشا، حتى ولو بدفع دية القتلى أضعافا مضاعفة، وإذا ما حصل على العفو المنشود فإنه سرعان ما سيعود إلى مضاربه وأراضى عهدته، والتى تحتل مساحة أكثر من خمسمائة فدان، معظمها فى زمام كفر سعد وبعضها فى زمامى الحجايزة وغزالة.

الأم الخبيرة شاركت فى النقاش الليلى، والذى لا ينتهى إلا وقد أذن للفجر، ساعتها يقومون للصلاة ثم يذهبون إلى نومهم محملين بعشرات التساؤلات، حول الاحتمالات التى تصر مريم على إبقائها مفتوحة على مصاريعها. أحمد كان حزينا من أجل أمه، فهى لا تتوقع إلا الشر، ولا ترى فى أية انفراجة إلا مقدمة لعسر جديد، ولا تشم من وراء الصفاء إلا الكدر، ومن وراء الفرح إلا الأسى، و لم لا، وهى ابنة الأسرة التى لم تصادف من وراء أى فرح إلا الحزن، فإذا جاءهم موسى القديم وسطع نجمه فإن انقسام الأسرة وعودة الجدة الكبرى بأبنائها من "مصر" يقبع فى الخاتمة، فالحزن دائما موجودا هناك لمن يحد بصره ويرى من وراء الأحداث القريبة الظاهرة، وعندما تفتحت زهور الالتزام وحصلوا على نصف مساحة سرس كان المهتار القديم فى انتظارهم، يحصل على النصف الآخر

ويشاركهم الوسية الكبيرة، وقبل أن يجدوا الطريق للتعامل معه بداهمهم الوقت فيقضى كبيرهم تحت وطأة الدين والهموم، وإذ يعود أحمد الأكبر من الأزهر دون أن يكمل دراسته وكانت أوشكت على الانتهاء، ويبحث عن مخرج جديد للأسرة، ويتزوج منها يحصده الموت حصدا، فى ظروف غامضة لا تعفى الخيال من مسئولية التحليق فى سماوات الأسى، وبعد رحيل فتاهم وملهمهم يخرجون من المعادلة برمتها، عندما يمنح الباشا بانى مصر الحديثة كل بلدهم لغريمهم، يلهو بها وبهم، وينكل بها وبهم، ويدوس بقدميه الغليظتين كل تاريخهم، حتى يخرجوا من بلدهم خروجا يبدو لكل ذى عينين أنه بلا عودة.

الأم الخبيرة لم تكن من رأى أحمد فى التأسى لحال أمه، رأيها أنه إذا لم تكن فيهم مريم لكان لزاما عليهم أن يخترعوها اختراعا، إذ كيف يتركون أنفسهم للظروف، فرحيل الأعرابى دون أن يسترد ابنه وبكريه المحبوس هناك فى شبراهور هو وأبناء عمومته، أو حتى رجاله العشرة الذين رفض الأغا السرسوارى أخذهم معه يجعلهم محاطين بتحديات قد تعصف بهم فى أى وقت، وها هى الأم الخبيرة تدفع فى اتجاه إطلاق الرجال العشرة والأبناء المحتجزين فى شبراهور حتى لا يعطوا الأعرابى ذريعة للعودة القريبة.

رجال الحاج سويلم لم يتركوا الأبناء المطلقين من شبراهور ولا الرجال العشرة إلا قرب فانوس، حيث لا تبعد الصحراء التى عاد إليها شيخهم إلا مسير بضع ساعات، لكن مريم التى اعترفت ببعد نظر الأم الخبيرة قالت إن إطلاق سراح المحتجزين لن يؤخر عودة الشيخ إلا لأيام، وربما لأسابيع،

لكنه سيعود، وبغير فراغ لصبرها سألتها الأم الخبيرة عما تريده بالضبط، أو ما تقترحه عليهم، لكن مريم التى انهمرت دموعها نفت أن يكون لديها حل واضح، فقط هى تريد أن تنبه إلى ما سيكون، حتى لا يفاجأوا بقدوم الأعرابى بفرسانه وبنادقه وهم لاهون.

لأول مرة تشترك زوجات أحمد فى تقرير مصير الأسرة، وكانت سريه أول من أدلت بدلوها، لقد أدهشتهم جميعا، وجعلتهم ينظرون فى وجوه بعضهم البعض، لا يصدقون أن الفتاة التى تتفانى فى خدمة زوجها وأسرتها يشغلها مثل ما صرحت به. قالت إن الخشية من عودة الشيخ وعربانه تظل قائمة ما بقيت مضاربه شاغرة وعهدته فى الانتظار، واقترحت لو يستطيع أحمد بمساعدة أصدقائه أن يعرف شيئا عن نية رجال الباشا حولها، وما إذا كانوا سيعطونها لآخرين لاستغلالها أم لا، لم تشأ أن تطلب من زوجها أن يعمل على الحصول عليها لنفسه، فمثلها فى ذلك مثل غيرها من أفراد الأسرة المجتمعة حول موقد تخبو ناره مع اقتراب الفجر، تعلم بأن قرارا بهذا الحجم قد يعرض الأسرة إلى غضب كل من يرنو ببصره إلى العهدة الشاغرة.

الحاج سويلم يتمنى لو يحصل عليها، وكذلك يفعل الحاج على أبو سيد احمد والشيخ هيكل، وأحلام لا تنفك تراود الشيخ أبا كريمة فى أن يختص بجزء منها إن لم يكن ممكنا الحصول عليها بأكملها، فمعظمها يقع فى زمام بلده، ولا يغيب عن فطنة أحمد أيضا أن الهدوء الذى يبدو عليه عمدة غزالة يخفى ضراما يتأجج فى داخله، فالعهدة المهجورة تتداخل مع أراضيه وزمام قريته، وهو يرى أنه أحق الناس بها، وعلى ذلك فإن مجرد

طرح الفكرة على الملأ سيغضب الجميع، والأجدر به ألا يفعل، حتى ولو كانت النتيجة هي ذهاب العهدة إلى غير هؤلاء الحالمين بها، فهو في النهاية يعرف أن دون هؤلاء الطامحين والعهدة المنشودة مبالغ طائلة من المال، ستدفع للأغا الكبير في المديرية، ورجال مجلس المديرية فردا فردا، فضلا عن المساحين والأغا الصغير في مقر المركز، ورجال الأورديان من كل نوع، كل هذا غير ما سيهمس به الأغا الأكبر في أذن الفائز بها، من مبالغ في صورة تبرع للمجهود الحربي وإعانة لجيوش الباشا التي تشق طريقها في البلاد البعيدة وتمهد لإنشاء الإمبراطورية التي يراها الرجل متحققة أمام ناظريه، بعد أن كانت ذات يوم مجرد حلم.

وكانت شام وبمجرد أن وضعت الحرب أوزارها قد أنهت إلى مريم خبر انقطاع الطمث عنها، ربما يكون ذلك الخبر هو الشيء الأهم الذي رأت فيه مريم مبررا للاحتفال، وأعلنت ذات ليلة أمام الجميع أن حصة شام من العمل الشاق ستكون من نصيبها هي، إذ هي حامل في حفيد جديد سينضم عما قريب إلى الحفيدين الغاليين، موسى وسيد احمد.

حورية كانت هي الأخرى تعاني انقطاع الطمث من جديد، لكنها لم تشأ أن تعلن ذلك لعمتها قبل أن تتأكد، وكذلك فعلت سرية التي لم يكن لديها أدنى شك في أنها تحمل في وليدها الثاني، وقالت لنفسها لعلها تكون بنتا تهون عليها قادم الأيام، لذا فإنه وما أن أعلنت مريم نبأ حمل شام في الحفيد الثالث حتى أسرعت سرية بإعلام الجميع ومن خلال تَصَنُّعِها مواساة عمتها:

- وأعمالى الشاقة أنا أيضا يا عمتى من سيحملها عنى؟!.

وعمت الدهشة الوجوه، وقبل أن يحتفلوا بالخبرين التفتوا إلى حورية، كانت جالسة هناك في ركن الحجرة تمسح بيدها على رأس موسى الصغير الذى ينام فى حجرها، ولما رأت النظرات فى عيونهم احمر وجهها و لم تعرف هل تغضب أو تواجه النظرات بصراحة، وأخيرا فإنها وحتى لا تترك الفضول ينهش فرحتهم قالت:

- ربما أكون أنا أيضا.

و لم تتمالك مريم فأطلقت زغرودة شقت سكون الليل، ومن خلال غضون لا يدرون متى حفرت أخاديدها فى وجه الأم الخبيرة طاف شبح ابتسامة، لكنه سرعان ما توارى خلف مصمصات التعجب من أمر مريم، إذ وهى التى أحالت أفراحهم إلى آمال مؤجلة إلى ما لا نهاية ما أن عرفت بأنباء حمل زوجات ابنها حتى انطلقت تزغرد فى غير تحسب أو تأجيل هذه المرة.

و لم لا؟!، فالأسرة التى تمنت يوما أن يرزق فتاها بطفل، والتى انفطرت قلوبها لما مرت الأيام والشهور دون أن تحمل أى من زوجتيه حورية وسرية، ها هى تنتظر أن يكون لرجلها الأوحد خمس أطفال، ولقد ذهب الخيال بمريم إلى آفاق بعيدة رأت فيها خمسة من الفتيان يحيطون بأبيهم وهو يتفقد أراضيه، عبر الأبعدية الشاسعة التى تنتظم جزءا لا يستهان به من زمام قرية المقاطعة.

كل ذلك لم يمنع أحمد من العمل بجدية، فلقد قطع فى كل يوم مشاوير

طويلة فى محاولة للوقوف على نيات الأصدقاء بخصوص أراضى عهدة الأعرابى الهارب، وكم تمنى لو طلع الصبح فوجدها فى يد أحدهم، إنه إذا حدث ذلك انقطع طريق العودة على الأعرابى، تلك العودة التى تراها مريم فى الأفق القريب، كأنها رأى العين، لكن كل المشاوير لم تخرج بنتيجة، فلقد أنهى إليه الحاج سويلم أن الأغا الأكبر فى المنصورة رفض إثارة الأمر عندما طلب البعض تخصيص العهدة له، وبرغم أنه لم يفصح عن هذا البعض إلا أن أحمد كان يعرف أن الحاج على أبو سيد احمد والشيخ هيكل كانا يتسابقان بالفعل للفوز بها، وكل منهما كانت لديه الأموال التى تمكنه من بلوغ مأربه، لكن قرب الأراضى وتداخلها فى زمامى الحجايزة وغزالة، فضلا عن تمركزها فى الأساس فى زمام كفر سعد، ورغبة الشيخ أبى كريمة فى الاختصاص بجزء منها، وكذلك السباق المكتوم بين الحاج سويلم وعمدة غزالة للفوز بها، كل ذلك جعل من اختصاص الرجلين بها أمرا بعيد المنال.

واستيقظ الناس ذات صباح ليجدوا مئات من العسكر يحيطون بمكان مضارب الأعرابى الهارب، وعلى الفور أرسل أغا الجنود إلى أبى كريمة والحاج سويلم وعمدة غزالة، حيث أسند إلى كل منهم بأمر من الأغا مدير المديرية مسئولية تحصيل ضريبة المال الحر من الفلاحين الذين كانوا يزرعون الأرض لحساب الأعرابى، كل فيما يقع منها فى زمام عموديته.

لم تكن مريم لتدع أمرا مثل هذا يمر دون أن تولم لمن اعتبرتهم ضيوف ابنها، و لم يكن ممكنا أيضا أن يحث الأغا رئيس الجند وضباطه عن طريقة للفوز بطعام الغذاء مثلما فعل الجنود الذين انتشروا فى شوارع كفر سعد

والحجايزة، ولما لم يدعهم أحد للدخول لضيق ذات اليد، جمع الحاج سويلم والشيخ أبو كريمة من يمكن اعتبارهم ولو على سبيل التجاوز من المساتير، وألزموهم باستضافة الجنود، وكانوا قد أظهروا قلة الصبر والتأهب للانقضاض على الدور، سواء تلك التي يوجد بها طعام وهى قليلة على أى حال، أو تلك التي تخلو من أى شيء إلا الخواء.

ستخبرني جدتى في قابل الأيام أن الجميع بمن فيهم الأم الخبيرة كانوا يعتبرون أن الاحتفال الذى تم في ذلك اليوم البعيد كان احتفالهم هم، احتفال الأسرة الوليدة التي تبحث عن شيء من السكينة للانطلاق من جديد، فإذا كان تكليف العمد الثلاثة بتحصيل المال الحر لحساب الباشا قد أرضى الشيء الكثير من غرورهم، باعتبار أنهم لم يفقدوا الأمل كلية في الحصول على ما يقع بزمام قراهم من أراضى العهدة، أقول إذا كان ذلك الأمر العالى قد أرضى غرور هؤلاء العمد بما حمل في طياته أيضا من إبعاد المتنافسين الآخرين عن الساحة، إلا أن الفرحة الحقيقية لسماع ذلك الخبر كانت من نصيب أسرة أحمد السرسى.

فوضع العهدة تحت أيدى الدولة يغلق وللأبد باب عودة الأعرابى إليها، فلا أحد يأخذ من الباشا أرضا صالحة للإنتاج وللزراعة، و لم تكن مهمة الأغا الذى يقود القوات والذى اكتشف الجميع أنه أحد ضباط ابراهيم باشا وأنه مبعوثه الشخصى هى مجرد إسناد شئون الأرض إلى العمد الثلاثة، وإنما وضع تقرير عن حالتها، وعما إذا كانت صالحة للزراعة أم لا، ولما كان الأعرابى الهارب قد أعمل السياط في ظهور الأهالى من الفلاحين في كفر سعد والحجايزة وغزالة حتى تمكن من استصلاحها، وشق القنوات

عبر أحواضها حتى غلت بطريقة تماثل غلة الأراضى القديمة، فإن الأغا مبعوث الباشا الإبن وضع تقريره على نحو يعتبر أن الأرض التى تشكل العهدة المهجورة هى أرض زراعية من النوع العال، وأوصى بضمها للدومين العام.

كل ذلك تم فى مندرة أحمد السرسى، حيث كان الضابط الكبير ومرؤوسيه من الضباط يجالسون العمد والأعيان على مائدة الغذاء الفخيم، الذى عملت من أجله كل نساء الدار، حتى الأم الخبيرة، وفى ذلك اليوم البعيد مد أحدهم أوراقا كبيرة فوق منضدة خشبية، عرف المتواجدون أنها خريطة للمكان، و لم يتحرجوا من الوقوف على أصابع أقدامهم ليروا عليها معالم منطقتهم التى لم يتصوروا أبدا أنها على الخريطة تكون على ذلك النحو من البساطة والصغر.

فى عصر ذلك اليوم البعيد وضع الضابط العَلَوى نقطة عند الجنوب من أراضى العهدة المذكورة كتب عندها عزبة أحمد سيد احمد، ومنذ ذلك اليوم البعيد لم تخل خريطة واحدة من استعمال نفس الكلمة للتدليل على موضع دار أحمد السرسى، وحظائره ومخازنه وأجرانه ومندرته التى لطالما احتشدت بالضيوف.

تأثير كتابة تلك الكلمات على خريطة من خرائط الدولة لم تكن بأقل تأثير فى نفس أحمد من تلك الأخبار التى حملت إليه فى ليلة واحدة نبأ حمل زوجاته الثلاث، و لم تكن النشوة التى أصابته ليلتها ولا الزهو الذى ملأه حتى كاد يحمله فى الهواء بأكبر من ذلك الذى شعر به وهو يرى كلمات تحمل اسمه واسم جده على خريطة حكومية بعد أعوام قليلة

من خروجهم من هناك، من سرس، البلد الذى لا يدرى أحد من أسلافه المعروفين تاريخ بدايتهم معها.

لكن أمورا عديدة منعت الأسرة الناهضة من الابتهاج بنجاتها، ولو إلى حين، فانشغال الباشا وابنه إبراهيم فى الحرب ضد الباب العالى لم يصاحبه تخفيف القبضة على رقاب العباد، فالباشا لا يمكنه وهو يخوض كل تلك الحروب أن يدع قاعدته تتعرض للاهتزاز أو الانفلات، أو حتى التلكؤ فى اتجاه حشد كل الطاقات من أجل المشروع الامبراطورى المأمول، لذا استحدث تنظيما إداريا حديديا، مكنه من الوصول إلى أطراف دولته مهما نأت، والوقوف على التفصيلات مهما دقت، وحدث أن شاع خبر انتهاء وضع العهدة الشاغرة واستحالة عودة الأعرابى الهارب فانفجرت القرى المحيطة بأعمال عنف لم يسبق أن عرفتها المنطقة فى تاريخها المعروف.

الأمر بدأ فى كفر سعد، إذ ما أن انصرف الأوردى المكلف بمعاينة أراضى العهدة وتقرير تكليف العمد الثلاثة بتحصيل الميرى حتى هجم الفلاحون على دور أولئك الذين كانوا يعملون عيونا للأعرابى، لم يكتفوا بحرق الدور وقتل البهائم، بل قبضوا عليهم وكبلوهم بالحبال وقادوهم إلى موضع مضارب الشيخ، وهناك عروا ظهورهم وتناوبوا جلدهم، أذاقوهم من الكأس التى لطالما تجرعوها طويلا بغير أمل فى الخلاص.

سرعان ما انتقل الأمر إلى الحجايزة، لكن الثورة هذه المرة كانت عارمة، فلقد قتل الثائرون عيون الأعرابى فى دورهم، أمام أطفالهم ونسائهم، وحتى لا يعرفهم أحد وضعوا على وجوههم أقنعة صنعوها من ملابسهم المرقعة، وانطلقوا لا يتركون دارا من دور أولئك العيون إلا

وداهموها، ولقد وصل الأمر إلى حد ملاحقة الفارين عبر الغيطان فى اتجاه أبى الشقوق وأبى العاص وأولاد صقر، وهناك قتلوهم شر قتلة، ومثلوا بجثثهم.

ومن الحجايزة انتقلت النار إلى غزالة وأبى الشقوق وأبى داوود والسمارة وصدقا والخمسة وكفر سنجاب، ووصل الأمر إلى البيضاء وأم الذباب وزفر والصلاحات وغيرها من البلاد المنتشرة حتى قرى مركز دكرنس، وعلى الجانب الآخر فعل أهالى برقين وكفر غنام وطرانيس العرب أشياء كثيرة، ولكنها لم تصل إلى حد القتل، إذ كانت قبضة الأعرابى فى تلك البلاد أهون منها فى البلاد السابقة، وفى اليوم الرابع من تلك الثورة الدامية نزلت إلى البلاد الثائرة قوات من الهجانة (الكاتربنت) السودانية، يعتلون إبلا مدربة على الكر والفر، وفى أيديهم كرابيج من أحاليل الثيران ذوات الرؤوس المتعددة الملوية بالعقد، والمنقوعة فى الزيت لشهور طويلة، الضربة الواحدة منها تكفى لأن يمكث الرجل فى داره أياما ليعالج من آثارها الدامية.

غرقت المنطقة فى حظر للتجوال من بعد آذان العصر وحتى طلوع الشمس، لم يستثن أحد من ذلك، حتى العمد، وتناولت الألسن أخبار الاعتداءات التى وقعت على بعضهم وهو يحاول الإفلات من القواعد الصارمة التى لم تكن خافية عليه، فلقد أعلنها قادة الهجانة فى كل قرية انتشروا فيها، وعلقوا منشورات بذلك على أبواب المساجد، و لم يكن من عذر لأحد يدعى بأنه لا يعلم بأن التجوال من أى نوع محظور، من بعد صلاة العصر وحتى طلوع شمس اليوم التالى.

أول آثار اعتبار داره عزبة باسم عزبة أحمد سيد احمد كان فرض حظر التجوال فيها، قدم إليه رجل سوداني غريب الشكل يحمل ورقة مكتوب فيها إنه ومجموعته من الرجال مختصون بتأديب أهالي عزبة أحمد سيد احمد، ومن خلفه كان خمسة من الرجال، جميعهم على ظهور جمال فتية عالية، وفي أيديهم تلمع الكرابيج السودانية المسقية بالزيت والتي تتراقص أطرافها مع كل حركة يأتيها صاحبها، قدومهم كان مع ضحى ذلك اليوم البعيد الذي أوشك فيه الهدوء أن يعم من جديد.

تقول الحكايات إن قائدهم كان يسمى الجاويش الواوي، من بلدة واو قاعدة مديرية بحر الغزال، وكان رجلا شديد السمرة نحيفا طويلا، لم يشاهده أحد وهو مترجل عن جمله إلا أحمد السرسي.

في ذلك اليوم البعيد حدث هرج شديد عندما طلبت مريم من ابنها أن يخرج هؤلاء من محيط الدار إلى ما حولها، فالدار والجرن والمندرة الكبيرة والحظائر والمخازن وحدة واحدة، ولا يمكن اعتبار كل منها مبنى مستقلا، حتى لا ينطبق على التنقل بينها الحظر المفروض من بعد صلاة العصر وحتى مطلع الشمس في اليوم التالي، ولما كان الرجل قد تأهب للحديث وهو فوق جمله فإن الجميع خرجوا يتفرجون على ما يدور، وكان الصوت الرفيع الممطوط ذو اللهجة التي تبعث على الضحك مثار تندر الجميع، وخاصة سرية التي يمتد بطنها أمامها فكأنها ستلد في ساعتها، وكان مثار التندر ليس فقط الصوت الرفيع الممطوط، وإنما السحنة التي لا يظهر منها إلا كرة سوداء لامعة تبرق من خلالها فتحتين ضيقتين وتنفرج فيها شفتان غليظتان عن صفين من الأسنان الصفراء.

عايشتها شام، وكانت هى الأخرى تتيه ببطنها المتنفخ كالكرة، وحذرتها من إطالة النظر إلى وجه قائد الكتربنت، حتى لا تلد ابنا يشبهه، لكن حوربة التى تعانى آثار الحمل المتقدم والتى خرجت بالكاد لترى ما يدور هناك نهرت شام، وأمرتها أن تكف عن العبث، إذ هؤلاء الناس لا يمكن ضمان التزامهم وهدوئهم، بل إنهم قد يغضبون لأشياء تافهة وتكون العاقبة وخيمة.

منظر نسائه وهن يتندرن على قائد الكتربنت لم يكن يسره، لكنه آثر ألا يعنفهن أمام الرجل، خاصة وأن أمه فى الحقيقة هى التى أعطتهم فرصة الظهور هكذا علنا أمام الغرباء، ولما ألحت أمه فى أن يبلغ الرجل بما تقول استمهلها حتى يقرأ الرجل بيانه، وكان البيان باعثا على المزيد من التندر، إذ راح الرجل يملى عليهم ما هو مسموح به وما هو ممنوع، ومن بين الممنوعات ليس فقط عدم الخروج من باب الدار الذى يجب أن يكون مغلقا طوال فترة الحظر، وإنما محظور عليهم أيضا فتح النوافذ أو التواجد فوق الأسطح، أو العراك داخل الدور، أو استقبال الغرباء حتى فى فترة التجول، وعلى الفور راح يحصى أعداد المقيمين فى الدار، الأم الخبيرة ومريم والنساء الثلاث والطفلين موسى وسيد احمد، الذين كانا يضحكان من حركات الرجل ولا يدركان الخطر من وراء تلك الحركات الحادة المتشنجة، وأخيرا أحمد الرجل الوحيد فى المكان.

وعبثا حاول أحمد أن يُفْهِم الرجل بأن حظائر أغنامه وماشيته يكفلها كُلاُف ورعاة، وهم من أهل الدار ولا يمكن صرفهم، إلا أن الرجل أشاح بوجهه و لم يفهم شيئا مما يقول، وكان يخاطبه بصيغة المؤنث، مما دعا إلى

مزيد من التندر، برغم بوادر الخوف التى أخذت فى التسرب إلى النفوس، وأخيرا استدار أحمد وفرد جناحيه يهش بهما أفراخه، فانسحبت النسوة إلى داخل الدار، وفى لمح البصر كانت مريم تعد الطعام لهؤلاء الذين يمسكون بالكرابيج فى الخارج ويتحينون الفرصة لاستعمالها.

يومان سار فيها أهل الدار حسب التعليمات التى أعلنها الواوى، لم يكسروا منها حرفا واحدا، و لم يطلبوا من الرجل تعديل أى شيء، فأحمد السرسى أول من يعلم أن مخالفة الأمر قد تستبعها إجراءات تكشف عن سرهم، لذا فإنه ومنذ أدخل نساءه الدار وجمعهن فى حجرة الأم الخبيرة، وتلى عليهن هو أيضا تحذيراته وتخوفاته، من تلك اللحظة انتظمت النسوة انتظاما جعله يغمض عينيه فى ثقة من أن أى شيء لن يحدث فى غفلة منه.

لكن التحذيرات لم تكن مفهومة تماما لشام، وكانت لما تزل تشعر فى قرارة نفسها بالفخر لما قام به أبوها نصرة لزوجها، وفى جوف الليل حيث كان أحمد ينام إلى جوارها سألته:

– ألا تريد أن تخبرنى بشيء؟!.

ولأنه يعرف إلى أين سينتهى النقاش، أجاب فى غلظة لم يكن يتمنى أن يضطر للجوء إليها:

– الصباح رباح يا شام.

فتوددت إليه، اقتربت منه ومسحت على رأسه وظهره فى حنان:

– الغيرة تأكلني يا أبا موسى، أنا الوحيدة بينكم التي لا تعرف مما تقولون شيئا.

وبرغم أنها نادته باللقب الذي يحبه نهرها:

– قلت لك الصباح رباح.

فكادت تبكي:

– أنت تضعني تحت رحمة ضُرّتيْ، وهما يتهامسان على الدوام، حتى إذا ما اقتربت منهما يصمتان، كأنني عدوة ولست زوجتك مثلهما.

فلم يجد بدا من أن يستدير إليها، وكان يعطيها ظهره، وأخذها في حضنه، ومسح على بطنها وهو يقول:

– وحياة الولد محمد الطوخي، الذي يرفس في بطنك متعجلا الخروج، لأطلعنك على كل شيء في حينه.

وكانت وهو يقسم بحملها تظن أنه على وشك إطلاعها على السر الذي لا تعرفه، لكنها وقد انتهى إلى مجرد الوعد أيقنت أن بينها وبين السر المكنون مسافات لا تستطيع أن تقيس مداها، وشيئا فشيئا ارتخت يداها اللتان كانتا من لحظة تحتضنانه بشدة، وأفلتت منه بطريقة حرصت على أن تبدو على شيء من الخشونة، لكنها فشلت، واستقرت على ظهرها فتمعنت في تفصيلات السقف الذي يمنع عنها نجوما كانت قمينة بأن تنشغل في إحصائها حتى يأتي النوم.

حمى الحنين

الوقت لم يطل بالهجانة فى تلك البقعة التى نزلوا إليها فى قلب الدلتا، فلقد أنجز الثائرون مهمتهم من قبل أن يأتى الكتربنت، وكان البعض من عيون الأعرابى قد هجر القرى الثائرة مبكرا وفر فى اتجاه الصحراء، ظنا منهم أنهم سيجدون لدى قبائل السعدنى الملاذ، أو على الأقل سيلقون الترحيب من فخذ المحاليف الذى يتزعمه الأعرابى الهارب، لكن الأخبار وبعد أن استقرت الأوضاع ورحل الهجانة توالت عن الفواجع التى حدثت لهؤلاء الفارين وأسرهم، فلقد نهبوا فى تيه الصحراء قبل ان يصلوا إلى مضارب القوم، ومن نجح منهم فى الوصول تنكروا له ونهبوا ما معه من مؤن وأموال، وردوه إلى بلاده مهانا، ولما كانت العودة إلى المنطقة مستبعدة فلقد ضاع من نجا منهم فى الطرق البعيدة، ولجأ الكثيرون إلى أطراف مديرية الشرقية، أو سلكوا الطريق الواصل إلى بنى سويف عبر الطريق الملتف من وراء "مصر" المحروسة، ويا لها من أهوال تلك التى لاقوها على طول ذلك الطريق الذى ينتشر من حوله الأعراب، والذين يتخذون من القرصنة ونهب المسافرين مهنة وحرفة.

تجنب أحمد كل ما ينغص عليه فرحته وفرحة أمه بولادة ثلاثة أطفال له مرة واحدة، فلقد وضعت حورية ابنا ثانيا، ولكنه جاء ضخما بصورة جعلتهم يتندرون على ضخامته، وقبل أن يقطعوا خلاصه كان يتلمظ طلبا للطعام، وكعادتها أشرفت حورية على الموت وهى تضعه، لذا فإنهم لم يطلقوا عليه اسما إلا بعد أيام ثلاثة، حيث أفاقت بعدها حورية، وفتحت عينيها ونظرت فى وجوه المحيطين بها، والذين كانوا يبكون غيبوبتها التى طالت كثيرا، ثم عادوا ليبكوا من الفرح وهم يرونها تعود إليهم، واهنة ومتضعضعة، لكنها عادت، ورأوا على شفتيها الباهتتين ابتسامة الفرحة بالعودة إلى الحياة.

فى تلك الليلة البعيدة أضاءت مريم عددا من الشموع كانت قد ابتاعتها فى إحدى مشاويرها إلى السنبلاوين، وقرب الفجر لم تبق إلا شمعة واحدة تقاوم الفناء، تحتها كانت الورقة التى تحمل اسم المولود، ورفعت مريم الوليد الضخم بين يديها، وكانت الأم الخبيرة تجلس على سرير حورية فقربته منها قائلة:

- قبلى إبراهيم ياعمتى، حفيدك وحفيد سيد احمد السرسى.

وإن هى إلا أيام حتى عادت سرية من الجرن مسرعة، وأعلنت أنها توشك أن تضع طفلها، وقبل أن تأتى الأم الخبيرة من غرفتها، وحتى قبل أن تتمكن مريم من الوقوف على مدى اقتراب الوضع أطلقت صرخة قصيرة وهى تعلن أن طفلها يخرج منها، وكان ولدا أيضا.

فى تلك المرة لم يكونوا فى حاجة لأن يوقدوا الشموع لاختيار اسم

للمولود، فسرية التى كانت قد اقتربت كثيرا من أحمد، ربما بأكثر مما اقتربت منه أية زوجة أخرى اتفقت معه على أن تطلق على مولودها اسم سليمان.

لكن الأسرة واجهت مشكلة حقيقية عندما أوشكت شام على أن تضع حملها، مريم رأت أن ترسل فى طلب أبيها وأمها لتلد فى حضورهما، لكن التاجر الطوخى وزوجته طلبا أن يأخذا ابنتهما لتضع وليدها لديهما فى طوخ، القرية من "مصر" المحروسة، وكان ذلك ولما يزل تقليدا لدى معظم الأسر المصرية، بموجبه يحق للأصهار أن يأخذوا بناتهم الأبكار ليلدن لديهم فى أول ولادة، حتى تكون الفتاة فى رعاية أمها وإخوتها.

يعنى ذلك أن يأخذ التاجر الطوخى إبنته ويسافر بها كل ذلك المشوار من عزبة أحمد السرسى وحتى طوخ القليوبية، ويعنى ذلك أيضا أن يسافر أحمد بصحبتهم ليوصل زوجته إلى دار أهلها، إذ لا يصح أبدا أن يدعهم يذهبون بها دون أن يرافقهم إلى هناك، فذلك فى عرفهم هو العيب بعينه، ولكن ذلك يعنى شيئا لا يمكن إغفاله، إذ لم تكن مريم لتدعه يحدث حتى وإن دفعت حياتها ثمنا لمنعه، فابنها الذى سيرافق صهره فى رحلة الذهاب إلى طوخ سيقترب كثيرا من منوف ومن سرس، وقد يقابله أحد ممن يعرفونه هناك فتقع الواقعة التى فروا منها سنوات، وقد يضعف عندما يتنسم عبير الأرض الطيبة فيحوم حول المكان ليقف على ما يكون هناك، ويقع فى أيدى مطارديهم.

الأمر تطلب أن تجتمع الأسرة لتناقش المشكلة، دون أن يشعر الرجل

الذى يتأهب للسفر بابنته، وكذلك زوجته التى تجمع حاجيات ابنتها فى ثقة، فما تطلبه هى وزوجها لا يمكن فى الظروف العادية أن يكون محل اعتراض من أحد، بله أن يكون من زوج إبنتهما، الذى يعرفان أنه من حفاظ الأصول المرعية.

الصعوبة الأكبر فى الاجتماع هى أنه سيكون فى غير حضور شام، فاجتماعهم دون الصهر الطوخى وزوجته يمكن تدبيره بسهولة، لكن الذى يصعب تدبيره وتبريره هو الاجتماع من وراء ظهر واحدة من أفراد الأسرة، تحمل فى بطنها طفلا خامسا للرجل الذى ينشئ تاريخا جديدا للأسرة التى تبعثرت عبر الطريق بما فيه الكفاية.

أخرجهم أحمد من حالة الحرج، قال إنه يراهن على عقل شام، فهى زوجته التى يعرف قدر حكمتها وطيبة قلبها، والقبول بأشد الأوضاع إيلاما طالما سيوصلها إلى ما تريد، و لم يكن فى حاجة لأن يشرح لأمه وجدته وابنتى عميه ولا لموسى وسيد احمد الصغيرين اللذين كانا يلتصقان بأعمدة السرير الذى تجلس عليه الأم الخبيرة معنى ما يقول، فهم جميعا حتى الطفلين يعرفون أن شام ومنذ أصبحت واحدة من أفراد الأسرة فعلت لزوجها كل ما رأت وعرفت أنه يسعده، حتى أنها فى الأشهر الأخيرة كانت تفهم عنه قبل أن يطلب بلسانه.

تسلل خارجا إلى المندرة الكبيرة حيث اختلى بشام، كانت مستثارة إلى حد أن قلبها راح يدق بسرعة، بل إن طفلها الذى يوشك على الخروج إلى الدنيا كانت دقات قلبه تسارع هى الأخرى، وكانت تشعر بها، ظنت أن

زوجها سيطلعها على السر الذى يعرفه الجميع، حتى الطفلان الصغيران، وقد فشلت رغم كل الإغراءات التى قدمتها لهما فى جعلهما يبوحان بحرف واحد مما يعرفان، موسى بثأثأته وتعثره فى الاسترسال فى الحديث، وسيد احمد الذى يظن من لا يعرفه أنه أبكم.

فوجئت به يخبرها بأن هناك من الأمور ما يجعل فكرة ذهابها لتلد فى دار أبيها غير مناسبة، وإذ اعترى الشحوب وجهها فسر لها الأمر:

– إنهما ضرتاك، حورية وسرية، ورغبة أمى وجدتى فى ألا تضعى فى طريق علاقتك بهما عقبة، لا تقدر حتى الأيام على محوها.

صار لشحوب وجهها معنى آخر، فلقد اتجه أحمد بالحديث إلى معنى غامض تعجز عن إدراكه، فسألته:

– كيف؟!.

السؤال فتح له الباب على اتساعه:

– تعرفين بالطبع أن آباءهما رحلوا إلى مكان غير معلوم، ومن ثم فإن كل واحدة منهما ترى فى ذهابك إلى دار أهلك لتضعى طفلك تذكيرا برحيل الأهل وغيابهم، وميزة لك عليهما لا يمكن لهما معادلتها.

وتساءلت معترضة:

– وما ذنبى فى هذا؟!.

فأجابها:

– إنها الظروف يا حبيبتى.

وأحاط خصرها بيد ومسح بالأخرى على بطنها:

- إذا كانتا تغاران منك كل هذه الغيرة، ولا تغفران لى اختصاصك بكل هذا الحب، فيجب ألا تزيدى الأمر تفاقما.

ربما يكون الحديث الناعم قد أسكرها، وجعلها تقترب من فهم المطلوب منها، فهى لا تفهم على وجه اليقين كيف يكون لذهابها للولادة فى دار أهلها كل هذا التأثير السيئ على علاقتها بضرتيها، لكنه إذا ما كان الأمر يتعلق بصلتها بزوجها وبطاعتها له، وباقترابها منه أكثر وأكثر، وبزيادة حظوتها لديه، فإنه إذا كان المطلوب أن تقنع والديها برغبتها فى الولادة هنا فهى ستفعل، حتى ولو كان الأمر بالنسبة لها غامضا، وحتى تعطى لنفسها المزيد من الوقت للتفكير دون أن يدرك ذلك قالت:

- ولكن إذا رفضا فلا حيلة لى فى الأمر.

فمال إليها وقبلها:

- أعرف أنك ستنجحين فى إقناعهما.

وانسحبت خارجة من المندرة الكبيرة تهز بطنها فى خيلاء، وإن كان عقلها يجاهد ليعثر على سبب واحد لاعتراض ضرتيها على الذهاب إلى دار أبويها لتضع حملها هناك.

فى حجرة جدته وجدهم جميعا فى انتظاره، نظراتهم المستطلعة تسأل بأبلغ مما تعنى الكلمات، لكنه ظل صامتا لبرهة، فهو لا يدرى إن كان من اللائق أن يخبرهم بما دار بينه وبين شام أو أنه سيكون مخطئا فى حقها إن

هو قال ذلك، ويعرضها للسخرية ولو في قابل الأيام، وأخيرا نفد صبر مريم فسألته:

- أيطول صمتك كثيرا؟!.

ابتسم لقولها، وأدخلت البسمة إلى قلوبهم طمأنينة افتقدوها لأيام، ونظر في عيني أمه وقرب فمه من أذنها:

- أول مرة أعرف أنه لا مفر للرجل صاحب الزوجات من أن يكون كاذبا.

لم يسمع أحد همسه لأمه، وهي أيضا كتمت ضحكة كادت تخرج منها، لكن الأم الخبيرة توقعت ما حدث فقالت من تحت الغطاء الذى تتقى به بردا غامضا:

- لا حيلة لك في الأمر، وهذا طريقك حتى النهاية.

لم يتمالك، وقف مندهشا واقترب منها، حتى إذا ما باتت في متناوله احتضنها، وقبل رأسها وخديها، اللذين نبت فيهما شعر الشيخوخة، فلقد عرفه من قبل في وجه جدته الكبرى.

انقلب الأمر على عقبيه عندما أمسكت بيده وهو يحاول أن يعود إلى موضعه، قبضت على ذراعه بكل ما تبقى لديها من قوة وقالت:

- عدني يا ابن الغالي.

سألها والدهشة تتملكه:

- بم يا جدتي؟!.

وعلى طريقته فى فهم الكثير من الأشياء كان يتوقع كلماتها، كأنه سمعها من قبل، بجرسها وحروفها:

– بأن تحملنى إلى هناك قبل أن أموت.

نعم، نفس الكلمات كان قد سمعها من قبل، لا يدرى أين أو متى، لكنها نفس الكلمات، نفس الجرس، نفس التنهدات والزفرات الحارة، بل نفس التشبث بذراعه بقوة لا يدرى من أين استمدتها، وكانت تواصل:

– لا أريد أكثر من أن أشم هواءها، أرى دورها من بعيد، أقف تحت شمسها ذات مرة، أغمر نفسى بضوء قمرها وهو بدر.

بكاؤهم فى ذلك اليوم كان صامتا، تنحدر الدمعات فوق الخدود وتسرع لتسقط من جانبى الذقون، وحدهما كانا موسى وسيد احمد اللذان بكيا بصوت مسموع، بكاءً جعل أبوهما يسارع لأخذهما فى حضنه، لكن جدته ظلت متشبثة بذراعه الأخرى:

– أتعدنى؟!.

فحمل الطفلين ووضعهما إلى جوارها فوق السرير، وأجاب والدموع تغسل وجهه:

– أعدك يا جدتى.

لم يجد ذلك الوعد صدى طيبا لدى مريم، لكنها كانت تتمنى لو أنها طلبت من ابنها أن يعدها هى الأخرى، وكذلك كانت حورية وسرية، فكلمات الأم الخبيرة حملتهم من المكان كأنها أياد ربانية، وطافت بهم من علو فوق البلد الجميل الذى لم يذكروه بألسنتهم طوال السنوات الفائتة،

لكنه كان يعيش فى دواخلهم بكل تفصيلاته، الدور والشوارع والحارات والأزقة، أكداس القش والحطب فى الأجران، تبن القمح والفول وبقايا سيقان الكتان والتيل، وتيجان البذور المتفتحة، الجافة الفارغة، دوارهم الضخم، بيت ضيافته، مخازنه وحظائره ومكاتب وسينه، بواباتهم الكبيرة الرائعة وسلماتهم الرخامية، والدار الكبيرة التى لا حدود لضخامتها وجمالها، أبوابها ونوافذها، جمالونات سقفها العالى، بياض جدرانها، وأشغال الحديد فى نوافذها وشراعاتها وعلى جانبى سلمها الداخلى.

عاشوا فى الدار الكبيرة ساعة لطيفة، تنقلوا بين الغرف وجلسوا فى البهو الكبير، لكن مريم لم تستطع أن تطرد جسد المملوك الهائل، الذى يتراءى لها فى أحلامها ويوشك أن ينهار فوقها، ولا أن تبعد عن مسامعها الزفرات والحشرجات التى تصدر عنه وهو ملقى على الأرض، والتى صارت منذ عايتها فى تلك اللحظة البعيدة تختلط بكل الأصوات التى تسمعها، أما أحمد فإنه لم يبارح أبدا ذلك الصوت العجيب، صوت سن البلطة وهو يشق عظام رأس المملوك القديم، الصوت الذى ينتزع نفسه من ربقة الزمن، فيستبدل بالجزء من الثانية الذى حدث فيه أزمانا تمتد إلى ما لا نهاية.

أقنعت شام والديها بالبقاء معها حتى تضع حملها فى دارها، وعندما أخبرت زوجها بموافقة الوالدين وقف حائرا، فهو لا يعرف كيف يرد الجميل لصهره الذى مد له يد العون المرة بعد المرة، والذى يثبت أن الأيام لا تقدم للناس الشرور فقط، بل تقدم خيرات لا تحصى، ولقد قدمت له هذا الصهر الذى دفعه للمضى للأمام فى مشوار فراره، حتى بات أقرب

إلى الأمان منه إلى الخطر، والذى منحه ابنه لتكون زوجة ثالثة بعد ابنتى عميه، والذى حمى برجاله الأشداء داره فى أكبر محنة واجهها بعد الخروج من هناك.

لم يفهم الصهر الطوخى ولا زوجته سر البهجة التى يعيشها أهل الدار وهم يعاينون طلوع الصبح، ولا ما فعله أحمد وأمه ترحيبا ببقائهما لديهم حتى تضع شام حملها، فلقد نحروا من أجلهما الذبائح، ودعا أحمد أصدقاءه ليشاركوا صهره الطعام والسمر، تركت حورية حجرتها وانتقلت بموسى وإبراهيم إلى حجرة سرية، حتى يكون لهما طوال الفترة التى سيمكثانها فى الدار حجرة مستقلة، يغلقان من دونهما بابها، وشيئا فشيئا جمعت الألفة زوجة الصهر الرائع بمريم وبالأم الخبيرة، صارت معهما كأنها الأخت، وأخذت تتجول فى الدار كأنها واحدة منهن، تساعد فى ذبح الطيور وتنظيفها وإعداد الطعام وغيره من أمور الدار، كل ذلك وأحمد لا يعرف كيف أو متى سيطلع هؤلاء الأصهار على سره الرهيب.

كان خائفا بشدة، فساعة تبدو الدنيا فى سبيلها للاكتمال تكون فى الحقيقة آخذة فى النقصان، وها هى الأيام تمضى سعيدة ومسترسلة، وهذا بالضبط ما ينذر بالخطر، واتجه ببصره إلى شام، وأشفق عليها من ثقل حركتها وارتفاع بطنها، وفاتح فى ذلك أمه فرجحت أن تكون حاملا فى توأم، لكن هذا التفسير لم يهدئ من روعه، فقط جعله يتظاهر بالهدوء، لكنه سرعان ما عاد إلى حاله، وتملكه الخوف حتى حرمه النوم.

انتقال حورية بوليدها للنوم فى حجرة سرية وتركها حجرتها للصهر الطوخى وزوجته أعطى أحمد فرصة لأن يلازم شام طوال الوقت، فهو ينام لديها فى كل ليلة، وكثيرا ما كان يقوم فى الليل ويتأملها وهى نائمة، كأنما يملأ ناظريه منها قبل أن ترحل، لكن كل شىء مضى فى يسر، وعلى غير ما كان يخشى، فقرب فجر أحد الأيام شعر بيد تمتد وتستخلصه من رحاب الدار الكبيرة، فاستيقظ ليرى وجه شام وهو يتسم، ولكنه كان متقلصا، وأخبرته فى هدوء أن الوجع يزداد بصورة لم تعد تتحملها، وطلبت أن يوقظ أمها لتكون إلى جوارها، ثم يذهب إلى المقاطعة ليأتى بالداية، فالأم الخبيرة لم تعد تقدر على شىء، لكنه خرج من الحجرة دون أن يحسم أمره.

هداه تفكيره إلى أن يرسل أحد رجاله ليحضر الداية، وفى طريق عودته إليها نقر بخفة على باب صهره فاستيقظت الأم، وقبل أن تخرج من حجرتها وجد أمه شاخصة أمامه، فهى لم تنم طوال الليل، فى انتظار اللحظة التى أدركت أنها ستكون الليلة.

الصبح طلع وجلبة الداية تقترب من الباب، كانت تطلب من الرجل إنزالها من فوق ظهر المطية، وتمهيدا للنزول ألقت بصرتها حتى لا تعوقها، فهى امرأة شحيمة، وكانت مريم قد قاست البعد بين عظمتى الحوض فوجدت أنها لا تنفك تتسع وتتسع، لكنها أيضا وبخبرة لا يستهان بها عرفت أن الطفل قادم برجليه وليس برأسه، واجتهدت لتخفى عن ابنها توترها وخشيتها.

عندما جلست الداية بين رجلي شام وطلبت منها أن تضغط بكل قوتها كانت قدما الطفل قد خرجتا حتى الركبتين تقريبا، واحتارت المرأة، فهي لم تعد قادرة على أن تعيد دفع الرجلين إلى داخل الرحم لتعدل من وضع المولود، وفي حال استمرارها في إخراج الطفل على هذا النحو فإنها وقبل أن يخرج بكامله ستعرضه للاختناق، وهو ما يجعل فرصة نجاته ضئيلة.

أم شام أدركت الوضع هي الأخرى، وطلبت بإصرار أن تقوم المرأة بدفع القدمين إلى الداخل، في محاولة لتعديل وضع الجنين، لكن المرأة قالت إن الرجلين خرجتا بكاملهما تقريبا، ولا فائدة من الدفع بهما إلى الداخل، فهما لن تدخلا بأي حال، وفوجئت النسوة بالأم الخبيرة تدخل عليهما الحجرة.

حورية كانت تجلس هناك في وسط الدار تقرأ ما تعرفه من الآيات، وتبكي حظ ضرتها العاثر، أما سرية فإنها كانت تساعد بكل ما أوتيت من قوة، تغلي الماء وتنقله للحجرة التي تلد فيها ضرتها، وتراعي الأطفال الأربعة وترضع الوليدين، فلبن حورية كان شحيحا، كما كانت تعد الطعام لزوجها وصهره، وللرجال الذين خرجوا بالقطعان إلى مرعى قريب، ولهؤلاء الذين يرعون البهائم في الحظائر.

والظهر جاء وشام لم تضع حملها، لقد نجحت الأم الخبيرة في إدخال القدمين وتمكنت من تعديل وضع الجنين، ولكن بصورة ليست كافية لأن تصير الولادة طبيعية، فالوالدة أفرغت كل مائها، و لم يعد الدفع يصنع الكثير لإخراج الجنين، ومع اقتراب الظهر خارت قواها وأخذت

تنحو نحو الغياب والسقوط فى براثن النهاية، فكانوا يكسرون البصلة تلو البصلة عند أنفها، بل إن أمها ذات مرة دست البصلة فى أنفها حتى تستعيدها، وصرخت مع استعادة الوعى صرخة عظيمة شقت سماء المكان الذى يغرق فى صمت ثقيل.

خارت قوى الأم الخبيرة فطلبت من الداية أن تحاول من جديد، وإذ تمنعت المرأة قليلا، أو تباطأت أقدمت مريم لتتم الأمر بنفسها، وفى اللحظة التى أزاحت فيها المرأة الشحيمة وجلست بين فخذى زوجة ابنها لتتولى الأمر رأت الرأس ينزل منها فى هدوء كأنه لم يمتنع عن ذلك لنصف يوم، ومدت يديها وتلقفته، وقبل أن تطلب من شام أن تدفع من جديد كانت الجذبة البسيطة كفيلة بإخراج المولود.

عادت الروح إلى الوالدة، وإذ لاحظت مريم أن المولود لا يتنفس أمسكت بقدميه ورفعته مقلوبا فى الهواء، وراحت تضرب على ظهره برفق حتى انفجر من براثن الصمت صارخا للحياة، كان ذكرا هو الآخر، مثل الأربعة الآخرين الذين تحبسهم سرية فى حجرتها وتطل عليهم بين الحين والحين، وما أن اطمأنت مريم على شام، وسمعتها تتحدث مع أمها فى وهن حتى أطلقت زغرودة شقت سماء الدار والجرن والفضاء المحيط، وطار الحمام من البنانى المنصوبة فى سقف الفناء كأنما يشارك فى الفرح.

عندما جن الليل دخل أحمد إلى الحجرة، طفله غارق فى لفائفه فى عمق السرير، وشام تغالب للانتصار على شحوبها، الحجرة عبقة بروائح الميلاد، رائحة الطفل، والحلبة التى تغلى فوق موقد صغير فى الركن،

وعجوة البلح المحمرة فى سمن الضأن، ورائحة مرق الديك الشمورت الذى لا بد أن تأكله بأكمله فى كل مرة يقدمون فيها الطعام.

روائح خبرها أربع مرات من قبل، وكانت زوجتاه حورية وسرية تصران على أن يشاركهما الطعام، فكان يتناول القدر القليل منه حتى لا يغضبهما، وفى هذه المرة كان مستعدا لأن يشارك شام الطعام، لا عن رغبة فيه ولكن عن حب، وإذ رأت حماته شعوره يتألق فى عينيه تصنعت الخروج من الحجرة لأمر ما، وعقب خروجها قام وأغلق الباب، وبادر زوجته:

– أنت الآن أم إبنى، ولك الحق فى معرفة من أكون.

لم تكن فى حال يمكنها أن تتحرك فى سريرها بمجرد الحركة، لكن عقلها كان مهتاجا بشدة، وروحها كانت ظامئة إلى معرفة السر الكبير الذى يعرفه الجميع إلا هى:

– أنا أحمد ابن أحمد سيد احمد موسى سيد احمد السرسى، مريم أمى والأم الخبيرة جدتى، وحورية وسرية بنتا عمى.

وابتلع ريقه:

– نحن من قرية سرس الليان مديرية المنوفية، ولقد خرجنا من بلدنا فارين من وجه الباشا، محمد على نفسه، وإبنه إبراهيم، لأننا اتهمنا بقتل رجلهما المملوك قُفّل، وهم يواصلون البحث عنا حتى الآن.

وإذ رأى أن وجهها يمتقع ابتسم وهو يردف:

– ينتظرنا إذا عثروا علينا مصير بائس، لذا فإنه لا يجب أن يعرف

أحد هذا السر أبدا، فلقد تركنا من ورائنا دارنا الكبيرة وأجراننا ومخازننا وحظائرنا وأراضينا ومطاحننا ومعاصرنا وأهلينا، وبلدا كنا أصحابه لقرون.

لم يدر إلا وهى تتشبث به، وتتحرك فتلتصق به، وتجذبه لتضع على جبهته قبلة لم يشعر بمثل عذوبتها ما بقى فى الحياة.

عود على بدء

في حربها ضد السلطان العثماني وبدلا من الزحف إلى الآستانة توقفت القوات المصرية عند كوتاهيه، و لم يلق الصلح الذى أبرم فى ربيع العام 1833 والذى اشتهر باسم صلح كوتاهيه قبولا من الطرفين، برغم أنه أعطى لمحمد على ولاية سوريا إلى جانب مصر إلا أن ذلك لم يحقق أطماعه، و لم تعكس نتائج الصلح الحقائق الموجودة على الأرض، فالقوات المصرية منتصرة، وتوشك لو تركتها القوى الأوروبية أن تقضى على الإمبراطورية العثمانية وتجعلها أثرا بعد عين، وفى المقابل كان السلطان العثمانى متذمرا، فلقد حز فى نفسه أن يتصر عليه أحد ولاته، خاصة وأن انجلترا كما أسلفنا كانت ترى فى انتصارات الجيش المصرى تمهيدا لتأسيس امبراطورية مصرية قوية تهدد مصالحها ومواصلاتها فى الشرق.

وكان محمد على باشا قد أمر بتحريك قواته فى الحجاز فى اتجاهات عدة مكنته من السيطرة على مواقع هامة تمهد لامبراطوريته الموشكة على التحقق، اتجه جنوبا واحتلت قواته عددا من الموانئ اليمنية على ساحل البحر الأحمر، وكان أول ما فعله هو احتكار تجارة البن وغيرها من

الحاصلات التي يغلها اليمن، كما اتجه شمالا نحو الخليج العربي للسيطرة على سواحله. كل ذلك أزعج الحكومة الانجليزية بشدة فأخذت جانب السلطان العثماني وألبت الدول الأوروبية الكبرى عليه.

لم يستطع محمد على باشا أبدا أن يقنع الانجليز بما فى صداقتهم له من خير، وعندما لوح بإمكانية أن يقوم بصد الخطر الروسى عن الشرق بأجمعه لقى اقتراحه المزيد من الصدود، فلقد كانت الحكومة الانجليزية وعلى رأسها اللورد بالمرستون تكرهه بشدة، بسبب اتصاله الوثيق بفرنسا، واستعانته بالعديد من المستشارين الفرنسيين، وكان ذلك يغذى الاعتقاد الانجليزى بأن كل امتداد لنفوذ الوالى المتمرد لا يعنى إلا زيادة النفوذ الفرنسى، بل إن رجالات أوروبا ومفكريها كانوا يرون فى نشوء دولة إفريقية قوية – يقصدون مصر – من أجَلّ الأخطار التى تهدد الغرب.

فى الحقيقة لم تكن فرنسا نفسها مؤيدة لاستقلال مصر التام عن الدولة العثمانية، وكانت ترى ضرورة الإبقاء على محمد على وما يتبعه كجزء من نظام الرجل المريض، حتى يحين الوقت لاقتسام ممتلكاته.

فى الفترة من ربيع العام 1833 وحتى خريف العام 1839 خاضت القوات المصرية حروبا طاحنة ضد القوات العثمانية، وعبثا حاول السلطان العثمانى أن يرد الجيش المصرى على أعقابه لكنه منى بفشل ذريع، وفى لطمة شديدة الإيلام انتصرت القوات المصرية على الجيش العثمانى فى موقعة نزيب فى يونية من العام 1839، وأدى ذلك إلى أن يفر القبطان أحمد فوزى قائد الأسطول العثمانى بكل القطع البحرية التى تشكل

كامل الأسطول العثماني إلى ميناء الإسكندرية، وعندما نجح في ذلك وضعه بين يدى محمد على باعتباره السلطة الوحيدة القائمة التى تستطيع المحافظة عليه.

أوروبا كلها اجتمعت ضد محمد على الذى راهن على نصرة فرنسا له، لكن الفرنسيين خذلوه، واجتمعت القوى الأوروبية الكبرى بدون فرنسا فى مؤتمر لندن سنة 1840 وعرضت على السلطان العثمانى تثبيت محمد على فى حكم مصر، على أن يكون حكمه وراثيا، وأن يمنح ولاية عكا طوال حياته، وتظل مصر مرتبطة بالدولة العثمانية بقيود تتمثل فى دفع الجزية والحرمان من التمثيل الخارجى وتحديد عدد قوات الجيش والأسطول، بما لا يسمح بأن تشكل تهديدا لأحد.

رأى محمد على فى معاهدة لندن إجهاضا لحلمه الكبير فعمد بناء على مشورة فرنسية إلى رفضها، وأنذره الحلفاء وعلى رأسهم انجلترا بالتنفيذ وإلا واجهت قواته حربا أوروبية، ورفض إنذار الحلفاء، معتمدا على قوة جيشه وتأييد فرنسا، لكن فرنسا خذلته للمرة الثانية، ورأت فى مساعدتها له خطرا يؤدى إلى اندلاع حرب أوروبية واسعة.

فى ذلك الوقت كان الانجليز يعملون بكل طاقاتهم الامبراطورية، جعلوا السلطان العثمانى يقر بمعاهدة لندن، ويوافق على أن تتخذ أشد الإجراءات ضد القوات المصرية المرابضة فى الأناضول وفى الشام، وأبحر الأسطول البريطانى إلى بيروت وضربها بالقنابل، ثم أنزل جنودا من الانجليز والنمساويين والعثمانيين على شواطئ سوريا، ووزعت تلك القوات الأسلحة على الثوار فى جبال لبنان ليحاربوا القوات المصرية.

والقوات المصرية التى لم تعرف إلا الانتصارات على مدى أكثر من ثلاثين عاما بدأت تعانى الهزائم، سقطت صيدا ثم تلتها عكا، وتدهور موقفها، فأجلى إبراهيم قواته عن أطنة والاسكندرونة وحلب ويافا والقدس، وقاد تراجعا مريرا عبر الصحراء، حتى وصل إلى غزة، ومن هناك استقل ومن معه من جند السفن التى أرسلها أبوه لتقلهم إلى مصر.

بعد مداولات وافق محمد على باشا على مقررات مؤتمر لندن، وفى 10 يونية سنة 1841 قرئ الفرمان العثمانى بتثبيت محمد على باشا فى حكم ولايتى مصر والسودان، حكما وراثيا فى أسرته من بعده، وفى حكم عكا طوال حياته، وتحدد عدد قواته بما لا يزيد عن ثمانية عشر ألف جندى وضابط، كما تحدد عدد القطع البحرية التى يمتلكها، وفُرِضَت قيود صارمة على تسليح قواته وقطعه البحرية المتقلصة، كل ذلك على أن تكون تلك القوات جزءا من القوات العثمانية، تخضع للأوامر السلطانية فى حال الحرب والسلم.

انكفأ الباشا على نفسه، وعادت قواته إلى مصر حيث جرى تسريح معظمها، لكن ذلك الانكفاء لم يكن هزيمة خالصة للرجل الذى حلم ذات يوم بامبراطورية ضخمة تكون مصر قاعدتها، فلقد خلص له ولأولاده من بعده حكم مصر، وهو أمر استثنائى تماما فى تاريخ الولاة العثمانيين، وكانت أخبار الانكفاء والعودة بالنسبة لعائلة أحمد السرسى غير سارة، فالرجلان اللذان كانا غارقين فى حروبهما فى طول الدنيا وعرضها عادا ليتفرغا لإدارة البلاد بنفسيهما وبكامل طاقاتهما، بدلا من أن يديرها من

أجلهما الآخرون، وذلك لا يعني إلا أن الفترة القادمة ستكون جد عصية، فقد يتجدد فيها أمر البحث عن الأسرة الهاربة، وفي ظروف مثل هذه قد تجد الوشايات لدى الرجلين آذانا مصغية.

كل شيء كان يتغير، فبرغم إغلاق المصانع التي يذهب معظم إنتاجها إلى الجيش، وبرغم تقليص المدارس التي تمده بالفنيين والموظفين، إلا أن حياة الفلاحين أضحت أيسر مما كانت عليه من قبل، فلقد خفت قبضة الدولة على الناس، ولم تعد الفرق العسكرية تهاجم القرى بحثا عن الشبان لأخذهم للجيش، أو في السخرة في المشروعات المساعدة للأعمال العسكرية، كتعبيد الطرق وغيرها، وتباطأ العمل في المشروعات العامة بشكل ملحوظ، لكن احتكار كل شيء ظل سمة مميزة لنظام الباشا، فهو لم يكن يعرف إلا طريقا واحدا لصناعة البلدان، وهو الطريق الذي انتهجه متأثرا بمستشاريه الفرنسيين من أتباع سان سيمون، والذين لعبوا دورا عظيما في بناء دولته الفتية، وزينوا له فكرة الاحتكار لتكون الموارد كلها تحت يده، ومن ثم يستطيع أن ينهض بما يتطلبه بناء الدولة المنشودة من خطط وبرامج ومشروعات.

تلك كانت الفترة الذهبية التي تمكن فيها أحمد السرسي من إصلاح أراضي أبعديته، فلقد تكاثر العاطلون عن العمل، وعاد من الحرب رجال لم يكونوا يعرفون كيف يعيشون، بل إن هؤلاء الذين اعتادوا العمل في المشروعات العامة ظلوا في أماكنهم دون استدعاءات من قبل السلطة، أو مهاجمات من العسكر الذين كانوا يجوبون البلاد طولا وعرضا، كل

هؤلاء فضلا عن الفلاحين العاديين الذين يعملون بضعة أيام فى السنة ويظلون يتنقلون مع الظل إلى جوار الجدران طوال العام كانوا أداة أحمد السرسى فى تمهيد الأرض وجعلها صالحة للزراعة.

لكنه وبرغم كل شيء لم يتمكن إلا من إصلاح بضع عشرات من الأفدنة، ولتوقف العمل فى المشروعات العامة توقفت فكرة شق ترعة قادمة من برقين حتى مكان عزبته، وهى الترعة التى تأخذ من ترعة أكبر هى ترعة البوهية الآخذة بدورها من ترعة أخرى تأخذ مباشرة من النيل.

واتسعت الأسرة اتساعا مدهشا، فلقد أنجبت حورية ابنا آخر هو السيد، كما أنجبت سرية بنتين هما فاطمة وأم الرزق، أما شام فأنجبت إبنا آخر هو إسماعيل، وصار لزاما وقد ازدحمت الدار بساكنيها أن يقوم أحمد ببناء دار لكل زوجة من زوجاته، وفى البراح المجاور للدار القائمة شرع أحمد يعاونه إبناه موسى وسيد احمد اللذان شبا عن الطوق فى إقامة دور بعدد الزوجات.

ثلاث دور بناها على غرار الدار الأولى، وفى كل مرة يتساءل أحد عن مغزى إقامة الدور الثلاث بالإضافة إلى الدار الرابعة كان يتعلل بإبقاء الدار القديمة مقرا لأمه وجدته، وفرصة لالتقاط الأنفاس إذا ما رأى أن يعتزل نساءه، وكان يضحك من قلبه تلك الضحكات التى لا بد ورثها عنه أولاده وأحفاده، ضحكة صافية مجلجلة تشق الفضاء، ولا تنبئ أبدا عن أن صاحبها يعانى الكدر من أى نوع.

لكنه فاجأهم كلهم ذات يوم عندما أعلن أنه سيتزوج من إحدى

قريبات الشيخ عزام، لا يعرف أحد ما الذى كان يفكر فيه، إذ لم تكن العروس الجديدة على قدر من الجمال يبرر تلهفه على الزواج منها، فضلا عن أنها كانت من الفرع الأفقر فى العائلة المعروفة، والتى ربطتهم بها أول علاقة لهم فى المكان.

اشتعلت الحرب ولم تضع أوزارها، حتى مريم اعترضت هذه المرة، فالعزبة تغص بالأبناء من كل نوع، ومن كل الأعمار، سبعة من الذكور يتقدمهم فتيان هما موسى وسيد احمد، ومن بعدهما مباشرة ثلاثة أولاد فى عمر واحد تقريبا هم إبراهيم وسليمان ومحمد الطوخى، وولدان لما يزالا فى عمر الطفولة هما السيد وإسماعيل، فضلا عن بنتين هما فاطمة وأم الرزق.

لم يقدروا على منعه من الزواج بزكية، فلقد عقد على الفتاة ووضعهم أمام الأمر الواقع، لكنه أبقاها فى دار أبيها مؤجلا الدخول بها حتى يهيئ الظرف المناسب لإحضارها، رأيه كان أن يحضرها لتقيم مع أمه وجدته فى الدار القديمة، حتى تقوم على خدمتهما، باعتبار أنها فتاة صغيرة وغير مشغولة بالأبناء، لكن الحرب التى اشتد أوارها كانت تدور حول أشياء كثيرة، أولها مسألة حاجته للزواج من الأصل، ومن بينها أثيرت مسألة من منهن التى ستقيم بأولادها فى الدار القديمة مع الجدتين.

طبيعى أن تنحاز الجدتان إلى كل من حورية وسرية، فالأم الخبيرة التى أقعدها المرض والعمر لم تكن لتقبل أن يطلع أحد على أسرار تقاعدها إلا حفيدتاها، حورية وسرية، فبرغم قعودها وضعف بصرها كان عقلها الجبار

يعمل بكامل طاقته، وكانت مرهفة السمع بصورة جعلت كل أهل الدار يحذرون من بمجرد التهامس بالقرب منها، أما مريم التى رفضت بشدة أن يطلق ابنها إسمها على إحدى بناته فإنها - وقد عبرت الخمسين - كانت لما تزل على قدر من الجمال والفتوة يعطيها مظهرا أقل بكثير من عمرها، وكانت منحازة بشدة إلى كل ما ترغب فيه عمتها الأم الخبيرة، بل إنها فى الكثير من الأحيان كانت تقوم على خدمتها بنفسها غير منتظرة إسهام الحفيدتين حورية وسرية، أو بالأحرى كانت تتحفظ فى الاستعانة بسرية حتى لا تغضب حورية، التى كانت طوال الوقت معتلة، وشديدة الحساسية تجاه أى مسلك ينم عن أن صاحبه يتراف بها أو يراعى ضعفها، وكانت لا تنفك تبكى إذا ما شعرت بأن أهل الدار يتجاهلونها بسبب عللها، وهى مردها إلى ضعف عام أعيتهم الحيل فى الانتصار عليه، و لم تكن مريم لتجد أفضل من أن تقول لها إنها من بين كل زوجات ابنها الوحيدة الأم لثلاثة من الذكور، وكانت بذلك تهزم وساوسها وشكوكها وانحراف مزاجها، وتوترها الدائم.

لكن المفاضلة بين الحفيدتين لم تتأخر كثيرا، فما أن علمت الفتاتان أن المفاضلة انحصرت فيهما حتى أعلنت كل منهما تنازلها للأخرى، واختارت مريم أن تنحاز لحورية، لأسباب كثيرة، لعل أهمها أنها كانت تشعر بشىء من الذنب باعتبار أنها هى من شجعت ابنها على الزواج من الأخريات، وباعتبار أن حورية هى أول من قاست حرقة القلب الكاسرة التى تشعر بها من يتزوج عليها زوجها، فضلا عن رغبتها فى أن تضعها تحت ملاحظتها ليل نهار.

اختارت وضعا بجعل الحفيدتين تقيمان فى الدار القديمة بشكل دائم، فلقد أمرت ابنها بأن يصل ما بين وسطى الدارين المتجاورتين، الدار القديمة والأخرى الجديدة المجاورة لها، حتى يكون فناء الدارين مشتركا ومن ثم تشترك الزوجتان ابنتا العم فى تربية الدواجن والحمام والأرانب، فضلا عن الاشتراك فى الفرن والكوانين وغيرها من الأغراض التى يحفل بها الفناء الرحيب، ومن ثم تضمن مساعدة متوقعة وغير جارحة من سرية لابنة عمها معتلة الصحة.

خلت المندرة الكبيرة من جديد، فبعد أن كانت محلا لنوم الأطفال الذين ضاقت عليهم حجرات أمهاتهم، ها هم يرحلون إلى دور أمهاتهم ويتركونها، وما أن فعلوا حتى أمرت مريم بترميمها وطلائها بالجص، ودك أرضيتها بالدهشوم قبل رصفها بأحجار صغيرة مربعة من البازلت الأسمر والأحمر الذى أحكموا صقله، وأعادت فرشها بمقاعد جلبوها من دمياط، وأرائك اسطمبولى صنعها نجارون محترفون، ومناضد فى الأركان وأمام الأرائك، فضلا عن منضدة كبيرة تتوسطها مغطاة بمفرش كبير من الكتان المطروز بالحرير، وجلبت من المنصورة سجادة كبيرة من الصوف صنعها النساجون على مقاس المندرة، وعلى النوافذ التى تلف مع الجدران الأربعة وضعوا ستائر من الكتان المشغول بالحرير أيضا، وعادت المندرة لتكون آية من آيات الجمال.

جاء وقت الأخشاب التى خزنوها من أعوام طويلة، وقت أن منعت مريم ابنها من التوسع فى البناء حتى لا يثير غضب الأعرابى، وها هى الآن، الأبواب والنوافذ وألواح السقف والأرضية، وعروق الخشب

المصقولة، تكفي وزيادة لتعمير الدور الثلاث التي بنوها في زمن قياسي، لكن الدار الأولى ظلت هي الأفخم من كل ما عداها، ليس من ناحية البناء أو التجهيز، ولكن من زاوية التاريخ والذكريات، والأحداث التي مرت بها، فلقد صارت لها من المعزة التي كانت لدارهم الكبيرة في سرس الشيء الكثير، بل ومن الحنين الذي يشعرون به تجاهها.

ما أن استقرت كل أم بأبنائها في دارها الجديدة حتى حل موسى بالنسبة إلى جدتيه محل أبيه، يشاركه في ذلك سيد احمد الذي لم يكن يفارق هو وأخوته الدار القديمة إلا للنوم، واكتشفت الأم الخبيرة في حفيديها موسى وسيد احمد خصالا لم تكن من فرط الزحام لتعرفها، فهذا موسى أشبه الأبناء بأبيه وأسلافه، له نفس القدرة على الجلد والمزاح معا، لكن شيئا من طبع أمه تأصل فيه، جعله هذا الشيء سريع الغضب سريع المغفرة، ولما كان أبناء حورية لا يفتأون يصخبون طوال الوقت، يتعاركون ويتصالحون فلقد أطلقت عليهم اسم عائلة حورية.

في البدء كانت التسمية تغضب حورية وأولادها، لكن كثرة استعمالها محت معناها السيئ من النفوس وصارت مجرد محل للتندر حتى من قبل حورية وأبنائها، أما في دار سرية فإن سيد احمد كان يأخذ شيئا فشيئا الكثير من طبع أمه، الهدوء والعقل، والكثير من الإيثار الذي جعله طوال الوقت ملاذا لأخوته، فكثيرا ما كان إبراهيم الذي يزحف بإصرار نحو الرجولة يلجأ إلى حكمته وهدوئه بدلا من حدة موسى، وكثيرا أيضا ما كان يجمع أخوته من حوله لمشاركته الطعام عندما تذبح أمه الطيور السمينة التي تنجح في تربيتها بامتياز، لكنه كان يشعر طوال الوقت بأنه

فى منافسة مع أخيه الأكبر، وربما يكون وهو فى هذه السن المبكرة قد وجد فى موسى اندفاعا وجسارة جعلاه يتمنى لو يكون مثله، أما وهو ليس كذلك فإنه كان طوال الوقت ميالا لنقد تصرفاته.

لكن موسى ظل هو الأكبر بامتياز، ظل هو الخصم الذى يخشى الآخرون بأسه، عندما يتعلق الأمر بكرامة الأسرة أو بحقوقها، وكان هو الذى يظل فى الغيطان طوال اليوم، يراقب عمال أبيه ويساعد فى شق القناة التى تنقل الماء من البوهية إلى الأرض الممهدة لزراعتها، وكان هو أيضا الذى يتولى الفصل بين حدود الأبعدية وما يجاورها من أراض كان أصحابها يطمعون فى البراح المجاور لهم، والذى لم تطاله يد التمهيد بعد، وظل لأعوام يضع الحدود الفواصل بين أملاكهم وأملاك جيرانهم، حتى صارت كل حدود الأبعدية محددة، وعلى نحو لا يقبل أى قدر من التجهيل.

كل ذلك وأحمد السرسى مشغول بأصحابه وضيوفه وسماره، وبتدبير الأنفار من هنا أو هناك، وفى الكثير من الأحيان بجمع الأطفال من حوله ليعلمهم شيئا من القرآن ومبادئ القراءة والكتابة، فالذى يعرفه كل نابه من أبناء أسرتنا أن ظروف الهروب والاختباء فرضت عليهم الانقطاع عن التعليم.

ولكم جاهدت حورية لتقنع زوجها بأن يذهب بموسى وإخوته إلى الجامع الأحمدى فى طنطا، لكن مريم وقفت لها بالمرصاد، إذ لا يعنى ذلك إلا شيئا واحدا، هو انكشاف أمرهم، ومن ثم إلقاء القبض عليهم واستئصال شأفتهم، وإذ وجدت سرية أن الغضب انصب على رأس حورية

لما جاهرت بالمطلب المحرم ابتلعت رغبتها فى تعليم أبنائها، واكتفت بطلب أن يذهب سيد احمد الصغير إلى مدرسة الزراعة التى أنشأها محمد على باشا فى نبروه من أعمال طلخا المجاورة للمنصورة، لكن المنطق الذى حتم رفض مطلب حورية كان هو نفسه من وراء رفض مطلبها.

عبثا ضاعت جهود أحمد السرسى فى تعليم موسى القراءة والكتابة، لكن جهوده أثمرت فى تعليم سيد احمد، بل إن سيد احمد أظهر نجابة فى حفظ القرآن جعلت من أحمد كثير الإلمام به لتعليمه المزيد، وكذلك أظهر محمد الطوخى نجابة لا تقل عن نجابة أخيه، لكن كثرة أشغال أحمد جعلت حصص الدرس تتباعد شيئا فشيئا، إلى أن توقفت بشكل كامل، و لم يكن من بين الأبناء من يجيد القراءة والكتابة إلا سيد احمد، أما محمد الطوخى وموسى فكانا يكتبان اسميهما بالكاد.

العلاقة بالعمد المحيطين بالمكان ظلت كما هى، لكن التقدم فى إصلاح أراضى الأبعدية تراجع كثيرا، نظرا لقلة الماء الكافى للزراعة، فبعد تمهيد ثلث المساحة لم يعد ممكنا إضافة فدان واحد جديد، فالماء لا يكفى للرى، وعبثا حاول أحمد أن يطلب المزيد من الماء لكن ندرته وقفت عائقا أمام مجهوداته، و لم يكن لأصدقائه أى حول لنصرته فى ذلك المطلب العزيز، فحتى الشيخ دسوقى عمدة المقاطعة - وكان يمتلك أبعدية تربو على السبعمائة فدان - عجز عن تدبير الماء لأراضى أبعديته، وهو العمدة عضو مجلس المديرية.

وفى أصيل يوم خريفى صهلت مهرة الشيخ دسوقى أمام المندرة الكبيرة فخفت الدور كلها لملاقاته، وخرج أحمد من دار إحدى زوجاته مهللا

ومرحبا، وفي داخل المندرة الكبيرة اختلى العمدة بضيفه وأضاءت ملامحه وهو يهمس في أذنه:

– لقد فقد عقله يابن السرسي، لقد جن.

الدهشة عقدت لسان أحمد، لكنها لم تمنعه من السؤال:

– من؟.

فاختلجت كل ملامح الرجل بالفرح:

– غريمك يا أخرق.

وحتى لا يدع أي مجال آخر للتخمين أردف:

– الباشا، محمد علي نفسه.

قلب أحمد كان يدق بسرعة، لا يدري إن كان عليه أن يفرح أم يؤجل فرحته، وأخيرا وأمام إلحاح قسمات الرجل قال:

– كيف؟!.

أجابه الرجل:

– يقولون إنه لم يعد يعرف أحدا، حتى أبناءه، بل ويؤكدون أنه لم يعد يعرف حتى من هو.

وبعد قليل من الانتظار والتمعن في ملامح مضيفه أردف:

– يقولون إنهم يحبسونه ليظل بعيدا عن عيون المتطفلين، فيرونه ولعابه يسيل على صدره.

أطرق أحمد إلى الأرض، شيء ما يقبض بشدة على قلبه، يكمم

فمه ويلجم لسانه، وبعد طول انتظار خرجت الأحرف من فمه كأنها مهشمة:

– لكن إبراهيم لما يزل هناك يا عمدة.

فتهلل وجه الرجل:

– إنه مريض يا رجل، مرض لا شفاء منه، ولقد سافر إلى فرنسا ليعالج و لم يعد حتى الآن.

فسأل أحمد فى لهفة:

– وكيف يدار الأمر إذن؟!.

وأجاب الرجل وأساريره كلها تبتهج:

– بلغنا أنهم أوكلوا الأمر إلى ذلك الفتى الذى يدعى عباس، حفيد الوالى من ابنه الأكبر طوسون، الذى مات مسموما فى حفل شراب وعربدة.

لم يشأ احمد أن يبلغ أسرته بالأخبار السعيدة، فحسب تقديره هى لم تصبح سعيدة بعد، وكل ما يمكن أن يعمله هو أن يطمئن الأسرة إلى أن قبضة البحث عنهم قد خفت، فلقد مر على هروبهم ما يقارب العشرين عاما، وقفوا فيها فى محطات محسوبة، إلى أن واروا جدتهم الكبرى التراب فى جبانة الحجايزة، ومن وقتها وهم هنا، لأكثر من ستة عشر عاما، بنوا دارهم الأولى، وسرعان ما صارت عزبة أحمد سيد احمد، و لم تعد الدار القديمة تحظى بمبيت سيدها إلا أسبوعا واحدا فى الشهر.

أحداث كثيرة صارت تغمض على أحمد السرسى، ففى غمرة إحساسه

بقرب زوال الخطر، وفي غمرة ترقبه لإطلاق لقب أسرته على عزبته لتصير عزبة أحمد السرسي لم يعد يطيق أن يسمع شيئا ينغص عليه حلمه، خاصة وأنه قد أوشك على التحقق، لكن الأمور كانت تخط لنفسها طريقها الخاص، والذى لا شأن له بأحلامه وآماله، مهما كانت عظيمة وخطيرة، والآن فإنه عندما ينتقل للدار الكبيرة في أسبوع حورية لم يكن يفارق جدته الأم الخيرة إلا للنوم، و لم يكن ليفارقها وهو الذى قطع على نفسه العهد ذات يوم بأن يذهب بها إلى هناك، إلى سرس، لتشم ريحها كما قالت، أو تقف تحت شمسها، أو تغمر نفسها بضوء قمرها.

والآن ها هي الأم الخيرة تتقوقع على نفسها، مع مسحة حزن لا تخفى عليه، إنها ليست الجدة الكبرى مجهولة الاسم، والتى كانت تجيد الهجوم على ما لا يعجبها، وكانت تهرب من الواقع إلى أحضان الذين رحلوا، إنها الأم الخيرة التى تحتفظ بوعيها وتعيش حاضرها، لكنها حزينة بصورة تبعث على الأسى، وعندما يضيق بها الحال تتمتم بشفتيها، كلمات غامضة لا يدرى أحد ما هي، علها تترحم على أيام أن كانت تملأ الدنيا حركة ونشاطا، والآن هي حبيسة ضعفها وعجزها، وحاجبيها اللذين سقطا فوق عينيها فغلفا الدنيا من حولها بطبقات من الضباب الكثيف.

لم يكن يعرف أن شعر أمه صار بلون الحليب، وأنه لم يعد في رأسها شعرة واحدة سوداء، وهى التى كان شعرها بلون الليل، و لم يكن يعرف كذلك – وأنى له أن يعرف – أن أسرته صارت في طريق المحاور، فها هو سيد احمد وبمعاونة من أمه دون أن تدرى يجتذب إلى صحبته وملازمته إبراهيم، من وراء ظهر موسى، وكانت حورية تلحظ ذلك، وبدلا من أن

تنبه إلى ما يجرى أو تقاومه تنزوى بعيدا وتبكى حظ ابنها الأكبر، الذى يفسر أخوته توتره على غير مرماه، فابنها الأكبر لا يعمل لنفسه، إنه طوال الوقت يعمل من أجل الجميع، بعكس سيد احمد، هكذا كانت ترى، والذى برغم كل ما يتمتع به من طيبة لم يكن ليغفل عن ادخار ما يكسبه لنفسه.

لم يدرك أحمد كل تلك التطورات، فسيد احمد برغم طيبته شديد الولع بالأملاك، ومُرْزَق، يضع يديه فى التراب فيصير ذهبا، لذا فإن تنافسا غريبا بينه وبين موسى بدأ فى التكون على مهل، تنافسا يدركه الجميع حتى مريم، والوحيد الذى لم يكن يعرفه هو الأب الغارق بين زوجاته وأحلامه.

وجدت تطورات جعلت موسى يقضى الليالى الطوال إلى جوار طنابير الرى المنصوبة هناك بالقرب من برقين، فلقد دأب البعض من أهالى كفر سعد على سرقة المياه من القناة الخاصة بهم، وحاول رجال أبيه التصدى لهم فاعتدوا عليهم، لم يكن من مفر إذن أن يقضى موسى الليل مع رجاله، يحرسون الماء الذى يكفى بالكاد لزراعة ثلث الأبعدية.

وكانت الأبعدية وبناء على الأوامر السنية قد صارت منذ العام 1842 ملكية خالصة لأحمد السرسى، باسمه المدرج فى الدفاتر الرسمية على أنه أحمد احمد سيد احمد، بغير لقبه، إلا أن عدم وجود الماء الكافى لرى كل أراضيها أوقف عمليا إصلاح وتمهيد ثلثى مساحتها، إذ كيف تمهد أرض وتنفق الأموال الطائلة على إصلاحها، تجفيفها من البرك والمستنقعات وتسويتها، دون إمكانية ريها، فهى تحتاج إلى زراعتها بالسمار وريها

وصرفها بصورة مستمرة ولمرات عديدة، تكفى لغسل التربة، وتخليصها من الأملاح التى ما لم تتخلص منها لن تكون صالحة للزراعة بالمحاصيل المعروفة.

تفتق ذهن موسى عن خطة لتدبير الماء الكافى لإصلاح بقية الأبعدية، عن طريق حفر خندق عظيم فى قلب الأرض، يكفى لتخزين الماء فى موسم الفيضان واستخدامه فى الرى لغسيل الأرض التى يراد إصلاحها طوال العام.

الخندق الكبير لتخزين الماء لوقت الحاجة كان أحد المشروعات الهامة فى حياة الأسرة الناهضة، فبعد أن نجح أحمد فى الحصول على الأبعدية، وبعد أن مكن لنفسه بالفوز فى صراعه مع الأعرابى الهارب، وبعد أن زرع نفسه وأسرته فى المكان، فإن فكرة حفر الخندق تتيح له إصلاح بقية الأرض، ومن ثم إدخالها إلى مجال الإنتاج، الأمر الذى يضع الأسرة بالفعل – وليس بالافتراض والولائم – على قمة الهرم الاجتماعى فى المنطقة.

دونهم وحفر هذا الخندق تحديات كبيرة، فقبل أن يحفروا موضع قدم واحدة لا بد وأن يحصلوا على موافقة رجال الرى، فى المديرية وفى المركز، وهؤلاء فى الغالب سيتعللون باعتراضات الأهالى حتى يبرروا رفضهم، وعلى فرض أنهم سيوافقون – وهذا محل شك كبير – فإن مساحة الخندق الذى سيصرحون بحفره لن تكون كافية لإصلاح المساحة المطلوبة، فقط بضعة أفدنة، وليس ما يقارب المائتى فدان، المتروكة للإهمال والمستنقعات وأحراش الخريزة التى لا تخلص التربة من ملوحتها بل تزيدها.

أحمد على يقين من ذلك، لكنه اضطر إلى موافقة إبنه المتحمس، ولجأ مرة ثانية للشيخ دسوقى، وفى صباح أحد الأيام الربيعية جاءهم رجال من المديرية، أربعة من مهندسى الرى، يتقدمهم ضابط تركى وعشرة من الجنود، ما أن رأتهم مريم حتى تفلت فى عبها مستعيذة من الشيطان الرجيم، فلقد علمتها خبرتها أن كل هؤلاء سيأخذون برطيلا لإنفاذ المشروع، لكن الذبائح نحرت، وخرجوا يتقدمهم الضابط وجنوده لمعاينة حدود الأبعدية وقناة الرى التى تشقها، والتى تجرى فى وسطها كثعبان نحيل طويل.

عادوا إلى العزبة مع اقتراب العصر، الموائد كانت معدة فأقبلوا على الطعام فى نهم، كأنهم لم يأكلوا منذ أيام، وخلف الدار القديمة رصت أقفاص الدواجن التى ستحملها الركائب، هدايا للمهندسين وللضابط الذى يصاحبهم، وكان المراس قد علم أحمد كيفية دفع المطلوب دون تردد أو لجلجة، أحد المهندسين كان فرنسيا لكنه يجيد التحدث بالعربية، عدا بعض الأحرف التى ينطقها بطريقته الخاصة، وعندما مال عليه أحمد وسأله إن كان حضرته سيقبض المطلوب جملة نيابة عن الجميع اندهش الرجل من جرأته، وضحك متعجبا، وأمعن فى الكلمات يتأمل وقعها فى أذنيه ثم قال إنها بالفعل فكرة رائعة، أن يتحدث الناس فى المصالح المشتركة بوضوح لا يحتمل اللبس، وسأل باسما:

– ما رأيك أنت؟!.

وهمس أحمد فى أذنه:

– أنا شخصيا أفضل أن يأخذ كل واحد ما يخصه.

فهو فى النهاية لا يأمن أن يدعى أحدهم عدم الحصول على نصيبه، ولقد وجدها الرجل الفرنسى فرصة لأن يمتدح فطنته.

قبل أن ينصرفوا محملين بأوراقهم حصل كل منهم على كيس به المبلغ الذى رآه أحمد كافيا لإقناعهم بحاجته للخندق المطلوب، وأعطى الضابط كيسا ليضمن تزكيته للأمر، وطبعا فإن المهندسين وقبل أن يرحلوا تعهدوا بأن يحصلوا على توقيعات العمد بالموافقة على المشروع، وعدم توقع أى ضرر لقراهم من حفره.

وغابوا شهورا دون أن يظهر أى شىء، فلا هم قبلوا بحفر الخندق، ولا هم رفضوا، صمتوا دهرا، كأنهم لم يقبضوا أموالا تكفى لتسريع الإيقاع، وأصبح موسم الفيضان على الأبواب فشرع موسى فى حفر الخندق دون انتظار الموافقة، والتى بدت أنها لن تأتى أبدا.

عشرات العمال من أهالى كفر سعد والحجايزة وغزالة والعزب الكثيرة المبعثرة هنا وهناك كانوا يجدُّون فى العمل، من قبل طلوع الشمس وحتى الظهر، ثم من بعد العصر وحتى الغروب، وقبل أن يكتمل الحفر وفد على المنطقة وافد جديد.

مساعد السمدانى واحد من عرب السمدانى الذين يعيشون فى مديرية الشرقية، وبعضهم يعيش بين مديريتى الفيوم وبنى سويف، أبوه شيخ لفخذ كبير من أفخاذهم، سكن نجع الطيور عند حدود ولاية بنى سويف، واستخدم العمال لزراعة أراضيه التى حصل عليها ضمن سياسة

منح الأراضى لشيوخ الأعراب، كمحاولة لاستيعابهم ضمن الهيئة الاجتماعية بدلا من احترافهم قطع طريق القوافل والإغارة على القرى لسلب الفلاحين ممتلكاتهم، ومن ثم إشاعة الفوضى فى كل مكان.

الفتى مساعد ابن الشيخ عبد الله السمدانى كان لطبع خشن متأصل فيه قد ارتكب أخطاء كثيرة جعلته محلا لمؤاخذة باقى أفخاذ القبيلة الكبيرة، الأمر الذى دفع أبوه إلى إبعاده عن مستقرهم فى نجع الطيور فى بنى سويف، شق الفتى طريقه حول "مصر" المحروسه من بعد حلوان واستقر على أحد جانبى طريق القوافل الذاهب إلى السويس، فكرته كانت أن يحترف مهاجمة القوافل التى تحمل البضائع الانجليزية فى طريقها إلى الهند، فلقد خرج معه بعض من فرسان قبيلته، والذين لم ترق لهم فكرة الحياة فى القرى واحتراف الزراعة.

الصدفة ساقتهم إلى المناطق المأهولة فى ولاية الشرقية، ووجدوا أن مهاجمة الفلاحين فى قراهم أقل خطرا من مهاجمة قوافل التجارة الانجليزية، والتى بالغ محمد على باشا وخلفاؤه فى تأمينها، وملاحقة من يهاجمها بحزم وعزم لا يلين، واستقر مساعد لفترة فى المناطق المتاخمة لمركز كفر صقر وبخاصة قرية أولاد صقر، لكنه وقد أدرك أن أحوال الفلاحين هناك لا تجعل من مهاجمتهم عملا مجزيا تقدم حتى عبر حدود مديرية الشرقية ودخل مديرية الدقهلية، واستقر بشكل شبه دائم عند مثلث القرى الثلاث المتصلة، صدقا والخمسة وكفر سنجاب، ومن هناك، وبعد أن وضع يده على مساحات من الأرض الصالحة للزراعة واستعمل فى

زراعتها الفلاحين بالقهر والشدة، توسع في وضع يده على المزيد من الأرض حتى ضج أهل المنطقة بالشكوى.

عملية خروج عبد الله الجياصى شيخ فخذ المحاليف أشهر أفخاذ قبائل السعدنى من أراضى العهدة الممنوحة له في زمام كفر سعد كانت هى رأس الذنب الطائر لكل الأعراب الذين يستخدمون الفلاحين بتوسع في زراعة أراضيهم، لذا فإن مساعدا السمدانى كمن فترة، وطاطأ الرأس حتى تمر الريح بسلام، لكنه وبعد أن أمست العملية من الماضى نشط من جديد، وجاءته الفرصة على طبق من ذهب.

فحتى يخرجونه من مثلث القرى عند أطراف المديرية سمحوا له ببيع أراضيه، ومن ثم تقدم لشراء أراضى عهدة الأعرابى الهارب، بزعم أن أراضى العهدة المذكورة من حصص الأعراب المتوطنين، وهى وإن كانت لسنوات تحت يد الفلاحين الذين يزرعونها بإشراف من العمد الثلاثة في كفر سعد والحجايزة وغزالة، إلا أنها في الحقيقة ليست إلا وديعة تحت أيديهم، لحين البحث عمن يستحقها من الأعراب.

إبراهيم باشا كان قد عاد بعد رحلة علاج طويلة في أوروبا، وتقلد منصب الوالى بدلا من أبيه، ورفعت إليه أوراق العهدة فور قدومه، و لم تأخذ وقتا، إذ ما أن نظر في الأوراق وقرأ أن الأرض المطلوب تخصيصها للسمدانى من حصة الأعراب في أراضى العشور حتى مهرها بتوقيعه، وأمر بختمها بخاتم الدولة.

وهكذا فإنه وقبل أن يكتمل الحفر كانت الركائب التى تحمل خيام

السمدانى تحط غير بعيد. ولفت نظر مساعد أن العمال يعملون فى الحفر بنشاط غريب، كأنهم يسابقون الزمن، وقبل أن يستقر فى المكان أرسل بعضا من رجاله ليطلبوا من العمال الكف عن الحفر، بزعم أنه يريد أن يتأكد مما إذا كان المكان الذى يعملون فيه ليس واقعا ضمن حدود أرضه التى عهد إليه بها الباشا.

لم يجدوا إلا العمال وبعض الخُوَّال الذين يجلسون عند حافة الخندق للإشراف على العمل، جاءوا وهم يمتطون الخيول ويمسكون السياط فى أيديهم، وفى أجنابهم الغدارات المعمرة، وقبل أن يصلوا إلى موضع العمل نادوا على العمال ليكفوا، ولما اقتربوا طلبوا منهم الابتعاد عن المكان، ولما لم يمتثل لأمرهم أحد أطلقوا الغدارات فى الهواء ففزع العمال، وتركوا فئوسهم ومقاطفهم وكواريكهم وأطلقوا سيقانهم للريح.

موسى كان فى الدار يتعجل تجهيز الطعام للعمال، فاجأته أصوات الطلقات فخرج يستطلع الأمر، وراعه فرار العمال فى الأراضى المحيطة، أول شىء خطر على ذهنه هو أن يكون رجال المديرية قد أُبلغوا بقيامه بالحفر فجاءوا بخيلهم لمنعه، لكنه كان على علم بما فعله أبوه، ومن ثم فإنه لو حدث شىء من ذلك لسارع العمدة بتحذيرهم، حتى يكفوا عن العمل فى الوقت المناسب.

سأل عن أبيه فوجده فى دار زكية، فلقد كانت حاملا للمرة الرابعة، وهى بأمر الطبيب الأرمنى الذى ذهبوا إليه فى المنصورة تنام على ظهرها، حتى لا تفقد الحمل كما فعلت فى المرات السابقة، وخرج أحمد على

صوت موسى وهو يبلغه بما يجرى عند الخندق، لكن أحمد وقد أمعن النظر فيما يدور هناك عرف أن الفرسان ليسوا جنودا، فلباسهم يشبه لباس البدو وليس العسكر، وكان بقميصه الداخلى فدخل وارتدى ملابسه، ثم خرج فى هدوء.

بضع عشرات من الأقصاب قطعها هو وأبناؤه، موسى وسيد احمد وإبراهيم وسليمان ومحمد، ومن خلفهم السيد وإسماعيل بعد أن رفضا العودة إلى الدار، وكانا يتشبهان بأخيهما الأكبر موسى، ويمسكان بقبضاتهما الصغيرة أعوادا من أفرع الأشجار، كأنهما ذاهبان للقتال.

فى تلك المسافة البسيطة كان أحمد لا ينفك يسأل نفسه عما عساه يكون قد جرى هناك، أتراهم أعراب المحاليف عادوا بعد كل هذه السنين؟!، وحدثته نفسه بالعودة للتسلح والتأهب لما ستفرضه الظروف، لكنه وقد رأى أولاده من حوله خشى أن يروه فى مظهر الخائف فجد فى السير، وتمنى لو يطول به الطريق حتى يحكم التدبير.

لم يجدوا عاملا واحدا ممن كانوا يعملون فى الحفر، وحدهم الخُوّال هم الذين يقفون هناك، ويحاولون منع الأعراب من أخذ الفئوس والكواريك والمقاطف، لكن المعتدين كانوا قد تحصلوا على هلاهيل الأنفار الفارين، جلابيهم المرقعة، وطواقيهم المهترئة، وشراشرهم التى يستخدمونها فى إزالة الطين عن كفوف الكواريك لتكون أمضى فى الانغراس فى الأرض، وفى محاولة لأخذ باقى الأدوات كانوا يهددون بالاعتداء على الخُوّال، ويطوحون بسياطهم لتفرقع فى الهواء، مهددة بالسقوط فوق رؤوسهم.

قدوم أحمد وأبنائه جعلهم يتوقفون عن المضى فيما يفعلون، وبصوت هادئ طلب منهم أن يعيدوا ما أخذوه من هلاهيل الأنفار، وقبل أن يمتثلوا لطلبه سألهم عمن هم، ولماذا يقتحمون أرضه بهذه الصورة التى تبعث على الغضب، العمال الذين كانوا يقفون غير بعيد فى الأراضى المحيطة اقتربوا ليتابعوا الموقف، وليقفوا على مصير متعلقاتهم وأجرة يومهم التى لم يقبضوها بعد، وإذ رأوا البدو لا يحركون ساكنا احتفظوا لأنفسهم بمسافات آمنة، حتى إذا انقلب الموقف وجد الجد يتمكنون من الفرار.

أحدهم قال لأحمد إنه لكى يحصل على أغراض عماله عليه أن يطلبها من شيخهم الذى لا تبعد مضاربه إلا بضع أقصاب، وأشار بيده إلى المكان، بضع خيام كانت تقوم هناك، فى الموضع الذى يسمى الآن عزبة السمدانى، ولقد انقبض قلب أحمد لمرأى الخيام القائمة، فبعد أن هنأ له العيش فى المكان ها هى الكَرّةُ تعود، وها هو أعرابى آخر يأتى برجاله وعنجهيته، ليفرض سطوته على المكان، وعلى أهل المنطقة من الفلاحين!.

فى نفسه قال إنه إذا تركهم يذهبون بأغراض عماله فستكون أسوأ بداية، ولن يستطيع أن يردهم، لذا فإنه وحتى لا يخطئ أحد من أولاده أو يأتى بشىء غير مدروس قال فى هدوء للرجل الذى تحدث إليه:

– من الأفضل أن تدع هذه الأشياء على الفور.

وأشار إلى أغراض العمال التى يحملونها فوق خيولهم، ثم أردف:

– لأنك إذا لم تفعل ستتسبب فى ما لا يحمد عقباه.

لكن البدوى أظهر استهانة بحديثه، غير آبه بوجوده بين أبنائه، وتلفظ بكلمات مضغمة لا تفهم إلا على أنها سباب، ولم يكن قد أكمل الكلمات عندما وجد نفسه مطروحا على الأرض، تحت أقدام موسى، فلقد تحين الفتى الفرصة واقترب منه بمسافة كافية، وفى لمح البصر قفز فى الهواء وجذبه من طوقه، وطرحه أرضا، وقبل أن يستوعب الآخرون ما جرى كانت الغدارة قد صارت فى يد موسى، والسوط الذى كان يفرقع به قبل دقيقة، وكذلك السيف الذى لا يدرى هو نفسه كيف أو متى انتزعه موسى من غمده.

أربكت المباغتة الأعراب، وأربكت أحمد أيضا، كان مطلوبا أن ينتهى الموقف على ما يريدون، لا كما ستصير إليه الأمور بتفاعلاتها، وتطوراتها الغير محسوبة، وبحساب العقل فإنه وإن كان موسى قد أسقط أحدهم وجثم فوقه وحصل على أسلحته المختلفة، بل وسيطر على حصانه وسلمه لأخيه إبراهيم، إلا أن الموقف لا يزال فى غير صالحهم، فهم غير مسلحين، والأعراب خمسة، غداراتهم فى أجربتها، وسيوفهم فى أغمادها، وأسواطهم فى أيديهم، إضافة إلى أن الأطفال يتناثرون فى المكان، ويمكن للأعراب أن يعتدوا عليهم، أو يخطفوا واحدا أو أكثر منهم، لذا فإن أحمد وقبل أن يفكر أحد منهم فى فعل شىء أسرع إلى ابنه، وحصل منه على أسلحة الأعرابى المطروح على الأرض، وأمر إبراهيم بتسليم الرجل حصانه، وقبل أن يسلمه أسلحته أمرهم بأن يلقوا بأغراض العمال وينصرفوا إلى حال سبيلهم.

ما فعله أحمد السرسى فى ذلك اليوم كان كالمشى على حافة السيف،

فالخطأ في التقدير يؤدى إلى كارثة لا يمكن تدارك آثارها، فماذا – وقد تحرر زميلهم – لو بدأوا في مباشرة الاعتداء عليهم؟!، لكنهم ومع إمكانية ذلك لم يفعلوا، فبعد أن وقفوا برهة لا يدرون كيف يتصرفون، ألقوا بأغراض العمال وتأهبوا للانصراف من المكان، كانوا في انتظار تمام حصول زميلهم على أسلحته، غدارته وسيفه وسوطه، لكن أحمد سلمه سيفه فقط، وقال في ثقة أدخلت الخوف إلى نفوسهم:

– أما هذا فلكي لا يجرد الفارس من سيفه، هذا إذا كنت فارسا حقا، ولك أخلاق الفرسان.

ورفع الغدارة والسوط أمام وجوههم واستطرد:

– أما الغدارة والسوط فلقد استخدمتهما في الاعتداء على رجالي، ولن يتسلمهما إلا شيخك.

والتفت ينادي على الأنفار ليعودوا إلى أعمالهم، لكنهم ترددوا في القدوم، وفضلوا أن يظلوا بعيدا ريثما يرحل الأعراب، وقبل أن يعود للنداء عليهم من جديد فوجئ بوجود أمه، فمريم التي علمت بخروج ابنها لملاقاة الغرباء الذين اعتدوا على عماله لم تكن لتظل في الدار وابنها يواجه الخطر، واكتفى بأن قال وهو يتسم في أسى:

– لماذا أتيت يا أماه؟!.

وبعد أن هز رأسه ليمنع عن نفسه الغضب أردف:

– ألست بين أبنائي يا مريم؟!.

لم يفهم أحد من الأبناء كيف قبل الأعراب أن يعودوا إلى المضارب

دون الحصول على سلاح زميلهم، سوطه وغدارته، فلقد أربكتهم الثقة التى تحدث بها أحمد، ورأوا بعد تردد أن يعودوا إلى شيخهم حتى لا يتفاقم الأمر وينتهى إلى وضع يصعب تداركه، تماما كما قال لهم، وكانوا وهم يبتعدون عن المكان فى اتجاه المضارب لا ينفكون ينظرون من خلفهم، ويرون بأم أعينهم العمال وهم يعودون إلى العمل وكأن شيئا لم يحدث.

ريح الجنة

اجتماع طارئ ضم أحمد السرسي وأمه وجدته، وولديه موسى وسيد احمد، و لم تحضر واحدة من نسائه، وكان لما دعا لاجتماع الأسرة أن تكالبت النسوة، تركن أعمالهن وتوجهن إلى الدار القديمة، أتين على عجل، حتى أن ذيولهن كانت لما تزل معلقة إلى أطواقهن، زكية هي التي بقيت وحدها هناك، مطروحة على ظهرها بأمر الطبيب، ولقد بكت كفايتها لعدم قدرتها على اللحاق بالاجتماع الذي سيتقرر فيه مصير كل شيء.

لم يكن أمام أحمد إلا أن يأمرهن بلطف بالانصراف إلى أعمالهن، على وعد بأن يطلعهن بنفسه على كل شيء، لكن ابنتي عميه شعرتا بالإهانة، فهما من آل السرسي، وهذا الشيء الذي سيحثونه يتعلق بهما أول ما يتعلق، تلكأتا قدر المستطاع عله يتراجع، لكنه كان حازما، وانتظر حتى خلت الحجرة من زوجاته، حورية وسرية وشام، وسارعت الأخيرة بالذهاب إلى دارها وهي تقول بصوت تعمدت أن تسمعه ضرتاها:

- سأذهب لأرى كيف سأستقبل رجال أبي.

كانت لا تنفك تتفاخر عليهما برجال أبيها، هؤلاء الذين جاءوا من بعيد لنصرة زوجها، وألهبتها سرية بلسانها اللاذع:

- أما أنا فسأقصد إلى الحظائر لآمر بتقديم المزيد من الأعلاف للعجول والخراف التي سيأكلونها، فلا شك أنهم منذ عادوا إلى هناك لم يملأوا بطونهم.

وفي غمرة الاجتماع تنبهوا إلى وجود محمد وإبراهيم وسليمان مختبئين خلف الظهور، وعثروا على السيد مختبئا تحت السرير، ومسلما حواسه لكل كلمة تقال. كانت الأم الخبيرة هي البادئة، فقبل الاجتماع مالت مريم على أذنها وقصت عليها ما كان من أمر الأعراب الجدد، سألت حفيدها عن سبب وجود الأعراب الجدد في المكان، فأنهى إليها نبأ حصولهم على عهدة الأعرابي القديم، وكان قد عرف بذلك من الحاج سويلم، عندما قصد إليه ليعرف أسباب إقامة المضارب الجديدة، والتي لا تبعد عن عزبته إلا مئات من الأمتار لا تتعدى أصابع اليد الواحدة.

غدارة الأعرابي وسوطه أودعا خزانة الحائط في حجرة حورية، وبناء على نصيحة من الحاج سويلم سيحتفظ أحمد بهما حتى يأتي السمداني للمطالبة بهما، وساعتها يصير ما يريده، لكن طبيعة التدبر التي عمقتها التجارب في نفوسهم فرضت أن يجتمعوا ليتباحثوا، وهم الآن ليسوا كما في السابق، فهاهم الأبناء يلتفون من حول أبيهم، تنبض في عروقهم فتوة الشباب وتلهبهم حمى التعجل، موسى لا ينفك يزفر من صدره المهتاج هواء الإثارة، وكذلك يفعل إبراهيم وسليمان ومحمد، الذين يتعجلون الدخول في أتون الرجولة، أما السيد والذي أخرجه أبوه من تحت سرير

جدته وبكى حتى لا يخرجوه من الحجرة فإنه كان يتعلق بشفتى شقيقه موسى، ويتمنى لو يكون مثله، وحده سيد احمد الذى كان هادئا، ومطرقا ينصت لما يقولون.

الأم الخبيرة بدت وكأنها تعود إلى الحياة، طلبت أن يجلسوها عند ركن السرير، حتى تسند ظهرها إلى الحائط، وعندما استقرت فى مكانها أخذت شهيقا لم تنعم به من زمن ثم قالت:

– الوافد الجديد يختبرك يا شيخ أحمد.

منذ فترة ليست بالقصيرة لم تعد تناديه إلا وهى تقرن اسمه بلفظ الشيخ، واستطردت:

– وحسنا فعل موسى، إذ لو مضوا بعملتهم دون وقفة فلربما كانت العاقبة أسوأ.

وجاهدت لتبتلع ريقها، ولما لم تجده طلبت بعض الماء، وانطلق السيد كالسهم ليحضر لها الماء، لكنه وهو يفتح باب الحجرة كادت أمه أن تسقط، وفوقها عمته سرية، كانتا تلتصقان بباب الحجرة لتسمعا ما يدور فى الداخل، وإذ امتدت يد الأم الخبيرة للسطل المملوء حتى حافته بالماء ولمست يد السيد سألت:

– من أنت يا فتى؟.

فأجابها والفرح يطفح فوق وجهه:

– أنا السيد يا جدتى.

وأردف قبل أن تعود للسؤال:

- ابن حورية.

قبضت على يده حتى فرغت من شرب الماء، ثم أدنته منها وقبلت وجهه، وعادت لتقول:

- السمدانى هذا الذى تتحدثون عنه ليس مملوكا، ولا تربطه بالباشا صداقة مؤكدة، هو بمجرد أعرابى، والباشا لا يعرفه حتى ولو بمجرد الاسم، ولقد مررنا بما هو أقسى من هذا ألف ألف مرة.

وكأنها كانت الكلمات التى تنتظرها مريم لتقول:

- سيجاورنا العمر كله يا جدتى، داره لصق دارنا وأرضه لصق أرضنا.

وأجالت بصرها فى الوجوه سائلة:

- ألا يكون السلم معه هو الأوفق؟.

فنهرتها الأم الخبيرة:

- نعم يا مريم، عندك الحق، ولكن أى سلم؟!، سلم الضعيف الذى يفر عند المواجهة؟!.

وتوجهت بحديثها إلى الشيخ أحمد:

- ما لم يكن لديك رجال لن تقوى على مجاورة الأعراب، أنا أعرفهم خيرا منك.

ومنذ أغلقوا عليهم باب الحجرة تحدث أحمد لأول مرة:

- لا أنكر يا جدتى أننى غضبت من موسى للحظة، رأيت أنه يورطنا

في خلاف لم نستعد له، والآن أرى أن ما فعله كان لازما، فالحلف الذى طرحه أرضا كان يحمينى.

موسى كان مطرقا إلى الأرض، و لم يلحظ أحد إلا السيد تينك الدمعتين اللتين سقطتا من عينيه فالتصق به معزيا، تمنى لو يقول إنه فداؤه، وأكمل الشيخ أحمد:

- الآن لا نستطيع أن نلجأ إلى أصدقائنا فى المنطقة.

واستطرد شارحا:

- فى السابق كانت فظائع الجياصى تطال الجميع، وكان احتشادهم معنا بدافع الذود عن أنفسهم ومصالحهم قبل أى شىء آخر.

وسألته الأم الخبيرة:

- كم عدد رجالك؟.

وألجمته الدهشة هو والسامعين فلم يفهموا مرمى سؤالها، وأدركت سر صمته فاستطردت:

- من يعملون فى حظائرك ويحرسون قطعانك ويعاونون فى زراعة أرضك؟.

- حوالى العشرين.

فاعتدلت دون معاونة من أحد هذه المرة، ومالت إلى الأمام حتى اقتربت منه، ولفحت أنفاسها وجهه:

- اجعلهم قواتك، واجه بهم الأعرابى وانتصر عليه.

وتدخلت مريم:

– ما حدث لا يستحق كل هذا يا عمتى.

ونظرت صوب موسى وأردفت:

– ما فعله بهم موسى فيه الكفاية.

وتهكمت الأم الخبيرة:

– على هذا فإن ابنك وهو من هو عليه أن يذهب إلى هذا السمدانى ويرد إليه البارودة والكرباج.

وانتظرت مريم قليلا قبل أن تقول فى نبرة مشحونة بالغضب:

– أنا لم أقل هذا يا عمتى.

وأكدت كأنها ستبكى:

– لست أنا من تقول هذا.

لم يخف إليها أحد إلا سيد احمد، وجد طريقه إليها دون أن يشعر أحد، وفى غفلة منهم شعرت بيده تربت على ظهرها، وبفمه يلثم رأسها المضطرب.

فى ذلك الاجتماع العائلى لم يبارح سيد احمد جوار جدته مريم منذ اقترب منها ليهدهدها، ووجد أبوه أن يسأله عن رأيه، و لم يكن مفاجئا أن يقول بصوت خفيض ولكن فى ثقة:

– أنا من رأى جدتى مريم، ما فعله موسى كاف للرد على ما حدث وزيادة.

ونظر موسى لأخيه شذرا، وكذلك فعل السيد، لكن إبراهيم رأى فيما قاله سيد احمد موافقا لهواه، وكذلك رأى سليمان، أما محمد الطوخى فلقد كان حائرا بين الرأيين، وآثر أن ينتظر ليرى أى الرأيين سيكتب له الفوز.

خرجوا من ذلك اليوم البعيد بإجماع عائلى، لا يذهب الشيخ أحمد إلى مساعد السمدانى حتى يأتى الرجل بنفسه، وفى غفلة من الجميع وحتى لا يوقع الرعب فى نفوس نسائه وأطفاله عقد اجتماعا مصغرا ضمه هو وموسى وسيد احمد، حيث اتفقوا على أن يتولى موسى امر تجهيز الرجال بالشوم والبنادق، والتفرغ لحراسة حدود الأبعدية، والذود عن الحظائر والمزروعات، ويختار لمعاونته من يشاء من أخوته، لا يشغلهم عن عملهم ما يجرى من أعمال فلاحة الأرض أو تنظيم الحظائر، فيما يتولى سيد احمد القيام بمتابعة زراعة الأرض والإشراف على القطعان والبهائم، ومتطلبات الدور التى تشمل كل شىء يتعلق بالطعام أو الكساء، أو حتى تجديد ما يبلى وتصليح ما يتلف، يعاونه فى ذلك أيضا من يختار من أخوته.

تلك كانت الأيام التى اكتسبت فيها شام لقبها "أم بقر"، وهو ما سيغضب أحفادها بعد ذلك أيما غضب، فقبل أن يتضح شكل الصراع مع مساعد السمدانى، وقبل أن تستقر المناوشات بين الفريقين ويكتسب العداء المتبادل قواعد محددة للتعامل جاء خبر وفاة الصهر الطوخى، لم يمرض الرجل، مات فجأة، وحمل أحمد زوجته وتوجه إلى طوخ القليوبية لتقديم واجب العزاء.

لم تتركه مريم إلا بعد أن أقسم بقبور أسلافه ألا يعرج على سرس، ولو من بعيد، صحيح أن الأخبار كانت تترى عن الحالة الميئوس منها للباشا الذى لم يعد يعرف من أمر الدنيا شيئا، والذى بات لو تركوه ينزع إلى الهيام على وجهه، حتى أنه لم يعد يعرف من يكون ولا من أين أتى، وأيضا عن حالة الباشا الجديد إبراهيم، والذى لم يشف من مرضه العضال، ويتوقعون رحيله عن الدنيا فى أى وقت، لكنها مريم، التى قضت عمرها كله رهينة لإنفاذ مشيئة ربانية بالحفاظ على ابنها والمساعدة فى تكثير نسله، ليصنع من جديد موئلا للأسرة التى اقتلعت جذورها من تربتها ذات ليلة، وخرجت من موئل عزها، وهامت على وجهها، فرارا من ملاحقة الدولة العاتية، تاركة من خلفها بلدا لا تعرف كم عاشت أجيالها فيه، وتاريخا يضرب بأطنابه فى عمق الزمن.

العمل فى حفر الخندق لم ينقطع يوما واحدا، حتى فى غياب الأب فى رحلة العزاء فى الصهر العزيز، أصر موسى على مواصلة العمل، والظهور أمام الأعرابى الجديد بمظهر الواثق من نفسه وقدرته، ولما انتهى العمل فى الحفر وكفت حواف الخندق عن الانهيار انتقل العمال لتوسيع القناة التى تأخذ من البوهية، وقبعوا يتحينون الفرصة لفتح المأخذ، ومن ثم ملء الخندق بماء الفيضان.

الأعرابى الجديد عد توسيع القناة وتعميقها، ومن ثم استعمال العشرات والعشرات فى العمل للحاق بأيام الفيضان تحديا يجب مواجهته، لكنه رأى أن الوقت غير مناسب بالمرة للبدء فى فرض النفوذ، إذ لم يضرب بجذوره فى التربة بعد، فضلا عن أن تجربة سلفه الجياصى كانت لما تزل ماثلة أمام

ناظريه، وما حدث لأحد رجاله والاستيلاء على غدارته وسوطه ليس له إلا تفسير واحد، هو أن بداية إخضاع جاره كانت خاطئة.

أخبار الزيارتين اللتين قام بها السمداني للعمدتين الشيخ أبى كريمة والحاج سويلم للتعارف وتوثيق الصلات كما ادعى جاءت لموسى على الفور، لكن إثارته لموضوع الخندق وتوسيع وتعميق القناة فى الزيارتين فضحت مسعاه، فهو لا يهدف إلا إلى تأليبهما على جاره، أو على الأقل منعهما من دعمه، ومن ثم يتمكن من الانفراد به، فمساعد السمداني– شأنه فى ذلك شأن كل الأعراب – لم يكن يرى فى الفلاحين سوى مجموعة من الرعاع والزُّغر، يفتقرون إلى الأصل الطيب وكرم المحتد!!، و لم يكن يرى فى الشيخ أحمد إلا فلاحا تجرأ ذات مرة على أسياده من البدو!!، وإذا كان قد نجح وتسبب فى طرد المحاليف من المكان فإنه فى هذه المرة سيجرده من قوته، حتى إذا ما حان الوقت يقضى عليه بضربة واحدة.

ما سمعه السمداني من العمدتين أبى كريمة وسويلم لم يسر خاطره، فلقد أخبراه أن حفر الخندق وتوسيع القناة لا يضرانهما بشىء، فالماء الذى سيحتجز فى الخندق هو ماء فائض، مآله البخر تحت وهج الشمس بعد أن يغمر الأراضى ولا يتركها إلا فى صورة مستنقعات أو برك، لا يزرع منها إلا القليل، وكعادته حذره الحاج سويلم من غضبة الأهالى فى المنطقة إذا هو أعاد سيرة سلفه المطرود عبد الله الجياصى.

أخبار ما فعله السمداني فى مثلث القرى عند صدقا واصلة إلى كل أعيان المنطقة، وأطماعه الحقيقية لا تخفى على أحد، لكن العمدتين اكتفيا بالتنبيه و لم يتجاوزا إلى ما هو أبعد، وأراد موسى أن يذهب لزيارتهما

ليتسقط المزيد من الأخبار فاقترحت الجدة مريم التأجيل لحين عودة أبيه من سفرته فى البلاد البعيدة، و لم يرق له اقتراح الجدة، لكنه اضطر إلى الامتثال، واكتفى بالهمهمة.

فى بداية مشوار التنافس بينه وبين أخيه رأى سيد احمد أن موسى يتعجل احتلال موقع أبيه، وكان ذلك هو الظلم بعينه، فما يفعله موسى لا يرشح أبدا التفكير من هذا النوع، ولكنه كان يتمتع بنفس أبية وطبع عجول وجسارة لا تطيق التأجيل، مع قوة بدنية تساعده على إنجاز ما يريد، ومن أقرب طريق، ولأنه لا يجد الوقت الكافى للتعبير عما بداخله، ويرى أن محاولات التقرب إلى الآخرين تستغرق من الوقت ما يلزم للعمل والإنجاز، فإنه استغرق بالكلية فى مشاغله ومأمورياته، غير متنبه إلى ضرورة ما نسميه بلغة اليوم: العلاقات العامة، وفى غمرة انشغاله بمأمورياته ومشاغله رأى أن أخاه سيد احمد لا يستطيع أن يكون ندا، فهو يصمت عندما يكون المطلوب هو الكلام، ويسكن عندما تكون الحركة واجبة، ولا يتعارك أبدا أو يشارك فى عراك ولو لنصرة أبيه، وما ادعاؤه الحكمة وتمثل العقل والرغبة فى السلم إلا رقائق يستر بها ضعفه، وذلك كان هو الظلم بعينه أيضا، فسيد احمد أقرب إلى طبيعة المفكر أو الزاهد منه إلى أية طبيعة أخرى، تلك الطبيعة جعلته لا يكف عن التفكير فى الأمور وعواقبها، والحادثات وتبعاتها، والكلمات وما تحمله من معان ظاهرة ومخفية، وهو فى طريقه إلى هذا التفكير اصطدم بحيوية أخيه وعنفوانه وفورته، وتوقه المتأصل للظفر، فنتج عن ذلك سوء الفهم الذى بدأ به مشوار التنافس بين الأخوين.

لذا فإنه وقد أبلغه موسى بضرورة اصطحاب الرجال والتوجه بهم قبل الفجر إلى موضع مأخذ القناة من البوهية لقطع الجسر، حتى تندفع المياه عبر القناة إلى الخندق فتملؤه اعترض، رأيه هو الانتظار حتى يعود أبوه، لكن موسى خشى أن يطول الغياب بالأب، وربما إذا انتظروا طويلا ينخفض منسوب الماء فى البوهية وتذهب جهودهم فى الحفر سدى، ويؤجلون إصلاح المزيد من الأرض لعام أو أعوام قادمة.

موسى كان حاسما، وسيد احمد لم يكن ليدع فرصة مثل هذه لتنمية ابعديتهم، التى صارت مملوكة لهم ملكية كاملة، لهم عليها كافة حقوق المالكين، وكان فى قرارة نفسه معجبا بأخيه، وربما تمنى لو يمتلك بعضا من فتوته وجسارته، لكن كل ذلك لم يكن ليظهر على صفحة الوجه الهادئ المتدبر، فالطبع الهادئ يغلب كل محاولات التطبع.

واستيقظ الناس فى الصباح فرأوا لمعانا يعكس الشمس وسط غيطان ابعدية الشيخ أحمد السرسى، بقعة هائلة من اللآلئ تنشر عشرات الآلاف من السهام النارية عبر الفضاء الفسيح، خرج لها الناس فى القرى المحيطة، وصعدت لها النسوة فى العزبة الوليدة فوق الأسطح، وأصرت الأم الخبيرة على أن يصف لها حفيدها محمد الطوخى كيف تبدو تلك البحيرة التى ستنقل أراضيهم من حال القفر إلى بساط من السندس.

أكل الحنق نفس مساعد وهو يرى بحيرة اللؤلؤ تشع غير بعيد، وجمع من حوله أبناءه وكانوا صغارا، وأخبرهم بأن بقاءهم فى المكان لن يكون إلا بالتخلص من ذلك الفتى الأخرق الذى لا يعرف لهم قدرا، لكنه لما طلب رجاله الإذن بالهجوم على العزبة آثر التريث إلى حين.

طالت غيبة الشيخ أحمد في رحلة العزاء في صهره، أيام كبرت فيها مريم أعواما كثيرة خوفا على ابنها، ولهاثا خلف التطورات المتسارعة التي يأتيها حفيدها موسى، والتي لا تدع لها فسحة لتدبر الأمر والتقاط الأنفاس، فالفتى يتصرف على نحو لا تقدر على استيعابه، والتعاطي معه بالتقييم كما هي عادتها، وإذ أدركت أنها عاجزة عن ملاحقة التطورات الحادثة لم تجد بدا من اللجوء إلى سيد احمد، حفيدها الرقيق الذي يسمع لها ويحنو عليها، ويمسح عن كاهلها المثقل عناء كل شيء.

ليس فيما فعلته مريم من محاولة العثور على السلوى في مناجاة حفيدها سيد احمد شيء يبرر شعور حورية بالاضطهاد، أو الظن بكراهية عمتها لابنها الذي يفني حياته لصالح الأسرة، و لم يكن الإحساس الذي يتنامى لديها يوما بعد يوم له ما يبرره إلا تلك الواقعة القديمة، يوم أن باركت عمتها زواج أحمد عليها من سرية، ويوم أن باركت زواجه من شام، وحتى عندما أظهرت على غير ما تبطن بعض الاعتراض على زواجه من زكية، هكذا كانت تقول، إذ لم تصدق أبدا ذلك الاعتراض، واعتبرته مجرد ذر للرماد في العيون، والآن فإن الأمر يتكرر مع ابنها، بطل الأسرة الصاعد، الذي سيغنيها عن الالتجاء للآخرين.

يوما من بعد يوم كان موسى يتقدم في عمله، في الذود عن مصالح الأسرة وحماية حدود الأبعدية، واستطاع في فترة قياسية أن يجمع من القرى المحيطة رجالا أشداء يعاونونه في عمله، بل ومن أبناء الليل الذين ينتشرون في كل مكان، ويضعون جهودهم في خدمة من يتكفل بمؤونتهم ومصروفاتهم الباهظة، وفي أيام معدودات تمكن من حفر عدة قنوات

لتنقل الماء إلى الأراضى المستهدفة بالإصلاح، وبنى مندرة جديدة عند حافة الخندق الكبير، أحاطها بمجموعة من الحفر لكمون الرجال إذا ما وقع عليهم هجوم، ليذودوا عن أنفسهم وعن الخندق إذا اقتضى الحال، وكان يسابق الزمن لينجز كل شيء قبل عودة أبيه، ففى قرارته كان يريد أن يدهشه.

وعاد الشيخ أحمد بعد أسبوعين، وأصابته الدهشة بالصمت، ظل ساعات لا يتحدث إلى أحد، وتساءل عما إذا كانت رحمة الله هى التى أرسلت إليه هذا الفتى؟!، أم أنها نقمته؟!، فخبراته بالناس وبنفوسهم تجعله يخاف عليه، وكثيرا ما كان يختلس النظر إليه فى إشفاق، وهو يقول إن ابنه سيظل ما حيى محل سوء فهم من الآخرين، ولن يقدر أحد حتى من أقرب المقربين إليه على أن يوفيه حقه، أو يحسن فهمه.

لم يكن يعنيه من كل هؤلاء سوى سيد احمد، فلو أخلص الفهم لأخيه لن ينال من وحدتهم أحد، لذا فإنه وقبل أن يتحدث إلى موسى بشأن ما قام به فى غيابه اصطحب سيد احمد وذهب به إلى هناك، حيث الخندق الذى يواصل الاحتشاد بالماء حتى لتكاد تبلغ حافته، وحيث المندرة الجديدة التى حمل إليها بعضا من الأرائك والأحمال الصوفية، وكثيرا من الحصر المصنوعة من السمار، وفى استطلاع مشوب بالحذر لما استجد فى المكان تظاهر وهو يجول فى الفضاء بعينيه بالشرب من ماء الزير المنصوب عند ركن المندرة، وتوقف بهما عند المضارب التى بدت الآن مكتملة، وممتلئة بالحياة.

موسى كان هناك، عند فم القناة الرئيسة التي تأخذ من البوهية، رأى أن الوقت حان لردم القطع الذى أحدثوه في الجسر، فلقد امتلأ الخندق ولم يعد في القوس منزع، وإذ رأى أحمد أن الجو قد خلا له مع سيد احمد سأله:

– هل مرت كل تلك الأعمال دون مناوشات؟!.

يعرف أن لا شيء حدث، لكنه يريد أن يسبر غور ابنه الصامت، الذى لا يصخب كأخوته ولا يتحدث إلا لماما، وبالكاد قال سيد احمد:

– ربنا ستر.

كثيرا ما كان يشفق على أمه من كثرة ابتعاده عنها وانشغاله بزوجاته، لكنه كان يلاحظ بعين الرضا التقارب بينها وبين سيد احمد، مما عوضها ابتعاده، بل إنه كان يجد السلوى في ذلك التقارب بين الجدة وحفيدها الطيب، الذى لا يخلو من حكمة قد يجدها الآخرون مجرد ضعف، وعن له أن يسأل:

– وماذا ترى فيما تم؟!.

وأشار إلى المندرة الجديدة والحفر التي بدت كنقاط صغيرة تحيط بها من بعيد، والقنوات الجديدة التي تتفرع في كل مكان، واضطر إلى الانتظار قليلا ريثما يفكر سيد احمد، وأخيرا سمعه يقول:

– من الصعب أن نهيئ حياتنا على أنها حالة حرب دائمة.

ووجده يرد عليه:

- ولكنها لم تكن حالة سلم دائمة، ولن تكون على ما أرى فى المستقبل المنظور.

وحدق فيه وهو يردف:

- والحصيف من يتوق الخطر، وإذا كان لا بد واقعا فليواجهه.

لكن الفتى الذى يسير إلى جوار أبيه مطرقا إلى الأرض اجتهد ليقول:

- لست أدرى، لكننى أكره أن استدرج للقتال.

وسأله أبوه:

- وإذا فرضت عليك الحرب؟!.

واندهش للإجابة:

- لن أعدم الوسيلة لإنفاذ ما أرى.

وعاد الأب ليسأل مندهشا:

- وماذا لو أن ذلك ينال من اعتبارك؟!.

واضطر للانتظار حتى جاءته الإجابة:

- هذا يتوقف على معنى ما نسميه الكرامة، وما نقول إنه الاعتبار.

فى ذلك اليوم البعيد أدرك الشيخ أحمد السرسى أن الحياة لا تمضى أبدا على النحو الذى نخطط له، إنها لا تنفك تختط لنفسها سبلا لم تخطر على بالنا، ولو قال له أحد من سنوات قليلة إن ولديه الكبيرين سيتباينان على هذا النحو لضحك ملء فيه، لكنه الآن وبرغم كل شىء يدرك أن

التكامل بين الولدين، بين اندفاع موسى وحذر سيد احمد، بين جسارة موسى وتحفظ سيد احمد، بين انطلاقة موسى وسكون سيد احمد، بين فتوة موسى ورقة سيد احمد، فيه حياة واستمرار ورقى الأسرة، وفيه اتساع العزبة الصغيرة وطول بقائها، وأن نفورهما لا قدر الله فيه انفراط عقد الأسرة وهوان شأنها.

قبل أن يصلا إلى حيث يسابق موسى الزمن لإصلاح الجسر قبل أن تغرب الشمس عن للشيخ أن يأخذ على سيد احمد عهدا:

– عدنى الا تتخلى عن أخيك.

ونظر فى أعماق عينيه:

– ولو كنت تخالفه الرأى.

وبالدهشه وهو يسمع الاجابة، وهى لم تأت متأخرة هذه المرة:

– اعدك.

وأردف الفتى لتسع مدارج الدهشة:

– على قدر ما أملك.

تمنى الشيخ لو يضم ابنه إلى صدره، لكنه لم يعتد أن يفعل منذ زمن، فالأبناء فى غفلة منه ارتقوا مدارج الرجولة، حتى إبراهيم الذى كان طفلا يثأئئ منذ أيام صار يقاربه فى الطول، إن لم يساوه بالفعل، وكذلك يفعل محمد الطوخى، وسليمان الذى يقترب أكثر وأكثر من طبيعة سيد احمد، ولكن على مزيد من الضعف فى البنيان.

لم تعد شام مع زوجها من رحلة العزاء، فلقد استسمحه أخوتها في أن تظل عندهم حتى الأربعين، و لم يقدر أن يرد رجاءهم فغادرهم وخلفها هناك، على وعد بأن يذهب في موعد الأربعين ليحضر المناسبة ويعود بها، لكن الأخوة فاجأوه بعد أيام وجاءوا بها.

أعلنوا عن مقدمهم بغبار كثيف يرتفع نحو السماء، وإذ خرج الناس ليروا ما هناك فوجئوا بأعداد كبيرة من الماشية تثير الغبار في الطريق، تتقدمها شام راكبة فوق دابة مرهقة، ومن حولها أخوتها يأمرون الرعاة بالحفاظ على وحدة وتقدم القطيع، لقد اتضحت الرؤيا، فأبناء الصهر الراحل لم يشاءوا أن يسلموا لأختهم ميراثها في ثروة أبيهم وزوجها حاضر، حتى لا يسببوا له الحرج، ومن ثم طلبوا أن يسمح ببقائها لديهم حتى الأربعين، وما أن رحل عن ديارهم حتى أحصوا ثروة أبيهم، وأضافوا إليها رؤوسا لقاء دخول إسماعيل الدار، وكان قد سافر إلى هناك رفقة والديه، وأضافوا عددا من الرؤوس لمحمد ليكون له مثل أخيه، تلك الأبقار الكثيرة التي سيكون لها في قابل الأيام شأن وأي شأن في حياة الأسرة، والتي من كثرتها وتنوعها حازت شام لقبها الذي لا يحبه أحفادها حتى الآن، "أم بقر".

أيام كثيرة مرت ولم يحرك الأعرابي ساكنا، فلا هو أتى للمطالبة بسلاح رجله أو أرسل في طلبه، ولا أظهر تحرشا بجيرانه من أي نوع، وفي عصر أحد الأيام الخريفية جاء الحاج سويلم في طلب السلاح، وسطه مساعد في ذلك. لم يصدق الشيخ أحمد أن يكون الأعرابي الجديد ماكرا

إلى حد استخدام أعيان المنطقة في التوسط من أجل أشياء تافهة، كتلك التي جاء من أجلها رجل في وزن الحاج سويلم، وبعد تدارس الأمر معه انتهيا إلى أن الأعرابي يريد أن يقدم نفسه في صورة المسالم الذي لا يريد لعلاقته بجيرانه أن تسوء.

انقسمت الدار بين مؤيد لما اشترطه الشيخ أحمد لإعادة السلاح إلى السمداني وبين معارض، فلقد اشترط أن يعلن الأعرابي على الملأ اعتذاره عما بدر من رجاله، وأن يسبق ذلك تعيين قاطع للحدود بين الأبعدية وعهدته حتى لا يتسبب تجهيلها في إثارة أنزعة أخرى، موسى ومعه أمه وأخوته، وأيضا الأم الخبيرة يرون ضرورة عمل جلسة عرفية للتحقيق في الأمر، ومن ثم تغريم المخطئ غرامة تمنع العودة إلى الخطأ مرة أخرى، أما سيد احمد وأخوته ومعهم مريم فيرون أن في إرسال الحاج سويلم لطلب السلاح اعتذارا يكفي لدرء ما كان.

لكن أحمد أصر على موقفه، وحمل الحاج سويلم شروطه لمساعد محملة بغواية رأى الحاج سويلم أن يغلفها بها حتى يؤتى المسمى ثماره، فلقد قال للأعرابي إنه شخصيا يرى أن الشيخ أحمد على حق فيما يطلبه، ولما كان تدبير السمداني هو استمالة الحاج سويلم إلى صفه في المستقبل فإنه وبعد قليل من الصمت أعلن موافقته على ما يرى العمدة أنه الحق، وإذ أحس برائحة تمرد في صفوف رجاله طردهم من خيمته، وأمعن في الغضب حتى يدخل في روع العمدة أنه قبل مسعاه رغما عن رجاله، وكان جزء من غضبه حقيقيا، فلقد صعب عليه أن يرد رجاله كلمته وهو

في مثل الموقف الذى وضعه فيه غريمه، والذى هو في نظره ليس إلا فلاحا وضيعا، ومهما وضع هذا الفلاح من شروط فإن مصيره المحتوم هو الطرد من المكان، طال الوقت أو قصر.

جاء رجال المساحة من المنصورة، يتقدمهم مهندس قبطى كان هو الذى عين الحدود من قبل، وبرغم أن حدود الأبعدية تم ترسيمها ثلاث مرات، مرة عند الحصول عليها، ومرة ثانية عند وضع حدود زمام المقاطعة مع قرى شبراسندى وكفر سعد وغزالة في إطار مشروع كبير لمحمد على باشا لتحديد زمامات القرى، والمرة الثالثة والأخيرة في العام 1842 عندما صدرت الأوامر السنية بجعل ملكية الأبعدية للشيخ أحمد ملكية كاملة، برغم هذا فإن رجال المساحة راحوا يطلعون على أوراق وحجج الملكية لدى الطرفين، ويغرسون هنا وهناك أعوادهم الحديدية ذات الرؤوس المربوطة بقطع من القماش الملون، الأحمر والأخضر والأزرق، وآذنت الشمس بالمغيب وهم لم ينتهوا من عملهم بعد.

المندرة الكبيرة ضمت أولئك الغرباء الذين ما أن تناولوا الطعام حتى انقلبوا نائمين، فلقد عملوا كثيرا طوال اليوم، وكانوا وهم يغتسلون من تراب النهار ويغيرون ملابسهم ويريحون أقدامهم كأنهم سيسقطون لا محالة في بحيرة النوم، لكنهم تحاملوا على أنفسهم وتناولوا الطعام، ولرغبتهم الشديدة في النوم لم ينتظروا حتى يصب عليهم الرجال الماء.

حتى لا تضيع معالم ما تعبوا في عمله طوال النهار عينوا حراسا على النقاط التى ثبتوا فيها أعواد الحديد الملونة الرؤوس، وتكفل الحاج سويلم

والشيخ دسوقى بإحضار رجال من طرفيهما لحراسة تلك النقاط، وحتى لا ينقلها أحد الطرفين فى جوف الليل. الفكرة كانت فكرة الشيخ أحمد السرسى، طرحها على الرجال بعد أن أثارها معه إبناه موسى وسيد احمد.

هل جرت بالفعل فى تلك الليلة البعيدة محاولات نقل تلك العلامات من قبل رجال مساعد السمدانى إلى داخل أرض جدى الأكبر الشيخ أحمد السرسى وتصدى لها رجال العمدتين الحاج سويلم والشيخ دسوقى؟، وهل شكل موسى من رجاله وأخوته حراسا على أولئك الحراس حتى يأمن غدر الليل فتصدى لمحاولات التسلل إلى نقاط الأعواد عبر أماكن غير محروسة بدقة؟!، لا أدرى وأنا فى موقعى الآن بعد أكثر من قرن ونصف القرن من الزمان إن كان ذلك جزءا من الحكايات التى تلقيتها عن الحكائين الذين عاصرتهم وأخذت عنهم، أم أنها من أفعال الذاكرة العجيبة التى لا تنفك تمحور ما تتلقاه من حكايات وتضع لها زخمها وإيقاعها وأجوائها وحواشيها، وقد تضع من حيث لا يعمد المرء مقدماتها وتكمل نواقصها، بل إنها فى أحيان كثيرة قد تضع لها أغنية النهاية وهى تنثر فى الأجواء المحيطة كل أنواع الطيوب.

رجال المساحة يتقدمهم المهندس القبطى أعادوا فى الصباح التأكيد على بعض النقاط الهامة، يستوثقون بقياس المسافات بينها من صحة مواقعها، وبعد أن فعلوا انطلقوا يكملون عملهم، لم يشعر مساعد السمدانى بمثل الندم الذى شعر به فى ذلك الصباح البعيد، فهو إن كان قد رضى بالشروط التى وضعها جاره لإنهاء المشكلة بغية استمالة أعيان المنطقة وتحييدهم،

حتى إذا ما التفت إلى جاره والتهمه يقفون بعيدا، إلا أنه لم يفطن إلى مرمى ما يجرى إلا ورجال المساحة يدونون فى أوراقهم أبعادا ستظل على الدوام هاديا لتعين الحدود الحقيقية، ومرجعا يرجعون إليه عند الحاجة، وما جعله يندم أكثر أولئك العمد الذين وفدوا إلى مندرة جاره مع الصباح، والذين استوقعهم المهندسون على الأوراق التى كتبوها، فستظل تلك الأوراق حجة يصعب عليه فى المستقبل أن يتجاوزها أو يلتف من حولها.

وقبل أن ينصرفوا دقوا فى نقاط عديدة أعمدة سميكة من الحديد، وأعلنوا أمام الجميع أن الخطوط الواصلة بين تلك النقاط هى الحدود الصحيحة بين أملاك الشيخ أحمد السرسى وعهدة مساعد السمدانى.

فى أصيل ذلك اليوم البعيد دخل مساعد مندرة الشيخ أحمد السرسى، وأمام العمد الذين فرغوا لتوهم من تناول طعام الغذاء طلب الشيخ دسوقى من السمدانى أن يعتذر لمضيفهم، لكن الشيخ أحمد السرسى وقف قبل أن يكمل العمدة وأعلن أمام الجميع أنه لا يرغب فى أى شىء آخر، وأنه يتسامح فى حقه، وقصد إلى الأعرابى الجالس غير بعيد وقبل كتفيه، وعلى الفور ندت عن الحضور آهات الاستحسان وطلبوا من الأعرابى أن يقبل هو الآخر كتفى جاره.

ربما فعل مساعد فى ذلك اليوم البعيد ما طلبه الرجال منه، وربما لم يفعل، لكن المؤكد أن تلك الوقفة وضعت دستورا للعلاقة بين الطرفين لم يستطع السمدانى ومن بعده أبناؤه أن يخرقوها على مدى المائة عام التالية، لكن تلك الوقفة نفسها كانت بداية حرب خفية وغير معلنة، تمثلت فى عزم السمدانى وهو يغادر مندرتنا فى ذلك اليوم البعيد على النيل من

الشيخ أحمد، وهداه شيطانه إلى أن يبدأ بالتخلص من الابن لأكبر موسى، حتى ولو طال الزمن.

عندما دخل أحمد الدار القديمة لغرض ما عرج على حجرة جدته الأم الخبيرة، وجدها متكومة على نفسها فلمس كتفها في رفق، كانت نائمة أو غائبة في مكان ما، لكنها تنبهت وحاولت أن تستدير، عرفته على الفور وسألت:

- هل حققت لموسى ما يطلبه؟.

فلما ربت على كتفها قالت:

- إنه رجلك الذى سيعمل له خصومك ألف حساب.

لم تدر إن كان قد انصرف أم مضى وهى تردف:

- ما أحوجك إليه.

ولما أدركت أنه لما يزل هناك مدت يدها لتلمسه، وتغيرت ملامحها وشعت بنور غامض وهى تخبره:

- لحظة أن لمستني كنت أشم ريحها.

أدرك على الفور مقصدها، لكنها أردفت وكأنها تخاطب نفسها:

- كأنه ريح الجنة.

الأبقار للطاعون أما الأرض فهي الثروة

خبر وفاة ابراهيم باشا لم يعرف فى طول البلاد وعرضها إلا بعد مرور أيام، وعندما وصل إلى عزبة أحمد السرسى كان أهلها غارقين فى إصلاح المساحات المحددة التى اختاروها من الأرض، رجال يزيلون أكوام السبخ التى تتكاثر فى كل مكان، ويسوون الأرض ثم يشقون المصارف فيها، وآخرون يحرثون وجه التربة ويصنعون من حولها الجسور تمهيدا لغمرها بالماء، حتى النساء حورية وسرية وشام كن يقطعن الطريق من العزبة وحتى مواضع العمل عشرات المرات فى كل يوم، فالأفران التى تناثرت فى الجرن الكبير والكوانين لا تكفى لتجهيز الطعام لتلك الأعداد الغفيرة، واستقدموا لأول مرة نساءً من القرى المجاورة للمعاونة فى أعمال الخبز والطبخ وحمل الطعام إلى الرجال حيث يعملون.

ميراث شام فى تركة أبيها أحدث توترا فى نفوس كل من فى الدار، حتى مريم، فلقد رأت أن اختصاص إحدى زوجات ابنها بميزة غير متاحة للأخريات سيجر عليهم ويلات لا تتحمل العزبة الصغيرة نتائجها، أولاها الخصام الحادث من ابنتى العم المتضامنتين حورية وسرية

لشام، وهو ما استتبع حالة من الجفاء بين الأولاد أيضا، ولأول مرة منذ سنين عديدة ثار مسألة حق ابنتي العم في الأبعدية، فكما اتفقوا من قبل بناء على مشورة وشروط الأم الخيرة هما تملكان ثلث الأبعدية، كما تملكان بالميراث نصيب أبويهما في نصف الثلث الذي يخص الجدة الكبرى الراحلة.

الذي دفع في اتجاه إثارة هذا الأمر هو استثار شام بأنواع كثيرة من العمل يتعلق بثروتها من البقر، فلقد أصبح لها غلمان لرعيها ونساء لحلبها ورجال يزيلون روثها ويجعلونه أكواما تمهيدا لنقله إلى الأرض المنزرعة لتسميدها، حتى أن هؤلاء العمال كانوا يأتون من القرى المجاورة ويسألون عنها بالذات، وهو ما أثار غيرة ضرتيها، حورية وسرية، أما زكية فإنها كانت مستغرقة بكليتها في محاولة إنجاب طفل تقر به عيناها وتدشن به وجودها في العزبة، و لم يكن يشغلها شيء مما تتنافس من أجله ضرائرها.

بدأت الحرب بكلمات قليلة، لكنها حملت معان كثيرة، ففي إحدى روحاتها وغدواتها سمعت حورية تقول:

– الأبقار للطاعون، أما الأرض فهي الثروة.

لم تستطع شام أن تفهم ما وراء القول، وبعد طول تفكير رجحت أن يكون القصد من ورائه هو دفعها لبيع أبقارها وشراء أرض بها، وإذ اهتدت إلى هذا فاتحت زوجها في الأمر، طلبت منه أن يبيع أبقارها وبثمنها يشتري لها ولأولادها أرضا، ولما سأل عما جعلها تفكر في ذلك أعادت عليه قول حورية، واشتعلت النار فيه.

شعر لأول مرة كيف تجرى الأمور في غيبته، وتمنى لو انقسم إلى أربعة أجزاء، يباشر كل جزء منه ما يجرى في دور نسائه، ويراقب عن كثب، وأدرك أن أبناءه آخذون في التشكل بعيدا عن ناظريه، تشكلهم أمهاتهم وتعبئ دواخلهم بخلافات هي في الأساس ليست إلا خلافات الضرائر، وتمنى لو أنه استأثر بزوجة واحدة يخرج أبناؤه منها بغير ضغائن.

اكتشف أن إبراهيم، الذى يتحول مع الأيام إلى مارد حقيقى لا يتعامل مع ابنى شام محمد وإسماعيل أو حتى مع سليمان ابن سربة إلا بالعنف، ولقد رآه بالأمس فقط وهو يكومهم فوق بعضهم البعض ويكيل لهم الضربات، ولولا أنه نهره وطارده ليمسك به لفعل بهم أكثر مما فعل، حادثة صغيرة مثل تلك وعشرات مثلها كانت تمر عليه دون أن ينتبه لدلالاتها، أما وقد وصل الأمر إلى حد تلقيح الزوجات على بعضهن البعض فإن شرا عظيما يبدو قادما، ولن يتأخر كثيرا.

لا يعرف كيف سيثير الأمر مع أمه، فمريم منذ سنوات تقوم مقامه في الكثير من الأمور، وخاصة إذا تعلق الأمر بحورية وسربة وأبنائهما، لكنها ومع الغياب المتزايد لجدته الأم الخبيرة فقدت الحرية في النجوى، فقدت العقل الهادئ الذى تلقى على شواطئه همومها وشكوكها، ونزقها في بعض الأحيان، وكثيرا ما كانت تنظر إلى عمتها وهى متكورة على نفسها ولا تشعر إلا والدموع تنساب من عينيها، فهذه العمة والحماة هى التى أسست لوضعها الفريد داخل الأسرة، وهى التى وضعتها فوق الرؤوس ولم تجبرها طوال حياتها على شىء، وعندما كانت تلحظ تبرما من أبنائها

أو زوجاتهم كانت تذكرهم بترملها وهي لما تزل طفلة، وبأنها كان يمكنها أن تتزوج وتترك لهم ابن أخيهم ليربونه بمعرفتهم، أو ليجعلوا منه خادما لنسائهم، أو في أحسن الأحوال تابعا لأبنائهم.

وجدها تشرف على إطعام الدواجن في صحن الدار، جالسة إلى مقعد من الحجر صنعه من أجلها حفيدها الأثير سيد احمد، فعندما تضطر إلى الجلوس مدة طويلة وهي تباشر عمل زوجتي ابنها لا تستطيع أن تنهض، جاء إلى أحد الجدران حيث يورف الظل في الصباح وبنى لها مقعدا تستريح إليه، وكان الوقت يطول بها بين دواجنها، أوزها وبطها وفراريجها وديوكها الرومية، وأيضا حمائمها الساكنة في أعشاش صنعها سيد احمد بمعاونة العملاق إبراهيم، وعلقها بأحبال من الكتان في الأسقف المحيطة بالصحن الكبير.

أفسحت له ليجلس إلى جوارها، لكن وجوده في المكان أثار استغراب الجميع، حورية وسرية اللتين أرخيتا أذيال جلبابيهما احتراما، والصغير السيد الذي يجلس عند قدمي جدته، والدواجن التي لم تعتد حضوره، وما أن استقر إلى جوار أمه فوق مقعدها الحجري حتى رفع السيد وأجلسه على رجليه.

أمعن النظر في صحن الدار الذي يمتد ليربط الدارين المتجاورتين، في هذا الصحن الشاسع تكمن مقدرة مريم على تربية دواجن تكفي لكل الولائم التي مكنت لهم في المنطقة، وجعلتهم جزءا من صفوة هيئتها الاجتماعية، مئات الدواجن تروح وتجيء، وتلغط بغير انتهاء، والحمائم التي تهبط من عليائها لتلتقط الحب ثم ترتفع لأعشاشها لا تكل طوال

الوقت عن فعل ذلك، وهناك فى ركن بعيد من أركان الصحن الفسيح كانت الخراف والجديان التى انتقتها بنفسها من بين القطعان لتعلفها وتسمنها تدس أفواهها فى كومات من الحشائش الخضراء جلبها الرجال قبل طلوع الشمس، وكانت قد أقامت بمعاونة سيد احمد وإبراهيم أيضا سياجا من حولها حتى تمنع الدواجن من الاختلاط بها.

لم يكن حتى ذلك الوقت يعرف أن سيد احمد قد تعلم كل تلك الأشياء، وكم كانت دهشته عندما أخبرته أمه أن سيد احمد وإبراهيم قاما على خصاء كل تلك الخراف والجديان التى تنهمك فى تناول طعام الصباح، كما قاما بعمل كل المستجدات التى اندهش لرؤيتها فى صحن الدارين، لكم شعر بالفخر وأمه تعدد الأشياء العظيمة التى صنعها ولداه، لكنه عاد إلى التجهم، فلقد أدرك كم ابتعد عن أولاده حتى أنه لم يعد يعرف عنهم الشىء الكثير.

صمته وتكلفه الابتسام دفعها لأن تسأل:

- مالك؟!.

وحتى لا تلتقط أذنا حورية وسرية المشرعتان شيئا من حديثهما أجاب بصوت خفيض ولهجة حاسمة:

- لا شىء.

ولما وجدته متحفظا اكتفت بمتابعة عمل زوجتيه منبهة بين الحين والحين إلى ضرورة فعل شىء ما، وكان السيد يصعد على سلم خشبى إلى أعشاش الحمائم ليحضر الأفراخ الصغيرة، فلقد نبت الريش فى أجنحتها

واستطال إلى حد يهدد بطيرانها، فكانت تتلقى منه الأفراخ وتنزع عن أجنحتها الريش حتى لا تطير، وكانت تلك هى الطريقة التى تتبعها فى تسمين الزغاليل.

قضى إلى جوارها ساعة، فى ذلك اليوم كان موسى وسيد احمد يسابقان الزمن للانتهاء من تمهيد تربيعة أخرى من الأرض تساوى عشرة أفدنة، نجحا فى تسويتها وشق المصارف فيها وصنع الجسور القوية من حولها، وقبل أن يطلقا الماء فيها لغسلها وإزالة قدر من ملوحة تربتها حملت المطايا إليها شتلات السمار والبردى القادمة من المنزلة، والتى كلفا أحدهم بإحضارها مقابل ثمن مجز، وكان قد استيقظ فى الصباح الباكر على صوت موسى وهو ينادى على محمد، كان النداء زاعقا حتى أنه أيقظه من النوم، و لم يرتح لتلك التعبيرات المعترضة التى اجتاحت وجه شام، فلقد اعتادت فى الفترة الأخيرة أن تكثر الشكوى من معاملة موسى لولديها، محمد وإسماعيل.

لكنه وهو جالس إلى جوار أمه فوق مقعدها الحجرى أدرك أن شكاوى شام لم تتعال أو تفصح عن نفسها بقوة إلا منذ قدمت من بلدها البعيد بقطعان أبقارها، فهى لم تعد شام التى عرفها وأحبها، بل وأحب تفاخرها المغلف بنوع جميل من التأدب يمنعها من الإيغال فيه، ورأى من خلال الصمت والتظاهر بمتابعة أعمال زوجتيه أن كل تغير حادث فى أسرته راجع إلى أمرين، تفرق زوجاته فى دورهن ومن ثم ابتعاده معظم الوقت عن متابعة تطورات أبنائه، والثانى هو ميراث شام الذى أحدث انقلابا فى النفوس.

الاستغراق فى التفكير جعله ينكمش وهو إلى جوار أمه، كان فى تلك اللحظة قد صعد إلى الفراغ السحيق ورأى من هناك انقسام أسرته، والوهن الذى يهاجمها قبل الأوان، فأكبر أبنائه لم يصل بعد إلى العشرين، ويصعب عليه أن يصدق أن تتفسخ الأسرة وهى لم تكد تبدأ مشوارها. أكثر ما يحزنه ليس فيما رأى من تقلصات صغيرة أو توترات تافهة، وليس فيما سمعه من شكايات لا تنقطع وهو يجوب الشهر بين زوجاته، أكثر ما يحزنه هو الاختلاف بين طبيعتى ابنيه الكبيرين، موسى وسيد احمد، والمؤاخذات المكتومة التى يأخذها كل منهما على الآخر.

خمنت مريم ما يدور فى داخله، أدركت أنه مهموم على نحو يصعب تحمله، لكنها هى الأخرى كانت قد اعتادت أن تتركه لنفسه ولزوجاته، وعلى أن تتصرف فى الكثير من الأمور دون إشراكه فيها، وكان قرارها بذلك عندما استشارته فى شأن من شئون الدار ذات يوم ففوجئت به يقول فى شىء من الحدة:

– أو هذا شأنى يا أمى؟!.

لم يكن السؤال هو الذى فجعها، لكنها الحدة التى كنست أمامها كل المعانى الطيبة، فى تلك الأيام كان مشغولا فى ترتيبات زواجه من زكية، حتى إذا ما جاء بها إلى الدار ظلت لأسابيع – لا بل لشهور – لا تطيق النظر فى وجهها، فهى من بين كل زوجاته الوحيدة التى كان لمقدمها معنى سيئ لديها، لم تر فيها أى شىء يغرى بالزواج، فضلا عن أن يكون الزوج هو أحمد المرسى، لكنها ما أن سقط حملها مرة ومرة حتى تبدل الوضع، ووجدت نفسها تشفق عليها وترى ظلال الانكسار فى نظراتها،

وكما كان زواجه منها نذير سوء فى علاقته بها كان تكرار سقوط حملها سببا فى زيادة ابتعاده عنها، فهو لا يدع فرصة للتواجد إلى جوار زوجته الحزينة والتى أمرها الطبيب الأرمنى بالنوم على ظهرها شهورا وشهورا، حتى كان سقوط حملها الأخير والذى أجهز تقريبا على آمالها فى أن تلد له ولدا مثلما فعلت باقى زوجاته.

منذ ذلك الوقت وعت مريم الدرس، تعلمت ألا تحاصر ابنها فى شيء مما يرى أنه من شئونه، وفى المقابل فتحت أبوابا كثيرة للحوار مع حورية وسرية، وسمعت منهما ما كانتا تجتهدان لتخفياه عن ابنها وعنها، عن إحساسهما بالضياع وهما لا يعرفان شيئا عن مصير أسرتيهما، عن التجهم الذى تريانه فى وجهه والذى لا يفارقه طوال أسبوع كل منهما، وأخيرا عن ذلك الشيء الرهيب الذى اكتشفتاه ولولا ثقتهما فى عمتهما لما أطلعتاها عليه ولو فى القبر.

فسيد احمد كان ذات يوم يصلح باب حجرة عمته حورية، وإذ هو منخرط فى العمل رأى دولاب الحائط الذى يحتفظ فيه أبوه بأوراقه وكتبه مفتوحا، وأدرك أن أباه نسى أن يغلقه كما اعتاد بعد كل مرة يحتاج فيها إلى أن يطالع شيئا مما يحتويه، لا يدرى كيف سولت له نفسه أن يتسلل إلى هناك بعد أن أغلق الباب وجلس يطالع أوراق أبيه، وهاله ما رأى.

من بين الأوراق التى يذخر بها الدولاب عثر على أوراق تبدو جديدة، وبمطالعتها عرف أنها عقد بيع مساحة ثلاثمائة وعشرين فدانا وبضعة قراريط هى أرض الأبعدية، بين محمد على باشا وقد أناب عنه أغا المديرية لإنفاذ البيع وبين أبيه الذى كتب اسمه فى العقد على أنه أحمد احمد

سيد احمد، لم يكن في العقد من مشتر إلا أبوه، لا جدته الكبرى الراحلة ولا جدته الأم الخبيرة ولا أمه ولا عمته حورية، وكان من حكايات أمه وعمته حورية يعرف أن أرض الأبعدية مقسمة إلى ثلاثة أقسام، ثلث للجدتين الكبرى والأم الخبيرة، وثلث لأمه وعمته حورية، وثلث لأبيه، وها هو يرى بأم عينيه أن الأرض كلها باسم أبيه، لا يشاركه فيها أحد.

عرفت سرية بالأمر، و لم يمض النهار حتى عرفت حورية، ولما كانت شام قد تحصلت على أبقار ميراثها عن أبيها وراحت تتيه عليهم بفلوسها ومصالحها، وشيئا فشيئا انتقل هذا الأمر إلى إبنيها محمد وإسماعيل، فإنهما عقدتا العزم على أن تثيرا الأمر بحيث تعود إليهما الحقوق التي قدرتا أنها سلبت منهما، أيام وأيام مضت دون أن تعثرا على وسيلة تمكنهما من فتح الموضوع دون إثارة عاصفة من الغضب، فالمهم هو ألا يعلم الشيخ أن ابنه عبث بأوراقه من وراء ظهره واختلس النظر، فأمر كهذا قد يقلب أمر العلاقة بين الأب وإبنه إلى النقيض، وهما في النهاية لا تعرفان ما الذي يمكن أن يصير إليه الأمر، سرية لا تستبعد أن يطرد الأب ابنه ليهيم على وجهه، أما حورية فإنها اكتفت بالصمت حتى لا يؤدي كثرة الحديث في الأمر إلى فضحه.

أيام وأيام حاولوا أن ينقلوا الخبر إلى أحد غيرهم، أول من فكروا فيه كان موسى، لكن سيد احمد اعترض، فأخوه لن يتورع عن مواجهة أبيه بالأمر، وسيطلب منه بطريقة مباشرة إعادة الأمر إلى نصابه، ووقتها سيجري الأب تحقيقا ليعرف كيف علم موسى بالأمر، وسينتهي لا محالة إلى معرفة ما جرى منه، اعترض بطريقة لا تغضب عمته حورية لكنه حمد

لها تفهمها وحرصها على إخفاء كل شيء، ثم فكروا في إبلاغ مريم، فهي برغم حالة الكمون التي تعيش فيها منذ أعوام ذات كلمة مسموعة عند ابنها، وإذا أمرت بأن يعود الأمر إلى نصابه فإنه لن يتأخر في إنفاذ أمرها، وساعتها لن يمكنه التنكيل بمن نقل الخبر، أو بمن اطلع على مكنونه.

عجزوا عن إيجاد الوسيلة التي تبدو طبيعية لتوصيل الخبر إليها، حتى كان ذلك اليوم الذي رأت فيه مريم حبة تين في يد اسماعيل ابن شام، فالدار لا يوجد فيها تين، وهم لم يحصلوا بعد على اقفاصها التي ترد إليهم من جناين الشمال البعيدة، والتي يجلبها لهم كل عام الشيخ أحمد عندما يذهب هو وبعض من أصدقائها للحصول عليها في موعد نضجها السنوي، وعندما نادت على إسماعيل لتسأله عن مصدر حصوله عليها اختفى الولد، فكأن الأرض انشقت وابتلعته.

لم تكن الدور قد استقلت عن بعضها البعض، فالطعام بعد للكافة، والجميع إما يأكلون على السوية في الدار القديمة أو يحملون ما يكفيهم منه إلى دورهم، وكذلك يفعلون بالفاكهة والحلوى وغيرها من الأمور، وكانت تلك أول مرة ترى فيها شيئا مثل هذا، التخفي للتمتع بما لا يتمتع به الآخرون، وهي تعرف أن ما دفع إلى هذا هو جريان النقود في يد زوجة ابنها التي تتيه على الجميع بعيراتها وأبقارها. لم تشأ أن ترسل أحدهم للإتيان بحفيدها لكنها نادت على شام، التي ما أن سمعت النداء حتى أدركت ما وراءه، فأمسكت بابنها وراحت تضربه حتى أن صراخه علا وانكشف.

التحقيق الذى أجرته مريم لم يصل إلى شىء، واصلت شام تكذيب أن يكون مع ابنها ذلك الشىء الذى تقول حماتها إنها رأته. لم يكن إنكارها هو الذى أغضب مريم إلى حد التهديد بإبلاغ إبنها بالأمر، ولكنه التكذيب الذى لم تفتأ تطلقه فى وجهها بجرأة عدتها مريم بجاحة لم تعرفها فيها من قبل، ورأت أنها لم تكن لتظهرها لولا أن ابنها صار مائل الحال لا يقدر على ضبط دوره وزوجاته، وإذ استمرت شام فى إنكارها طردتها من مجلسها وطلبت ألا تريها وجهها بعد اليوم.

الحاج سويلم الذى أرسلت فى طلبه دون علم ابنها جاءها بالخبر اليقين، فلقد أرسلت شام أحد رعاة أبقارها ليحضر لها بعضا من الثمار، إذ هى حامل وما طلبتها إلا لأنها تتوحم، لم يبرد التبرير كثيرا من النار التى اشتعلت فى صدر مريم، فهى من تشرف على شئون الدار وما يتعلق بأمور الطعام، وقبل أن ترث شام وتستحضر أبقارها الكثيرة لم يكن يعنيها أن تلحظ كثيرا من مثل تلك الانفلاتات الصغيرة، أما وقد أمست إحدى زوجات ابنها تملك ما لا تملكه الأخريات صار لزاما أن تشتد فى المراقبة، حتى لا يكون التمايز بين الأطفال مدعاة للكراهية والصراع، الآن أو فى المستقبل.

بنتا العم استغلتا ذلك الأمر لتشكوا لعمتهما تعالى شام عليهما، ودفعها ولديها للتعالى على إخوتهما، لكنها وقد رأتهما تتوبان الوصول بالأمر إلى منتهاه، بحيث يقع الخلف بين ابنها وزوجته حاولت أن تهدئ من ثورتهما، وقالت:

– أم بقر ليس لديها إلا أبقارها، حمى بسيطة قد تذهب بها، أما أنتما فلكما فى هذه الأبعدية ما يصل إلى نصفها.

وإذ رأتهما تنظران إلى بعضهما البعض وتتغامزان أردفت:

– أليس ذلك كافيا لأن تضعا لسانيكما فى فميكما ولا تخربا بيت ابن عمكما؟!.

حورية كانت هى التى فتحت الباب:

– هذا إذا كان ما تقولينه صحيحا يا عمتى.

واندهشت مريم وقالت ساخرة:

– وما الذى يجعله غير صحيح يا ابنة أخى؟!.

تبادلت هى وسرية النظرات ولاذتا بالصمت.

لم يرض ذلك التصرف مريم فجعلت تنظر إليهما، ثم أقسمت ما لم تصارحاها بما تخفيان لتبلغن كل شيء لابنها ليرى ما يراه، ولن تكون مسئولة عن أى شيء فى داره بعد اليوم، وإذ رأتا أنها عازمة على فعل ما أقسمت عليه طلبت سرية عهدها بألا يعرف أحمد شيئا مما ستقوله لها.

انخلع قلب مريم فسألت:

– ما الذى تخفيانه عنى يا بنتى أخوى؟!.

وأمعنت النظر فى وجهيهما:

– هه؟!.

حكت سرية وهى مطرقة ما كان من أمر سيد احمد مع دولاب أبيه

وأوراقه، وما قرأه في العقد الذي بموجبه تملك كل أرض الأبعدية ملكية كاملة، ولما انتهت من الحكاية لم تستطع أن تمنع دموعها، واستعطفتها لتحفظ سر ابنها.

تعرف كم تحب عمتها سيد احمد، وكيف وجدت فيه العوض عن أبيه، لكن مريم في حضورهما كانت كالقط الذي أمسك بنظرات فأرين مذعورين، لم تدعهما تتحركان أو حتى تنظران إلى أي شيء آخر، كانت تقلب الأمر في رأسها، فتراه مرة من زاويتهما، وتراه في الأخرى من زاوية ابنها، إذ لو أن ما حكاه سيد احمد صحيح فإن أمرا بالغ الأهمية والوجاهة لا بد دفع ابنها لفعل ذلك.

تساءلت: أيكون ما فعله هو لرغبته في أن يكون نصيب أبنائه من الأرض متساويا؟!، أم تراه فعل كي لا يضطر إلى ذكر أسماء أسرته ويقدم لمطارديه دليلا على أنهم هم الفارون من المطاردة؟!، ولما انتهت إلى هذا الفرض شعرت براحة جعلتها تمد قدميها وتضغط على كتفيها اللذين تصلبا من فرط التوتر، لكن الفأرين المذعورين كانا لما يزالا هناك، ينظران إلى تعبيرات وجهها الذي تنسحب منه المعاني ثم ينبسط كأنه صفحة نهر في وقت الأصيل، وإذ رأت حورية شبح ابتسامة تطوف بوجهها أقسمت:

– والله يا عمتي لو لم تفعل بنا "أم بقر" ما فعلت ما كنا فتحنا الفم بكلمة واحدة.

واللقب الجديد لشام جعل سرية التي كانت مطرقة إلى الأرض تضحك، وردت مريم بكلمات حاسمة:

- الحقوق لا مجاملة فيها يا بنت أخى، وستثبت الأيام أن ابن عمكما لم يفعل ما فعل إلا لعذر شديد.

كل ذلك لا يعرف أحمد عنه شيئا، ولو لم يكن سيد احمد عاقلا لانساق وراء صراع الزوجات ولحدثت الفرقة المبكرة فى الصفوف، لكنه وبرغم كل التوترات حافظ على علاقته بإبراهيم، وعمل على تخفيف حدة اعتداءاته على أخوته، كما انصاع إلى أوامر موسى، فلقد اكتشف مع الوقت أن أخاه لا يعرف الكلل، وربما رأى بفكره الثاقب أن من وراء همة أخيه وإصراره وعنفوانه بل واستباقه الزمن حكمة ليكتمل للأسرة أسبابها قبل حدوث ما يخبئه الغيب، وبرغم عدم معرفة الشيخ أحمد بتلك التطورات فإنه كان واثقا من جسارة موسى وحكمة سيد احمد، وكانا يرى فيهما سندا للرأب أى صدع قد يكون حدث وهو لا يدرى، أو فى سبيله للحدوث عما قريب.

نهض من مجلسه إلى جوار أمه على مقعدها الحجرى وغمغم بكلمات فهمت أنها تعنى ذهابه للجلوس قليلا إلى جوار الأم الخبيرة، فبرغم تأكيد خبر موت إبراهيم باشا وتولى عباس مرة ثانية مقاليد الأمر، وبرغم التأكيد على فقدان محمد على باشا عقله بشكل نهائى، إلا أنه لم يفتح الباب ليطل على عهده الذى قطعه على نفسه لجدته، بأن يعود بها إلى سرس قبل رحيلها، إما نهارا لتغمرها شمسها القوية، أو ليلا لتصب على جسدها من فضة الضوء القمرى، ولتشم عبيرها الذى ستحمله معها فى رحلتها الغامضة إلى السماء، كان متذكرا العهد، كأنه قطعه لها بالأمس، وكذلك كانت أمه، تتذكر حتى جرس الكلمات ومخارج الأحرف من فمه، لكنها

لم تشأ أن تذكره به، فما تراه أمامها فى كل مكان تذهب إليه فى العزبة يؤكد أنها كانت على حق عندما أصرت على أن يؤسس ابنها لأسرته التى ستحول مع الأيام لعرس جديدة تضاهى ما تركوه من ورائهم هناك، ثم هى فى النهاية لا تعرف ماذا سيكون من أمر إذا عادوا أدراجهم إلى هناك.

تذكرت يوم أن أخبر ابنها شام بخبرهم، وبأصلهم ومسألتهم، وتمنت لو أن الأرض انشقت فى ذلك اليوم وابتلعت كل الكلمات التى قيلت حتى لا يصل مما قاله لزوجته حرفا واحدا، لكن شام حافظت على سرهم ولم تحك حتى لأبويها مما عرفت شيئا، والآن رحل الصهر الطوخى الشهم، والذى لو طال به العمر لكان هو العين التى ستسبقهم إلى هناك، وتسقط لهم الأخبار، ولعرفوا عن طريق مسعاه من من ذويهم بقى هناك ومن رحل، ولربما استخدموه أيضا فى البحث عن مصير رجل القطعان أو ما صار إليه رجل الاستطلاع، بل وحتى التنقيب من وراء اختفاء العمين الصهرين، اللذين لم يظهر لهما أثر بعد الاختفاء العجيب، لكن الصهر الطوخى رحل، ولم يعد بإمكان أحد أن يستطلع لهم الأرض قبل أن يجوسوا خلالها، لذا فإنها وظنا منها أن ابنها لا يتذكر عهده لجدته لم تشأ أن تذكره.

قرب الظهر صعدت لتطمئن على عمتها الأم الخبيرة وسمعت همسا فى حجرتها، أحمد كان لما يزل هناك يتحدث إلى جدته حديثا غامضا، دق قلبها بعنف، للوهلة الأولى ظنت أنهما يتناجيان حول العهد الذى قطعه لها ذات يوم، وهمت بالدخول لتمنع استرسال الحديث، لكنها فكرت

قليلا، فربما كانا يتناجيان فى أمر آخر، وسمعت الأم الخبيرة وهى تنادى عليها، تركتها تنادى مرات حتى لا يدركا أنها هناك، تتسمع نجواهما، وعندما دخلت وجدته نائما إلى جوارها وآخذا إياها فى حضنه، كأنها طفل صغير، لم تره فى حياتها على هذا القدر من الحنو، حتى بالنسبة لها وهى أمه، وأخبرتها عمتها أن تنبه حورية إذ هو سيتناول الغذاء معهم.

كانوا فى أسبوع شام، وأمر كهذا سيغضبها، لكنه آثر أن يفعل لغرض فى نفسه، كما أراد أن يجلس أطول وقت إلى جوار جدته ويطعمها بيديه وينعم بشذى حديثها الهادئ، والذى كان له فى حياة الأسرة ومسيرتها تأثير لا يطاوله تأثير، وإذ لم يسمع صوت أقدام أمه وهى تنصرف، أو صرير الباب بما يعنى إغلاقه بعد انصرافها، التفت فرآها لما تزل واقفة والدهشة تملأ قسماتها المجهدة، بوده لو استطاع أن يأخذها بين يديه هى الأخرى ويمسح عن رأسها المتْعَب الكثير من الأشياء التى صارت تحملها ضده، أو يهدهدها كطفل ليعوضها عن قساوة الأيام التى عبرتها، والتى عاونت كل فرد فى أسرته الكبيرة على عبورها دون أن يمد أحد إليها يد المساعدة، لكنه اكتفى بالنظر إليها وسأل ضاحكا:

- أسمعت ما أمر به الباب العالى يامريم؟.

لم تتمالك، واستحالت الدهشة فوق قسماتها الحلوة إلى ضحكة بطيئة، لكنها مشرقة.

فى أصيل ذلك اليوم البعيد وبعد أن تناول الطعام فى حجرة الأم الخبيرة وأطعمها بيديه اختلى بأمه فى حضور جدته، وأخذ كامل الوقت ليحكى عما كان من أمر حورية مع شام، والتلقيح عليها، والذى تلاحقها

به في الروحة والغدو، وانتظرت مريم لينتهي من حديثه، فلأول مرة في حياتها تشعر بأنها في جانب وابنها في الجانب الآخر، ولأول مرة تدرك أن ابنها لم يعد هو الرجل الذي عرفته لسنوات طويلة، فهو غير قادر على أن ينهي موضوعا تافها مثل الموضوع الذي يتحدث عنه، وعادت إلى يوم أن كان هذا الابن مقداما إلى حد التصميم على أن تكون أول ضربة في رأس المهتار القديم هي ضربته، كانت وهو يتحدث تمعن النظر فيه، وفي يديه اللتين ترسمان إشارات مترددة، وتساءل: أتلكما اليدان هما اللتان نزلتا بالبلطة على رأس المملوك فشجتاها؟!.

تريثت حتى فرغ من الحديث وسألت:

– وما الذي يمكنني عمله؟!.

السؤال جارح، تعرف ذلك، فهو لا يشكو من قلة حيلة ولكنه يشكو حتى لا يضطر إذا ما تصرف حيال حورية بما يراه أن يغضبها هي والأم الخبيرة، أو يحدث في علاقته بموسى شرخا جراء قسوته مع أمه، لذا فإنه يلجأ إليها لتساعد في تجاوز الأمر، أما وقد سألت على هذا النحو فإنها ولا شك تحمل وجهة نظر فيما جرى تخالف ما يحكي عنه.

كان بسبيله إلى الصمت وإنهاء الحديث، ومن ثم التفكير في التصرف بدون مشورتها، وكان بإمكانها هي أيضا أن تقف بالحديث عند هذا الحد، لكنها وقد أرادت أن تنهي الأمر برمته سألت مستنكرة:

– ألا تعرف حقا لماذا نقف كلنا فوق برميل من البارود؟!.

رفع حاجبيه مندهشا:

- ماذا؟!.

فأجابته تلقي عن كاهلها عبئا:

- زوجتك المصـون تعتبر أنها بأبقارها أفضل من بنات سـيد احمد السـرسي، وإذا لم تستطع أن توقف هذا الخطر وتبحث عن حل فإن برميل البارود سينفجر.

كان فاغرا فاه، إنه لم ينظر إلى الأمر أبدا من تلك الزاوية، وإذ فاجأته أمه بما قالت نظر في عينيها وقال:

- يا سـااااتر.

وتسـاءل:

- ألهذا الحد تمكنت الكراهية من داري؟!.

وردت إليه أمه شيئا من اليقين:

- إنها لم تتمكن بعد.

وإذ رأته متعلقا بما تقول أردفت:

- وما لم تسـارع بإنهاء هذا الوضـع فإنها ستتمكن.

أطرق إلى الأرض، في إطراقته رأى فشلا كبيرا في كل ما قام به، من اول خروجهم من سرس وحتى مجيئه اليوم إلى أمه للتواصل معها، في أزمة لم يكن يراها بحجمها الحقيق، ولا بكامل تفصيلاتها، لكنه وبقصـد الوصـول إلى أعماق المشكلة سأل:

- أأمنعها من التمتع بثرائها يا أمي؟!.

فأجابته:

- مثلما استطعت أن تمنع الآخرين.

وسأل منزعجا:

- منعت من يا أمي؟!.

- الأم الخيرة وأنا وابنتي عمك، حورية وسرية.

دق صدره بيده:

- أنا يا أمي؟!.

كانت هادئة هذه المرة، وإلى أقصى حد:

- نعم يا ابن بطني، منعتنا ميراثنا.

وانطلقت تسأل:

- أين ميراثي في جدتي؟!، أوازن به الكفة المائلة أمام عيني، وأين نصيب جدتك الأم الخيرة من الأرض؟!، بل أين نصيب ابنتي عمك، حورية وسرية؟!.

وإذ رأته صامتا لا يجيب انبرت قائلة:

- موسى يقتل نفسه كل يوم ليزيد ثروة الأسرة، لا يكاد يدخل الدار و لم نعد نعرف شكله، وسيد احمد ينقسم بين العمل مع أخيه في الأرض وبين القيام بما يجب أن تقوم به أنت في الدار، وإبراهيم وسليمان لم يعودا يعرفان صبحهما من مسائهما من كثرة العمل، حتى السيد الصغير، قدماه لا ترتكزان على الأرض طوال اليوم، فلماذا لا تجعلهم يتمتعون بميراثهم، ولماذا تترك "أم بقر" هذه...

وأشارت في اتجاه دار شام وهي تكمل:

-... ترضع ولديها كراهية أخوتهما وتعودهما على الأنانية وعدم العمل من أجل الجميع؟!.

وقصت عليه كل شيء، إلا حكاية سيد احمد والأوراق التي اختلس النظر فيها دون علمه، وبعد أن رأته يمعن التفكير فيما قالت ويقلب الأمور طلبت أن يسلم ولديه الكبيرين موسى وسيد احمد نصيب أبيهما في الأرض، وحددت المساحة على وجه الدقة، مائة فدان وسبعة، لكنه وقد أفاق من استغراقه في التفكير قال:

- هذا سيجر علينا ويلات كثيرة.

سألته ما بين مستطلعة ومستنكرة:

- مثل ماذا يا شيخ أحمد؟!.

أجابها في خجل:

- إنك لم تنظرى إلى وضع شام وأولادها، ولا إلى زكية التي لم ترزق بأبناء.

كأنها كانت في انتظار ما قال، وانبرت من جديد:

- أما عن شام فإنكما أنت وهي من لم تنظرا إلى الآخرين، إنها تتيه بعمرانها وأبقارها، وترسل لجلب الأشياء لولديها خلسة، وأنت تقول إنك لا تستطيع أن تمنعها من التمتع بأملاكها، فكيف تعجز عن منعها وتقدر على منع الآخرين؟!.

وأردفت بعد قليل من الصمت:

- حورية وسرية لهما فى الأرض نصيب يساوى ما لك بالضبط، دون زيادة أو نقصان، وإذا لم تعطهما حقوقهما فخراب دارك سيكون عما قريب.

وسألته مستنكرة:

- ذئب البرارى هذا الذى ينام فى الغيطان ويصاحب أبناء الليل ويرد غائلة السعدانى ورجاله ويضيف إلى أراضيك أفدنة كثيرة كل يوم.

تقصد موسى:

- أو تظن أنه سيظل ساكنا فى مكانه وهو يرى انفلات زوجة أبيه وإفساد ولديها؟!.

وأخذت نفسا عميقا:

- وهذا الوديع الذى يرسى الحكمة فى دارك ويطرح البركة، أو تظن أنه سيرضى بحرمان أمه حقها؟!.

تقصد سيد احمد، وفوجئت به يقول على غير توقع:

- أو يهددنى إبناى يا أمى؟!.

فأجابته غاضبة:

- لا تلوى الكلام إلى غير مراده، ولا تحيد عن الحق.

تركها على حالها وخرج من الحجرة. ثم عاد وفى يده أوراقا عديدة، كان قد دخل إلى حجرة حورية وفتح الدولاب وأحضرها، وسأل عن

سـيد احمد فنادوه من عند الحظائر، كان يشرف على إدخال القطعان والبهائم، ويتأكد من ملء المزاود بالتبن والدريس وجريش الذرة.

المسافة التي قطعها من الحظائر وحتى حجرة الأم الخبيرة مرت عليه كأنها دهر، تمنى لو تنشق الأرض وتبتلعه ولا يعرف أبوه ما بدر منه، في الخارج كانت سرية تعض أصابعها، وكذلك كانت تفعل حورية، لم يعد لديهما شك في أن عمتهما أخبرت ابنها بما كان من أمر ولده مع الدولاب الذي نسيه مفتوحا، وما أن مثل سـيد احمد مرتجفا بين يدي أبيه حتى طلب منه أن يجلس، وفوجئ بأبيه يدفع إليه بالأوراق:

- إقرأ على جدتيك هذه الأوراق.

وأخذ الفتى يقرأ على جدتيه، مريم والأم الخبيرة، التي لم يكن لديه شك في أنها تتابع ما يدور، وتكون الرأي بشأن ما تسـمع، لم يكن الباب مغلقا هذه المرة، ووجدت حورية وسرية الفرصة سانحة للوقوف عند الباب تستطلعان ما يطلب من سـيد احمد قراءته.

الورقة الأولى عقد بيع بينه وبين جدته الأم الخبيرة، يبيعها بموجبه ثمانين فدانا، والثانية بينه وبين أمه، يبيعها بموجبه هي الأخرى ثمانين فدانا، والثالثة بينه كذلك وبين حورية، يبيعها بموجبه أربعين فدانا، والرابعة والأخيرة بينه وبين سرية، يبيعها بموجبه أيضا أربعين فدانا، كلها صادرة منه ومؤرخة في اليوم التالي لشرائه الأرض من مندوب الباشا، وشاهد عليها العمدتان الشيخ دسوقي والحاج سويلم.

فرغ سيد احمد من القراءة ومد يده ليرد العقود لأبيه ففوجئوا به يقول:

- إنها لكم، احفظوها كما تريدون.

كان سيد احمد رقيقا إلى حد أنه بكى، ووقف أحمد وتوجه بالحديث إلى أمه:

- لست أنا الذى يغتال حق احد يا أمى.

وتأهب للانصراف، ورأى أن يقول قبل انصرافه:

- أردت لأشياء كثيرة فى نفسى أن أطيل حالة الأسرة الواحدة.

وأشار إلى سيد احمد:

- اردت أن أجعله هو وأخاه رجلا واحدا، لا يقدر أحد على التفريق بينهما.

وتهدج صوته:

- اردت أن يكونا ابوين لأخوتهما، وليسا مجرد أخوين.

مريم لم تكن وحدها هى التى بكت فى ذلك الأصيل البعيد، فلقد جرت دموع حورية وسرية، ولم تدريا إلا وهما تتعلقان بكتفى أحمد وتقبلان ما تدركانه منه لتمنعاه من الخروج من الدار القديمة غاضبا.

الانطلاق

بعد أقل من عام من رحيل إبراهيم رحل محمد على باشا الكبير، وكان رحيله فى الثالث من أغسطس سنة 1849، فى ذلك اليوم البعيد كان قد مضى على خروج السراسوة من سرس القديمة أكثر من عشرين عاما، قضوها فى هروب دائم، إما إلى الأمام أو إلى الخلف، وإما بالهروب فى المكان، فرجل القطعان هرب إلى الخلف، وربما فعل الصهران، أما رجل الاستطلاع وابن أخيهم أحمد السرسى فقد ظلا يفران فى المكان، يفران من لقبهما ومن محاولة الاتصال ببلدهما أو ببعضهم البعض، حتى أن العزبة التى نجح أحمد فى تأسيسها وإنشائها وتطويرها لم تحظ باسمها الذى عرفه الناس فى مركز السنبلاوين إلا بعد أن رحل آخر أبناء الوالى الذى ناصبهم العداء، وجد فى البحث عنهم كل تلك السنين.

لم يكن فى عزبة أحمد السرسى وقت رحيل محمد على باشا ممن عرف سرس القديمة إلا أحمد السرسى والأم الخبيرة ومريم وحورية وسرية، أما الباقون وكانوا الأكثر عددا فإنهم لم يكونوا يعرفون عنها سوى ما سمعوه

في الحكايات، ولظروف الهروب الدائم الذي امتد لسنوات طويلة لم يكونوا يقصون على الأبناء الكثير مما جرى هناك، بل إن الكبار منهم كموسى وسيد احمد وإبراهيم ومحمد وسليمان لم يكونوا يعرفون، بل و لم يسمعوا أبدا أن أباهم الشيخ الذى يغلق على نفسه الأبواب ويقرأ فى كتبه الكثيرة، والذى يحفظ القرآن عن ظهر قلب كان أول من امتدت يداه لقتل المملوك الهالك، و لم يكونوا يعرفون، بل و لم يسمعوا أبدا أن جدتهم التى تقوم الدار عليها والتى تتولى كل شيء فى حياتهم كانت الطعم الذى استدرجوا به ذلك الرجل، حتى إذا ما هم بالتقاطه وقع فى الفخ، كل ما كانوا يعرفونه أنهم خرجوا من هناك لما اتهموا بقتل ذلك المملوك وجد الوالى الرهيب فى البحث عنهم.

ود الشيخ أحمد لو يقابل كل إنسان يعرفه فى المنطقة ويخبره بأنه أحمد السرسي، وقع اللقب على مسمعه كان وهو ينطقه غريبا، فهو لم يصرح به لأحد من قبل، وها هو بعد كل تلك السنين يحاول أن يلحق بما فاته، طلب من صديقه الشيخ دسوقى أن يسأل وهو فى اجتماع بمجلس المديرية عما إذا كان الأمر بمطاردتهم والقبض عليهم لا يزال قائما، وظل على تحفظه أياما حتى جاءه الخبر اليقين، فلقد رفع الأمر من السجلات، و لم يعد هناك داع للخوف، لكن العقل يقتضى - هكذا نصح الشيخ دسوقى - أن يتوخى الحذر، فالبلاد لا تسيرها القوانين والشرائع كما قد يتوهم، وإنما تحكمها أهواء الحكام، وهم فى النهاية ليسوا إلا مجموعة من الطغاة يجيدون لعبة الانقلاب على كل القواعد فى أية لحظة، ولأتفه الأسباب، بل إنهم فى كثير من الأحيان يفعلون لمجرد دفع الملل عن أيامهم إذا صارت رتيبة.

ما أخبره به الشيخ دسوقى لم يجعله آمنا، فهو لا يعرف إن كان ينطلق بين الناس على سجيته أو يظل على كمونه واختبائه، هل يعود بجدته التى تصارع الأيام لتشم ريح سرس أم ينقض عهده، باعتبار أن الدنيا لم تعد بعد آمنة، لو سأل أمه عن رأيها لأيدته فى مواصلة الاختباء، فهى لا ترتاح أبدا إلى أى شيء يذكرها بسرس، بل إنها كانت فيما مضى تتمنى لو أنها امحت من ذاكرتها، من مولدها وحتى اللحظة التى رأتهم فيها يهيلون التراب على المملوك العجوز فى الحفرة العميقة، ولو سأل حورية وسرية لصرختا فى وجهه ألا يفعل، فهما لا تريان إلا ما يراه، وما تراه عمتهما مريم، وحدها الأم الخبيرة هى التى تحن إليها، هى التى تشم فى ريحها الجنة، وفى ترابها الحنة والزعفران، وترى فى شمسها نورا يكفى لإضاءة ظلام الكون، لكن تحذيرات العمدة حملت إليه النذير الذى سيتحمل عواقبه لو خالفها.

فعباس الأول الذى خلف عمه إبراهيم رجل فظ، غليظ القلب، وكما يصفه الناس فهو قاس ضيق الأفق، متعال وسيئ الظن بالناس، كل الناس، جربوه مرة عندما كان عمه إبراهيم فى رحلة العلاج فى أوروبا، وعرفه الناس ناقما على جده وعمه، ومتوثبا تصفية كل ما أنجزاه، ورجل هذا طبعه لا يمكن السير فى ظله باطمئنان، فوشاية صغيرة كفيلة بأن تقضى عليه وعلى أسرته.

هو لا يقل حنينا لسرس عن جدته الأم الخبيرة، لكنه الآن ليس مسئولا عن نفسه فقط، ولا حتى عن جدته وأمه وابنتى عميه، وإنما أيضا عن ثمانية من الأبناء، وسيصبحون عشرة أو أكثر عما قريب، فضلا عن

زوجتين أخريين، كيف إذن يكون من حقه أن يتعلق بأشياء قد تجر الويل عليه وعلى ذويه وذريته فتستأصل شأفته من أساسها، وما يجعله خائفا أكثر من ذى قبل هو العداء المكتوم الذى يكنه له ولأبنائه الجار الأعرابى الجديد، مساعد السمدانى، فهو لا ينسى أبدا أن الرجل أقسم لينتقمن منه فى صورة ابنه الأكبر موسى، وذلك الخبر نقله إليه رجال لا يشك أبدا فى أمانتهم وصدقهم، وأحدهم امتحن صداقته مرات ومرات، و لم تعد محل شك من أحد، فبرغم فارق السن بينه وبين الحاج سويلم إلا أن الرجل ولاعتبارات كثيرة يعده صديقا مقربا، أقرب من أى صديق آخر، وهو لم ينقل إليه الخبر إلا ليحذره ويأمر ولده بالحذر، فالأعراب لا يتورعون عن الغدر بأى إنسان، خاصة إذا كان من الفلاحين الزُّعر، والذين – كما يعتقدون – يقلون عنهم منزلة!!!.

حسم أمره وانتوى عدم الذهاب إلى هناك، بل إن تدبيره للانطلاق للبحث عن صهريه، والاتصال برجل الاستطلاع فى بقطارس، أو محاولة تقصى أخبار رجل القطعان، أو حتى ذلك العم الذى يسمع بأن أبناءه يسكنون فى جوار طنطا، كل تلك التدابير تم إيقافها، فالبحث عن أعمامه الذين تبعثروا على امتداد الطريق لن يجر عليه وعلى أسرته إلا الشر، وستضيع سدى ثمار أكثر من عشرين عاما من العمل فى إعادة تأسيس الأسرة والتمكين لها، لكنه كان يشعر برهبة، فلقد عاهد جدته، وكيف له أن يعاهد ويغدر، أو يعد فيخلف، يعرف وهو ابن العلوم الشرعية وابن أصول الأحكام أن المضطر لا حرج عليه، وأن الضرورات تبيح المحظورات، لكنه كره على نحو خاص أن تلجئه الظروف إلى فعل ذلك،

هو الذى يؤمن بتلك القواعد ولا يتصور أبدا أن تكون بالنسبة له مجرد فروض نظرية، وهى الآن واقع عملى، ومتحقق إلى حد لا يصدقه، وعليه أن يقول كلمته الحاسمة فيها.

أشهر عديدة مرت على واقعة فصل الحدود بين أملاكه وأملاك السمدانى، ومن يومها لم يلتقه، فالتحذير الذى حمله الحاج سويلم أصابه بالصدمة، وجعله يعاف زيارة الأعرابى أو التودد إليه، هو الذى يرى أن للجار على جاره حقوقا تعادل ما للأخ على أخيه، لكن مرور الوقت جعله بعد هدوء سورة الغضب يرى الأمر على حقيقته، وحقيقة الأمر هى أنه لا يجب أن يقف مكتوف اليدين فى انتظار انتقام الرجل، وليس من المناسب أن يتناول بالشكوى للأصدقاء كل ما لا يرضيه من مسلك الجار، خاصة إذا ما عرف أن الرجل ليس مندفعا كسلفه، بل هو متريث متدبر، يجيد التخطيط لما يريد، وأول شىء خطط له وأحرز فيه بعض النجاح هو العمل على تحييد مجموعة العمد والأعوان الذين ناصروه فى معركته مع الجياصى.

ما يريده سيلقى اعتراضا من كثيرين، من ابنه الأكبر موسى، وحورية بالطبع، وأبنائه الذين ينظرون إلى أخيهم الأكبر منذ هجم على الأعرابى ونزعه من فوق حصانه وطرحه أرضا واستولى على سلاحه على أنه بطل، مثله مثل أبطال الأساطير الذين يسمعون بهم فى الحواديت، أبى زيد الهلالى وعنترة بن شداد وسيف بن ذى يزن، وهو فى النهاية لا يريد أن يختلف مع ولده، ولا أن يتصرف على غير موافقته فكأنه لا قيمة له عنده، والحل الوحيد لتفادى ذلك هو استشارة مريم، فهى منذ واجهته واستخلصت

لحورية وسرية حقوقهما، أو بالأصح أبانت عما كان قد أعده من أجلهما، هي منذ ذلك الوقت سند الزوجتين ابنتي العم وملاذهما، والأم الثانية وليست الجدة لأولادهما، وذلك هو التعبير الذى أطلقه موسى بنفسه عندما حكوا له ما كان من أمر المواجهة التى بكى فى نهايتها الجميع، حتى الأم الخبيرة التى لم تشارك بكلمة واحدة، لكنها شاركت بالدموع.

مريم قالت إن زيارته لمضارب السمداني واجبة، فآخر مرة التقاه فيها كان هنا فى داره، فى المندرة الكبيرة، يوم أن أعفاه من حرج الاعتذار أمام الجميع، والواجب يحتم أن يرد الزيارة، ولما واجهها بمخاوفه طمأنته، فهى بنفسها التى ستحصل على موافقة موسى، بل وقد تقنعه بمرافقته فى تلك الزيارة هو وسيد احمد، و لم يطل الوقت به، فلقد فوجئ ذات صباح بموسى يدخل عليه وينحنى على يده ليقبلها، قال إنه لا يساوى ظفرا من أظافره، وإنه يصعب عليه أن يعامل على أنه مراجع لرأى أبيه، وإنه على استعداد لأن يرمى بنفسه فى البحر إن هو طلب ذلك، وقبل أن ينصرف مد يده بأوراق وطلب من أبيه أن يحتفظ بها، فهى له وليست لهم، وهو الأمين عليهم وليسوا هم الأمناء على أنفسهم.

كان يبكى كما لم يبك من قبل، فلقد جرحته كلمات جدته، وحز فى نفسه أن يضعف أبوه إلى حد توسيط أحد بينهما، حتى ولو كانت جدته، مريم التى لا يقدر أحد حتى أبوه على مخالفتها، فى ذلك اليوم البعيد رأت فيه مريم رجلا لم يمر بالأسرة مثله، إذ فيه من كل أسلافه شيئا جميلا، فضلا عن فتوته التى كانت طوال الوقت تخافها، أو لنقل تخاف عواقبها. فى

ذلك اليوم البعيد نشطت الأم الخبيرة على غير عادتها، فلقد وهن منها كل شيء إلا السمع، طلبت حفيدها لترقيه، ولما اقترب منها وتحسسته أدركت أنه يبكى، لم تسأله لماذا يفعل، اكتفت بأن ربتت على كتفه وجذبته إليها، ووضعت قبلة حانية فوق وجنته الخشنة.

أزالت تلك المواجهة عقبات كثيرة كادت تودى بوحدة الأسرة الناهضة، فانشغال موسى بإصلاح المزيد من الأرض وتمهيدها، وغمرها بالماء وزراعتها بالسمار والبردى والدنيبة جعله بعيدا عن كثير مما يجرى في الدور الأربع التى يتنقل بينها أبوه. لم يكن يعرف مثلا أن سيد احمد اقترب كثيرا من جدته مريم حتى بات الأثير لديها، كما و لم يكن يعرف أن أباه يضعه دون مبرر كعقبة أمام إنفاذ آرائه، كل ذلك لم يكن يعرفه، ولربما خافت حورية أن تتحدث إلى ابنها فى أشياء تزيد من حساسية الجميع تجاه انفراده بتصريف الكثير من الأمور، لكن انفراد جدته به وحديثها إليه بشأن رغبة أبيه فى عمل زيارة لمضارب السمدانى وخشيته من أن يغضبه ذلك كشف أمامه مناطق كانت مجهولة، فمثله مثل أبيه كان طوال الوقت يعمل على فرضية أن مواقف الجميع ثابتة، وثقتهم فى بعضهم البعض قائمة، وأن أحدا منهم، منهم جميعا، الجدتين والزوجات والأبناء، ومن قبلهم الأب، لا يمكن أن يفكر بمجرد تفكير فى الاستئثار بعمله دون الجميع، أو التفكير إلا فى صالح المجموع.

أضاءت كلمات جدته فى الغيط البعيد تلك المناطق المعتمة، و لم يتركها إلا بعد أن قصت عليه كل شيء، عن شام وما تفعله بتأثير أبقارها، وعن

زكية التي جعلت بكائها المستمر لتكرار سقوط حملها حياة أبيه قطعة من الجحيم، وحتى عما تأخذه على أمه وخالته سرية، ووضعته في الصورة التي غاب عنها طويلا.

هالها ما رأت هناك، حيث ينقل حفيدها أحواضا كاملة من الأرض من حال البوار إلى غيطان إما زرعت وأينع زرعها، أو هي في سبيلها إلى الانضمام إلى بساط السندس، دون أن يبحث لنفسه عن فائدة خاصة، أو يفكر بجرد التفكير في أن يمتنوا له، فقط يريد أن يمد يد العون لأبيه، فلم يعد من اللائق أن يخلع أبوه جلبابه وقفطانه ويجرى وراء العمال من قبل أن تشرق الشمس وحتى تغيب من جديد، ووجد في نفسه القدرة على أن يترك أباه لأصدقائه وضيوفه وزوراته، وحتى عندما رأى أن سيد احمد لا يعمل بكامل طاقته، وعلم أنه يقوم عن أبيه بكل ما يتعلق بشئون العزبة كف عن تعنيفه أو الإلحاح عليه، فكل منهما يسد جانبا من المهام عن أبيه، وقال لجدته:

– لم أكن أقدر ما يقوم به سيد احمد، كنت أراه شيئا تافها، ولما أمعنت النظر في استرسال الحياة، وانتظام العمل وتوافر الأدوات والمؤن، بل وانتهاز الفرصة للمشاركة في العمل في الغيط عرفت أن ما يقوم به لا يقل أبدا عما أفعل، إن لم يكن يزيد.

عند هذه النقطة بالذات انفتح له وعلى اتساعه قلب جدته، تعجبت كيف لم تكن تعرف حفيدها على حقيقته، وكانت وهو يسترسل في الحديث إليها ترى الكثير من الغضاضات التي أخذتها عليه والمخافات من

اندفاعه تتساقط تاركة مساحات شاسعة من الحب تغمر قلبها، مساحات باتساع تلك التى يلمع فيها الماء، والتى تتناثر فوق سطحها شتلات الدنية والسمار والبردى، كأنها آلاف الأفراخ الصغيرة لطيور لا يعرفها إلا هذا الحفيد الرائع.

أرسلت فى طلب سيد احمد ليوافيهما فى الغيط، ووافاهما إلى هناك، تحت أضواء تجاهد لتبقى فى الأرض بعد غروب الشمس تعاهد ثلاثتهم، الجدة مريم والحفيدان موسى وسيد احمد على أن يعيدوا للشيخ أحمد المرسى سطوته وكامل سلطته على دوره الأربع، على زوجاته وأولاده، فى مبادرة كان موسى فارسها، ومريم من ورائها، وسيد احمد معاونا لا ينكر دوره فيها.

موسى لم يكن قد علم حتى ذلك اليوم بواقعة المواجهة والأوراق التى أخرجها أبوه من دولابه، وتسليمه إياها لمريم لتحتفظ بها كيف تشاء، بل هو لم يكن يعرف فى الأساس بواقعة اختلاس سيد احمد النظر فى أوراق أبيه، لذا فإنه وقد علم بذلك طلب الأوراق من أخيه، قال إنهم لا يمكن أن يردوا لأبيه الاعتبار ما لم يسلموه الأوراق ليحتفظ بها بنفسه، وعندما قال ذلك ضحكت مريم فى نفسها، فإذا كان موسى يقول ما يقول وسيد احمد يصادق على ما رأياه وعايناه من أمر أبيهما وهم فى حال الاستقرار فماذا لو كانا حاضرين وهو يحكم قبضتيه على بلطته؟!، ثم وهو يشق الهواء شقا ويهوى بها على رأس المملوك القديم؟!، ماذا لو عايناه وهو يقود الخروج الذى اقتلع جذور الأسرة الكبيرة من منبتها؟!، وهو يتقدم

بهم عبر الليل والوحل؟!، عبر الخوف والأهوال؟!، ماذا لو عاينها وهو ينجو من القتل بمعجزة؟!، وهو يستبقى الصهباء القديمة فى الحياة، ثم وهو يودعها بعينين غارقتين فى الدموع؟!.

نعم، هم جميعا لا يساوون من غيره شيئا، وهم الثلاثة بالتحديد الذين يشكل لهم ضعفه شيئا يقتل نفوسهم قتلا، مريم، الأم التى باعت عمرها كله واشترته، وموسى وسيد احمد اللذان أبصرا الدنيا وليس فيها من رجل تكتمل فيه معنى الأبوة والرجولة إلا هو، أبوهما الرائع الذى عاينه وهو يجالس ضيوفه وأصدقائه ويحدثهم ذلك الحديث العجيب، بطريقته الرائعة التى تأخذ بالألباب، ليست ألباب أهله فقط، ولكن ألباب كل من يستمع إليه، من أصدقاء وغرباء لم يسبق لهم أن رأوه.

سيد احمد جاء بالأوراق، وكان الليل قد أرخى سدوله فدخلوا المندرة الجديدة القائمة عند شاطئ الخندق، وعلى ضوء مصباح زيتى ينفث من الدخان أكثر مما يبعث الضوء قرأ سيد احمد الأوراق من جديد، ساعتها أدركت مريم ولأول مرة أن ابنها الجميل كتب لها ربع الأبعدية، برغم أن الشروط التى اشترطتها عليه الأم الخبيرة وهى تسلمه نصيب الجدة الكبرى ونصيبها من خبيئة الأسرة لم يكن من بينها اشتراط أى نصيب لها، ياللروعة عندما يكون للمرء ابن جميل كأحمد السرسى!!، وياللسكينة التى تشعر بها أم تعلمها الأيام يوما بعد يوم ألا تعود فتفتش فى ضمير ابنها الأوحد!!، أم ترى أن ابنها ليس كمثله ابن ولدته النساء!!، لم يدرك الولدان لماذا راحت جدتهما تبكى بكل ذلك الفرح، فالعينان تهطلان بالدمع والأسارير تبسط كصفحة نهر تعكس قمرا صافيا.

تعجبت، لقد أدرك أحمد حزنها الذى اجتهدت لتخفيه عن الجميع، وعنه على الأخص، لكنه أدرك كل شيء، أدرك ما تخفيه عنه، كأنه مكشوف عنه الحجاب، لا يقف دون قدرته سر او طلسم، كأنه كان بداخلها وهى تشعر بالجرح العميق الذى شعرت به والألم الخبرة تقسم الأبعدية فلا تذكرها من بين من يستحقون الاعتبار، لكن ما أثار دهشتها هو أن ابنها أفرد لها الربع على حساب الجميع، عن فيهم هو، وافاقت على صوت سيد احمد يسأل:

– ألم يكن لأمينا الثلث يا جدتى؟!.

ولما لم تكن فى حال يسمح بسرعة الانسحاب مما كانت تعيش فى رحابه من فرح فإنه وجد نفسه مضطراً لأن يردف:

– هكذا كانوا يقولون.

لم تسأله من هم هؤلاء الذين كانوا يقولون، كما و لم يسأله موسى، فقط تناول العقود من يده وبدأ الحديث:

– الشيء الوحيد الذى سيرد إليه اعتباره هو أن نعهد إليه بحفظ تلك الأوراق من جديد.

وكأنما أثار اقتراحه شيئا فى نفس مريم، فلم تفلح فى أن تمنع دمعتين انحدرتا من عينيها من جديد، وعبثا حاول سيد احمد أن يبدو طبيعيا، فاقتراح أخيه يضعه فى موقف محرج، فهو إن قال نعم يؤكد أنهم أخطأوا عندما أخذوها من أبيه وتولوا حفظها، وإن قال لا فهذا يعنى أنه لا يثق فى أبيه، وسيكون للرفض أثره المدمر فى نفوس الجميع، حتى جدته القريبة

منه إلى أقصى حد، لكنه لا يعدم الجرأة ليثير كعادته أسئلة تعين على النظر للأمر من زاوية مختلفة، قال:

– لكنه هو الذى أعطانا إياها، ولما حاولنا ردها إليه رفض بشدة، أليس كذلك يا جدتى؟.

و لم تملك الجدة إلا أن تجيب:

– هو ذاك.

و لم تزد حرفا، ودت لو يكف سيد احمد عن النقاش فى هذا الشأن، فهى كأم كانت ومن لحظة أن رأت العقود تشعر بالذنب لأنها لم تقترب من ابنها بالقدر الذى يحفظ عليه اعتباره، أمامها وأمام أبنائه، والأهم أمام زوجاته اللاتى باضت بينهن الغيرة وأفرخت، ولكنها كانت تعرف أن ما يثيره سيد احمد ليس لأنه لا يثق فى أبيه، ولكن لأنه شاب عملى جدا، لا يعرف معنى للتراجع الذى لا يعالج ما سبق من أمور، فلقد حدثت المواجهة التى أغضبت أبيه، ومن قامت بمواجهته هى أمه، وليس أحدا غيرها، فإذا كان أبوه قد كتب العقود دون علمهم جميعا، ووزع الأنصبة بمرضاة خاطره، فإن وجودها فى يد أصحابها أو فى يده مسألة ثانوية لا تقدم ولا تؤخر.

واصر موسى على ما يقول، لم يشأ أن يقف الاقتراح عند هذا الحد فيخرج ثلاثتهم من الاجتماع دون قرار يعيد الاعتبار إلى أبيه، ولأنه يعرف أن أخاه لن يمانع إذا ما اتفق هو وجدته على إعادة الأوراق إلى الأب قال:

– لا تنكر أنه منذ أعطانا الأوراق لنحتفظ بها وهو ليس أبانا الذى نعرفه.

فسأله سيد احمد:

– كيف؟.

مريم تتابع النقاش فى قلق، لا تريد أن يثير الأمر المزيد من الخلاف، خاصة وهى ترى أن اتفاق الأخوين موسى وسيد احمد والضرتين حورية وسرية هو الأساس الأهم فى وحدة الأسرة، لكن سؤال سيد احمد الهادئ رد أخاه إلى مستوى هادئ من الحديث وطمأنها قليلا، فلقد انبرى موسى مجيبا:

– إنه ومنذ ذلك الوقت لم يأت إلى هنا ليرى تقدم العمل فى إصلاح الأرض، يعتقد أننا نصلح الأرض لأنفسنا، لم يعد يمازح أمى كما اعتاد، حتى أن أمى شكت لأنه يأمرها بالخروج من الحجرة فى كل مرة يريد أن يفتح دولاب أوراقه.

وبعد قليل من الصمت أردف:

– وأظن أنك لو سألت أمك ستجيبك بمثل ما قالت أمى.

ونظر فى وجه جدته:

– ينظر إلينا وكأننا لا نمتن لما فعل من أجلنا، ولو أنه وافق عميه على الامتناع عن الحصول على الأرض لكنا الآن مجرد رعيان غنم، وليس غير.

و لم يملك سيد احمد سوى أن يوافقه:

- هذا صحيح.

- إذن فلنعهد إليه بأوراقنا من جديد، فهو آمن عليها منى ومنك.

ورأى سيد احمد أن يثير آخر فرصة للنقاش فى الأمر:

- وإذا ما رفض؟!.

وأجاب موسى متسائلا:

- رفض ماذا؟!.

فأسرع بتفسير سؤاله:

- أن يسترد الأوراق؟!.

أدرك موسى أن أخاه ينهى النقاش بطريقة عملية، وأنه لا يترك للصدف أمرا متوقعا، فأحمد السرسى الذى واجه الأهوال وهو فى عمرهما أو أصغر منهما قد يجد أن ما حدث لا يمكن جبره، حتى ولو أعادوا إليه الأوراق، نعم هو أمر متوقع بالفعل، لكن موسى ضحك وهو يقول:

- لا تشغل بالك بالأمر، سأعيدها إليه بصورة لا يملك معها رفضا.

كان مريم لم تكن عرفت حفيدها من قبل، راحت تتفرس فى ملامح الولد الذى سكن الغيطان، والذى أنضجته التجارب القصيرة التى خاضها، وعلمته كيف يدير نقاشا مع الآخرين ويكسب نتيجته، حتى ولو كان الآخر هذا هو سيد احمد، العاقل الرزين، الذى لا ينفعل إلا نادرا ويقيس أى شىء بمقياس العقل، نعم، هكذا قالت لنفسها، فهى لأسباب تعرفها ولا تصرح بها حتى لنفسها لم تكن تعرف حفيدها على حقيقته، وعندما ترك الدار وأقام فى الغيطان قلت مناسبات احتكاكها به، و لم تكن

تحمل له فى نفسها إلا حب الجدة لحفيدها، لكنه لم يكن يقارب أبدا حبها لسيد احمد.

الآن هى ترى أن ما شكت منه حورية من أنها تفضل أبناء سرية على أبنائها لم يكن له من سبب إلا لأنها اقتربت من سيد احمدا بقدر ما ابتعدت عن موسى، تمنت لو أن ابنها كان حاضرا النقاش بين الأخوين، تمنت لو أنه تجرد من حساسية أن الأمر يتناول شيئا ذا علاقة به وينظر إلى ولديه وهما يتناقشان، فى ثقة وحيوية وجرأة، وعقلانية، و لم يشأ سيد احمد أن يترك الأمر دون خاتمة فسألها:

- ما رأيك يا جدتى؟.

ابتسمت وقالت:

- كلاكما على حق.

وبعد برهة استدركت:

- ما قاله موسى بشأن تغير أبيك، والشرخ الذى حدث فى علاقته بنا جميعا بمن فيكم أنا حقيقى تماما.

وأمعنت النظر فى وجهيهما:

- نعم هو لم يعد يتحدث معنا على سجيته، وعندما أمر شام بأن تحافظ على شعوركم ولا تفسد ولديها بمالها لم يفعل إلا لرغبته فى أن يبتعد عن الدار القديمة بشقيها، دار حورية ودار سرية.

واختتمت حديثها بأن قالت:

- فلنعهد إليه بأنفسنا ليرى فينا رأيه كما اعتاد.

خرجوا من الاجتماع الغيطى بقرارين هامين، أولهما هو ضرورة إعادة الأوراق لصاحبها، ورأب الصدع الذى أحدثه المواجهة معه، والثانى هو مرافقة الشابين لأبيهما فى زيارة مضارب السمدانى، موسى عن يمينه وسيد احمد عن شماله.

فى عصر يوم تال نظر مساعد السمدانى فى هيئة القادمين وسأل:

- أهو ذلك الأحمد وإبناه؟.

أجاب احدهم:

- نعم.

وعاد ليسأل:

- أيهما الولد الذى تقولون عنه؟.

فأجاب آخر:

- الذى عن يمين أبيه.

أعادت تلك الزيارة معان غير طيبة فى نفس الشيخ أحمد السرسى، فكأنه ذاهب لتوه إلى مضارب عبد الله الجياصى، يوم أن منع عنه البنائين والعمال الذى كانوا يبنون داره الأولى، لكنه الآن بين شابين ناهضين هما إبنيه، وهذا الذى فى انتظاره هو مساعد السمدانى وليس عبد الله الجياصى، فى القديم كان يستجدى شراء قيراط ليقيم عليه دارا، أما الآن فهو مالك لأكثر من ثلاثمائة فدان وعزبة تسكنها أسرته، زوجاته الأربع وأمه وجدته، ورهط من الأبناء ينمو يوما بعد يوم.

كان قد أرسل ليخبر الأعرابي بمقدمه للزيارة، وها هو الرجل يقف على راس مستقبليه، بالضبط عند حدود مضاربه، وسط رهط من الرجال لمح موسى من بينهم الرجل الذى طرحه منذ زمن أرضا وجرده من سلاحه، الرجل لا ينفك يوجه إليه نظرات لا تخفى على لبيب، وموسى يقابلها بشىء من الحياد احتراما لوجوده بصحبة أبيه، لم ينطل عليه الترحاب الذى قابلوهم به، ولا الوليمة التى أعدوها وأغلظوا فى الأيمان لَيَتْفُون لتناولها، تأكد له أن الجميع يختلسون النظر إليه كلما انشغل بشىء، أولهم كبيرهم، ومن بعده كل الرجال الذين يقومون على شئون الاستضافة.

فى ذلك اليوم البعيد أدرك الشيخ أحمد السرسى أن الأعرابى الجديد مساعدا السمدانى ليس فى شراسة وفجاجة سلفه الجياصى، لكنه لا يقل عنه تصميما، وهو إذا كان قد جاراهم فى الترحاب وبقى هو وولداه لتناول العشاء إلا أنه لم تفته نظرة واحدة من تلك النظرات التى يصوبونها لابنيه، قرأ فى تلك النظرات كل المستقبل، وتمنى لو يقايض على ما يخشى بأغلى شىء، وكأنما أراد أن يختبر حضور ولديه فسأل وهم فى طريق العودة:

– أود أن أسمع رأيكما فى الزيارة.

واستفسر سيد احمد:

– من حيث؟.

فأجاب:

– من أول القرار بالذهاب إلى اللحظة التى نحن فيها الآن.

ولشيء في نفسه بدأ سيد احمد، كأنه يتعمد أن يجعل العاقبة لموسى، وكان موسى هو الآخر يدرك ما يرمي إليه أبوه، فلقد رآه طوال الزيارة يتعقب النظرات التي يصوبونها إليه:

– أنا مع السلم حيث كان.

هكذا بدأ سيد احمد، وأردف:

– هؤلاء الناس قد يلجأون إلى القوة لبسط سيطرتهم، لكننا الآن في ظروف تختلف عما سبق، وما سمعته من حكايات عن الجياصي لا يمكن ان يتكرر.

وأراد أن ينظر في وجه أبيه ليرى أثر حديثه لكن الظلام كان دامسا، فأكمل:

– وضعنا بهذه الزيارة أساسا لعلاقات حسنة مع الشيخ مساعد، ولا أظن أنه سينقضها.

لم يشأ الشيخ أحمد أن يترك الحديث مع سيد احمد دون أن يستجلي كل شيء، فعاد إلى السؤال:

– على أي أساس تقول هذا؟.

بدا أن سيد احمد لم يتوقع سؤالا كهذا، لذا فإنه وهو يبحث عن كلمات مناسبة لنقل ما يدور في خلده أخذ بعضا من الوقت.

الليل ساج والنجوم البعيدة تتألق كأنها في انتظار الإجابة، وسيد احمد يقول بصوت أقرب إلى الهمس:

– فعلنا فى زمن قياسى كل ما نريد، حفرنا خندقنا الذى نملؤه بالماء لوقت الحاجة، وحفرنا قنواتنا، ووضعنا علامات الحدود الثابتة بيننا وبينه، و لم يعد من شيء لينفذ من خلاله.

وضحت للشيخ فكرة ابنه، ووجه السؤال لموسى، من بعيد جاءهم نباح الكلاب فى العزبة، ومن مكان بعيد جاءهم مع نسمات الليل صوت ناى، ربما من عند قطعانهم التى يسهر عليها رعاة من الأعراب المتوطنين، وربما من مكان آخر، حملته النسمات على أجنحتها الليلية الرقيقة، وصنعت خلفية رائعة لخطو الثلاثى العجيب، الشيخ أحمد السرسى وولديه، موسى وسيد احمد:

– أنا مع أخى فى أن ما أنجزناه يصعب على الشيخ مساعد نقضه، فلا هو يقدر على نزع علامات الحدود التى أخذ القياسون لها دلائل مع علامات أخرى بعيدة فى البلدان المجاورة، ولا هو يستطيع أن يعبر الحدود ويدخل الأرض ليهدم خندقنا أو ليطمس قناتنا.

وكأنما طرب هو نفسه لصوته المنطلق على خلفية الأنغام الآتية من بعيد فأكمل بعد برهة من الصمت:

– لكننى لا زلت أرى أنه لا ينتوى خيرا، وحتى لا يتهمنى أحد بالتسرع أو التشكك فلقد رأيت فى عيون القوم شرا قادما.

وإذ اطمأن إلى أن أباه ينصت بكل جوارحه، وأن أخاه لا يقل عن الأب انصاتا أردف:

– ربما تكون هذه هى طبائعهم، وربما أكون على حق فيما رأيت

وشعرت، وأنا على ما أعتقد على حق، والواجب يقتضينا أن نعد العدة.

الكلمات لم تكن فى حاجة إلى تفسير، فسيد احمد كعادته يجنح إلى السلم بغير تشكك، وموسى يتوقع الشر ويطلب الاستعداد له، والشيخ أحمد السرسى أفلتت من عينيه دمعتان لم يرهما إلا الليل الستور، عادت به الذكرى إلى أيام كان فيها هنا وحده، كم تمنى وقتها أن يناجى أحدا فى الأجواء التى كانت غريبة عليه، لكم تاقت نفسه إلى رفيق، يعبر به دهشة البدايات وتجهمها، واتساع الرقعة واختلاط الأمور، وها هو الآن مع رفيقين وليس رفيقا واحدا، وهما ليسا مجرد رفيقين بل هما ولداه، والكلمات التى يتناجون بها تسبح مع النسمات وتهفهف على رؤوسهم كأنها فراشات رقيقة، أو عصافير ترفرف فوق أغصان الرحابة، لكنه وبرغم أى شيء يجد أن حديث موسى هو الأقرب إلى الصواب، فى هذه الليلة بالذات ليس بمقدوره أن يلعب بين ولديه لعبة التوازن، يرضى هذا ويرضى ذاك، الأمر خطير هذه المرة، وإذا أغفلوا شيئا أو تراخوا سيدهمهم الخطر دون أن يكونوا مستعدين.

فى تلك الليلة البعيدة فكر الشيخ أحمد السرسى جديا فى أن يزوج ولديه، ورأى أن يكون زواجهما فى ليلة واحدة، رثى لموسى، ذئب الغيطان الذى لا يعرف الكلل، والذى لا يدخل العزبة إلا لماما، ورق لحال سيد احمد، ذلك المتصالح مع نفسه الذى لا يرى من وجوه الدنيا إلا تلك التى يتمنى رؤيتها، والذى لو ولد فى مكان آخر وفى ظروف أخرى ربما صار مفكرا أو أديبا، أو - وتلك هى المفارقة - تاجرا لا يضارعه فى مهارته آخر.

فكر مليا في أن يستخدم وعلى الدوام هؤلاء الرجال الذين يلتفون من حول موسى في الغيطان، وفضل لو يستخدمهم في زراعة أجزاء من الأرض المستصلحة ليكونوا مزارعين لديه ومحاربين وقت الحاجة، لكن ذلك كله شيء والقرار الذى أخذه شيء آخر تماما، ففى تلك الليلة، وفيما هو يستمتع بوقع خطاه بين خطا ولديه، وفيما تهبط النجمات لترقب أسارير الرجال الذين يسيرون على هديها إذا بالأمر ينبثق في رأسه كأنه الوحي، وضع يديه على كتفي ابنيه وأحس بأنهما يهبطان بأكتافهما خضوعا ومحبة، وإذ أراد أن يستكمل النظر فيما رأى سحب ذراعيه وانتحى جانبا، وفيما هو يفرغ مثانته بعيدا ويبحث عن طوبة صغيرة ليجفف نفسه سألهما:

- كم تقدران عمر هذا المساعد؟

المرة الأولى

زيارة مضارب السمدانى أعطت الشيخ أحمد السرسى وأولاده المزيد من الوقت للعمل بغير منغصات، وبقدر ما انفتح الباب على مصراعيه للمزيد من العمل والإنجاز انفتح أيضا لانقسام جديد فى صفوف الأسرة، انقسام كان الشيخ أحمد السرسى وأمه فى جانب منه، والأم الخبيرة فى فترات صحوها وحورية وسرية فى الجانب الآخر. بالطبع أخذت شام موقف زوجها وحماتها، وكذلك فعلت زكية التى عادت لتنام على ظهرها من جديد اتقاء لسقوط الحمل الجديد، وتبع شام ولداها محمد واسماعيل، أما سيد احمد فقد كان منحازا فى داخله لجدته الأم الخبيرة ولأمه وخالته، وكذلك فعل إبراهيم، وتريث السيد ليرى ماذا يكون موقف أخيه الأكبر موسى لينضم إليه، أما موسى فإنه كان غارقا حتى أذنيه فى العمل، وعلى امتداد البصر امتدت الرقعة المملوءة بالماء والمشتولة بشتلات السمار والدنيبة والبردى، كما كان العمل جاريا على قدم وساق فى تمهيد وتسوية ترابيع أخرى وأحواض جديدة، تمهيدا لملئها بالماء هى الأخرى.

وكانت الأم الخبيرة في فترات صحوها قد بدأت في المناداة على أبنائها المبعثرين عبر الطرق البعيدة، وتتمنى لو تملأ صدرها بهواء الغالية البعيدة التي غابت عنها ربع قرن، ومنذ طرح الأمر لما جاءهم خبر موت محمد على باشا ومن قبله ابنه إبراهيم وانتهى هو وأمه إلى أن الظرف غير موات للقيام بحماقة من أى نوع لم يفتح الأمر من جديد، أما وقد عادت الأم الخبيرة لسيرتها في التصريح بطلب العودة إلى هناك دون أن تكون لهم عيون تنهى إليهم ما كان من أمر السراسوة الباقين هناك فإن الانقسام بدا في أول الأمر عاديا، يمارسه طرف بقصد التأثير على الطرف الآخر، معتقدا بأن الأمور لم تعد بالخطورة التي يظنها الرجل الكبير، وأنها مريم هي التي تنفخ في صدر ابنها ليواصل الرفض، لكنه سرعان ما تحول إلى استقطاب حاد كان كل طرف فيه يرى الآخر مخطئا تماما.

في وقت مضى تفتق ذهن الشيخ أحمد السرسى عن طريقة تمكنه من الوقوف على ما يجرى هناك، في سرس القديمة، ولكن الموت المفاجئ لصهره التاجر الطوخى حرمه من تلك الطريقة، فهو لا يثق في أحد غيره، ومن يدريه كيف يكون الأمر لو وصل أمر العودة إلى الحكام، أو أن خَلَفَ المملوك لا يزالون هناك في سرس، أغلب الظن أنهم سيقبضون عليه وعلى من تبقى من المطلوبين أحياء ليرسلوا في طلب النصح بما يتبع حيالهم، وفي دولة عباس الأول، القائمة على الدسائس والفتن والكيد سيكون الجواب حتما هو إعدامهم وتشتيت أبنائهم.

فعباس المعبأ بالكثير من المآخذ على نظام الراحلين، جده وعمه، قام أول ما قام بالتخلص من أعداد هائلة من الأوروبيين الذين كانوا يحيطون بهما،

وبخاصة الفرنسيين، كان يرى أن الفرنسيين على نحو خاص خانوا جده وعمه وسلموهما لقمة سائغة لأعدائهما، وبقدر ما تخلص من الأوروبيين وعلى الرأس منهم الفرنسيين ازداد اقترابا من السياسة العثمانية حتى كاد يفقد استقلاله كوال لا يملك السلطان وفقا لمعاهدة لندن أن يعزله أو يسند الولاية لأحد من خارج أسرته.

طريقته فى الحكم كانت معروفة لكل متابع للحياة العامة فى البلاد، والشيخ أحمد السرسى كان متابعا جيدا، فحياته وحياة أسرته رهن بتلك المتابعة، وهو إذا غفل أو أهمل قد يجد نفسه هو وأسرته فى قبضة الوالى، الذى سينكل بهم لا لشىء إلا لإثبات الذات وإشباع رغبة عارمة فى الإمعان فى القسوة والطغيان، فلقد كان معلوما للكافة أن أحدا لم يسلم من بطش الوالى الرجعى، حتى أن عمه سعيدا وكان رجلا مستنيرا اعتزل الحياة العامة وانتقل للعيش فى الإسكندرية حتى يأمن بطش ابن أخيه الأكبر منه سنا، فقواعد وراثة الولاية فى مصر وفقا لمعاهدة لندن كانت تعطيها لأكبر الذكور سنا فى الأسرة العلوية، وعباس الأول كان أكبر من عمه سعيد، ومن ثم تولى الحكم خلفا لجده، لكن سعيدا كان الأكبر من بعده وخوفا من أن يتهم بتدبير شىء ضد ابن أخيه بمظنة رغبته فى وراثة الحكم آثر الاعتزال كما أسلفنا واحتفظ لنفسه بمسافة تبعده عن ابن الأخ الموتور، ومن ثم عن الدسائس التى لا يعرف أحد كيف يفلت من حبائلها.

إذا كان ذلك هو حال عم الوالى، وإذا كان ذلك هو حال الأوروبيين الذين ينعمون بامتيازات فعلية وقنصلية تساندهم فى التمتع بها دولهم الجبارة، فما البال بأسرة فرت برقابها وأعراضها وبعض من حطام الدنيا

ربع قرن من الزمان، وها هي من جديد تعود إلى دائرة الخطر، فعباس لم يفعل كل ذلك إلا لأنه يرى أن ما فعله جده ومعه عمه إبراهيم لم يورث الأسرة إلا هوانا وضعفا، ويرى أن ما فعلاه نال من اعتبار وهيـة الدولة الناهضة وأضاع ثرواتها وخيرها، لذا فإنه من منظور ما أخذه على الراحلين راح يغلق المدارس والمصانع ويشتد في إيقاع الأذى بكل من يفكر بمجرد التفكير في النظر إلى ما يفعله بغير عين الاستحسان، حتى بلغت قسوته مضرب الأمثال.

تقدير ظرف كهذا لا يمكن أن تقوم به الأم الخبيرة، التي لا ترى من قابل أيامها إلا ملء صدرها بهواء محبوبتها القديمة، وبرغم أن حورية وسرية لم تكونا ترغبان في العودة إلى هناك حقا، فآباؤهما ليـسوا هناك لتعودا إليهم، لكنها الأم الخبيرة التي تسمعان مناجاتها لكل شيء في أجواء محبوبتها، حتى ترابها وواجهات دورها وأحمال الحطب فوق أسطحها، فذلك هو الذي يدفعهما للتعاطف مع مطلبها الذي تريانه بسيطا، أما شام وزكية فلم يكن يهمهما من الأمر إلا موقف الشيخ أحمد، فهو الوحيد الذي يحق له التقرير بمناسبة أو عدم مناسبة أي فعل.

وكانت أخبار المواجهة العاتية التي حدثت بين الشيخ أحمد وبين أمه وزوجتيه القديمتين بشأن ميراثهما قد وصلت بكل دقائقها لشام وزكية، نقلها لأمه محمد الذي كان حاضرا من أول المواجهة وحتى نهايتها، ولما اطمأن إلى أن والدته عرفت كل شيء ولم يعد لديها شيء آخر لتسأل عنه تطوع بإخبار العمة زكية، ولكنها وهي تستمع منه لم تكن منتبهة إلى ما يقول، فهو لا يعني بالنسبة لها نفس المعنى الذي يعنيه لأمه، فالمواجهة

لم تحدث إلا لمواجهة إطلاق أبيه يد أمه في التصرف في ميراثها، ولكن شام التي أخذت عن أبيها شيئا من الحرص والتحسب لم تشأ أن تخبر زوجها بما عرفت، وإلا لعرف أن محمدا ينقل إليها ما يجرى في الدور الأخرى، وراحت كلما رأته تدعي أن وجهه معكر، وأن مزاجه غير مستقيم، ثم لا تني تسأله عما به، وكان الرجل في كل مرة يتهرب من الإجابة متعللا بالظروف أو بأي شيء آخر، و لم يحك لها أبدا عما حدث في الدار القديمة.

زكية ومن حيث لا تدرى هي التي نبهته إلى ذلك، في غمرة الأحاديث التي تدور بينهما على امتداد أسبوعه عندها سألته عما يغضب أمه، ولماذا لا يفعل ما تريده منه، في غمرة أحزانها من فقدها المتكرر لحملها ترسخ لديها الاعتقاد بأن غضب أمه، أو بالأحرى عدم رضائها عن زواجه منها هو السبب في سقوط حملها، وفي موت أطفالها عقب الولادة في المرات القليلة التي نجحت في الاحتفاظ بهم أحياء حتى موعد ولادتهم، وكانت تود لو تسألها العفو، وما رسخ ذلك الاعتقاد لديها هو ما كانت تنقله إليها شام من عدم رضاء مريم عن زواج ابنها منها، وأيضا ما كان ينقله الأطفال، محمد وإسماعيل، فلقد شاءت الظروف مجتمعة أن تكون بنتى العم ومعهما مريم في جانب، وشام وزكية في الجانب الآخر.

سألها بنعومة عن رأيها في الموضوع، وفيما هي تتحدث أفلتت منها كلمات بان منها أن محمدا هو الذى نقل إليها ماجرى في الدار القديمة، لم يقف عند تلك الكلمات، فهو يريد أن يعرف أكثر عما تتناقله الأفواه في دوره الأربع، وعن المحاور التي يحسها كلما تنقل بين دوره وزوجاته،

فهو كزوج يعرف طباع زوجاته، واحدة واحدة، ليس فى قلبه أقرب من حورية، لكن شكواها الدائمة وطبعها المسارع إلى الغضب يجعله يفضل الصمت فى حضورها، بعد أن كانت نجواهما هى أغلى ما فى الحياة، أما سرية التى تسلل حبها إلى قلبه شيئا فشيئا، حتى اقترب من حبه حورية فإنها لم تكن لتعير الكثير من الأمور الانتباه اللازم، و لم تكن أبدا البادئة بأى حرب، يعرف أنها فى الأصل لا تصلح لذلك، لكنها منذ كبر سيد احمد وصار مستشارا لجدته مريم باتت تنحاز إلى رأيه، حتى ولو كان يتعلق به هو نفسه.

زكية كانت مرشحة لأن تكون المرفأ الأخير الذى يرسو إليه قاربه، فبرغم رقة وضع أبويها إلا أنها وهى الأصغر بين كل نسائه تتمتع بصفات طيبة، لشد ما قربته منها وقربتها منه، فهى مطيعة إلى أقصى حد، ولا تناقشه فى شيء يفعله، حتى أنه وهو يقيم لديها فى أسبوعها كان ينجز قراءة كتبه وأوراقه، بل وينطلق لزيارة أصحابه متى شاء، فإذا ما عاد متأخرا لا تسأله عن أسباب تأخره مثلما تفعل الأخريات، أسبوعها كان أقرب إلى الفسحة فى حياته الزوجية، فبدلا من شكايات حورية وغضبها وصمت سرية وانحيازها لابنها واضطرابات شام ونعومتها المخيفه كانت زكية هى المرفأ الآمن الذى يجد الرجل فيه نفسه، فإذا ما عن له أن يناديها لأمر ما، يجدها هناك، واقفة على أصابع قدميها فى انتظار ما يأمر به.

ربما يكون قد عجز عن الإحاطة بكل شيء فى شام، فهى الجميلة التى تتمتع بثقة فى النفس لا تحدها حدود، وهى الكريمة التى تضحى بالغالى والرخيص من أجله وأجل الآخرين، وهى المتحمسة التى تعين على قضاء

الأعمال والمضى قدما فى تنفيذ الأمور، ولكنها وفى نفس الوقت الماكرة التى يعجز فى الكثير من الأحيان عن سبر أغوارها، وهى التى لا تهدأ إلا إذا عرفت كل شيء عن ضرائرها وحماتها، وهى فى هذا ربما تكون قد أفسدت ولديها، إذ كانا مجبرين على أن ينقلا إليها ما تعجز عن الوصول إليه، وما عرفه من زكية أكد له أن شام تتمتع بخصلة أخرى لم يكتشفها من قبل، فهى بارعة فى إخفاء ما ترى إخفاءه من أمور.

قبل أى شيء آخر كان معبأ بغضب شديد، و لم يكن لينفث عن صدره المشحون هذا الغضب إلا بأن يضرب ابن الطوخية علقة تجعله يمتنع عن فعل ذلك الشيء مرة ثانية، فهو لا يغفر أبدا أن يكون أحد أبنائه مفشيا للأسرار، لكن العقبة فى سبيل تأديب ولده تتمثل فى كيفية فعل ذلك دون أن يتمكن أحد من الحيلولة دونه. فى ذلك اليوم البعيد وكان فى أسبوع زكية قدح زناد فكره وانتهى إلى اصطحاب ابنه بعيدا لتنفيذ مخططه، قضى الوقت يفكر فى المكان الذى يصطحبه إليه، ولما كان موسى فى جولة فى البلاد المحيطة بحثا عن الرجال كما سيبين بعد، وكان سيد احمد فى مشوار إلى السبلاوين لجلب أشياء كلفته بها جدته، رأى أن يصطحبه إلى مندرة الغيط المقامة على شاطئ الخندق.

لم يشك الفتى لحظة واحدة فى أمر المشوار الذى طلب أبوه أن يصاحبه فيه، فلقد أرسل فى طلبه فوافاه فى دار زكية، ولما انطلقا فى اتجاه الغيطان لم تأبه زكية للأمر، فهى وحتى اللحظة لم تدرك أن زوجها استدرجها ليعرف ما يريد، كما وأن شام وقد رأت زوجها يحط يده على كتف ابنها رقص قلبها فرحا وظلت واقفة تملى بصرها بنظرهما حتى غابا.

تقول الحكايات التي أفلتت من ربقة الزمن إن الشيخ أحمد السرسي وهو يؤدب ابنه محمد لم يكن يفعل إلا لينصهر الابن في بوتقة إخوته، وبخاصة موسى وسيد احمد، لكن ذلك التأديب جاء بأثر عكسي، فما أن علمت شام بخبر العلقة التي نالها ابنها حتى جاهرت بعداء ضرتيها حورية وسرية، وكان حديثها المفضل هو ما تفعله كل من ضرتيها، حتى أن الشيخ أحمد بكل ما حباه الله من قبول وقدرة على التواصل مع الآخرين لم يستطع أن يغير من الأمر شيئا، وكان الفتى قد رفض العودة إلى الدار حتى لا تراه أمه، ولما هبط الليل و لم يعد ملأت العزبة ضجيجا.

محمد كان في حوالي الثامنة عشر، لم يكن صغيرا بحيث لا يتحمل قدرا مناسبا من المسئولية على غرار ما يفعل موسى وسيد احمد، وعلى غرار ما يفعل إبراهيم وهو في مثل عمره، ولما لم يعطها الشيخ أذنه و لم يأبه لبكائها وتصنعها أرسلت أحد الرعاة ليأتي بابنها، لكن الفتى رفض أن يعود، فلقد أقسم ليبيتن في مندرة الغيط، ولا يغادر الغيط إلا ليعود إليه، تماما مثلما يفعل موسى، هو نفسه كان غاضبا من نفسه، ويعرف أن ما فعله هو من الذنوب الكبيرة التي لا يمحها إلا الوقت، كان خجلانا من أن يرى أخوته وعماته، وجدتيه.

لم يكن محمد الطوخي وأخوه اسماعيل إلا مجرد ولدين من أولاد الشيخ أحمد السرسي، لكنهما اختلفا عن بقية الأبناء لسببين لا دخل لهما فيهما، الأول هو أن أمهما غريبة عن الأسرة، ليست من صلبها كعمتيهما حورية وسرية، ومن ثم فإن أقل نظرة للعلاقات التي تتشكل داخل العزبة الصغيرة وتنمو باضطراد كانت كافية ليعرف صاحبها أن

ذلك السبب جعل من حورية وسرية ومعهما الجدتين مريم والأم الخبيرة في جانب، وشام وحدها في الجانب الآخر، من أجل هذا حدث تطور هام ساعد على تعميق ذلك الانقسام، فلقد أحست شام بأنها بمفردها تقف في مواجهة الضرتين العاتيتين بنتي العم، ولكن ذلك لا يهمها طالما كانت مريم على الحياد، لكن الزمن لم يكن في صالحها، إذ شيئا فشيئا صارت مسئولية الأم الخبيرة ملقاة بكاملها على عاتق سرية، وحورية إذا استطاعت، الأمر الذى جعل مريم مع تقدمها في السن هي الأخرى تأنس إلى الضرتين أكثر مما تفعل معها، ففي يقينها أنها إذا ما رقدت كما فعلت الجدة الكبرى مجهولة الاسم وكما تفعل الأم الخبيرة فإن من بين نساء ابنها ليس إلا حورية وسرية من ستقوما لها بمثل ما تقوما به للأم الخبيرة، وما قامتا به من قبل للجدة الكبرى.

وإذ جامعها الميراث الكبير المتمثل في أبقارها الكثيرة والنقود التي جرت في يديها حاولت شام أن تعادل ذلك الانقسام بالتعالى على الأخريات، لكنها لم تفعل إلا أن أشعلت نار الثورة ضد الشيخ، ففي الوقت الذى تنعم فيه هي بثروتها وميراثها توجد لابنتى العم حقوق تخدم مصالح الأسرة كلها، بما فيها مصالح ابنيها، ولكنها تصر على أن يكون ابناها معها في الانقسام الذى شعرت به بأكثر كثيرا مما شعرت به الأخريات، إن كانت حورية أو سرية، أو زكية التي لا يعنيها من أمر الصراع شيئا، اللهم إلا أن يظل الشيخ على حاله معها، متعاطفا وحانيا، لكنها وقد اقتربت منها شام أكثر كثيرا مما تفعل الأخريات بمن فيهن مريم وجدت نفسها محسوبة على حزب شام، ومن حسبها في ذلك الجانب هما حورية وسرية، إذ كانت

مريم ومن قبلها الشيخ يعرفان أنها لا يعنيها إلا أن تلد لزوجها ولدا تشارك به في تكوين الأسرة التي تنمو مع الزمان.

ما كان يشغل ذهن محمد الطوخي وهو يرفض العودة إلى الدار هو أن يقبل أخوه الأكبر موسى مرافقته له في أشغاله الخطرة، والتي عبثا حاولت شام أن تنثر فوقها التراب و لم تفلح، لكنها بما كانت تعانيه من اجتماع الضرتين بتي العم ضدها تعضدهما مريم ودون أن تدري كانت على شيء من الحق في نظرها إلى الأمور بتلك النظرة الشكاكة، التي لم تكن لتصدق والحال في العزبة الصغيرة كذلك أن تكون على غير ما تراها، وعبثا حاولت أن تضم ولديها محمد وإسماعيل إليها، لكنهما فعلا من أجلها كل شيء إلا ان يشكا فيما يقوم به أخوهما الأكبر، لذا فإن محمدا رفض العودة إلى العزبة وظل قابعا في مندرة الغيط في انتظار قدوم أخيه.

لم يعد موسى من جولته في القرى المحيطة إلا قرب منتصف الليل، وكانت شام وقد قرصها الخوف على ابنها قد أرسلت له طعاما مع أحد رعيانها، يكفيه ويكفي الرجال الذين معه، ورفض محمد تناول الطعام حتى يعود أخوه، كان قد هدأ وراح يتأمل ما فعله معه أبوه، نعم، إن ما قام به من نقل أخبار المواجهة بين أبيه وبين جدته وعمتيه هو العيب كله، وإلا لما فعل الأب ما فعل، الأب الهادئ الذى لم يسمع صوته عاليا طوال الثمانية عشر عاما التي عاشها حتى الآن.

موسى عرف بما حدث حتى من قبل أن يصل إلى المندرة، لم يكن قد تناول شيئا من الطعام منذ الصباح، وأرجأ الحديث مع أخيه بشأن ما حدث إلى ما بعد تناول العشاء، كان قادما لتوه من قرية السمارة التي تختبئ خلف

أبى داوود السباخ، من لدن أناس هناك يحترفون أعمال الليل، من أول القتل مرورا بالسرقة، وحتى أمور الحراسة المشددة والعادية، ولأنه مفوض من أبيه بفعل ما يراه مناسبا للحفاظ على كيان العزبة الآخذة في الانطلاق فقد استخدم بعضهم، وربطته بهم صداقة أدهشته هو نفسه، كما أدهشت أخوته وأباه من قبلهم، لذا فإنه وهو يشارك أخاه تناول الطعام لم يكن مهيئا للحديث في أى شيء آخر، حتى ولو كان ما حدث من أبيه له، أو رفضه العودة إلى الدار وتفضيل أن يلتقيه قبل أى شيء آخر، كان مشغولا برجال الليل الذين فاجأوه بأخبار تحتاج إلى شحذ كل أسلحته لاستيعابها، فكل دقائق العلاقات المتوترة بينهم وبين مساعد السمدانى باتت معروفة للكثيرين كما بدا، وفى المقدمة منهم أبناء الليل ورجال المنسر.

وكان رجال موسى قد رصدوا بالأمس غرباء مروا من خلال الأرض ووقفوا عند الخندق، ولما اعترضوهم وسألوهم عن وجهتهم ادعوا أنهم فى طريقهم إلى صدقا، وأنهم ضلوا الطريق، فيما أخبر به الرجال لم يكن ثمة شك فى أن هؤلاء الضالين هم من رجال السمدانى، وأنهم جاءوا لغرض يضمرونه، وهذا يعنى أن المواجهة الكبيرة لن تتأخر كثيرا. لم يشأ أن يطلع أباه على ما نقله الرجال من أمر الغرباء حتى يتأكد له الأمر، وكان أحد الرجال قد انطلق فى أعقابهم دون أن يشعروا به، وقرب المساء عاد ليخبر بكل شيء.

قال إنه انتظر عند رأس الطريق المتجه إلى المقاطعة، والذى إذا أراد الغرباء أن يتوجهوا إلى صدقا كما يزعمون لابد سالكوه، لكنهم وبعد أن انتظموا فى الطريق الذاهب إلى المقاطعة عادوا أدراجهم عبر الغيطان

وقصدوا إلى مضارب السـمداني، وظلوا هناك ساعات طويلة، حتى إذا حان وقت العصر رآهم ينصرفون من المضارب، وقبل أن ينصرفوا وقفوا برهة يتفقدون المكان، كانوا يتجهون بأبصارهم إلى الخندق والترابيع الجديدة المملوءة بالماء، ثم انطلقوا فى اتجاه أبى داوود السباخ من الخلف، دون أن يمروا بالمقاطعة، و لم يكن ذلك إلا من قبيل التمويه.

الرجل الذى انطلق فى أعقابهم لم يشأ أن يعود حتى يعرف من هؤلاء ومن أين أتوا، وإلى أين اتجهوا عقب مفارقة المضارب، لذا فإنه تبعهم فى رحلتهم الغامضة، لكنهم لم يتوقفوا فى أبى داوود السباخ، تجاوزوها وانطلقوا فى الطريق المار بالميهى والسمارة والذى ينتهى عند مثلث صدقا والخمسة وكفر سنجاب، إذن هم بالفعل متوجهون إلى صدقا، لكن انعطافهم إلى مضارب السمدانى وقضاءهم الوقت الطويل عنده ينبئ بالشيء الكثير.

حفظ أشكالهم وهيئاتهم وعرف الدار التى قصدوها، والذين ما أن ولجوا من بابها حتى خرجت امرأة غريبة الهيئة وتلفتت هنا وهناك لترى إن كان أحد يتعقبهم، وإذ توقع الرجل أن يحدث هذا اختفى فى أحد الأركان وشاهد المرأة وهى تمسح المكان بعينيها، الليل لم يكن حل بكامل قواته، وما تبقى من ضوء النهار الذاهب مكنه من رؤية كل شي، حتى أن المرأة التى خرجت لتفقد المكان عقب ولوجهم الدار لم تغب منها عن مخيلته تفصيلة واحدة، وفى رحلة العودة فكر فى أن يعرج على بعض أصدقاء موسى فى السمارة وأبى داوود السباخ لكنه فضل ألا يفعل، فلربما أراد موسى أن يكون التصرف على غير ما يرى.

نظر موسى فى وجه الليل وتمنى لو يستطيع أن يرى على ضوء القمر حتى نهاية الأبعدية، وتساءل عما يمكن أن يفكر فيه السمدانى، فالطين الذى استخرجوه من حفر الخندق نقلوه بعيدا إلى العزبة، تمهيدا لضربه فى المستقبل طوبا يستخدمونه فى بناء دور جديدة، فكل ولد من أولاد الشيخ مشروع مؤكد لدار جديدة، تنمو بها العزبة وتتسع، إذن فهم لن يتمكنوا من ردم الخندق، وحتى إذا كان تخطيطهم أن يردموه فإن الأمر يحتاج إلى مئات الرجال والمعدات، وهو ما لا يمكن أن يتم فى الخفاء، والأمر كذلك بالنسبة إلى ردم القناة التى تحمل الماء للخندق، والتى لا يعد ردمها أو ردم أجزاء منها شيئا ذا بال، إذ يسهل تطهيرها وإعادتها إلى ما كانت عليه بأقل مجهود.

الخندق كان قد أشرف على النضوب، ولا يمكن تزويده بالماء إلا فى الفيضان المقبل، واتجه نظر موسى إلى أن السمدانى قد يلجأ إلى إزالة علامات الحدود ونقل قضبان الحديد التى تدل عليها، فبإمكان الأعرابى بعشرة رجال أن يفعل ذلك، من أجل هذا أرسل فى جوف الليل يستدعى سيد احمد، فهو يساعد كثيرا فى مثل هذه المواقف، إذ ما أن يلم بأطراف الموضوع حتى يأخذ فى توجيه الأسئلة، السؤال تلو السؤال، حتى ينتهى إلى ما يغمض عليهما، وهو هادئ فى كل الأحوال، ودائما ما يفكر وهو غير متأثر بما يحيط به من ضغوط.

لكن سيد احمد فى تلك الليلة البعيدة التى أخذ القمر فيها يعبر السماء من الشرق من وراء غزالة ويتجه إلى الغرب فوق شبراسندى لم يكن فى حالته الطبيعية، فلقد وضعتهم الأم الخبيرة فى موقف لا يحسدون عليه

عندما اجهشت بالبكاء على حين غرة وأمه تقدم لها طعام الغذاء، بكاء قطع نياط قلوب من كانوا في الدار، حتى أنهم هرعوا إليها ليمنعوها من الاسترسال، لكنها كانت تزداد حدة، و لم تتحدث بكلمات مفهومة يعرفون منها سر بكائها الذى تحول مع الوقت إلى نحيب ممطوط وواهن، حتى ليظن المرء أنها صرخة بطول أيامها، وإذ خشوا أن تموت على تلك الحال أرسلوا في طلب حفيدها، الشيخ أحمد.

عند باب الحجرة وقف يتحدث إليها، قال إنه لا يمكنه الوثوق في عهد عباس، وإنهم إذا عادوا إلى سرس أو أتاحوا للآخرين الاطلاع على سرهم قد يجدوا أنفسهم في قبضة الوالى المجرم، ويضيع سدى فرار ربع قرن من الزمان، وبدلا من أن تكف عن البكاء راحت تطلق الآهات الواهنة، آهات تلو آهات حتى بدا أنها لن تفرغ إلا وقد أسلمت الروح، والشيخ أحمد الذى كان لما يزل واقفا عند الباب تمنى لو يحتضنها ويضغط عليها بشدة، حتى تفرغ كل الآهات التى تملؤها، أما مريم فإنها كانت هناك إلى جوارها، تمسح بيديها على رأسها المتعب، وإذ وهن صوت جدته حتى لم يعد يسمع سأل أمه:

– مالها يا أمى؟!.

فأجابته والدموع تسقط من عينيها:

– إنها آلام الشوق يا بنى.

وبعد أن مسحت دموعها بطرف كمها أردفت:

– كانت تهاجمها كل شتاء، ثم شهريا عندما يغيب القمر ويسود الظلام، والآن هى مقيمة فيها ولا تفارق.

سألها:

- وما العمل؟!.

رفعت رأسها تستطلعه، ولما استبطأ تلبيتها استنهضها:

- دبريني يا مريم.

لكن مريم تعرف أن تدبيرها سيقضي على أسرتها من الأصل، إذ دونهم والعودة إلى سرس أهوال هي أعرف الناس بها، وأكثرهم إدراكا لآثارها المهلكة.

ما قاله سيد احمد مما كان من أمر جدتهما أوقع موسى في اضطراب كبير، فسرس تلك، والتي لا ينفكون يحكون عنها بالنسبة له ليست إلا بلدا يراه في الخيال والأحلام، عندما تحمله الحكايات على أجنحتها ويرى أسلافه الذين لم يرهم ولا يعرف ملامح أي منهم، وهي كانت كذلك بالنسبة إلى سيد احمد، ومن أجل أن يقرب إليه حالة الأم الخبيرة قال سيد احمد:

- تخيل لو أنك فارقت هذه الأرض التي تفنى نفسك فيها، ألم تكن لتفعل مثلها؟!.

وأجابه موسى وهو ينظر إلى الأرض التي تثوى تحت ضوء باهت من أثر مرور سحابة من سحابات نهايات الخريف، وتخيل لو أنه تركها وذهب إلى بعيد، ووجد نفسه يقول:

- إنك على حق.

لكنهما لم يكونا على استعداد لمفاتحة أبيهما في الأمر، فما يعرفانه عن

الأخطار الغامضة التى طالما حدثوهم عنها إذا عادوا إلى هناك تجعلهما لا يشجعان الفكرة من الأساس، ولا يتعاطفان مع تباريح الشوق التى لطالما هزت الأم الخبيرة، وجعلتها تنادى كل الأزقة فى سرس القديمة، وهى فى التباريح، تلك المنطقة الغريبة التى تكون بين النوم واليقظة، والتى تفعل نفس الفعل فى جدتهما مريم وفى أبيهما، فقط وهما نائمين.

سيد احمد حاول أن يطرح ما حدث من وراء ظهره وينظر إلى ما فعل الأغراب، تلك النظرة التى مكنته من الحفاظ على سلام نفسه طوال الوقت، والتى جعلت منه رجلا مسالما لا يرى فى الأشياء إلا الخير، ولا يفكر فيما يفعل الناس إلا على سبيل الاحتياط، وفى تلك الليلة البعيدة قدح زناد فكره حتى سخنت رأسه، وتمنى لو انفجر نافوخه مقابل أن يعثر على أسباب دخول أولئك الأغراب أرضهم، وماذا يخبئون فى جعابهم.

جال ببصره هنا وهناك، وعلى ضوء القمر رأى بحيرات الفضة الشاسعة التى تغطى ترابيع فسيحة من الأرض، وهداه تفكيره إلى تلك الترابيع، أويكونوا يقصدون تدمير جسورها وجعل الماء يتسرب منها إلى الأراضى الغير مستصلحة فيضيع بجهود العام كله؟!، لم تخطر تلك الفكرة على ذهن موسى أبدا، ولو على سبيل التخمين، فهى لأول وهلة تبدو عملية تافهة، ولكن إذا كان الغرض هو عرقلة العمل فى إصلاح الأرض وتمهيدها ونقلها من حال البولر إلى الإنتاج، فإن تدمير جسور الترابيع الجديدة الممهدة وإهدار الماء الذى خاضوا من أجله الأهوال ليضيع فى البرك الصغيرة والمستنقعات والوهاد يحقق الغرض وزيادة، و لم يشأ سيد احمد أن يخبر موسى برأيه إلا بعد أن قطع المشاوير إلى الترابيع المملوءة بالماء

وعاد منها مرات ومرات، نعم، ذلك هو التدبير الذى يدبره السمدانى، وتلك هى العملية التى يستأجر لأجلها هؤلاء الناس من صدقا، والذين يجتمعون كل ليلة فى دار تلك المرأة الغريبة كما وصفها الرجل الذى تعقبهم.

ما أن أخبر موسى برأيه حتى انفتحت أمامه مغاليق الأشياء، كيف لم يهتد إلى هذا الرأى وهو الذى قطع المسافات جيئة وذهابا ليهتدى إلى أسباب دخول الأغراب أراضيهم؟!، وبدلا من أن يحاسب نفسه على تقصير لم يقع فيه بادر أخاه:

– هل نبلغ الشيخ؟.

اعتاد هو وسيد احمد منذ فترة أن يناديا أباهما بالشيخ، ولقى ذلك هوى فى نفس أبيهما وسر به أيما سرور، وأجابه سيد احمد:

– أظن ذلك.

دفعهما للنقاش فى الأمر خوفهما من أن يؤدى التصدى لمحاولات تخريب الترابيع المستصلحة وإهدار مائها إلى موت أو جرح أحد، من المهاجمين أو من المتصدين، وقبل ذلك النفقات الباهظة التى ستكلفها تدبير الرجال وتسليحهم بالبنادق.

الدار القديمة التى تسكنها الجدتين الأم الخبيرة ومريم ومعهما حورية بها أكثر من عشر بنادق، اثنتان جاءوا بهما من سرس القديمة، والباقى غنموها فى الحرب مع الأعرابى الهارب عبد الله الجياصى، وليس من بين الرجال الذين يحيطون بموسى من يجيد استخدام البنادق إلا رجلان أو

ثلاثة، فضلا عنه، ويحتاج الأمر إلى ستة آخرين يحسنون التعامل مع هذا الشيء، فلم يكن سيد احمد منذ صغره مولعا بالشجار أو إطلاق النار، و لم يكن له ولع بتلك الآلات أو باستخدامها، على عكس موسى الذى شب منذ نعومة أظافره على حبها، فكان وهو طفل يستخرجها ويعمل على تنظيفها بالزيت وإزالة الأتربة والغبار منها وتغيير السدادات فى فوهاتها، كل ذلك حتى من قبل أن يعلمه أبوه كيفية إطلاقها.

سيد احمد هو المنوط به إبلاغ أبيه بالأمر، وبالتدبير الذى يحثاه هو وأخوه، أما موسى فقد توجه قبل أن يطلع الصبح إلى السمارة ليقابل أصدقاءه من أبناء الليل الذين أمدوه من قبل ببعض الرجال، الغرض من الزيارة المبكرة الاستعانة بهم لإمداده بالمزيد من الرجال، ولكن هذه المرة ممن يجيدون استخدام البنادق، ولقد اختار ذلك الوقت بالتحديد، اى قبل ظهور أى ضوء من النهار بناء على دراسة متعمقة لأحوال مضارب السمدانى، فالرجل لا ينام إلا قرب طلوع الصبح، ورجاله الذين يشاركونه السهر لا يستيقظون إلا إذا خرقت رؤوسهم الشمس، وأزعجهم ثغاء القطعان وخوار الأبقار طلبا للطعام، وفى الوقت الذى غادر فيه متجها إلى السمارة كانت المضارب نائمة، حتى الكلاب التى أنهكها السهر كانت هى الأخرى تغط فى النوم، بعيدا عن الأماكن التى يجب أن تتواجد فيها.

أخبروه فى السمارة أن المرأة التى تنطبق عليها الأوصاف التى ذكرها اسمها الجارية، وهى امرأة غامضة قدمت فى زمن بعيد من مناطق مجهولة فى جنوب السودان، كانت جارية لامرأة من نساء المماليك، حتى إذا

ما دنا أجل سيدتها أعتقتها، و لم تدر كيف تفعل، هي سوداء ولكن مثيرة، فاحترفت بيع المتعة للرجال، وتنقلت بين المدن والقرى وعرفت أبناء الليل من اللصوص وقطاع الطرق، حتى استقرت في صدقا، وحتى لا يهاجمها العسكر أو يثور ضدها الناس تزوجت من خادمها، وكان الرجال من المنسر وأبناء الليل يأتون إلى دارها تحت ستار صداقتهم للزوج الخادم.

قالوا إن الأجدر بهم ليس استخدام المزيد من الرجال، فمن يعملون عنده يكفون وزيادة، وإنما هو شراء أولئك الرجال الذين استأجرهم السمداني، ومعرفة ما يخطط له الرجل مما قد يكونوا عرفوه منه، والاتفاق على إفشال المخطط من خلال عملية مدبرة لا تفضح شراء ذممهم، وبرغم أن الحديث لم يكن قد استقر بعد على يقين انطلقوا في اتجاه صدقا.

الشمس لم تطلع بعد، فقط ترسل بشائرها في الأفق، وجدوهم يتناولون الفطور في الدار الغريبة، والمرأة السوداء التي تتحرك في خفة لا تتناسب وجسدها الهائل وأردافها الرهيبة تقوم على خدمتهم، وتعد لأجلهم أرجيلة محشوة بالحشيش، والرائحة العطرة التي تبعث على الخمول تنتشر في أرجاء الدار النظيفة، لم يعرفوا في البدء من هو، لكنه يرافق أصدقاءهم القادمين من السمارة، و لم يكونوا ليتحدثوا عن أسرارهم في وجود غريب لا يعرفونه، خاصة وأن الرجال من السمارة لم يعرفوهم بالفتى الذي يصاحبهم، ولما بدأوا في تدخين الأرجيلة وسرى بعض من الخدر في أعضائهم تخلوا عن حذرهم، وعدوه واحدا ممن انضموا مؤخرا لأصدقائهم في الأعمال التي يحترفونها.

بادرهم أحد الرجال من السمارة بعد أن مالوا بأجسادهم في كل اتجاه استجابة للخدر:

– سمعنا أنكم ذاهبون إلى عمل جديد لدى السمداني.

لم يكن السؤال في مظهره خطيرا، لكن كبيرهم سأل:

– من أخبركم؟!

فأجاب الرجل:

– أرسل إلينا واعتذرنا.

فتمعن الرجل في الإجابة مليا ثم قال:

– طلبنا لنؤدب الرجل الذي يجاوره، والذي تسبب من قبل في خروج الجياصي.

فتعجب رجل السمارة:

– لكن رجالنا هناك في خدمة ذلك الرجل.

ومضى قليل من الوقت حتى أدركوا معنى الاعتراض، وقال أحدهم:

– مالنا ورجالكم؟!

فرد عليه رجل السمارة:

– إنهم يحرسون مصالحه، ولا بد ستصطدمون بهم.

واعتدل كبيرهم وطلب حشو الأرجيلة من جديد، ثم قال:

– لا أظن أنهم سيصطدمون برجالكم، فكل ما سنفعله هو الهجوم على عزبة الشيخ، وأخذ بعض بهائمه وأغنامه.

ومص نفسا هائلا من الأرجيلة التى قدمتها له المرأة الرهيبة حتى طقطقت النار فوق الحجر، ثم أكمل بعد أن أطلق سحابة هائلة من الدخان:

– نعرف أن رجالكم يحرسون الغيط والخندق الذى ملأوه بالماء، والقناة الموصلة إليه، لذا فلقد عزمنا على أن يكون الهجوم على العزبة.

وعاد إلى مص الأرجيلة ثم أخرج دخانا هائلا من فمه وطاقتى أنفه قبل أن يستطرد:

– فى الحقيقة نحن الذين اعترضنا على أن تكون العملية فى الغيط، حتى لا نصطدم مع رجالكم، ولما اقترحنا الهجوم على العزبة لقى الاقتراح هوى فى نفس السمدانى، فإحدى نساء غريمه لديها قطعان من الأبقار تسد عين الشمس، وعملية التأديب وأخذ الأبقار والأغنام ستزيد أرباحنا من جهة وستجعل مساعدا بعيدا عن الاتهام من جهة ثانية.

وتدخل أحدهم شارحا:

– لن يفسر الأمر إلا على أنه عملية سطو عادية، مما تحدث فى طول البلاد وعرضها.

واستكثر كبيرهم أن يتدخل أحدهم دون إذن منه فنظر إليه مليا، ثم لطمه بيده على وجهه، و لم يحرك الرجل الذى نبع الدم من بين أسنانه ساكنا، ظل جالسا هناك وهو ينظر إلى الأرض، لكن تلك العقبة لم تمنع رجل السمارة من السؤال:

– أيمكننى ان اعرف ماذا أخذتم من مساعد من أجل هذه العملية؟.

وأحس الرجل بأن من وراء السؤال صفقة تمهد للإفصاح عن نفسها، فأجاب بدون أن يظهر أنه فكر في الأمر:

- سبعمائة.

فتهكم رجل السمارة:

- لم نعهده سخيا إلى هذا الحد، مهر عروس بكامله؟!.

ونظر في اتجاه موسى الذى كان دائخا من أثر الدخان المنتشر في هواء الغرفة، لكن حواسه كانت مشحوذة كسكين، وأومأ موافقا، فقال رجل السمارة:

- فإذا أعطيتكم ثمانمائة، أتفشلون الأمر؟.

فتصنع الرجل التفكير، واعتصر ملامحه كما لو أن ما يطلب منه شيئا لا يقدر عليه، لكنه بعد قليل سأل:

- وما دخلك في الأمر؟!.

- أنا رسول الرجل المقصود.

وتساءل الكبير مندهشا:

- صاحب العزبة؟!

- هو نفسه.

وعاد الرجل ليسأل:

- وكيف عرف طريقنا؟!.

وابتسم رجل السمارة:

- تعقبكم أحد رجاله وأنتم تجوسون خلال أرضه.

ونظر الرجل غاضبا إلى أحد رجاله، يبدو أنه هو الذى أشار بما فعلوا ليحولوا أنظار الشيخ أحمد السرسى وأولاده عن العزبة، ويجعلهم يركزون تفكيرهم فى اتجاه الأرض والخندق وترابيع الأرض الجديدة، وبعد أن أطرق آسفا حول كبير رجال صدقا عينيه عنه وقال:

- هذا يُفْقِد مساعدنا الثقة فينا، ونخسر بسببه بابا مضمونا للرزق.

فخفض رجل السمارة من صوته، وقال كأنه يهمس:

- ومن قال إنكم ستراجعون عن التنفيذ، ستنفذون، ولكن ستنسحبون بعد تبادل الأعيرة دون أن تفعلوا شيئا.

ونظر الكبير إلى رجاله، ومن كان مطرقا إلى الأرض رفع رأسه مع الرافعين، فثمانمائة بوطاقة مع السبعمائة التى قبضوها من مساعد مبلغ طائل، قد لا يتحصلون عليه فى شهور عديدة، وطالما أن الشيخ أحمد عرف من هم، ومن أين جاءوا فسيأخذ حذره، ولن يمر الأمر بالسهولة التى كانوا يظنون، بل إن أحدهم قد يموت فى العملية، وساعتها لن تجدى مئات السمدانى السبع، ولا مطامعهم فى أعمال قادمة يطلبها منهم، وأخيرا وبعد أن تفاهم مع رجاله بمجرد النظر مد يده إلى رجل السمارة وقال:

- على بركة الله.

ومن أجل أن يوثق الاتفاق طلب:

- الفاتحة للنبى.

وكان وهو يقرأ الفاتحة يواصل مد يده في شيء من اللهفة والتصميم، وكانت حركات أصابعه تطلب النقود المتفق عليها، أو العربون على الأقل، وكاد قلبه يتوقف عندما نظر رجل السمارة إلى موسى طالبا أن يخرج ما معه من مال، ومد موسى يده في صديريه وأخرج كيسا سلمه له.

رفض كبير منسر صدقا أن يتسلم العربون ما لم يعرف مَن الفتى الذى يصاحبه، و لم يجد رجل السمارة غضاضة في أن يقول:

– إنه الابن الأكبر للرجل المقصود.

وخيم الصمت، تمنى كبير رجال صدقا لو يستطيع أن يقف ويطرد رجل السمارة من داره، لكن ذلك يعنى أشياء كثيرة لا تساعد على تقدم العمل وازدهاره، بل وقد يؤدى التناحر الذى سيتسبب فيه إلى هجوم العسكر عليهم في زمن يقتل عباس فيه الأبرياء، فما البال بقطاع الطرق والعصابات المسلحة، ووجد أنه من الأحسن أن يأخذ المبلغ، وقال معاتبا وهو يدس الكيس في جيبه:

– لى عندك واحدة.

فأجاب رجل السمارة معتذرا:

– هى لك، ولكنك ما حيت ستظل تذكرنى بالخير إذ عرفتك بالفتى.

مقدمات الحرب

بعد أن فرغا من تناول الطعام قال موسى:

- ستدخل من أوسع أبواب الرجولة، وبعدها ستنظر إلى ما فعلته أنت وما فعله أبوك معك على أنها من أمور الماضى.

وكان وهو يقول الجملة الأخيرة يضحك على نحو جعل محمد يتمنى لو يقفز فوق الوقت ليرى كيف يدخل من أوسع أبواب الرجولة، وما الذى ينتظره هناك، وموسى يواصل:

- أنت الآن رجل، وأنا أريدك معى، وإذا انضم إلينا ابراهيم وسليمان فضلا عن سيد احمد سنكون قوة لا يقدر عليها السمدانى.

فى تلك الليلة البعيدة كان قلب محمد الطوخى - الذى لم يفارقه هذا اللقب هو وذريته - يدق فى عنف، فأن يختصه أخوه الأكبر بتلك الأسرار الكبيرة، من مثل ما فعل السمدانى وما قام به الرجل الذى رصد الغرباء الذين جاسوا خلال الأرض، وتفاصيل الرحلة إلى السمارة ثم إلى صدقا، وإسهابه فى وصف المرأة الجارية والرجال الذين يلوذون بدارها، أن يختصه أخوه بكل هذا لا يعنى إلا شيئا واحدا، شيئا لا يمكن التفريط فيه،

فهو بالفعل محل ثقة، وهو قد صار رجلا يعتمد عليه، وكان الليل وحده هو الذى منع عن موسى التعبيرات التى ارتسمت على وجهه، تعبيرات ممتنة ومترددة ومختلطة فى آن.

موعد تنفيذ العملية وفقا للاتفاق مع رجال صدقا هو فى ليل الغد، سيهاجمون الحظائر والجرن الكبير، وسيشعلون النار فى أسطح المخازن قبل أن ينسحبوا عائدين إلى مستقرهم، والمطلوب هو تجهيز المكان لذلك، والتأهب لمواجهة الأمر وإظهاره فى صورة الهجوم الحقيقى الذى ينخدع به السمدانى ورجاله حتى ينظروا بعد ما سيكون من أمر، أمامهم إذن يوم بكامله، يجهزون فيه ما يحتاج إلى تجهيز ويحتاطون لأمر الحريق بالذات، فهم إذا لم يحسنوا التصرف قد تمتد النيران إلى الدور ويحدث ما لاتحمد عقباه.

أخطر شىء يواجههم هو ضرورة إخبار الجميع بالأمر، النساء حتى لا يفاجأن بالهجوم وإطلاق البارود، والأطفال حتى لا يروعون فى منامهم، والرعيان ورجال الحراسة وعمال الحظائر، فترتيب المكان للهجوم المنتظر سيتطلب القيام بأعمال لا بد سيتساءلون عن معناها، وإذا لم يعرفوا ما وراءها قد تفلت من أحدهم كلمة تفضح الأمر كله وينكشف التدبير، فالقطعان لا بد وأن تخرج إلى الغيطان كما هو المعتاد فى كل يوم، وكذلك الأبقار والجواميس والمطايا، وإذا هم لم يخرجوها فإن عيون الراصدين من مضارب السمدانى لا بد ستنقل إليه ذلك فيتنبه إلى أنهم يحتاطون، وينكشف تدبيرهم مع المنسر، كل ذلك يفرض عليهم عبئا ثقيلا، إذ يمكنهم ترتيب الأمور داخل نطاق الأسرة بأفرعها المتعددة،

إلا أن إبلاغ العمال بالأمر دونهم وحدوثه محاذير قد تجهز على خطتهم.

هذه المرة كان ذهن محمد الطوخى هو الأسبق إلى إيجاد الحل، فلقد اختار بنفسه الدور الذى سيلعبه فى الصباح، سيخرج رفقة الرعيان والكلافين إلى الغيطان، حتى إذا ما جاء وقت العودة سيجمع القطعان كلها فى حظيرة واحدة بعيدة عن الحظائر التى سيهاجمها رجال صدقا، وسيضع الأبقار والجواميس فى حظيرة واحدة كبيرة بعيدة أيضا عن ميدان الحرب، أما سيد احمد الذى وافاهم بعد انتصاف الليل ليعرف نتيجة مسعى موسى لدى رجال السمارة فقد استأثر بتجهيز العزبة للهجوم، فصل أحطاب الأسقف وقشها عن بعضها البعض حتى لا تمتد النيران إلى أكثر مما هو مخطط له، ووضع القش والأحطاب فى أماكن فى الجرن الكبير يمكنهم من إخماد النيران التى ستشتعل فيها، وأيضا إبلاغ الرعيان والعمال فى الوقت المناسب حتى لا يتمكن أحد منهم من نقل ما يدور ويفضح تدبيرهم.

لم يبق إلا أمر البنادق والرجال الذين سيستخدمونها، عشر بنادق تحتاج إلى عشرة من الرجال، بإمكان موسى أن يفعل هو وإبراهيم ومحمد وسليمان، وحتى سيد احمد نفسه إذا قام أحد بحشو ماسورة بندقيته بالحشار والبارود وسلمها له جاهزة للإطلاق، وبإمكان أبيهم أن يشارك إذا اضطروا إلى ذلك، بل إن جدتهم مريم تستطيع أن تفعل إذا احتدم الأمر، إذن فهم ليسوا فى حاجة إلا لثلاثة من الرجال، وهذا يعنى أن يسحب من الغيطان ثلاثة منهم ليضمن كثافة نيران تخدع مساعدا وتجعله على يقين من أن الأمر الذى اتفق عليه مع رجال صدقا يجرى تنفيذه.

أُجبِر محمد الطوخي على أن يذهب إلى النوم حتى يكون في الصباح قادرا على تنفيذ نصيبه من التدبير، لكن الفتى صوب وجهه لسقف المندرة، في كل عود من أعواد البوص يرى المعارك التي يشارك فيها، والرجال يسقطون تحت وابل النيران التي يطلقها، ومن بعيد وجه أبيه لا ينفك يقترب ويقترب، ملامحه الآن مغتبطة وعلى شفتيه ابتسامة عريضة، وكلمات تصفه بالبطولة، وأمه وإخوته وجدتاه يضعون أيديهم على صدورهم ويشهقون من الدهشة والامتنان.

ما أن راح في النوم حتى خرج موسى وسيد احمد، لا بد أن الشك قد داخلهما معا، فماذا لو غرر رجال صدقا بهم، وبدلا من أن يستهدف هجومهم العزبة تجيء ضربتهم في مكان آخر، في الترابيع الجديدة المملوءة بالماء مثلا، أو في إتلاف الزراعات الشتوية التي بدأت في الازدهار مع دخول بوادر الشتاء، قررا أن يحتاطا للأمر، ومعنى ذلك أنهم ربما يكونوا في حاجة إلى المزيد من البنادق، والمزيد من الرجال.

لم يكن شخص مثل موسى لينتظر الصباح حتى يذهب في طلب المزيد من الرجال، من فوره ركب مهرة أبيه وانطلق في اتجاه السمارة، وجدهم يتأهبون للنوم بعد ليلة طويلة من الأكل وتدخين الحشيش، اعتذاره جعلهم يخفون ضيقهم من إلحاحه حتى في أوقات راحتهم، ولما لم يكونوا في حال تسمح بمناقشة شكوكه أرسلوا معه خمسة من الرجال ببنادقهم وذخيرتهم، ساروا من خلفه وهو يعتلي مهرة أبيه حتى وصلوا إلى العزبة قبل أن يطلع الفجر.

انتظروا في مكان بعيد حتى تقدم موسى من نافذة دار زكية، ونقر على النافذة عدة نقرات فسأل الشيخ عن الطارق، ولما عرف أنه موسى خرج إليه، ذهنه كان مهيأ لتقبل كل ما يقول الابن الأكبر، وقبل أن تنقضي ساعة كانت الحجرة الخارجية في الدار القديمة تغص بالرجال، الخمسة القادمين من السمارة وموسى والشيخ أحمد، وإبراهيم، و لم تفلح كل المحاولات في إخراج السيد من الحجرة، حتى أنهم عندما أحضروا البنادق والحشار والبارود لتعميرها شارك في تنظيفها وفي إعدادها وحشوها ووضع السدادات في أفواهها، كأي واحد منهم.

وكما غصت الدار القديمة بالرجال غصت أيضا بالنساء، استيقظت مريم على أصوات همهمات الرجال يحاولون ألا يحدثوا جلبة وهم يدخلون، وكذلك فعلت حورية، أما سرية فإنها كانت قد استيقظت من قبل عندما سمعت نقرات موسى على نافذة زكية، وتأهبت لأن تخرج من الدار إذا استدعى الأمر. عرفت مريم أن الحرب التي يحاولون تجنبها تُفْرَضُ عليهم الآن، و لم يمض كثير وقت حتى كان الفرن الكبير قد أوقد، وتعاقبت على عَرْصَتِه المحماة فطائرها البلدية الدسمة، استعدادا لفطور الرجال.

كل شيء دار في النهار كما هو مخطط له، فمحمد الطوخي الذى استيقظ قبل طلوع الشمس صلى الصبح وصحب القطعان والبهائم إلى الحقول ليشرف على إطعامها ومراقبة الرعيان والكلاف، وسيد احمد يعاونه مجموعة من الرجال والعمال أنزلوا أحمال القش والحطب من

فوق الأسطح ووضعوها فى مكان يسهل السيطرة فيه على الحريق، أما الرجال الذين أحضرهم موسى قبل الفجر فإنهم وبعد أن فرغوا من تجهيز كل البنادق للإطلاق وإعداد كميات الحشار والبارود التى يحتاجون إليها فى إعادة تعميرها تناولوا فطورهم ثم استلقوا على الكنبات فى الحجرة الخارجية للدار القديمة، و لم يستيقظوا إلا مع قدوم العصر.

طعام الغذاء كان معدا، التهموه التهاما، كأنهم لم يأتوا على أعداد هائلة من الفطائر الضخمة الدسمة قبل أن تطلع الشمس، وكان موسى قد ذهب إلى الغيط كعادته، ومر على كل الترابيع الجديدة، واحدة واحدة، واطمأن إلى متانة جسورها وعدم تسرب مياهها، وذلك دون أن يرصده أحد.

من ينظر إلى هؤلاء الناس فى ذلك النهار البعيد لم يكن ليصدق أنهم مقدمون على تجربة أخرى أليمة، من التجارب التى رافقت مسيرتهم واعترضت طريقهم، و لم يكن الناظر ليخمن ذلك حتى لو استخدم كل الحيل، فلقد انتظم كل أفراد الأسرة فى المخطط كما اعتادوا أن يفعلوا فى كل المآزق والتجارب المريرة.

النهار يمر ببطء لم يعهدوه من قبل، ففى ليالى فرارهم الطويل كان الوقت يداهمهم ويرفض أن يستقر على غرار ما يفعل وهو يمر، ثانية بعد ثانية، ودقيقة بعد دقيقة، وساعة بعد ساعة، كان يقفز بهم إلى غاياته دون أن يعطيهم فرصة التقاط الأنفاس، فقط اللهاث كان أقصى ما يمكنهم فعله كى يظلوا أحياء، لكنهم فى ذلك النهار البعيد كانوا يتمنون لو يمر سريعا، لو يقفز بهم كما كان يفعل، لكنه أبى إلا أن يتململ فى رقاده الطويل ويزحف ببطء جعلهم يعيشون كوابيس الليل المنتظر.

فى الدار الكبيرة تشرف مريم على إعداد الطعام، وكان سيد احمد قد وضعها مباشرة فى مواجهة الأحداث، وروى لها كل شىء بدءا من الأغراب الذين جاسوا خلال الأرض وحتى ذهاب موسى مرتين إلى رجال السمارة وصدقا وإبطال مفعول مكيدة السمدانى، حتى الشكوك التى ساورته هو وأخاه أطلعها عليها، فكانت طوال الوقت وهى تمر بالكوانين والأفران وتهبط إلى أواسط الدور لترى الدواجن والأرانب لا تنفك تعمل فكرها الحاد فيما نقله إليها حفيدها، و لم تجد ثغرة واحدة أغفلها الحفيدان، وإذ مر بها الشيخ أحمد فى إحدى المرات انتحت به جانبا، وسألته عن رأيه فيما فعل إبناه فهز رأسه موافقا:

- إنهما رائعان يا مريم، لم يتركا شيئا واحدا للظروف.

نعم، هما بالفعل لم يتركا شيئا واحدا للظروف، فحتى احتمالية أن يخون رجال صدقا العهد الذى قطعوه لرجل السمارة ولموسى فى دار الجارية وضعاه فى الاعتبار، وتدبرا أمرهما لاحتمال حدوثه، نعم بالفعل كانا رائعين، و لم تكن مريم قد رأت من قبل المعنى الذى رأته فى ذلك اليوم فى عينى ابنها، فبرغم أنه كان فى ذلك الوقت يقارب الخامسة والأربعين من العمر إلا أنها وعلى امتداد السنوات الطويلة لم تر فى عينيه أبدا ذلك الشعور بالامتنان، الامتنان لها لأنها أرادت أن تستوضحه شعوره قبل الإقبال على العملية المدبرة، والامتنان لولديه اللذين يقومان عنه بأمور هى من الخطورة بمكان، و لم يكن ليستطيع أن يفعل ما فعلا، وأن يخالط الأشرار ويتداخل معهم كما فعلا، ويسهر الليل كله ولا ينال من النوم إلا قسطا لا يكفيه أبدا لو أنه هو الذى يفعل، ولكن أكبر آيات الامتنان

كانت بسبب ذلك التحول الغريب الذى أحس به فى شخصية ابنه محمد، بعد يوم واحد من رفقته لأخيه، فعندما مر بالغيطان قرب الظهر ليرقب مضارب السمدانى عن بعد عله يقف على شيء فاتهم، رأى الفتى الذى كان بالأمس مجرد واش يقوم على رعاية القطعان كلها، وأرتال الأبقار، فكأنه صار ربا هو الآخر.

فى ذلك اليوم البعيد جاءت شام إلى الدار الكبيرة، جاءت بعد قطيعة استمرت أسابيع، كانت فيها على وشك التسبب فى انقسام الأسرة انقساما يودى بوحدتها واستقرارها، لكنها عادت إلى سيرتها الأولى، وكانت وقد رأت ابنها ينخرط مع أخويه فى تدبير شئون الأسرة تتوزع بين الاغتباط والخوف، فأن يكون محمد رجلا من رجال الأسرة شأنه شأن موسى وسيد احمد فهذا يغبطها، لكنها لا تدرى هل سيتبع ذلك أن يخرج الولد عن سيطرتها أم لا، وإن كان المرجح أنه سيفعل، تماما مثلما يفعل موسى وسيد احمد، فكلاهما يتمتع فى مواجهة أمه باستقلالية، ولكن لصالح الأسرة التى صارت عزبة صغيرة.

زكية نائمة على ظهرها كالمعتاد، حاولت أن تقوم لتساعد فيما يجرى فمنعتها مريم، وبكت حظها، فها هى كما فى كل مرة تواجه فيها الأسرة موقفا عصيا تعجز عن مد يد العون كضرائرها الأخريات، وما يقتلها هو أن ضرائرها كن فى ذلك اليوم يكثرن من التردد عليها للاطمئنان والسؤال عما إذا كانت تريد شيئا، لا تصدق أن الأزمة التى تعيشها العزبة الوليدة قربت كل فرد فى الأسرة من الآخر إلى هذا الحد، كأنهم لم يكونوا يفكرون

حتى الأمس على نحو مختلف، و لم يكونوا يحلمون بمستقبل ترى فيه كل واحدة من الزوجات أولادها هي دون أولاد الأخريات.

لا محل هناك لاستلهام ما فعلته مريم من قبل، عندما قادت هي وبعض من الرجال هجوما مضادا على مضارب الجياصي، فالظرف هنا جد مختلف، وهم ولأول مرة يواجهون مصيرهم بشكل منفرد، ومساعد السمداني لم تكن له في المنطقة ولدى سكانها عداوات أو ثارات تستدعي تدخلهم فيما يدور، عليهم إذن أن يحسنوا التصرف في الأزمة العاتية، إذ لو عجزوا عن عبورها لكانت بداية اقتلاعهم من المكان.

لكن مريم لم تستبعد فكرة أن تحدث الوقيعة بين السمداني ومنسر صدقا، والفكرة بسيطة ومدهشة، هذا ما رآه موسى عندما فاتحته جدته، لكن سيد احمد اعترض عليها، قال إنهم بذلك يفتحون جبهة ثانية لم يتحسبوا لها، ومن يدريهم أن يخرج رجال السمداني ردا على مهاجمة المضارب فيشاركون في الهجوم إلى جانب الرجال الذين أرسلوهم بليل، وساعتها سيقاتل رجال صدقا بصورة حقيقية، ولن ينسحبوا من المكان إلا إذا أصابوا من حملتهم ما يهدفون إليه.

الاعتراض كان وجيها من جميع الوجوه، واتفق ثلاثتهم، مريم وحفيداها، موسى وسيد احمد، أن تكون الكلمة الأخيرة في الاقتراح للشيخ أحمد، فهو أكثرهم خبرة، وقرب الغروب انعقد الاجتماع بصورة بدت عفوية، ففي ذلك الوقت الذي يتسابق فيه الجميع لإنهاء أعمالهم قبل غروب الشمس، في ذلك الوقت الذي انقلبت فيه الآية، فباتوا يرجون أن

يتأنى الوقت فى المضى، كان الشيخ أحمد قد توجه إلى حجرة جدته الأم الخبيرة لينعم بصحبتها قليلا، ولتبارك حربهم التى يخوضونها وتدعو لهم بالنصر، فى ذلك الوقت تصادف اجتماعهم فى الحجرة، وبعد أن عرضت عليه مريم الرأى واعتراض سيد احمد أطرق إلى الأرض كأنما يقلب الأمر على أوجهه، كان موسى غائبا عن الاجتماع، إذ كان قد توجه إلى الغيطان ليساعد محمدا فى إعادة القطعان وأرتال الماشية إلى الدار بشكل آمن، وكان يصطحب معه إبراهيم وسليمان، ولما أراد السيد أن يصاحبهم أمره أن يظل إلى جوار أخيه سيد احمد فى الدار القديمة، فلربما احتاجه فى أداء شىء، وجاءت كلمات الشيخ أحمد خافتة، ولكن حادة كسكين:

– الوضع هنا يختلف.

كان لما يزل مطرقا إلى الأرض، وإذ رفع رأسه واصل:

– فى المرة السابقة كان الجياصى يشن علينا حربا مباشرة، رجاله فى مواجهتنا، ورجاله كانوا بقيادة أبنائه أنفسهم.

ونظر فى عينى أمه، ثم انتقل إلى سيد احمد وأردف:

– الآن مساعد يحاربنا متخفيا، برجال مستأجرين، ونحن توصلنا إلى كشف تدبيره وأعملنا فكرنا فى مواجهة هذا التدبير.

وعاد إلى التفكير مليا قبل أن يكمل:

– فى المرة السابقة كان لدينا من الرجال ما يكفى لتكوين جيش.

ومسح على رأس الأم الخبيرة، فلقد كانت ترهف السمع وتشاركهم بخفوت أنفاسها التى لا تريد لها أن تطغى على الهمس الذى يدور:

- الآن نحن وحدنا، لا رجال معنا إلا من نستأجرهم.

وأخيرا حسم الأمر:

- فإذا هاجمنا مضارب السمداني صرنا معتدين، وصرنا أمام كل حلفائنا في المنطقة، من العمد والأعيان، وحتى من الأهالي مجرد أناس يكرهون أن يجاورهم أحد.

وهب واقفا:

- وطالما أوقفتم الأمر على كلمتي فأنا أقول لا.

وخرج من الحجرة بعد أن انحنى وقبل رأس جدته، وبما لروعة الأمر عندما جاهدت لتقبض على أصابعه ففهم أنها تدنيه منها، ولما مد رأسه نحو وجهها رفعت رأسها ووضعت على جبهته قبلة واهنة، لكنها كانت حارة ومليئة بكل الأشواق التي تحتبسها، والتي تموج بالتباريح.

تحت أستار الليل فعلوا كل شيء، حبسوا القطعان بين الدور بعيدا عن الحظائر، ووضعوا من حولها الأسيجة، وتمركز الرجال من الرعيان عند أركان الأسيجة، وأدخلوا أرتال الأبقار والمطايا والجواميس إلى حظيرة ضخمة ملاصقة للدور الأربعة، وجعلوا الحظائر التي سيستهدفها الهجوم خالية، واطمأنوا إلى أن تكون الأحطاب التي أنزلوها من فوق الأسطح بعيدة كل البعد عن الجدران حتى لا تمتد النار إلى الأسطح وينتشر الحريق، ومع صلاة العشاء تهيأ المكان لتلقي الهجوم، وتهيأت الأنفس للتعامل مع الأمر.

لكن موسى الذي أبلغ بقرار أبيه كان حائرا، فهو لم يستطع حتى

اللحظة أن يحسم أمره، أيكون هنا في العزبة حتى يساعد على الاشتراك في صد الهجوم ومنع انتشار النار والسيطرة على القطعان والماشية؟، أم يكون هناك في المندرة الجديدة عند شاطئ الخندق ليمنع غدرا متوقعا، ويحرم رجال صدقا من متعة الإحساس بأنهم تلاعبوا به؟، وعندما عبر الليل العشاء وأخذ في التوغل في الأعماق استقر على أن يكون هناك في الغيطان، فأبوه في العزبة، وبكل خبراته يستطيع أن يفعل كل ما يجعل الأمر يمر بسلام، لكنهم في الغيطان قد يفاجأون بهجوم المنسر فلا يدرون كيف يكون التصرف.

الاتفاق بين موسى ومنسر صدقا كان أن يبدأ الهجوم بالتنبيه له، فعندما يصل المهاجمون إلى مقربة من العزبة يطلق أحدهم صفارة متقطعة حتى ينسحب أهل العزبة ليتمكنوا من إشعال النيران في الأحطاب التي هيأوها للحريق، وفور أن يندلع الحريق وترتفع ألسنة اللهب يسارع أهل العزبة بإطلاق الأعيرة النارية، ويرد عليهم المهاجمون، وفيما تقوم النسوة والرعيان والأطفال بإخماد النار يكون الرجال قد تمكنوا من إطلاق المزيد والمزيد من الأعيرة حتى يظن الجميع أن حربا حقيقية تدور في العزبة الوليدة، وعلى آخر ضوء من أضواء النيران قبل تمام إخمادها ينسحب المهاجمون، وفي الصباح يدعي أهل العزبة أنهم سرقوا، وأن قطعانهم وماشيتهم سلبت، وأن دورهم كانت في مواجهة أخطار الحريق.

عند انتصاف الليل تنبه الشيخ أحمد إلى الثغرة التي أغفلوها و لم يعملوا لها حسابا، فماذا سيقولون لهؤلاء الذين سيتقاطرون إليهم ما أن تضع الحرب أوزارها؟، وكيف سيتصرفون إزاء ما يفعله رجال الحكم إذا عن

لأحدهم أن يجرى تحقيقا في الأمر؟، لكن حسن الانتظام الذى اكتسبته الأسرة من تجاربها مكنه من أن يصدر الأمر إلى أبنائه، سواء المتواجدين بصحبته في العزبة، أو الذين يقبعون هناك في الغيطان إلى جوار موسى، فلقد آثر محمد وإبراهيم أن يرافقا أخاهم موسى في تمركزه هناك.

سيكون هو الوحيد المسموح له بالحديث عما جرى، وهو الوحيد الذى سيواجه أية مستجدات، وفي تلك الليلة البعيدة قلب الشيخ الأمر على مختلف أوجهه، فهل يصارح الشيخ دسوقى عمدة المقاطعة بما جرى؟، هل يطلعه على ما فعلوه من إفساد تدبير الأعرابى الجديد، ومن ثم مد الأمر حتى غايته، بل وتعليل أسباب عدم إبلاغه المسبق بالأمر؟، أم يواصل التظاهر بأنهم كانوا محلا لهجوم غادر لكنهم تمكنوا من صده؟. ذلك التفكير كان يؤلم الشيخ إيلاما شديدا، فهو لم ينتهج طوال حياته منهجا قائما على الاستهانة بذكاء الآخرين، والشيخ دسوقى لن يأت هنا بمفرده، سيأتى معه الحاج سويلم، وقد يأتى معه الشيخ أبو كريمة وعمدة غزالة وكل عمد المنطقة، هؤلاء الذين اجتمعوا في المندرة الكبيرة ذات يوم ونصروه على عدوه الرهيب عبد الله الجياصى، وإذا لم يلحظ أحدهم تفصيلة ما قد يلحظها آخر، وهو لا يقبل أبدا أن ينتهى المطاف بهؤلاء الرجال الرائعين إلى اعتباره مجرد كاذب أو مخادع.

هل يسعفه الوقت فيذهب إلى العمدة ويطلعه على الأمر ثم يعود، واستقر على أن يطلع الرجل على ما يدور حتى ولو قادت الرحلة إلى إفشال ما اجتهدوا فيه من تدبير، بإمكان مهرته أن تقطع المسافة في أقل من نصف ساعة، ولكنه تردد، هل يخبر أحدا من أهله بما ينتوى أم يرجئ

ذلك إلى ما بعد العودة، كل الشواهد تقطع بأنه سيرجئ الإخبار إلى ما بعد العودة، فهو لا ينفك يتجه إلى مربط مهرته ثم يعود، فعلها مرة ومرة ومرة، ولما هاجمه الهاجس الذى قضى على تردده أسر فى أذن أمه بما ينتوى فعله.

الخوف من أن يقابله رجال صدقا فى الطريق كان منطقيا، فماذا لو أنهم قابلوه فى الطريق؟، وماذا لو عن لهم أن يخطفوه أو يقتلوه ومن ثم يعودون إلى قراهم وقد غنموا الحرب كلها، وليس بجرد جولة من جولاتها، وتلك هى النتيجة التى يريدها السمدانى، بل ويدفع الغالى والنفيس من أجل تحقيقها، لكن تفادى عواقب الاستهانة بغضب الرجل الذى تقع العزبة فى زمام عموديته تستأهل المغامرة، فكما قال لأمه إن غضب العمدة لعدم إحاطته علما بالتدبير قبل أن يتم هو أمر مؤكد، أما مقابلة المهاجمين فى الطريق فهى بجرد احتمال، وهو لن يغفل المؤكد خوفا من الاحتمال.

فى الطريق إلى المقاطعة نهبت مهرته الأرض نهبا، كأنها تدرك ما هو فيه، لم تجفل وهى ترى الثعالب الصغيرة وبنات آوى تمرق من أمامها وتختفى بين المزروعات، كما ولم تفعل وهى تتشمم روائح الذئاب وعواءها القادم من جنبات الطريق، وعندما عن للسماء أن ترسل رذاذا هينا لتعلن به عن تحقق الشتاء اكتفت وهى تكاد تطير فوق الأرض بهز أذنيها القصيرتين وإغماض جفونها المرتعشة لتبعد الرذاذ عن عينيها، ولم تتوقف عن العدو إلا أمام الدار التى تعرفها.

الرجل كان يغط فى النوم، والخفراء والمشدات استيقظوا على النباح، فلقد توقفت المهرة وأخذت تطرد الهواء من منخريها بصورة أوقعت الرعب

فى قلوبهم، دقائق معدودات وكان العمدة يستقبله فى مندرة الضيوف، الملابس المبتلة بماء المطر، والوقت الموغل فى قلب الليل، والملامح المرتبكة، كل ذلك هيأ العمدة لتقدير الزيارة، وكان وهو يستمع إلى ضيفه يتعجب من أمر ذلك الرجل الذى لا يفوته شىء من أمور الواجب والاعتبار، وأخيرا فإن حسن الإبلاغ أوقع فى روع العمدة كما لو أن ضيفه يطلب مشورته، وراح غير مقدر للوقت يستطرد فى فرض الفروض حتى نبهه الشيخ أحمد بلطف شديد إلى أن الوقت قد يكون فى الحقيقة غير كاف للاستطراد، وعندما اقترح عليه العمدة أن يصحبه فى رحلة العودة بعض من رجاله شكر له.

وفى رحلة العودة كانت أذنا الشيخ تسبقانه، فقد يكون الهجوم واقعا الآن، وامتلأت رأسه بآلاف التخيلات حتى كادت تنفجر، لكنه وهو يسابق الريح وقبل أن ينعطف إلى طريق جانبى غير ممهد يوصله إلى العزبة بأسرع مما يفعل لو سلك الطريق الرئيس شم رائحة تراب أثارته عشرات من الأقدام مرت لتوها، لقد جمعت الأرجل الطبقة الرقيقة من الوحل الذى صنعه الرذاذ وأثارت التراب من تحتها، والذى كان يحتفظ بجفافه، لكنه مر بثلاثة من الرجال كانوا يسلكون الطريق الغير ممهد والذى انعطف إليه.

يا للمصادفات التى تستنقذهم وهم لا يقصدون!!، فلم يكن ما تم فى تلك الليلة سوى مصادفة أخرى من تلك المصادفات التى لا تقع إلا لمن أحسنوا التدبير، تنحى الرجال الثلاثة جانبا وظنوا أن المار بهم لم يرهم، وإذ رأوه رجلا واحدا لم يأبهوا للأمر. أدرك الشيخ أن الرجال الثلاثة

لا يمكن أن يكونوا هم من أثار كل ذلك التراب الذى اشتمه فى هواء الطريق، ومن مر بهم فى الطريق الفرعى ليسوا إلا ثلاثة رجال يحملون بنادقهم فوق ظهورهم، فأين الباقون؟!.

للتباحث حول الأمر لم يكن أمامهم من الوقت الكثير، فهؤلاء الذين انعطفوا إلى العزبة سيشعلون النار المزيفة فى الأحطاب والقش كالمتفق عليه، وسيطلقون بعض الأعيرة فى الهواء، فيردون عليهم بمثلها، لكن العدد الأكبر منهم توجه إلى مكان آخر، ولما عرف سيد احمد بالأمر أدرك أن شكوكه هو واخيه كانت فى محلها، فمن يأمن لقطاع الطرق وأبناء الليل؟!، والمطلوب الآن هو المسارعة إلى الغيطان، فالحرب كما تبدو له الآن حقيقية، ولأجل أن يطمئن أبوه ويذهب بمن معهم من الرجال إلى الغيطان لنصرة موسى ورفاقه أقنعه أن فيه وفى بعض أخوته وفى جدته وعماته الكفاية لمواجهة التدبير المتفق عليه، وقبل حتى أن يكمل حديثه كان الشيخ أحمد يقود الرجال خفية من طريق مختصر فى اتجاه الغيطان.

فى لمح البصر كانوا يتقافزون حتى وصلوا إلى المندرة الجديدة المقامة عند شاطئ الخندق، رصدهم رجال موسى وثبتوهم وهددوا بإطلاق النار عليهم ما لم يكشفوا عن أنفسهم، فلقد دخل فى روع موسى أنهم من رجال السدانى وقد جاءوا للهجوم فى غفلة منهم، لكن الشيخ أحمد تقدم وهو يفصح عن نفسه، وما أن سمع محمد صوت أبيه حتى صاح فى الرجال:

– إنه أبى، إنه الشيخ.

موسى كان كامنا بالقرب من الترابيع المملوءة بالماء فى انتظار قدوم المهاجمين، وما أن عرف بمقدم أبيه حتى أسرع بالمجيئ إليه عند المندرة، فى ستر الليل أبلغه الشيخ بما حدث، وعلى الفور انتقى الرجال المواقع التى سيكمنون فيها انتظارا لمقدم المهاجمين، ففى الغيطان لم يكن هناك من شيء يفعله المهاجمون سوى أن يقطعوا جسور الترابيع فيتسرب الماء إلى الأرض غير الممهدة، أو يتلف المزروعات وهى الشيء الكثير الذى لا يمكن تدميره كله، أو سرقة المندرة وليس فيها من شيء ذى بال، ورجحوا أن يكون الهجوم عن طريق التسلل لقطع جسور الترابيع أو لإتلاف الزروع.

أماكن الكمائن كانت مختارة بعناية، لا يعرف مواقعها إلا من عاش فى الأرض وعرف مساراتها وسككها، وجرب السير فيها بالليل دون أن يتعثر، لذا فإن موسى وهو يأمر الرجال بالكمون فى الأماكن التى اختارها بدا فى ناظرى أبيه كقائد جند أو أمير طبلخانة، قائد لا يضارع، حتى أن الرجل لم يملك إلا أن يستجيب لما قرره الابن الذى خبر الأرض وأبعادها ومسافاتها وسككها وكيفية الإيغال فيها والخروج منها، وما أن استقرت الكمائن فى مواضعها حتى هدأت الحركة فكأنه لا يوجد أحد فى كل الغيطان المنتشرة فى الأبعدية الشاسعة، ولم يبق إلا أن يأتى المهاجمون ليلقوا حسابهم.

أخذ مسار الهجوم على العزبة بعد خروج الشيخ والرجال إلى الغيطان منحى مختلفا، فلقد بات واضحا أن رجال صدقا خانوا موسى، وبدلا من أن يستمروا فى تدبيرهم كما اتفقوا معه ها هم يتظاهرون بالمضى فى

الاتفاق فيما يهاجمون فى مكان آخر، وهو ما توقعه موسى وسيد احمد عندما تصارحا بشكوكهما، والآن فإنه فى غياب الشيخ أحمد يكون سيد احمد هو المسئول عن إدارة المعركة فى العزبة، وهى معركة هينة على أية حال، لكن مريم أرادت أن تكون معركة العزبة هى المعركة الأساسية، وكما فعلوا ليلة حرب الجياصى لا مفر من أن ينتهجوا نفس الطريق.

كمن سيد احمد ومعه إبراهيم وسليمان وبعض من الرعيان المسلحين بالشوم والمناجل والفؤوس فى أماكن تعتبر فى ظهر المهاجمين إذا اقتربوا من العزبة، وكما هو متوقع كان المهاجمون ثلاثة، قدموا من جهة الشرق ووقفوا برهة غير بعيد، كانوا بالقرب من الكمين الذى نصبه لهم سيد احمد، حتى أن أحدهم لو التفت عن يساره لعثر عليهم، لكنهم كتموا أنفاسهم، وتعطلت أعضاؤهم عن الفعل، وتمنوا للحظات لو توقفوا عن مجرد التنفس، وبعد أن أطلق أحد المهاجمين الثلاثة صفيرا متقطعا كالمتفق عليه انطلقوا فى اتجاه العزبة يتضاحكون كأنهم فى نزهة.

المتفق عليه بين السراسوة الكامنين هو أن يهاجموا الرجال الثلاثة بعد أن يضرموا النار فى الأحطاب والقش الذى يقبع فى الجرن فى انتظارهم، لكن إبراهيم الذى كان مهتاجا بشكل كبير ما أن رأى الرجال الثلاثة يعطونهم ظهورهم حتى قفز من مكمنه هاجما عليهم، ولم يجد سيد احمد وسليمان بدا من أن يقفزا من مكمنهما ويهجما أيضا، وكذلك فعل الرعيان الذين كانوا يهاجمون وهم يشهرون عصيهم وفؤوسهم ومناجلهم، ولم تمض ثوان حتى وقع الرجال الثلاثة فى قبضة سيد احمد وإبراهيم، وقبل أن تنطلق صرخة واحدة منهم عاجلهم إبراهيم بالضرب

على رؤوسهم فخر أحدهم مضرجا في دمه والتزم الآخران الصمت.

قادوهم إلى العزبة، حيث كانت مريم في انتظارهم، وفي المندرة الكبيرة أدخلوهم وقربوا الضوء من وجوههم، كان إبراهيم مهتاجا ويكاد يطير من الفرح، فلقد كسبوا المعركة قبل أن تبدأ، هكذا قال لجدته ولأخويه، وقبل أن يتحدث سيد احمد راح إبراهيم يقيد أيديهم من الخلف إلى أرجلهم، وفوجئ بأن أخاه السيد كان يمد يديه معه ليحكم الوثاق، حتى أنه كان يضع رجله في جنب الواحد منهم أو في كتفه ويشد الحبل بقوة كافية لأن يتألم منها، وهناك عند الباب وقف سليمان في انتظار ان يُطْلَبَ منه شيئ.

مريم كانت في ذلك الوقت هي التي تقود العمل في العزبة، ولأنها لا تريد أن تستدرج إلى نقاش لا يفرغ مع سيد احمد حول ما يتوجب فعله بعد أسر الرجال الثلاثة قررت ان تشعل النار بنفسها في الأحطاب والقش الموجود في الجرن الكبير، لكنها تراجعت في آخر لحظة، فماذا لو أن بين المنسر اتفاقا يساعد عليه إضرام الحريق، وبدلا من أن تمضي في خطتها بإشعال النار وإطلاق الأعيرة في الهواء توجهت صحبة الرجال من الرعيان إلى المندرة الكبيرة، كان السيد الصغير قد أضرم نارا في موقد كبير فجاءت بأسياخ حديدية ووضعتها فيها، لم تطلب من الرجال الكثير، فقط أن يبوحوا بما هم مقدمون على فعله.

في البدء أنكروا أن يكون أحد منهم قد توجه إلى مكان آخر، قالوا إنهم لما جاءهم موسى وأبرم الاتفاق معهم لم يجدوا حاجة لأن يرسلوا رجالا كثيرين لتنفيذ ما اتفقوا عليه، فاقتصر الأمر على ثلاثتهم، الحديث كان مقنعا، حتى أن سيد احمد وجد نفسه يميل إلى تصديقهم، لكن مريم

لم تكن لتشك لحظة واحدة فى فراسة ابنها، وطالما قال إن كثيرين منهم توجهوا إلى مكان آخر فلا بد أن يكون حديثه صحيحا، فهو لا يقوم على مجرد الحدس الذى يجيده منذ كان طفلا، ولكنه هذه المرة مشفوع بعلامة، هى تراب الطريق الذى أثارته الأقدام الكثيرة، وكان أبناء الليل يهاجمون فى تلك الأيام وهم راجلون.

سيد احمد لم يستطع أن يمسك بأحد أسياخ الحديد ليكوى به أحد من المأسورين، وعلى الفور تقدم إبراهيم، واستل السيخ المحمى واقترب من أحدهم، الرجل كان جاحظ العينين من الخوف، وقبل أن ينغرس السيخ فى باطن قدمه شقت صرخته سكون الليل، وقبل أن يسحب إبراهيم السيخ الثانى أدلى الرجل باعترافات كاملة، الآخرون توجهوا إلى مضارب السمدانى، عددهم عشرة، مسلحون ببنادق معمرة وخناجر، هدفهم خطف موسى، فإن لم يجدوه فليكن أى واحد من أبناء الشيخ، وإذ رأى أن يكتفى بهذا القدر سحب إبراهيم السيخ الثانى، كان محمرا كأنه سيقطر حديدا مذابا، وقبل أن يقترب منه أدلى بمعلومات أخرى.

قال إنهم وبعد أن تركهم موسى تباحثوا حول الأمر واتفقوا على أن يرسلوا إلى مساعد من يعرفه بما دار، ولما كانت العملية الأولى هى مهاجمة العزبة وترويعهم وسرقة قطعانهم وماشيتهم فضلوا أن يضربوا ضربتهم فى الغيطان، حيث لا يفارق موسى المندرة التى أنشأها على شاطئ الخندق، قالوا إنهم حتى لو لم يجدوه فإن واحدا على الأقل من أولاد الشيخ سيكون هناك مع الرجال الذين يتولون حراسة الخندق والغيطان، وإنهم

إذا استطاعوا أن يخطفوا أحد أبناء الشيخ فبإمكانهم أن يساوموا على إعادته بمبالغ طائلة.

شيء ما أوحى لمريم أن ما قاله الرجل ليس كل شيء، وبطرف خفي أوعزت إلى إبراهيم أن يواصل فعله، فسحب السيخ الذي كان قد أعاده إلى النار وتقدم من الرجل وغرس السيخ في باطن قدمه الثانية، الصرخات التي انطلقت كانت هذه المرة متألمة بصورة تقطع نياط القلوب، حتى أنهم رأوا البول ينبثق من أسفله ويشق لنفسه مسارا بين مربعات أحجار البازلت في أرضية المندرة، وقبل أن يفتح الرجل فمه سقط رأسه على صدره وغاب عن الوعي.

إبراهيم لم يدر ما الذي يجب عليه أن يفعل، ولما أشارت جدته إلى رجل آخر اقترب منه، السيخ الثالث كان جاهزا، طرفه المدبب يرسل شرارات بيضاء من شدة الإحماء، حاول الرجل أن يتظاهر بالشجاعة، لكنه ما أن سمع صوت شواء لحمه أطلق صرخة هائلة أرعبتهم جميعا، حتى النساء اللاتي كن يقفن هناك في الخارج، فلقد وضعن أيديهن على آذانهن كي لا يسمعن المزيد من الصراخ، وجاءت كلماته متألمة متقطعة.

نعم هناك عشرة من الرجال ينتظرون مهاجمة المندرة الجديدة في الغيطان، هدفهم خطف واحد من أبناء الشيخ أحمد، فإذا نجحوا في أن يكون هذا الابن هو موسى فإنهم فور أن يتعدوا به يقتلونه ويحملون جثته لإخفائها في مكان لا يستدل عليه، فساعد أقسم ليقتلن الفتى حتى ولو كان ذلك آخر عمل له في الحياة، وأخبر الرجل الذي أمسكت

بأعضائة رعشـة غريبة بأنهم وعدوا بأموال طائلة إذا نجحوا في قتل موسى، إذ يتوجب عليهم إذا شعروا بأنهم لن يتمكنوا من خطفه أن يقتلوه في موضعه، ثم يرحلوا، لكنه أضاف شيئا ذا أهمية، فهم لن يهاجموا مندرة الغيطان إلا إذا رأوا النار تشتعل في العزبة واطمأنوا إلى أن تبادل إطلاق النار في الهواء قد وضع موضع التنفيذ.

وقع بصرها على سليمان الواقف عند الباب، إذ هو لم يشارك في أي شيء تلا القبض على رجال المنسر الثلاثة، فلم يكن أبدا ذا خيال، وكان منطويا وصامتا، ويفعل بالضبط كما يطلب منه، ولما كانت جدته تعرف طبعه فإنها طلبت منه أن يسارع بالتوجه إلى أبيه عند مندرة الغيط ليعلمه بما حدث، ولأنها تعرف أنه يخاف الظلام أرسلت معه أحد الرعيان الذين كانوا يدورون حول أنفسهم لأنهم غنموا حربا رهيبة بسهولة لا يصدقونها.

وقائع الحرب

في مضارب السمداني وقف الرجال في انتظار أن يروا النيران تندلع في الأحطاب والقش، وأن يسمعوا انطلاق البارود من البنادق المصوبة إلى السماء ليبدأوا الهجوم، لكن الانتظار طال، وبدا أنه بلا نهاية، والسمداني كان متحرجا من وجودهم في مضاربه، فلقد تصرفوا على غير ما اتفقوا عليه، والاتفاق كان أن يبدو أمام أهل المنطقة بعيدا عما يجرى، بعدا لا يقبل الشك، حتى إذا ما اتهمه الشيخ أحمد بالضلوع في الواقعة يتولون بأنفسهم الرد عنه، لكنهم الآن في المضارب بالفعل، فلقد تسبب ذهاب موسى إليهم مع رجل السمارة في تعديل الخطة، وبعد أن كانت مهاجمة العزبة ونهبها هي الهدف من وراء الهجوم صار الهدف هو إلهاء العزبة بهجوم مصطنع والضرب في مكان آخر، في مندرة الغيط حيث يتوقع أن يكون موسى هناك، أو على الأقل واحد من أخوته.

سليمان كان قد وصل إلى حيث يوجد أبوه عند مندرة الغيط، وإذ أنهى إليه الخبر لم يدر الرجل هل يفرح أم يغضب، فلقد فعلتها مريم ثانية، حصلت على أسرى وتولت تعذيبهم وانتزعت الاعترافات منهم، والأمر

الآن يحتاج إلى الحديث مع موسى، فهم إذا مضوا فى مخططهم وأشعلوا النار فى الأحطاب المجهزة فكأنهم يدعون رجال صدقا للهجوم، وبرغم كل الاحتياطات التى اتخذوها، والمناورات التى قاموا بها يظل أمر الهجوم خطرا من كل الوجوه، فهو حتى الآن غير واثق من قدرة ابنه ورجاله على صد هجوم أبناء ليل ورجال منسر محترفين، كمثل هؤلاء الذين ينتظرون بمضارب السمدانى فى انتظار الإشارة.

لكن موسى طمأنه، قال إنهم إذا لم ينتصروا فى هذه الجولة نصرا مؤزرا فهم لن يهزموا، فأكمنتهم ليست معروفة من قبل المهاجمين، وهم إذا ما بدأوا فى إطلاق النار فسيفعلون كما فعلوا من قبل وهم يهاجمون مضارب الجياصى، سينتقلون من مكان إلى مكان حتى يوقعوا الرعب فى نفوس المهاجمين فيظنوا أن الأرض مليئة بالرجال، خلف كل تلة، وفى قلب كل أكمة، وحتى تحت الأرض، وإذا تحقق لهم النصر فلن يجرؤ أحد على مهاجمتهم من جديد.

منطق موسى كان مقنعا، لكن الشيخ أحمد كان يريد السلامة، فيكفى ما حدث من أسر الرجال الثلاثة، وبإمكانهم فى الصباح أن يسلموهم للشيخ دسوقى باعتباره عمدة المكان الذى وقع فيه الهجوم، والرجل لن يتوانى عن إثارة الموضوع على أعلى مستوى، ويضمن عقابا رادعا للمنسر وللأعرابى الذى يتحرك من وراء ستار، ولكن موسى لا يرضى أن يمر الأمر دون قتال ينتصر فيه، وهو ورجاله قادرون على النصر طالما أنهم يعلمون بخطة عدوهم وهو لا يعرف عنهم شيئا، و لم يملك الشيخ أمام إصراره إلا أن يقول:

- على بركة الله.

جرى تعديل فى الأكمنة، فبدلا من أن يكون فى كل كمين ثلاثة من الرجال اقتصر على اثنين، سمح ذلك بتدبير أكثر من أربعة أكمنة أخرى، وضعوا اثنين منها بالقرب من المندرة بحيث إذا وصلها المهاجمون كان الكمينان فى ظهورهم، ووضعوا الكمينين الآخرين قرب المكان الذى سيعبر منه المهاجمون إلى الأرض، بحيث إذا احتاجوا لأفرادهما يمكن الاستعانة بهم، وإذا لم يحتاجوا لهم فإنهم سيتولون مفاجأة المهاجمين وهم ينسحبون فى اتجاه مضارب السمدانى، وسمح لهم ذلك التنظيم الذى أجروا التعديل فيه فى لمح البصر أن يحكموا ترتيب كل شىء، حتى إذا ما عن للمهاجمين أن ينفذوا عملية الهجوم بحيث تكون من مرحلتين متعاقبتين أو متزامنتين، مهاجمة المندرة لخطف موسى أو أحد أخوته وقطع جسور الترابيع الجديدة، فإنهم سيلقون عقابا قاسيا لم ينالوه طوال حياتهم.

أكثر من عشرين بندقية كانت فى متناول أيديهم، فبعد القبض على الرجال الثلاثة وحبسهم فى المندرة الكبيرة فى العزبة حمل إبراهيم البنادق والخشار والبارود وأسرع بالتوجه إلى مندرة الغيط، وكانوا قبل أن تستقر الأكمنة فى مواضعها انتظارا للهجوم قد أشعلوا النار فى الأحطاب والقش الذى وضعوه فى الجرن وأطلقوا النار فى الهواء كأنهم يصدون الهجوم، أطلقوها من بنادقهم وبنادق الرجال الثلاثة المأسورين، أطلقوها المرة تلو المرة حتى أن الموجودين فى المضارب غير بعيد تيقنوا من أن المخطط يجرى تنفيذه بالضبط كما دبروا.

قبل أن يـدأوا الهجوم اطمأنوا على أسلحتهم وذخائرهم، وعلى أدواتهم التي سيستخدمونها في أسر من يجدونهم في مندرة الغيط، من أبناء الشيخ أو من الآخرين، بحيث إذا ما غادروا في أمان يطلقون الآخرين ويحتفظون فقط بمن أخذوا من الأبناء، لم يكن السـمداني سعيدا بانطلاقهم من مضاربه، لكنه حمد لهم إفصاحهم عن الاتفاق الذي أبرموه مع غريمه، وكان وهم ينطلقون لتنفيذ الهجوم المرتقب يأمل أن يتمكنوا من الحصول على الفتى موسى الذي يتركه أبوه في الغيطان كذئب ضار، لا يخيفه تهديد ولا يقعده عن همته وعيد، وشطح به الخيال إلى رؤية الفتى مقتولا، بل وإلى استدعائه لمعاينة جثته، حتى إذا ما أعطاهم التأكيد بأنه المطلوب دفنوه في مكان لا يستطيع الوالي محمد على باشا نفسه لو قام من قبره أن يصل إليه.

الجلبة في العزبة كانت من الوضوح بحيث أعطتهم وهم يعبرون حدود أرض السمداني ويدخلون في أرض غريمه الانطباع بأن المخطط يمضي في الطريق الذي رسموه، عبروا المصرف الذي يفصل أرض السـمداني عن أرض العزبة، ورصدهم الكمينان المستقران على الجانبين، عشرة رجال تسللوا إلى الأرض في خفة كأنهم مجموعة من القطط الليلية، لم يسمعوا حتى حفيف ملابسهم أو وقع أقدامهم، أمر مرسوا عليه سنوات وسنوات، وتمكنوا بإجادتهم له من كبس القرى والمزارع والعزب على مدى سنوات طويلة، و لم يكن يجدي معهم أي احتياط.

توجهوا بكامل عددهم صوب الخندق، الليل مطبق وريح خفيفة تحمل إنذارا بنزول المطر تواجههم فيضطرون إلى إغماض أعينهم المرة تلو المرة،

وكانوا وهم يتقدمون صوب الخندق والمندرة المقامة عند شاطئه يحنون قاماتهم، كأنهم في قلب الليل يخشون أن يراهم أو يتنبه إلى وجودهم أحد، ولا ينفكون يتفقدون بنادقهم وذخائرهم وأدواتهم، أقدامهم المدربة لا تصطدم بالأرض، تتلمسها قبل أن تطأها، تماما مثلما تفعل القطط، وعلى رؤوسهم وحول وجوههم التفت التلافيع الطويلة فأخفت من الوجوه كل شيء، إلا أعينهم التي ترى في الظلام لكثرة ما اعتادوا على العمل فيه، وهي الميزة التي تمكن منها موسى، لما ابتعد عن العمران وسكن الغيط إلى جوار الأرض المستصلحة والخندق والترابيع المملوءة بالماء.

اقتربوا من المندرة فتفرقوا دون أمر من أحد، يعرفون بالضبط ماذا يفعلون، فلكم نفذوا من العمليات ما يشبه عمليتهم الجارية، انتشروا حول المندرة، ولما أحكموا تطويقها أبطأوا من خطوهم، ثم انبطحوا فوق الأرض وصاروا يزحفون في اتجاهها، أفراد الأكمنة القريبة منهم كانوا برغم الظلام يرونهم ويميزون أعدادهم، لكنهم لم يسمعوا أصوات تحركاتهم البطيئة المتسللة، واستمر المنسر في التقدم، حتى إذا ما صاروا على بعد عدة أقصاب من المندرة توقفوا.

الشك داخلهم في السكون الذي يحيط بالمكان، فلا صوت واحد يصدر عن المندرة، ولا دليل على وجود أحد، ولعلهم في تلك الليلة البعيدة تساءلوا: أيكونوا قد ذهبوا كلهم إلى هناك؟!، إلى العزبة التي لا تزال النار ترفع ألسنتها فيها، وعلى ضوئها يرون خيالات غريبة لأناس يحاولون إطفاءها، لا أشك لحظة واحدة في أنهم شعروا بالإحباط على نحو أو آخر، فهذا السكون الذي يخيم على المكان يجعل من هجومهم

لعبة تافهة تقتصر على مجرد قطع جسور الترابيع الجديدة لتصفية مائها، وهى العملية التى يستطيع واحد بمفرده ودون أن تكون له خبرة أبناء الليل أن يقوم بها.

لكنهم لم يفقدوا حذرهم، ظلوا على أوضاعهم دقائق ليعلن المخبوء عن نفسه، وهو تدبير من التدابير المعروفة لأبناء الليل، وطال انتظارهم، فلا أثر لوجود أحد فى المندرة، أو عند شاطئ الخندق، أو حتى فى كل الأرض التى تسللوا إليها ليدمروها، وليقبضوا على أحد أصحابها تنفيذا للتكليف الذى صدر لهم من الأعرابى البارع مساعد السمدانى، نعم، فلقد كان فى عرفهم بارعا، حتى أنهم وهم يحشون أمر اتفاقهم مع موسى ورجل السمارة أجمعوا على ضرورة إبلاغه بالاتفاق، فهو فقط ليس واحدا من أكبر زبائنهم وأرباب نعمتهم، وإنما هو بالإضافة إلى كل ما سبق يتمتع بقدرات تجعلهم يخشون مجرد الاقتراب منه وهو غاضب.

ينبغى على أن أقول إن مساعدا السمدانى، الأعرابى الذى انتقل من مثلث صدقا الخمسة كفر سنجاب لم يكن فى ذلك الوقت شيخا طاعنا فى السن، أو حتى كهلا، بل كان شابا فى ثلاثينات العمر، لا يبلغ أكبر أبنائه أكثر من العاشرة، ومنذ قدم إلى المنطقة اشتهر بين الناس بقدرته على إثارة المتاعب، وعلى تحدى خصومه أو من يختار هو أن يجعلهم خصوما له، إلى حد قتلهم أو حرق دورهم ومزروعاتهم وبهائمهم، بل وقدرته على نقل حدود أرضه داخل أراضى جيرانه، حتى أن الحكايات التى تلقيتها عن أسرتى والتى توارثوها جيلا بعد جيل ذهبت إلى أنه فى إحدى الليالى

ضم إلى أرضه خمسين فدانا في عملية واحدة، وزرع نخيلا مثمرا على الحدود الجديدة لإثبات أنها حدود أصلية وليست مزورة.

لكل تلك الاعتبارات كان شعور رجال صدقا بالإحباط مضاعفا، لأنهم سيكونون محلا للتندر بهم وفضحهم والحط من شأنهم، وهم الذين كانت بجرد إثارة أخبارهم في أي مجلس كفيلة بإخراس الرجال، بل وبإجراء بولهم رغما عنهم، وسيتعرضون إلى جانب ذلك لغضب السمداني الذي سيستبدل بهم خصومهم من السمارة أو بيضة السوق، أو بني عبيد القرية من دكرنس، والتي لا تبعد عن صدقا إلا مسير أقل من ساعة، ولن يكتفي بذلك وإنما سيدس عليهم لدى رجال الحكم في المديرية فيفاجأون بالقبض عليهم ونفيهم إلى المحابس القاتلة في الثغور البعيدة، إن لم يكن المصير هو القتل.

تشمموا الهواء بأنوفهم الخبيرة، قالت خياشيمهم إن أشخاصا هنا، في المكان، وبإشارة من كبيرهم عادوا إلى التقدم من جديد، والآن صاروا لا يبعدون عن المندرة إلا بمقدار قصبة أو اثنتين، ورفع أحدهم رأسه ونهض في خفة وتقدم صوب المندرة مباشرة، الباب كان موصدا، لكن المزلاج الخارجي الذي يغلقون به ليس موجودا، التفت إلى الباقين وهو يشير بيده إشارة تعني أن أحدهم بالداخل، وفي نعومة اعتاد عليها دفع الباب برفق فانفتح بعد تكرار المحاولة، وقبل أن يلج لحق به اثنان، ووقفا عند جانبي الباب، فيما ظل الباقون منبطحين على الأرض يصوبون بنادقهم في اتجاهه، وأيضا في اتجاه النوافذ المغلقة.

موسى كان ضمن أفراد الكمينين اللذين فى ظهر المهاجمين، وكان الاتفاق أن يكون هو صاحب الرأى فى توقيت ومناسبة الهجوم، ولما لم يأمر بالإطلاق تململ الرجال فى أكمتهم، يرون أن الوقت مناسب للإطلاق، ولتحقيق نصر مؤزر، فالمعلومات التى تحصلوا عليها من الرجال الثلاثة المأسورين أبانت عن حقيقة أعداد المهاجمين، وها هم بكامل عددهم فى المتناول، لا ينقص منهم أحد، ولكن موسى كان يفكر على نحو مختلف.

إذ لما تيقن من أن الرجال بكامل عددهم فى قبضته أرسل أحد رجاله زاحفا فى اتجاه الأكمنة الأخرى الموجودة عند الترابيع الجديدة طالبا استقدام عدد منهم، و لم يطل به الوقت، فلقد زحف الرجال القادمون من الأكمنة الأخرى عبر المصارف الجافة والقنوات حتى وصلوا إلى موقعى الكمينين، وتحت جنح الليل أحكموا تطويق المهاجمين، صاروا عشرة رجال هم أيضا، كلهم متأهب لإطلاق بندقيته فى اتجاه المندرة، فيما هم وبعد أن فتش رجلهم المندرة الجديدة و لم يعثر على أحد فيها فقدوا حذرهم، حتى أن الرجل الخارج من المندرة قال بصوت طبيعى سمعوه فى كل الأكمنة المحيطة:

– لا أحد هنا.

لم ينهره أحد، و لم يطلب منه حتى أن يخفض من صوته، فلقد ساد الاعتقاد بأن الأرض كلها خالية من الجميع، حتى من العمال، وعبر الليل البهيم انصبت فى أذنى موسى اللعنات التى أطلقها كبيرهم.

عشرتهم وقفوا أمام المندرة، تراخت أعضاؤهم وظنوا أن الليل فى المكان خال من أحد إلا هم، وبعد أن فرغ كبيرهم من صب اللعنات على راس الشيخ أحمد وأبنائه قال فى غضب:

– دعونا على الأقل نقطع جسور الترابيع.

واقترح أحدهم:

– ولماذا لا نهاجم العزبة؟.

وأثار الاقتراح استحسانا لدى البعض منهم فناقشوه فى العلن، الكل تقريبا كان فى صف الاقتراح، وقدموا لكبيرهم تبريرات صحته، لكن كبيرهم اعترض بشدة، وكأنما تنبهوا لأول مرة إلى أن رجالهم الثلاثة الذين ذهبوا إلى العزبة لم يلحقوا بهم كالمتفق عليه، وقال آخر ردا على ذلك:

– إنهم ينتظرون على الطريق ليصحبونا فى العودة كما اتفقنا.

لكن كبيرهم قاطعه:

– نحن لم نتفق على ذلك، قلنا لهم أن يلحقوا بنا، وإذا جد شىء فليذهبوا ليكمنوا فى الطريق ويصحبونا فى العودة.

ونظر فى وجوه رجاله وأردف:

– ما الذى جد ومنعهم من اللحاق بنا؟!.

وساد الصمت لحظات، رجال الأكمنة كانوا يكتمون غيظهم، بل إن أحدهم تحرك على نحو مفاجئ فأحدث صوتا كان كفيلا بأن يكشفهم لعدوهم، لكن اضطراب تفكير العصابة وعلو أصواتهم حجب الصوت

عنهم فظلوا على حالهم يحاولون أن يثنوا كبيرهم عن رفضه الامتثال لاقتراحهم، وأخيرا قال أحدهم وكان ذا صوت غليظ أجش:

– إن لم نهاجم العزبة نكون قد حكمنا على أنفسنا بالإعدام.

و لم يجد كبيرهم بدا من أن يقول:

– إذا كنا سنهاجم فلنجذبهم إلى هنا.

ولما لم يفهموا مغزى ما يقول استطرد:

– أشعلوا النار في المندرة، حتى إذا ما رأوها أسرعوا بالمجيئ إلى هنا وتركوا دورهم وحظائرهم بلا حراسة.

أول خطوة يخطوها أحدهم صوب الباب كانت هي الإشارة التي ينتظرها موسى، فما أن خطا الرجل خطوة واحدة في اتجاه الباب حتى أحكم موسى التصويب وأطلق من بندقيته عيارا انفجر في وجه السكون والليل، وتوالى الإطلاق فسقط بعضهم وصراخه يعلو على أصوات الانفجارات، فيما انبطح الآخرون على الأرض، ولكنهم برغم ذلك كانوا مكشوفين.

أدركوا أنهم وقعوا في مصيدة، وأن الأسرة اللعينة أوقعت بهم وضحكت على شواربهم، تمكنوا بالكاد من الإمساك بالبنادق وحاولوا الإطلاق في اتجاه الأماكن التي تنطلق منها البنادق، وإذ حاول بعضهم الالتفاف حول المندرة للهرب في اتجاه مضارب السمداني واجهته النيران من الاتجاه الآخر، و لم يجدوا بدا من الدخول إلى المندرة ليحتموا بها من الطلقات، وهذا بالضبط ما كان يريده موسى، أو لنقل ما كان يأمل في

حدوثه، الظروف ساعدته على تحقيق أمنيته، فإذا كان لم يخطط لحبسهم داخل المندرة إلا أنه وأثناء إطلاق الأعيرة تمنى لو يفعلوا، وها هم يفعلون.

على أصوات الأعيرة نبحت الكلاب في العزبة، وفي مضارب السمداني، وفي كفر سعد والحجايزة وغزالة، بل وفي المقاطعة وشبراسندي، لكن أحدا لم يخرج ليستطلع ما يدور، فالصراع المكتوم بين الشيخ أحمد السرسي وبين مساعد السمداني لم يكن معروفا للكافة بمثل ما كان الصراع المعلن بينه وبين الأعرابي القديم عبد الله الجياصي، كما وأن أخبار الصلح لما انتهوا إلى تعيين الحدود بين أملاكهما ووضع الحديد الدال عليها طغت على أية أخبار أخرى، وأعدها الناس في المنطقة دليلا على السلام الذي سيسود لعقود، ولما اندلعت الحرب في تلك الليلة أعجزتهم عن الفهم لساعات، ريثما تمكنوا من التقاط الأخبار من هنا ومن هناك.

كمن الرجال في المصارف ووجهوا البنادق في اتجاه باب المندرة ونوافذها، وكلما حاول المحاصرون التسلل خارجين من الباب أو النوافذ يواجهون بوابل من الطلقات يعيدهم إلى داخل المندرة، الشيخ أحمد جاء من عند الترابيع حيث كان يكمن هناك في انتظار قدوم الذين يريدون جسور أرضه بسوء، وبعد قليل من استقراره في أحد الأكمنة المراقبة للحركة عند باب المندرة الجديدة ونوافذها طلع الصبح، تسلل من حيث لا يدري أحد، وفوجئ رجال الكمائن بالمندرة الجديدة تتحقق أمامهم، وشيئا فشيئا رأوا بوضوح بابها المشرع الذي يتجنب من بالداخل الظهور من خلاله، كما تحققوا من نوافذها المغلقة إلا عن شقوق صغيرة تمكن المحاصرين من اختلاس النظر إلى الخارج ليروا ماذا يكون هناك.

أفكار كثيرة ومضطربة عاثت فى أدمغة رجال المنسر، وبخاصة دماغ كبيرهم الذى كان مصابا بشدة، فلقد طالته فى جزء من عنقه رشات طلقة كادت تقتله، وعبثا حاول رجاله أن يضمدوا جراحه لكن الدم كان يندفع خارجا من الجروح الصغيرة الكثيرة التى أحدثتها رشات الحشار المندفعة بقوة انفجار البارود، فهم لم يستطيعوا أن يحكموا ربط الجروح وإلا خنقوه بالأربطة التى انتزعوها من ملابسهم، ولما توقف النزيف فترة طالت عليهم حتى ظنوا أنها بلا نهاية كان الرجل قد فقد نصف قوته، وعلى ضوء النهار القادم بجرأة رأوا لأول مرة الوجه الشاحب وسمعوا الصوت الواهن وهو يحاول أن يظل قائدا.

كل شىء كان ممكنا فى ذلك الصباح البعيد، فالشيخ أحمد بكل ما أوتى من خبرة واثق من أن رجال صدقا سيندفعون لا محالة خارجين من المندرة المحاصرة، حتى ولو كان احتمال نجاتهم ضئيلا، يعرف أنهم لا يملكون إلا سمعتهم فى الجسارة والإقدام والقوة، وإذا حوصروا على ذلك النحو حتى يستسلموا أو تأتى قوات لتلقى القبض عليهم يكونوا قد فقدوا ليس فقط سطوتهم، ولكن وجودهم فى المكان نفسه، ولن يستطيعوا أن يقيموا عيونهم فى وجه أى رجل من رجال المنطقة بعد ذلك، ولن يقبل أحد من الأثرياء الذين يدفعون لهم الإتاوات أن يدفعها مرة ثانية، ولأنه واثق من ذلك أوعز إلى موسى أن يشدد الحصار على المندرة ريثما يصل الشيخ دسوقى وخفراؤه، كل ما يأمله أن يتمكن من إحكام الحصار حتى لا يخرجوا عليهم فيضطر هو ورجاله إلى قتل أحد منهم.

هذا الخاطر كان مطروحا بقوة على ذهن الشيخ أحمد السرسى، فهو

منذ قتل المملوك القديم تمنى ألا يتعرض بقية حياته لتجربة مماثلة، فالذى لا يعرفه أحد حتى أبناؤه أن صوت دخول سن البلطة فى دماغ المملوك القديم لم يكن يفارقه فى نومه أو فترات صمته التى أخذت تطول منذ فترة، ولقد حاول أن يتغلب عليه فلم يجد فى الصحو إلا الكتب يغرق فيها، و لم يكن ينام إلا فى وجود آخرين معه، زوجة أو أحد من الأبناء.

موسى يقدر ما يريد أبوه، لكنه بفورة الشباب فى عروقه يتمنى لو يحاول رجال المنسر الخروج فيلقنهم المزيد من الدروس، وكان هو الآخر صاحب عذر فيما يأمله، شعر بأنه إذا جاء النصر هذه المرة مؤزرا فإنهم سيعيشون سنوات وسنوات من الهدوء والسكينة، يتمكنون فيها من إدخال المزيد من الأرض إلى الإنتاج والزراعة، وهو فى حاجة لأن يتمكن من مغادرة الغيطان والوجود فى العزبة لفترات قد تطول، فلقد بات واضحا لكل ذى عينين أن الحظائر والمخازن والجرن الكبير لم تعد تكفى للقطعان وإنتاج الأرض الذى يزيد عاما بعد عام، وهو يريد أن يبنى المزيد من الحظائر والمخازن، وأن ينشئ المزيد من الأجران، بل إنه لا يستبعد أبدا أن يوافق أبوه على البدء فى إنشاء خمس دور جديدة، واحدة له وأخرى لسيد احمد، واثنتين لمحمد الطوخى وإبراهيم، والخامسة لسليمان، كل هذه الإنشاءات الجديدة كانت فى تقديره تزيد كثيرا عن طاقة شخص بمفرده، حتى ولو كان سيد احمد الذى يؤمن بالمثل الذى تقوله جدته الأم الخبيرة:

– إن ثقل عليك العمل قسمه على الأيام.

أما موسى فقد كان من حزب أمه، حورية التى تريد كل شىء وفى الوقت نفسه، أو كما كانت تقول:

- خبطة بالمرزبة ولا مائة بالشاكوش.

استرد كبير المنسر جزءا من عافيته، وقرروا أن يندفعوا خارجين من باب المندرة أيا كانت النتائج، فالنهار آخذ فى الصعود و لم يعد من أثر لليل إلا فى الأركان المعتمة، ومن شقوق النوافذ كانوا على يقين من أنهم إذا لم يخرجوا فى ظرف دقائق فإن فضيحتهم ستكون معروضة على الملأ، فالناس خرجوا عند حدود قراهم المحيطة يستطلعون الأمر ويفكرون جديا فى الاقتراب من المكان.

قرارهم بالاندفاع خارجين أملاه عليهم موقفهم الحرج، فهم إذا لم يخرجوا سيقعون فى الأسر، ويفقدون حريتهم لسنوات قد تطول إلى ما لانهاية، أو يموتون فى حرب خاسرة بعد أن تصطبغ نهايتهم بالجبن، وهم أدرى الناس بما يجرى، فمن خلال أخبار زملائهم المسجونين فى السجون البعيدة يعرفون قسوة وفظاعة العهد الذى يعيشون، عهد عباس الأول، والذى لم يكن به من جديد إلا القدرة الهائلة على البطش والتنكيل والانتقام.

موهوا بغرض لفت أنظار الكمائن عن خطتهم، فتحوا النوافذ وهم منخفضون عن مستوى قواعدها، ولما انفتحت أطلقت الكمائن نيرانا كثيفة فى اتجاهها، لكن الطلقات طاشت كلها، واصطدمت بالجدران من الداخل وبحواف النوافذ من الخارج، وقدروا أنهم إذا اندفعوا خارجين

من الباب فإنهم ولا شك سيواجهون بنفس كثافة النيران، ولكن بإمكانهم أن يجبروا المهاجمين على التفرق إذا ما تمكنوا من الهروب في اتجاهات متنافرة، وبعد أن يبتعدوا عن مدى الطلقات يتجمعون عند نقطة معينة في الطريق، حيث ينسحبون إلى قريتهم.

لما لم يظهر أحد منهم في النوافذ تنبه الشيخ أحمد إلى ما ينتوون، صرح الشيخ لابنه بأنه يريدهم أن يظلوا هناك، حتى يسلموهم لرجال العمدة، وربما استطاع أحد أن يبلغ الأغا فتأتي قواته لأخذهم، لكن موسى فضل أن يصارح أباه هو الآخر، واندفع يشرح له أسباب تمنيه أن تنتهي المعركة بالقتال وينتصروا فيه بدلا من الحصار حتى يسلموهم، و لم يتمالك الأب فقال:

– هذا من ذاك.

ولما صمت موسى أردف الأب:

– هذا انتصار وذاك انتصار.

واستدرك:

– ولكن الانتصار الذي أتمناه دون إراقة الدم.

وفيما يتحدثان فوجئت الكمائن باندفاع المحاصرين خارجين من باب المندرة، وصرخ موسى آمرا بإطلاق النار فانطلقت البنادق مجتمعة، كلها كانت مركزة على الباب الذي استقبل دفعة من الطلقات أجبرت الرجال الذين كانوا في طريقهم للخروج إلى التراجع، وتعالت أصوات بعضهم معلنة عن وقوع إصابات جديدة، وكانوا قد تمكنوا من إطلاق

بعض الطلقات فى اتجاهات عشوائية مرت إحداها بالقرب من الشيخ أحمد فازداد التصاقا بالأرض، لكن أحدهم تمكن من الخروج وانطلق يعدو فى اتجاه الغرب، و لم يكمل خطوات معدودة حتى خرج إليه الرجال من أحد الأكمنة وتمكنوا منه. الدم كان يغطى وجهه وصدره، وكادت روحه تزهق، وبدلا من أن يقاوم استكان فى أيدى الرجال فجردوه من بندقيته وذخائره، وعثروا على خنجر كبير تحت ملابسه فانتزعوه، وقبل أن تمر دقائق سحبوه إلى الخلف وأرسلوا به مع رجلين إلى العزبة لينضم إلى زملائه السابقين.

صيحات الألم كانت تواصل المجيء من داخل المندرة المحاصرة، واجتذبت أصوات الطلقات المزيد من الناس من القرى المحيطة، وتقدموا من كل جانب حتى أصبحوا والشمس تطل عليهم من الشرق متحلقين حول المكان من بعيد، لقد أصبح كل شيء مفهوما، و لم يعد الشيخ أحمد فى حاجة ليتهم مساعدا السمدانى بتدبير الهجوم الليلى على عزبته ومندرة غيطه، لكن الرجال المحاصرين كانوا يواصلون البحث عن طريق ليخرجوا من محبسهم المهين، و لم يتنبه أحد إلى أنهم تمكنوا من فتح ثغرة فى سقف المندرة بالقرب من أحد الأركان، ومن خلالها تمكنوا من الصعود إلى السطح، وبرغم الجراح التى حدثت بمعظمهم، وبرغم الإحباط الذى أصابهم للقبض على زميلهم الذى خرج من الغرفة و لم يتمكن من النكوص فى الوقت المناسب، بالرغم من كل ذلك كانوا يواصلون التدبير للخروج من المأزق.

ما أن اعتلوا السطح حتى تمكنوا من الاقتراب من حواف المندرة من

كافة الاتجاهات، وبانت لهم من بعيد الأكمنة المحيطة من كل اتجاه، ففى اتجاه الغرب حيث يفتح باب المندرة كمينان فى أحد المصارف، رجالهما يصوبون البنادق فى اتجاه الباب، وعلى الجانب الشرقى حيث تبدو كفر سعد ومن ورائها الحجايزة قريتين بأكثر مما يظنون ثلاثة أكمنة تصوب البنادق إلى النوافذ المقابلة وإلى الباب أيضا ولكن من اتجاه جانبى، وفى الشمال والجنوب أيضا، الرجال المسلحون بالبنادق فى كل مكان، وكانوا بعيدين عن مرمى النيران، إذ ما أن تمكنوا من صد محاولة الاندفاع للخروج من المندرة انسحبوا للخلف حتى لا تطالهم أعيرة المحاصَرين.

أضعف المناطق من حيث كثافة تواجد الرجال كان الاتجاه البحرى، يمكنهم أن يهبطوا من السطح إلى الأرض وينطلقوا فى ذلك الاتجاه، ولكن الخطر يكمن فى أن هذا الاتجاه يقود إلى عزبة غريمهم، ومن يدريهم إن هم سلكوه ما الذى ينتظرهم هناك، ومن بعيد كان الناس فى العزبة ومن بينهم النساء يتابعون ما يجرى من مشارف قريبة من الغيطان، وكانوا هم الذين تنبهوا إلى وجود المحاصرين فوق سطح المندرة، وتعالت الأصوات المحذرة.

لم يستطع الشيخ أن يفهم سر تلك النداءات والصرخات التى تنطلق من عزبته، فالصارخون والمنادون يقفون فى مواقعهم ويشيرون بأيديهم إلى المندرة، ولما مرت دقائق و لم يتنبه أحد فى الكمائن إلى ما يحدث فوق السطح انطلق السيد فى اتجاه الغيطان، وتعالت الأصوات تحذر الصغير من المضى فى اتجاه المندرة، لم تتمكن حورية من اللحاق بابنها وسقطت بعد خطوات تلهث باحثة عن هواء تتنفسه، وهناك فى الكمين الأكبر زحف

موسى بعيدا حتى إذا ما قدر أنه ابتعد بما فيه الكفاية انطلق يقابل أخاه في الطريق، كان على ثقة من أن التحركات الغير متفق عليها قد تفشل ما أوشكوا على تحقيقه من نصر، وعندما أصبح في مواجهة أخيه الذي يواصل العدو التفت إلى المندرة فرآهم هناك، فوق السطح.

المسألة حدثت في ثوان معدودات، فقبل أن ينادى موسى على أخيه آمرا إياه بالعودة قذف الرجال بأنفسهم من فوق المندرة، وإذ رآهم السيد يفعلون تسمر واقفا، وأصبح موسى بمفرده في مواجهة الرجال الذين تمكنوا من النهوض واندفعوا في اتجاهه، والطلقات تسبقهم إليه، واحتاج موسى إلى ثوان ليدرك ما يدور، فهو إذا ظل واقفا سيلحقون به، وقد يقتلونه وهم يفرون، وإذا تراجع لينضم إلى الكمين الوحيد الذى يوجد في تلك الناحية فإن أربعة بنادق لن تكفي لمواجهة الفارين وصدهم، ثم إنهم قد يتمكنون من خطف أخيه الصغير ويفرون به، وفي ذلك تحقيق لخطتهم كاملة، وهم الذين كانوا منذ ثوان يواجهون هزيمة مؤكدة.

انطلق في اتجاه أخيه ووصل إليه قبل أن يصل الفارون، وكانوا قد أطلقوا بنادقهم وطاشت طلقاتهم، و لم يعد بإمكانهم أن يطلقوا من جديد، إذ يتطلب هذا أن يتوقفوا ليعمروا البنادق، وهم يحتاجون لأن يواصلوا الفرار في اتجاه العزبة، وإذ رأوا موسى يزور بأخيه بعيدا عن مسارهم لم يفكروا في اللحاق به، إذ بإمكانهم أن يفعلوا أى شيء بهؤلاء الذين يقفون عند مشارف العزبة ويفكرون في الهرب كلما اقترب منهم المنسر، ولكن لا يعرفون إلى أين.

الشيخ أحمد رأى كل ذلك بأم عينيه، ولم يشل تفكيره كما كان يخشى، انطلق بكل ما أوتى من قوة فى أعقاب الفارين، بينهم وبين الفارين بضع أقصاب فلو تمكن أحد من تعويقهم لبلغوهم فى ثوان، موسى كان قد وصل بأخيه إلى موضع الكمين، ولما كانت بنادقهم معمرة وجاهزة للإطلاق وبنادق الفارين أفرغت طلقاتها أمر بمواجهتهم من وضع الوقوف، وعلى الفور انطلق رجال الكمين وكانوا ثلاثة غير موسى ليعترضوا طريق الفارين، وفطنوا إلى أنهم مصابون إذ كان بعضهم يعرج، وبعضهم ينحنى ممسكا ببطنه أو بجانبه، أو معلقا ذراعه إلى رقبته، فيما كان كبيرهم يضع يده على رقبته ليمنع الدم الذى راح ينزف من جديد.

مريم هى الأخرى فطنت إلى ما يدور، المشهد أمامها كان ككتاب مفتوح، أمرت العمال الذين يقفون عند مشارف العزبة باعتراض طريق الفارين، وكأنما كانوا فى انتظار الأمر بذلك فانطلقوا يواجهونهم حاملين الفئوس والهراوات والمناجل، تلك كانت اللحظة الفاصلة، فلو تمكن الفارون من الإفلات لكان النصر المأمول للشيخ أحمد وأولاده محل نظر، أما إذا تمكنوا منهم وألقوا عليهم القبض فبإمكانهم أن يصلوا إلى طرد مساعد من المكان، كما فعلوا مع الجياصى.

كل من الفريقين يدرك معنى أن ينهزم فى تلك المطاردة العجيبة، التى تدور فى محيط عزبة الشيخ أحمد السرسى تحت أشعة الشمس الوليدة فى أحد الصباحات البعيدة البعيدة.

لما رأى الفارون رجال الكمين يقطعون عليهم الطريق ويصوبون

نحوهم البنادق أسقط فى أيديهم، فلقد اقتربوا إلى حد يمكنهم من إصابتهم جميعا، بل وقتلهم إذا اصابوهم إصابات مباشرة.

هل كان كبيرهم هو الذى توقف أولاً فتبعه الآخرون؟، أم كان أحد غيره؟، إن كان هذا أو ذاك فإن الحكايات الأسرية تقول إنهم توقفوا عن المضى فى فرارهم، منعتهم من المضى قدما بنادق الرجال الأربعة، موسى ورجال الكمين الثلاثة، وقبل أن يفكروا فى بديل وصل العمال القادمين من اتجاه العزبة، بفئوسهم وكواريكهم وهراواتهم، وكان الشيخ أحمد ومجموعة الرجال المطاردين قد وصلوا، وأصبح الرجال التسعة محاصرين من جديد، ولكنهم هذه المرة فى العراء.

أمرهم الشيخ بإلقاء البنادق والخناجر، ولم يمتثلوا فى بادئ الأمر، وكان موسى لا يفتأ ينظر فى عينى كبيرهم ويكاد الشرر يطق من عينيه، ولما أوضح لهم الشيخ أنهم إذا لم يفعلوا سيأمر بإطلاق النار عليهم ألقوا ببنادقهم وخناجرهم، الواحد تلو الآخر، وكان كبيرهم آخر من ألقى بندقيته، وقبل أن يرى الموضع الذى سقطت فيه انهار مغشيا عليه.

سقوطه فت فى عضد الرجال، لم يتقدم أحد منهم لينهضه أو ليرى ما به، كانوا شاخصين بأبصارهم إلى البنادق الكثيرة التى تحيط بهم من كل جانب، كلها معمرة وجاهزة للإطلاق، وإذ تقدم الشيخ أحمد نحوهم آمرا إياهم برفع أيديهم فى الهواء امتثلوا للأمر، وتقدم الرجال والعمال وتمكنوا من الإمساك بهم جميعا، وحملوا كبير المنسر المغشى عليه وانطلقوا بهم فى اتجاه العزبة.

أسمع وأنا على بعد أكثر من قرن ونصف القرن من الزمان زغاريد

النساء في استقبال الرجال وهم يقتادون الأسرى إلى المندرة الكبيرة، لينضموا إلى زملائهم المحبوسين والمقيدين فيها، وأميز من بينها زغرودة طويلة مجلجلة، تركت آثارها عبر الزمان في أفواه وألسنة بنات هذه الأسرة القديمة، فتوارثنها جيلا بعد جيل، إلى أن سمعتها بنفسي في أفراحنا وبنات الأسرة يغنين:

– إحنا السراسوة يا سيدين يا وله

إحنا السراسوة ولا يُعْلَى علينا

وأرى أيضا وأنا على كل هذا البعد الرجال وهم يتسلمون الواحد من رجال صدفا تلو الآخر فيقيدونه بالحبال ويلقون به في المندرة انتظارا لما سيكون من أمره، ونساء الشيخ وهن يضمدن جروح كبير المنسر ويسكبن على وجهه الماء لإفاقته، وأرى جدي الأكبر الشيخ أحمد السرسي وهو يجمع إليه أولاده ونساءه وعماله ويطلب منهم ألا يهينوا المحبوسين في المندرة الكبيرة، ولا أدري أصحيحة تلك الحكايات التي أورت أنه أمر بتقديم الطعام لهم، وأن مريم بالذات كانت هي من لبت النداء برغم تذمر زوجاته.

دقائق وامتلأت العزبة الصغيرة عن آخرها بأعداد هائلة من الناس، جاءوا من كل صوب وحدب، جاءوا معبئين بالغضب وبالرغبة في الهجوم على مضارب مساعد للفتك به، ولو أن جدي الأكبر الشيخ أحمد السرسي انساق وراء فورة الحماس في تلك الجموع، ولو أنه لم يكبح جماح ابنه الأكبر موسى لكانت الدماء التي جرت في ذلك اليوم البعيد والأرواح التي ازهقت فيه قد احتلت ركنا آخر داميا في حياة الأسرة.

الأيام السعيدة

المتاعب كانت قد بدأت تلحق بالشيخ دسوقى عمدة المقاطعة، إذ راح يفقد أرضه باضطراد، القطعة تلو القطعة، والحوض تلو الحوض، وسرعان ما بدأت فى الظهور بوادر التمرد عليه من قبل العائلات التى نزحت من البهتلية ولجأت إليه هربا من ثورة أهل أبى داوود السباخ ضدهم.

استجابة العمدة لما حدث لم تكن كسابقتها أيام موقعة الأعرابى الهارب عبد الله الجياصى، جاء إلى العزبة لتفقد الأحوال والوقوف على ما جرى، ولكن بعد أن ارتفعت الشمس فى كبد السماء، وكان بمفرده، لا يتقدمه خفير ولا يتبعه مشد، وعندما عرف بنجاح الشيخ وأبنائه وعماله ورجاله فى إلقاء القبض على المعتدين طلب أن يتحفظوا عليهم وعلى أسلحتهم فى العزبة ريثما يرسل فى طلب قوة من المركز.

لم تكن الابتسامة الواهنة على شفتى الشيخ أحمد السرسى فى ذلك الضحى البعيد إلا تعبيرا عن الامتعاض من حال البلد برمته، ففى كل مرة تريد فيها السلطة أن تصل إلى أحد تريده تمتد مخالبها لتصل إلى أعمق نقطة فى أى مكان، بل إلى أعماق ضمائر الناس إذا أرادت، أما إذا كان المطلوب

هو أن تصل إلى أماكن فيها أخطار تحدق بالناس فإن قبضتها تتراخى إلى حد يستحيل معه أن يدع الإنسـان مصيره رهنا لها، وها هم للمرة الثانية يتركون المقبوض عليهم بين يديه، باشخاصهم وأسلحتهم وهو لا يدرى هل يأتون اليوم أو فى الغد، وما يعز على الشيخ هو أن أى تذمر سيطال لا محالة مقام العمدة، صديقه وناصره، والمطلع على كل أسراره.

لكن الوقت لم يطل به، فحماسة الانتقام فى عهد عباس مشحوذة وحادة، والشراشة بلغت شأوا لم تبلغه حتى فى أسوأ أيام جده عندما عاث فى الأرض بطشا وتنكيلا وهو يفرض سيطرته على قلب مصر وأطرافها.

فى ضحى اليوم التالى ضرب النفير على الطريق القادم من جهة المقاطعة، ولما خرجوا لاستبيان الأمر رأوا طابورا من الجند يتقدمه ضابط فوق حصانه، ومن حوله جنود يحملون حرابا طويلة فضلا عن البنادق التى يعلقونها فى أكتافهم، ومن موقعها بين من خرجوا لاستطلاع الأمر ابتسمت مريم، فلقد جاءوا فى وقت لا يمكن إغفال دلالته، وقت يحتم على صاحب العزبة أن يحث فيه أمر إطعامهم، وقبل أن يصلوا إلى العزبة أمرت بذبح عجل أبت شام إلا أن يكون من ماشيتها، فداء للأسرة التى نجت من الهجوم الغادر، وامتنانا صامتا لانخراط ابنها فى سلك الرجولة فى واقعة هامة من الوقائع التى ستظل مذكورة على مدى أجيال كثيرة.

لا يستطيعون أن يعدوا عنهم أعدادا غفيرة من الناس، جاءوا من كل مكان ليروا الرجل الذى قهر عصابة الجارية، وليشاهدوا بأعينهم كبير المنسر وأفراده وهم مكبلون ويساقون إلى حيث سيلقى بهم فى غياهب لن يعودوا منها، كانوا يتوافدون من كل صوب، من القرى المحيطة، ومن

القرى البعيدة التى لطالما فعلت بها العصابة الأفاعيل، و لم يكن فى وسع أحد فى العزبة الوليدة أن يطعم كل هؤلاء حتى ولو أراد، فبمرور الوقت كانت الأعداد تتزايد وتتزايد إلى حد أنهم لم يكتفوا باقتحام الجرن الكبير والتمركز فى المشارف، وإنما اعتلوا أسطح الدور والمخازن والحظائر حتى كادت الجدران تنهار بهم، و لم يستطع أحد أن يمنعهم.

وكأنما أدرك الضابط التركى الشاب ما يريده الناس فأمر بإخراج المأسورين من المندرة الكبيرة، وعلى طريقة السامر صنعوا دائرة واسعة فى الجرن الكبير وزجوا بأفراد العصابة وسطها، نزعوا أغطية رؤوسهم وتلافيعهم فظهرت رؤوسهم عارية منكسة، كانوا مقيدين من أرجلهم، ومن أيديهم من خلف ظهورهم، حفاة تلطخ ملابسهم بالدم، ومن كان مصابا انتفخ صدغاه أو تورمت عيناه، لا أحد من المتجمهرين فى المكان من أهل العزبة أو من الآلاف الذين جاءوا من كل مكان يصدق أن هؤلاء التعساء هم من أذاقوا المنطقة الأمَرّين، وأغاروا على أرزاقهم ليلا ونهارا وفرضوا عليهم الأتاوات ونهبوا الدور والحظائر والحقول، فهم أمام الجميع ليسوا إلا مجموعة من التعساء الواقفين فى مذلة، الذين يطرقون إلى الأرض وليست بهم رغبة فى الحياة.

لكن تلك الأجساد المتهالكة سرعان ما نشطت، فلقد أعمل الجند السياط فى ظهورهم، وإذا بهؤلاء التعساء يتقافزون ويصرخون، وهذا أثار الجمهور إلى حد بعيد، وتعالت صيحات الاستحسان والقهقهات والنداءات بفعل المزيد والمزيد، و لم يتمالك الجنود فزادوا من قسوة الضرب، ترجعت فرقعات السياط فى جنبات المكان وانبثقت فى الأجواء

البعيدة انفجارات مكتومة كصدى لما يدور أمام أنظار جمهور متعطش للمزيد، وبالمثل زادت قفزات أفراد العصابة، جردوا كبير المنسر من ملابسه عدا ما يستر عورته، وألهبوه بالسياط فصار يقفز أعلى من الجميع ويصرخ كفروج يتعرض للذبح.

استكانت حركات المأسورين ولم يعودوا يتقافزون برغم فرقعة السياط، وعرف الجنود أن الأجساد أصابها الخدر من قسوة الضرب، وأنهم لم يعودوا يتألمون، فقدت جلودهم الإحساس، وهدأت بالمثل صيحات الاستحسان ونداءات الانتقام، كف الجنود عن الضرب، وانهار أفراد المنسر على الأرض، وشهق الجمهور شهقات كادت تخلع القلوب، ومع سقوط الكبير انطلقت الزغاريد وصرخات الفوز، ولم يدر أحد أن فصلا ثانيا من الحكاية كان بسبيله لأن يبدأ.

جندى يحمل مقصا ضخما دخل الحلبة وراح يستعرض آلته أمام الأعين، يرفع المقص الضخم فى الهواء وهو يمسك بالمقبضين بكلتا يديه، ويباعد بين فردتى المقص ثم يجمعهما بعنف فيصدر عنه صوت مرعب، ومع كل مرة يفعل يصرخ الجميع استحسانا، إذ يشعرون بالإثارة الشديدة ويتأهبون لذلك الفصل العجيب الذى لم يروا مثله فى حيواتهم، وربما لن يشاهدوا مثله ثانية، وكأنما أراد الجندى أن يستمر التشويق إلى أطول وقت فراح يدور حول الرجال المنهارين على الأرض والذين كانوا يتألمون ويطلقون صيحات الاسترحام.

وبعد أن سمع صرخات الرغبة فى الانتقام وصفق له الناس كثيرا أشار

إلى زميلين فانضما إليه، وتوجها من فورهما إلى كبير العصابة، رفعاه عن الأرض وأوقفاه بالكاد أمام صاحب المقص، لا يعرف أحد من الجمهور ما الذى ينتوى الجندى صاحب المقص فعله، ولكن الجندى ما أن وجد كبير العصابة أمامه ورأسه متدل وساقط على صدره حتى فتح المقص عن آخره وتوجه به إلى شعره، وفى ضربة واحدة أطاح ببعض شعر رأسه وبجزء كبير من صيوان أذنه، صرخة هائلة سبقت انفجار الدم من الأذن المقطوعة، صرخة من كبير المنسر ومن الجمهور، من النساء والأطفال، وحتى من الرجال، وأغرق الدم جانب الرجل وسال على جسده العارى الذى كان من أثر الضرب بالسياط مكتسيا بلون أزرق غريب، وبعد أن هدأت الصرخات وتمكن من أخفى وجهه حتى لا يرى من العودة إلى النظر من جديد فتح الجندى المقص، وفى ضربة ثانية هوى على الأذن الأخرى فأطاح بها كلها، ومع انفجار الدم تراخت أعضاء الرجل وانهار فاقدا الوعى، ولم يصدر عن الجمهور سوى صرخات حادة، أطلقتها النساء، وسقط البعض منهن مغشيا عليه، فيما بكى الأطفال من قسوة ما رأوا.

حملوا كبير المنسر إلى إحدى الحظائر وألقوه هناك، لم يكونوا فى حاجة لأن يقيدوه، فالرجل يوشك أن يموت، وجاءوا برجل آخر، وكما فعل الجندى بكبيرهم فعل بالرجل الآخر، وثالث ورابع حتى تكونت مع الوقت بركة من الدم فى وسط الحلبة، رآها كل من كان واقفا هناك، أو مطلا على الساحة من فوق الأسطح، ومن كان من رجال العصابة ذى شارب قصوا شاربه، ومع قص الشارب قطع المقص الرهيب أجزاء كبيرة

من الشفاه فانفجر المزيد من الدم، وغطى النقون والرقاب والصدور العارية، كانت مذبحة حقيقية، و لم يكن بوسع أحد أن يجعل الجنود يكفوا عن الفعل.

وجاء وقت الغذاء، صبوا التراب فوق بركة الدماء التى تجلطت وأوشك سطحها على التشقق، ولما تشرب التراب ما تبقى من الدم أزالوه من المكان، ومدوا الأسمطة، وقبل أن يتوجهوا للطعام صب الأولاد الماء على الجندى صاحب المقص ورفيقيه فاغتسلوا من آثار الدماء التى تناثرت على وجوههم وغطت أيديهم ولوثت ملابسهم العسكرية، و لم يعدم السماط أناسا من الجمهور يتسللون، حتى إذا ما اقتربوا بما فيه الكفاية خطفوا شيئا من الطعام وانطلقوا فارين، وكان نجاح أحدهم دافعا لأن يصفق الناس ويصفروا تشجيعا له، أما إذا ضبط أحدهم فإن الخفراء الذين جاءوا مصاحبين لطابور الجند كانوا يقبضون عليه ويأخذون الطعام من يديه ويعجرونه بعصيهم، وإذا كان قد التهم شيئا يضربونه على ظهره بقبضاتهم ليلفظ ما ابتلعه، و لم يكن ذلك يمنعه هو نفسه أو أحدا غيره من تكرار المحاولة.

الضابط التركى الشاب كان يتناول الطعام صحبة بمجموعة من الأعيان الذين توافدوا على العزبة مع مطلع النهار، يتقدمهم الحاج سويلم الذى اعتذر عن المشاركة فى تناول الطعام لأنه مريض، وكانت مريم قد صنعت له طعاما خاصا، وبكلمات عربية مكسرة شرح لهم الضابط ما ينتظر أفراد المنسر وكبيرهم، وكان قد أرسل أحد رجاله ليعرف إن كان قد مات أم أفاق من غيبوبته، قال إنهم سيرسلونهم فى الغالب إلى قلعة قديمة تقع فى

قلب الصحراء الكبرى، جعلوها فى أواخر عهد محمد على باشا سجنا للخطرين على الأمن العمومى، هناك يلقون عقابا منتظما حتى يرحلوا غير مأسوف عليهم.

وحان وقت الانصراف، ودخل الشيخ أحمد ليحضر البنادق المضبوطة ليسلمها للضابط الشاب لكن موسى اعترضه، طلب فى أدب ألا يسلم الضابط شيئا، وطالما لم يسأل أحد عنها فما جدوى تسليمها، لم يكن الشيخ دسوقى هناك، و لم يكن احد من الموجودين على علم بالبنادق المضبوطة، والأحداث غطت على كل شىء.

لكن ما فعله موسى أزعج الشيخ أحمد، فثلاث عشرة بندقية فى داره بالإضافة إلى مثلها أو يزيد سلاح كثير جدا، لا تتحمله العزبة الصغيرة التى يمكن أن تحرسها بندقية واحدة، أو اثنتين على أقصى تقدير، لكن حجة موسى التى لا تفرغ جعلت الشيخ يعيد حساباته، نعم فهم بالأمس فقط كانوا فى حاجة إلى ضعف عدد البنادق، وضعف عدد الرجال الذين يجيدون استخدامها، وطالما لم ينته الصراع مع مساعد السمدانى فإن وجود السلاح والخشار والبارود يعتبر شيئا مطلوبا، و لم يعدم موسى أن تتدخل مريم وتقول إنها من رأى حفيدها، لكن سيد احمد كان يرى أن الحرب وضعت أوزارها، ولن تقوم للأعرابى الجديد بعد اليوم قائمة.

أسئلة كثيرة كانت فى عصر ذلك اليوم البعيد تدور فى داخل الشيخ أحمد المرسى، فمن يدريه كيف يكون الحال مع وجود كل ذلك السلاح بين أيدى أبنائه، وكيف يكون الوضع فيما لو أبلغ أحد عن وجود تلك الترسانة فى داره، وتساءل: أيشفع له خلافه مع السمدانى وجود كل ذلك

السلاح فى حوزته؟!، و لم يستطع أن يحسم أمره. كان الطابور العسكرى يتهيأ للانصراف، ربطوا أفراد المنسر إلى الخيول، وما أن انتهوا من إحكام ربطهم حتى انطلقوا يشقون الأعداد الغفيرة من الناس ويطلقون النفير إيذانا بالرحيل.

وراحت السكرة، فبعد أن غاب الطابور فى ثنايا الطريق وابتعد صوت النفير انقلب الشيخ أحمد إلى عزبته، لم يعد هناك إلا أصدقاءه من الأعيان والعمد، فالكل رحل مع الطابور الطويل، ودارت المناقشات التى كان يتمناها، سألوه عن حقيقة الأمر فقص عليهم ما كان من أمر رجال المنسر الذين وقعوا فى قبضته، تماما كما قصها على الضابط التركى وعلى العمدة الشيخ دسوقى، ساعتها قال الضابط التركى إنه سيرفع كتابا بذلك للباشا ليرى ما يكون من أمر الأعرابى.

لم يسألوه من أجل أن يعرفوا فقط حقيقة ما حدث، كانوا يريدون أن يضعوا مبكرا حدا للأعرابى الجديد، حتى لا يتكرر وضع الجياصى فى المنطقة، وكانوا من أجل ذلك يستعيدون المرة بعد المرة سماع ما اعترف به أفراد المنسر الثلاثة الذين ألقوا عليهم القبض أولا، والذين أتاحوا للشيخ أحمد وأسرته فرصة النجاة من التدبير الشيطانى، سمعوا الاعترافات مرة من الشيخ أحمد نفسه، ومرة من فم سيد احمد، ومرة ثالثة من فم محمد الطوخى الذى انطلق يحكى، وأعطى وهو يفعل أجواء للحكاية أعجبت السامعين، وإن كانت محل ملاحظة من جدته مريم، وظلت طوال الليل تتحين الفرصة لقرص أذنه، حتى لا يزيد شيئا من خياله على ما حدث أمام عينيه.

انفتح الباب على مصراعيه، فمن قائل إنهم يجب أن يتوحدوا ليهجموا على مضارب السمدانى، هجمة تعيد إلى الأذهان تلك التى قاموا بها على مضارب الجياصى القديم، ومن قائل إنهم يجب أن يقدموا مظلمة أميرية ضد السمدانى ليرى الأغا الأكبر فى شأنه ما يرى، ومن قائل إن ما حدث لرجال النسر يكفى للرد على ما حدث منه وزيادة، وإذا عاد إلى الخطأ فإن لكل حادث حديث، لكن الشيخ أحمد الذى استمع فى صبر إلى كل ما أدلى به أصدقاؤه فضل أن يطلب السمدانى للتحقيق العرفى، واقترح أن يكون التحقيق مقابل خمسين فدانا من أرضه ومثلها من أرض السمدانى، يأخذها من يكون الحق فى جانبه.

هذا الرأى أثار لغطا بين أفراد الأسرة، وانقسموا إلى فريقين، فريق اعترض، ورأى فيه عودة إلى الضعف وهم فى موضع القوة، فى وقت يجب أن يكون فيه القصاص هو الحل، فكما هاجمهم السمدانى لا مفر من مهاجمة مضاربه، وإيقاع الخسائر فى صفوفه حتى يرتدع، أو يرحل عن المكان إلى غير رجعة، وفريق أيده، فالحياة ليست على وتيرة واحدة، والعاقل هو الذى يأخذ من النصر طريقا للسلم، وليس إلى إثارة المزيد من الحروب، على رأس الفريق المعترض وقف موسى، ومعه أخوته محمد الطوخى وإبراهيم والسيد، حتى سليمان الذى أفصح لأول مرة عن رأى مخالف لرأى أخيه الشقيق سيد احمد، أما الفريق الثانى فكان على رأسه مريم وسيد احمد وجميع نساء الشيخ، بمن فيهم حورية، ففى رأيها أن ما قرره الشيخ أحمد فيه حقن للدماء، وسيكون ذلك أول ما سيكون من صالح ابنها الأكبر الذى ينخرط فى الحرب دون هوادة.

انتصر رأى الشيخ، حمل المتواجدون على عاتقهم مهمة العمل على عقد جلسة الصلح هذه، وتبرع أحدهم فكتب عقدى بيع، الأول من الشيخ أحمد السرسى كبائع لصالح مساعد السمدانى كمشتر، والثانى من الأخير للأول، بمساحة خمسين فدانا تقع فى أرض كل منهما، و لم يتردد الشيخ أحمد لحظة واحدة فوقع بإمضائه على العقد الصادر منه ومهره ببصمة خاتمه الذى يحمله على الدوام بين طيات ملابسه.

فُصِل القول، انتصر الرأى الجانح للسلم، وانكفأت رؤوس المعترضين انصياعا لرأى الأب وإزعانا، لكن موسى الذى اهتاجت نفسه بأكثر مما يجب انتحى جانبا فى حجرة جدته الأم الخبيرة وانطلق فى البكاء، تلك كانت أول مرة ينهار فيها ويبكى على هذا النحو، فمثلما كانت تفعل مريم فى القديم عندما تنتحى جانبا وتنفرد بنفسها لأنها ترى أن ابنها هو المقصود بكل الأخطار المحدقة بهم، ها هو يفعل هو الآخر، فهو على يقين من أن السمدانى يكرهه هو على وجه خاص، ويرى فيه الغريم الذى يجب التخلص منه، حتى ولو استعمل الحيلة وداهن الباقين بمن فيهم أباه، الشيخ أحمد نفسه.

كان جالسا إلى جوار جدته الأم الخبيرة، الملقاة على سريرها بين الصحو والنوم، وفى غمرة انفعاله شعر بيد تمتد إليه، لم تكف عن البحث حتى عثرت على كفه فقبضت عليها، وتمكنت من الالتفات إليه، وفى وهن شديد مدت أصابعها المرتعشة وتحسست وجهه، كانت تبحث عن دموعه لتكفكفها، وإذ عرف بما تقوم به ازداد بكاؤه، ففى الدار القديمة، بل فى العزبة كلها، لم يشعر به إلا تلك الجدة التى يظنون جميعهم أنها غائبة عما

بدور، ومن بين كل من يحبهم فى أسرته لم يجد إلا تلك الأصابع المغضنة لتكفكف دمعه.

حمل اليد التى تمسح دموعه ووجهها إلى فمه، وفى خشوع كأنه يصلى قبلها، قبل كل أناملها القديمة وغضونها المتراكمة، وارتعاشاتها التى لا تنتهى، وعن له أن يقترب منها أكثر فتمدد إلى جوارها وضمها إلى صدره فى شىء من الرفق والحنان، وشعر بها تبكى.

كل من بالعزبة كان يعلم لماذا تبكى الأم الخبيرة فى صمت معظم الوقت، وبصوت مسموع فى أوقات متفرقة، وبخاصة عندما تفقد خاصية الإحساس بالزمن وتعود لتعيش بكل كيانها هناك، فى سرس القديمة، وموسى بالأحرى كان يعرف لماذا تبكى الجدة التى حملتهم من هناك عابرة بهم أهوال يصعب تصورها. فى ذلك اليوم البعيد عرف موسى أنه والأم الخبيرة صاحبا قدر واحد، إذ فى غمرة الأفراح التى انطلقت فى العزبة الصغيرة، وبعد العرض المريع الذى مروا به فى ذلك اليوم لم يكن هناك من باكين سواهما، هو لأن لا أحد يدرك أن الأعرابى الذى سيصالحونه سيلاحقه مدى الحياة، وسيقتله عندما يطمئن الجميع إلى استتباب الصلح بينهم، والأم الخبيرة لأنها عاشت كثيرا على أمل العودة إلى هناك، أو حتى تنسم عبير الأرض التى لم تكن تتخيل أن تواصل العيش بدونها، وها هم جميعا لا يدركون ما بها، ولا يعرف أحد من الصاخبين حولها قدر ما تقاسيه من لواعج الشوق.

تمنى لو يستطيع أن يحملها من فوره إلى هناك، ولكنه لا يستطيع، فهو لا يعرف البلد التى جاءوا منها، و لم يذهب إلى أبعد من السنبلاوين

إلا مرة واحدة، عندما جمعته الصدفة بشاب يدعى حسن الكفراوى، التقاه عند حداد فى السنبلاوين، قال إنه من ديرب نجم وإنه حفيد الشيخ حسن الكفراوى، وكانت ديرب نجم مجرد قرية من أعمال مركز السنبلاوين، ساعتها انطلق لسان موسى من عقاله، قال إنه القدر الذى يجمع حفيدى الرجلين معا، الشيخ موسى المرسى والشيخ حسن الكفراوى، فالأخير كان من بين الأساتذة الذين تلمذ عليهم الشيخ موسى المرسى، وكان رفيقا للمشايخ العروسى والأجهورى والفيومى وغيرهم من الأساتذة العظام الذين زرعوا فى جده الأكبر حب الأزهر وأروقته، وها هما الحفيدان اللذان يحملان اسمى الجدين يجمعهما القدر، لم يشأ أن يذهب معه إلى ديرب نجم دون أن يستأذن والده، وكذلك فعل الشاب حسن الكفراوى الذى اعتذر عن المجىء معه إلى العزبة، فهو لم يأخذ الإذن من والده، لكنهما تعاهدا على الصداقة والود، وعلى تبادل الزيارات.

يذكر موسى الزيارة التى قام بها لصديقه فى ديرب نجم، فلقد حمله أبوه بخيرات العزبة وأرسل معه عمالا يرافقونه إلى هناك، لم تكن الفرحة التى أخذت بمجامع قلب الأبوين تخفى على أحد، ناهينا عن أن تخفى على موسى، فأبوه يدارى وجهه ويمسح دموع الفرح من عينيه، قبل أن تسيل على وجهه وتفضحه، وحورية وهى تعجن الفطير، ثم وهى تسويه فى الفرن، وحتى وهى تحمل ملابسه التى أحسنت غسلها وتنظيفها، لا تكف عن ذرف الدمع، وتتمنى لو أطلقت زغرودة طويلة بطول عمرها كله، فها هو ابنها الأكبر وقد صار رجلا، يصادق من الخلان والأصدقاء

صفوة الناس، ويذهب فى أول زيارة له لصديقه، لكن فرحة الشيخ أحمد السرسى كانت من نوع خاص، فلقد أثمر وجوده فى المكان اعتبارا له ولأسرته، ولكن أن يثمر اعتبارا لأكبر أبنائه فإن ذلك له معنى أكبر من أن يتحمله قلبه الرقيق، فالابن الأكبر تجمعه الصدف باحفاد أصدقاء وأساتذة جده الأكبر الذى أسماه على اسمه، و لم يكن ليخفى عليه معنى أن يجتمع الحفيدان اللذان يحملان اسمى جديهما.

كل ذلك كان يدور فى خلد موسى وهو يحتضن جدته الأم الخبيرة، وشيئا فشيئا هدأ الجسد النحيل، ولما انتظمت أنفاسها أدرك أنها نامت، وأخرجه ذلك الإدراك من بحيرة ذكرياته القريبة، سحب ذراعه من تحت رأسها الدافئ وانسل حتى لا يوقظها، جلس برهة عند حافة السرير ثم وقف فى هدوء وجاهد للخروج من الحجرة دون أن يحدث صوتا، وقبل أن يمد يده ليفتح الباب جاءه صوتها:

– كلما تضيق بك الدنيا تعال إلى هنا.

تعجب من الكلمات، وإذ تهيأ للخروج أردفت:

– الدنيا أوسع كثيرا مما نظن يا ولدى.

و لم يتمالك فعاد إليها، واحتضنها مقبلا رأسها ووجهها المليء بالغضون، وتسللت يدها لتربت على ظهره:

– أنتم كل شيء لأبيكم.

وانسل خارجا حتى لا يعاود البكاء.

لم يكن قد تناول طعاما طوال ذلك اليوم، فلقد أشرف على إطعام الجنود

والعمال والضيوف ونسى أن يأكل، وكانت حورية تطارده وهى تحمل فى يديها هبر اللحم وبعض الخبز لتطعمه شيئا منها، لكنه كان مشغولا طوال الوقت، وكان بالأخص مهموما بما يجب عليهم عمله بعد انصراف القوات، الفكرة جاءته وهو يرى الناس يحيطون بهم فى الصباح، فماذا لو أنه انطلق صوب مضارب السمدانى وتبعته تلك الأعداد الغفيرة، فلا يعود إلا وقد ألقوا القبض عليه، ويحبسونه مع رجال المنسر؟!، أو ماذا لو اضطروه إلى الفرار من المكان فلا يعود أبدا؟!، حتى ولو اضطرهم الأمر إلى شراء أراضيه كلها، وفى غمرة الإحساس بالنصر فاجأته خطة أبيه، فكرة الصلح الذى سيقدم فيه كل من الطرفين حصة من أرضه يحصل عليها صاحب الحق، وموسى كان واثقا من أن أباه فور أن يتقرر أنه صاحب الحق سيتنازل عن حقه، مثلما يفعل الأهل والجيران مع بعضهم البعض، وحتى إذا لم يفعل وحصل على أرض السمدانى فإن ذلك سيكون دافعا إلى مزيد من الكراهية والبغض، وستندلع الحرب من جديد، إن عاجلا أو آجلا، ولكنها ستكون بشروط السمدانى هذه المرة، فسيشنها عليهم فى الزمان والمكان اللذين يختارهما، وساعتها لن ينفع الندم.

تحت أشعة الشمس الغاربة بدت العزبة وكأنها تغفو، من التعب الذى أصابها نتيجة لما فعلت طوال اليوم، والأسطح التى كانت وحتى العصر مثقلة بالمئات تجردت من كل شىء إلا من لمعة انعكست من أعواد الحطب والقش التى تزينها، يا لرحابة الغيطان تحت أشعة شمس الغروب!، وبالروعة النسمات الحائرة بين بقايا الخريف وروعة الشتاء!، وباللراحة التى أحس بها الفتى وهو يبتعد عن كل شىء ويوغل فى قلب المكان الذى

بحبه، والذى من أجله عاش سنوات بعيدا عن العزبة!، ورأى مضارب السمدانى فكأنه يراها لأول مرة، كم هو قريب منهم هذا العدو!، وكم هى متداخلة حدوده وحدودهم!، مضاربه وبيوتهم!، غيطانه وغيطانهم!، ولأول مرة يرى فيما سلك أبوه شيئا يستحق التدبر.

عيناه جرت على مسرح الأحداث التى دارت فى جزء من الليل وفى الصبح، من بعيد بدت مندرة الغيط كأنها أطلال بناء قديم، وكأنها لم تكن محلا لصراع كبير توقفت عنده الأنفاس، حيث كان وجود الأسرة كلها على المحك، فإما انتصار يضمن لهم سلاما يطول إلى ما يشاء الله، وإما انكسار يقضى على استقرارهم ويقتلعهم من المكان الذى لم يكادوا يضربون بجذورهم فيه.

الباب كان لما يزل مشرعا على مصراعيه، والنوافذ تتحرك مع الريح التى أخذت تهب مع هبوط الشمس وراء شبراسندى، لم يتح له أن يرى ما الذى فعله رجال المنسر فى سقف المندرة الجديدة، ولا أن يطلع على ما جرى لها من الداخل، وقادته قدماه إليها، عند الباب وقف متهيا الدخول، فلكم أحب هذه المندرة وعاش فيها أجمل أيامه، أيام التوهج والأحلام الكبيرة، فمنها كان يحب أن ينظر إلى العزبة الصغيرة، ثم يولى وجهه شطر الغيطان الممتدة ليرى كم تتقدم يوما بعد يوم، وكيف أنها لا تكف عن الامتداد كأنها بساط من السندس.

الشمس تجاهد لتبقى فى الأفق لكن أياد عفية تشدها لأسفل، خطا إلى داخل المندرة خطوة واحدة، كأنه يسمع صوتا صادرا عنها، ترحيبا أو اعتذارا، أو عتابا، هو لم يكن يدرى، لكنها كانت تتحدث إليه، شأنها

شأن الترابيع التى انضمت إلى الأراضى المنزرعة، والأخرى الجديدة التى تتخلص من سباتها وتتهيأ لفورة النشاط، الدم فى كل مكان، على الأرض وفوق الحُصْرِ الكبيرة المصنوعة من السمار، وفوق البُسُطِ المفروشة على الأرائك التى تدور مع الجدران، وأيضا على الجدران من الداخل، وفى ركن السقف رأى الفتحة التى صعدوا إلى السطح من خلالها.

لا أحد هناك، كل العمال بمن فيهم رجال الحراسة فى العزبة، حيث الأسمطة الممتدة والأفراح التى لا تنقطع، والأعيان الذين لطالما سمعوا عنهم و لم يروهم رأى العين، وحيث توزع عليهم مريم شربات الورد الأحمر، وحيث يهتز الرجال مع الأهازيج التى تنطلق بعفوية هنا وهناك، والمواويل التى تبدأ فرحة مستبشرة ثم لا تنفك تجنح إلى الحزن والأسى، نعم لا أحد هناك إلا هو، الذئب البرى ومندرته التى لطالما احتوت أحلامه ولما تزل تفعل، والنوافذ التى تطل مع الباب الكبير على الجهات الأربع.

من بعيد بدت مضارب السمدانى خالية، لطم جبهته كأنه واقع فى خطأ كبير، نعم، فهو لم يعن ببحث حال مضارب عدوه طوال اليوم، وكيف له أن يكون غريما وهو غافل عن ملاحظة غريمه، خرج من المندرة وخطا فى اتجاه المضارب، شىء لا يقدر على مقاومته دفعه للذهاب عند حدود الأرض، ليتفقدها وليكون قريبا من المضارب بحيث يشم رائحة الأحاسيس التى تكتنفها. لا بأس من أن يراه كل من فيها، ليدركوا أنهم فى النهاية لن يواجهوا أحدا غيره.

فى الدار كان سيد احمد أول من أدرك أن أخاه الأكبر ليس موجودا، ودون أن يسأل أحد دار فى العزبة دورة أو دورتين، تفقده فى الحظائر

والمخازن وبين العمال الذين يصخبون، وتفقده في دار عمته زكية، إذ كان معتادا على زيارتها كلما جاء إلى العزبة، ليتحدث إليها ويواسيها، وكانت في ذلك اليوم تشعر بالحرائق تشتعل فيها، إذ لم تستطع أن تنهض من سريرها وهي توشك على الوضع، واكتفت بتتبع الأصوات التي تأتيها عبر النافذة المشرعة، و لم تعدم أن يأتيها السيد أو سليمان أو إبراهيم ببعض الأخبار عما يجري في الخارج، وأخيرا تفقده في حجرة الأم الخبيرة.

سيد احمد لم يكن أبدا شخصا عاديا، كان متميزا في كل شيء، حتى في غفلته، لكنه شم رائحة أخيه في حجرة جدته، نعم كان هنا، وتساءل ما الذي دفعه إلى البقاء هناك لفترة طويلة؟!، ولما استدار ليغادر الحجرة سمعها تقول:

– أظنه خرج إلى الغيطان.

كانت وهي تعطي ظهرها للدنيا تدرك كل ما يدور من حولها، بل وما يدور بعيدا عنها، فالذي يعرفه سيد احمد أن جدته الأم الخبيرة وإن كانت فقدت جزءا كبيرا من بصرها وقدرا متزايدا من قوتها إلا أنها لما تزل تتمتع برهافة السمع والقدرة على التفكير، كأنها لم تشخ أو تقعد عن السعي إلى هنا وهناك.

رأى أن ينسل من المكان دون أن يراه أحد، فالأفضل أن يواجه أخاه وهما بعيدين عن كل شيء، عن إخوتهما وأميهما وأبيهما، وعن العزبة بكل ما فيها، حتى الجدران، ففي داخله أحاديث طويلة يود لو يتمكن من إخراجها كلها، وحمد للنهار أنه آخذ في الرحيل، فالخجل الذي يمنعه من فتح مغاليق قلبه أمام أخيه الأكبر، والرجفة التي يشعر بها كلما اقترب من

إعلان رأيه فيما يفعل، والحذر الذى يصيب أعضاءه كلها وهو يخشى أن يسيء أخوه فهم ما يقول، كل ذلك كان يمنعه من مناجاته، واليوم هو فى حاجة إلى النجوى أكثر من أى يوم آخر، فى حاجة لأن يعلن له ولأول مرة كم يحبه، والأهم من الحب كم يحترمه ويقدر ما يقوم به من أجل الأسرة كلها، فاليوم، واليوم بالتحديد، أدرك أن العزبة القائمة على رجل واحد كبير هو أبيهما ستكون مقسمة على الأبناء الذين كما يتبعون الأب يتبعون أيضا أمهاتهم، وما لم ينحى أى شيء قد يقف عائقا بينه وبين أخيه فإنهم يكونون فى الحقيقة ذاهبين إلى المجهول.

والمجهول الذى يخافه سيد احمد ليس كأى مجهول، إنه تلك الأشياء الغامضة التى تجعل من الحياة مخاطرة كبيرة، وتجعله يتمنى لو كان عدما ولا يحياها، وما يهون عليه الحياة هو وجود أبيه فيها، ووجود موسى، فى جوارهما يشعر بأن أى فائت يمكن تداركه، وأى صعاب يمكن اجتيازها، وأى عقدة لها حل، وأى عسر يلازمه اليسر.

لم يستطع وهو يوغل فى التقدم صوب الغيطان وفى اتجاه الخندق ومندرة الغيط أن يمنع نفسه من الإعجاب بنفسه، فما فعله من وراء ظهور الجميع قبل أن تطلع شمس ذلك اليوم يجعل انضمامه لرأى أبيه أمرا صائبا إلى حد بعيد، ولم يكن ليفعل ما فعل لولا مشورة مريم، الجدة التى لا يفوتها من أمور أسرتها شيء، حتى ولو كان بسيطا، فعندما أدرك أن رجال المنسر مآلهم التسليم للجند انتوى أن يحتفظ بواحد منهم أو اثنين، حتى إذا جاء وقت الحساب وجاء مساعد منكرا صلته بالمنسر وكبيرهم يكون هذان الرجلان شاهدين على كل شيء.

قبل أن تشرق الشمس اختار واحدا من الرجال الثلاثة الأول الذين قدموا للتظاهر بالهجوم على العزبة وإشعال النار فيها، وواحدا من الرجال الذين كانوا محاصرين فى مندرة الغيط الجديدة، وهو الرجل الذى نجح فى الخروج من الباب وهم يندفعون خارجين منه ثم وقع فى قبضة رجال الكمائن قبل أن يلوذ بالفرار، ونقلوهما سرا إلى فناء دار أمه، وهناك ومعهما عمته حورية وضعوهما فى حجرة الخزين بعد أن كمموهما، ثم قيدوهما بجنازير حديدية وربطوهما إلى السقف ورفعوهما إلى أعلى كأنهما ذبيحتان.

بقى أن يقنع أباه وأصدقاءه بأن يكون التحقيق العرفى على البقاء فى المكان أو مغادرته، فإذا ظهر للمحققين أن أباهما هو المعتدى، أو هو المخطئ، يرحل عن المكان، والعكس بالعكس، ولكن كيف السبيل إلى إقرار أمر كهذا؟!، فأبوه لن يقبل أبدا أن ينقض عهدا قطعه على نفسه، بل إنه قد يقبل التنازل عن حقوقه كلها ولا يفعل، وبإمكانه إذا ما تواصل الليلة مع أخيه الأكبر أن يتداركا هذا الأمر ويجيء تعديل العقوبة على المعتدى بصورة لا تبدو راجعة إليهم.

الظلام آخذ فى الخيم على الغيطان، والأفق الغربى آخذ فى الانطفاء شيئا فشيئا، و لم يعد للأشياء تفصيلاتها ولا ألوانها، فقط أجرامها، كأنها خيالات تتحرك أو تستكين هنا وهناك، والمندرة التى كانت مسرحا للأهوال خالية، لا أحد هناك، وظن لوهلة أن حدسه بوجود موسى يخدعه، فها هو ليس موجودا بالأماكن التى ينتظر وجوده فيها، المندرة وشاطئ الخندق، وضفاف القناة الرئيسة التى تنقل الماء من البوهية، لكنه

أبدا لم يكن هناك، واهتدى إلى الجلوس أمام المندرة في انتظاره، قدر أنه سيأتي، إن عاجلا أو آجلا.

لم يكن قد تناول طعاما طوال اليوم هو الآخر، وهو بعكس موسى، قد يمر اليوم بطوله ولا يجد أحدا يهتم لأكله أو لشربه، فلقد اعتاد أن يكون في خدمة الجميع، و لم يفكر أحد أبدا في أن يهتم لأمره، حتى أمه الغارقة حتى أذنيها في أعمال الدارين، دارها والدار الكبيرة، وفضلا عن كل ذلك تقوم على خدمة جدتها الأم الخبيرة، بل وعمتها مريم، وعندما تجد لديها شيئا من الوقت لم تكن لتبخل به على ضرتها، زكية التي أصابتها قرح الفراش من طول نومها على ظهرها، أملا في مولود يدشن دخولها بالفعل في خضم الأسرة، و لم يكن ذلك يمثل لديه أي شيء، فهذا الفتى العجيب يشعر بالشبع والامتلاء عندما يحصل الآخرون على كفايتهم من الطعام، وليس لديه أسعد من الوقت الذي يقضيه وهو يخدم ضيوفه على الطعام، وهو في ذلك الوقت ليس جائعا للطعام، إذ الجوع الذي يشعر به من نوع آخر، وما لم يتواصل مع أخيه فإن طعام الدنيا كلها لن يشعره بالشبع.

لا يرى لأبعد من قصبة أو قصبتين، لكن رهافة سمعه التقطت وقع خطوات قادمة، إنه موسى، هكذا قال لنفسه، وحتى لا يجزع أخوه من وجوده المفاجئ أصدر صوتا يعلن عن وجوده أمام المندرة، توقفت الخطا قليلا، وبعد ثوان جاءه صوت موسى متسائلا:

– سيد احمد؟.

فأجابه:

- نعم يا أخي، هو أنا.

اقترب حتى وصل إليه، ودون أن يتكلم أو يسأل جلس إلى جواره، وانطلق ينظر من خلال الليل إلى السماء التي أخرجت أنجمها في احتفالية تستعصي على التصديق، كل شيء كان مطروحا هناك عند أقدامهما، الصداقة والأخوة، والرغبة العميقة في البكاء، والشوق لأن يزيح كل منهما حجرا واقفا بينهما، يمنعهما من العناق، والبكاء كل على كتف أخيه، كانا في ذلك الوقت المبكر من الليل يتجاوران كما لم يفعلا من قبل، وأحس كل منهما بقربه من الآخر، حتى إذا ما أمعنا النظر في الظلام لم ير كل منهما إلا وجه أخيه، وصورته التي يود لو ينطلق يحكي لها عن كل شيء.

أنتمي أيها القارئ العزيز إلى عائلة نقلت عبر الأجيال حكاياتها حتى وصلت إلي، لكننا نعجز عندما نتحدث عن عواطفنا، عن حبنا وأشواقنا، والوجد الذي يكوي قلوبنا، فقط نجلس إلى جوار بعضنا البعض، مثلما فعل موسى وسيد احمد في تلك الليلة البعيدة، ونأخذ في البكاء، في الدموع نكتب من عواطفنا قصائد طويلة، ونغني أغنيات رائعة، من يرانا ونحن نفعل يعجب أشد العجب، إذ بعد أن نغتسل بالدموع تصفو أرواحنا وتمحى من صدورنا الآهات المكتومة، وتلتئم منا الجراح التي يعمقها العجز عن البوح.

نعم، كل منهما يبكي، كل منهما يقول للآخر من خلال الدموع التي يخفيها الليل ما لا يستطيع البوح به، كل منهما يتمنى لو يمد يده فتقابل في منتصف الطريق يد أخيه، كل منهما يتمنى لو يطول به الوقت وهما في

ذلك المكان، بعيدا عن الناس والصخب والأفراح الوقتية، ولما طال بهما الوقت و لم يعد أى منهما يعرف موقعه من الليل خرجت كلمات موسى معلنة الصفاء الكامل:

– كيف حالهم هناك؟!.

وابتسم سيد احمد، لم يكن يتصور أنه قادر على سماع الأصوات من جديد، وأجاب:

– يصخبون ويأكلون.

وأردف وهو يجتهد ليميز ملامح أخيه:

– وأنا فى طريقى إليك سمعتهم يغنون.

– وأبوك؟.

– لا أظن أن ضيوفه يرحلون قبل انتصاف الليل.

وابتسم موسى:

– عادتهم!.

وانتظما فى الصمت من جديد، لكنهما هذه المرة كانا يبحثان عن مدخل جديد لحديث كل منهما للآخر، موسى يريد أن يبلغه بما حدث بينه وبين مساعد السمدانى قبل ساعتين أو يزيد، وسيد احمد يود لو يتحدث فيما فعله هو وجدته وأخفياه عن أبيه وعن الجميع.

نعرف ما الذى كان سيد احمد يريد أن ينقله لأخيه من خبر الرجلين اللذين يحتفظ بهما معلقين فى حجرة الحزين فى دار أمه، لكننا لا نعرف بعد ما الذى جرى عندما توجه موسى إلى آخر حدود أرضهم، وبات فى

مواجهة المضارب التى يخيم عليها السكون، فلقد مضى وقت مكنه من استخلاص العبرة مما جرى، وأنار أمامه طرقا كانت حتى لقائه ومساعد غامضة، وجعله يدرك أن مجرد الغضب فى مواجهة ما تخبئه لهم الأيام لا يجدى.

كان قد توجه إلى حدود الأرض، وتظاهر بتفقد مواضع قضبان الحديد التى دقوها فى الأرض وجعلوها علامات دالة على فاصل الحدود بينهم، الرغبة تملؤه فى رؤية وجه السمدانى ومعرفة أثر الهزيمة فيه، فالشىء الذى لم يستطع أن يفهمه هو كيف يجرى ما يجرى وتنقلب الدنيا ويجىء الناس من أقصى الأرض ومساعد قابع هناك فى مضاربه؟!، كأن من وقعوا فى قبضتهم ليسوا رجاله المكلفين بالهجوم عليهم لقتلهم وإضرام النار فى دورهم وحظائرهم ونهب ممتلكاتهم وسرقة ماشيتهم.

ثم إن عدم مجيئه إليهم يجعل ما قاله رجال المنسر صحيحا، وقد يكون إحجامه عن المجىء خشية أن يناله مكروه، وفى عدم المجىء كان عاقلا، هكذا قال موسى لنفسه وهو يقف هناك عند علامة من العلامات مواجهة تماما للخيمة الكبيرة، فالذى لا ينكره أن مساعدا لو جاء كان سيتعرض بالفعل للاعتداء عليه، ليس منه فقط ولكن من الجموع الغاضبة التى ما كانت لتفرط فى فرصة جاءتها لتفرج عن نفسها كروب أحقاب طويلة من الزمان، ذاقوا فيها ويلات العربان وغاراتهم، والكثيرون يحتفظون فى ذاكرتهم بسجلات لكبسات العربان على قراهم وتعداد الضحايا وأسمائهم، من الرجال الذين ماتوا، والبنات والنساء والأطفال الذين أخذوا أمام أعين ذويهم و لم يعودوا أبدا.

وفيما هو يتظاهر بتفقد الموضع لمح بطرف عينيه رؤوسا تخرج من وراء الخيمة الكبيرة ثم تختفي، قال لنفسـه: إنهم يراقبونني، وربما يكون قد داخله شيء من الفخر إذ وهو المقصود بالهجوم الفاشل يقف وحده في مواجهتهم ويتحداهم، بل هم يختبئون منه ولا يقدرون حتى في مضاربهم أن يكونوا على طبيعتهم، وإذ أدركوا أنه رآهم وفطن إلى تلصصهم عليه خرج مساعد من خيمته وخطا نحو الحدود، حتى أمسى واقفا على الجانب الآخر من المصرف.

للمرة الثانية يرى موسى مساعدا السمداني، ولكنها الأولى التي يستطيع فيها أن يتفرس في وجهه ويحدق في عينيه دون أن يمنعه أي اعتبار، وبرغم حداثة سنه لمح تلك الرجفة السريعة التي تشبه الومضة في طرف شاربه، وأدرك أنه خائف، أو مضطرب لوجوده في مواجهته. موسى يدرك أن خصمه ليس فقط شابا وإنما هو وسيم على نحو يصعب تصديقه، فعوده الرعي الفارع ووجهه الأبيض الصافي وعيناه الرماديتان الغائرتان قليلا في محجريهما، كل هذا ينبئ عن شخص يختلف عن كل من عرفهم من قبل، ويقطع بأن المشوار بينهما لم يبلغ مداه بعد، بل هو بالكاد يبدأ.

من تحت أسنانه رحب الأعرابي بموسى، واكتفى موسى بهز رأسه، رجاله كانوا واقفين هناك، على مبعدة أقصاب في الوراء، وفي برود يحسد عليه الأعرابي قال:

– تفضل وخذ القهوة يا أبا أحمد.

فأجاب موسى وهو يواصل التحديق في عينيه:

– لو أن الأمر بيدى لما كنت واقفا الآن فى مكانك يا مساعد.

ولكن الرجل ابتلع الإهانة، وعاد طرف شاربه ينتفض من الغضب، فغريمه لم يكنه كما كناه هو، وما قاله يحمل تهديدا لم يسبق أن واجهه في حياته كلها، وبدلا من أن يرد الإهانة أو يقابل التهديد بمثله عاد إلى القول:

– القهوة جاهزة يا رجل، فوق النار.

و لم يشأ موسى أن يستدرج لقول لا يريده، فلا بد من مواجهة الأعرابى وتهديده حتى ولو ساءت العاقبة، قال:

– ليس قبل أن يعرف القاصى والدانى أن رجال النسر الذين وقعوا فى قبضتى كما يقع الذباب وبكوا مثل النساء هم الذين تختفى من ورائهم.

وانتشى لما قال وأردف:

– ليس قبل أن تلقى عقابك أو تطلب من أبى الرحمة.

الكلمات قوية تكفى لتفتيت الحجر، لكن الرجل وقف فى الجانب الآخر وكأن موسى لم يقل شيئا، فقط تلك الارتعاشة الومضية فى طرف شاربه، ولما انتهى موسى خفض رأسه ورفع عينيه فى وجهه:

– هذا الكلام خطر عليك يافتى، وأنت بعد صغير.

فتوعده موسى، ولكن بصوت حرص على أن يسمعه لرجاله:

– سنرى من منا هو الذى يواجه الخطر يا شيخ العربان.

وأمام تصعير خده أردف موسى:

– من اليوم لا تدع عينيك تغفل، ستجدني في كل مكان تذهب إليه، حتى في منامك، سأكون هناك أقض مضجعك، إلى أن تدرك من نفسك أن حياتك في جوارنا مستحيلة.

وبنفس طريقته سأل مساعد:

– هل أعرف لماذا هذا كله؟!.

وعرض به موسى:

– الرجال الحقيقيون لا يتخفون وراء المنسر.

فقال الرجل في برود:

– وإن كنت لم أفعل.

– هذا بالضبط ما أعرف أنك ستقوله.

– لماذا لا نجتمع إذن وبيننا قضاة، وما يقضون به يكون نافذا.

واستدرج الرجل الفتى للهدوء فتساءل في عفوية:

– فإذا قضوا بأنك من وراء كبسة المنسر؟.

فأجابه على الفور:

– أرحل عن المكان.

وإذ تهيأ موسى للانصراف سأله الرجل:

– وإذا كان العكس؟.

فلم يجبه موسى، تظاهر بأنه يواصل تفقد علامات الحدود، و لم يفطن أنه ابتعد عن مكان اللقاء إلا عندما استدار، فلم يجد مساعدا هناك، لكن

المضارب كانت قد نشطت على غير عادتها، فكأنما كانوا في حاجة لأن يتحدث إليهم أحد، وها هم تحدثوا إلى غريمهم، ووضحت النوايا فيما يقبلون وما لايقبلون.

انتهى الحديث وما نبس سيد احمد ببنت شفة، فما يحكيه أخوه يشذ حتى عن الخيال، فكل ما دار في الليلة الفائتة كان بسبب رغبة مساعد في خطفه هو أو أحد أخوته، فكيف إذن يخاطر بنفسه على هذا النحو ويذهب بقدميه إلى مضارب خصمه، ولو أراد لتمكن منه وذهب به بعيدا دون أن يدرى أحد، ولكن موسى كان ينظر إلى الواقعة من زاوية جد مختلفة، إذ لم يعد لدى الأعرابي شك في أن فعلته لن تمر مرور الكرام، وأن حربا ضروسا في انتظاره، ما لم يبرئ ساحته من الاتهام أو يعتذر عنه ويقبل الشيخ اعتذاره.

وعادا إلى الصمت، هذا بالضبط ما يجعل التقارب بين الأخوين صعب المنال، فموسى لا ينفك يتصرف على نحو يراه سيد احمد متهورا ومفتقرا إلى الحكمة، وفي المقابل فإن سيد احمد هو الآخر يتصرف دائما على نحو يراه موسى مترددا وانهزاميا، وبرغم أن الشيخ أحمد رأى ذات يوم أن تكامل ولديه الكبيرين يكفل لعزبته حياة قوية وحكيمة، جسورة ومتدبرة، إلا أنه لم يعرف أبدا كيف يجعل التكامل المنشود واقعا قائما على قدمين، وشاخصا ككيان واحد، وها هي الأفكار الخاصة التي تعيث في داخل كل من الولدين تجاه الآخر دون أن يتمكنا من إخراجها في صورة كلمات يتم تداولها في حوار دفين وصامت، يمتد ما امتدت بهما الحياة.

كل منهما كان يمضغ أفكاره، ومعها يمعن النظر فى وجه الليل البهيم، فغير بعيد منهما كان خيال غامض يتحرك فى خفة، حتى أنهما هبا واقفين لمواجهة ما قد يكون هناك من خطر، لكنه كان أخوهما السيد، جاء حاملا الطعام، ومن خلف السيد تحققت مريم، بمشيتها الأنثوية المتكسرة، وبحركة يديها التى تشبه رفرفة جناحى طائر كبير.

حق العرب

طال الوقوف عند أحداث لم تستغرق من حياة الأسرة إلا أياما معدودات، بل إن أحداث ليلة واحدة أُعطيَت فصلين كاملين، وربما ألجأ إلى عبور أعوام في سطور، لكن أحداث تلك الأيام القليلة البعيدة كانت الفيصل في علاقة الأسرة بالمكان، وبالأسر الكبيرة في المنطقة، ومن قبل في علاقة أفرادها ببعضهم البعض، وأيضا في استتباب الأمن الذى استمر لسنوات مما مكنها من استكمال إصلاح ما تبقى من أراض لم تكن قد استصلحت بعد.

مهما كانت علاقة الجدين الأكبرين موسى "الثانى" وسيد احمد "الثالث" مذ كانا طفلين وحتى صارا شابين، إلا أنهما فى تلك الأحداث، بل ونتيجة لها سلكا طريقين جد مختلفين، انطلقا من نقطة واحدة، وبدلا من أن يتوجها وجهة واحدة ويخوضا الحياة جنبا إلى جنب وبدا فى يد اتجه كل منهما إلى طريق، ومن اختلاف الطريق تشكلت الأحداث الجلال التى عاشتها الأسرة فى تاريخها الممتد منذ أحداث تلك الليلة البعيدة وحتى اليوم، ولا أغالى إذا قلت إن اختلاف طريق كل منهما بدءا

من تلك الأحداث يماثل فى تأثيره فى تاريخ الأسرة مقتل المملوك القديم، والذى بسببه خرجت الأسرة من بلدها القديم وهامت على وجهها قبل أن تهتدى إلى موضع عزبتنا، عزبة أحمد السرسى، والتى هى اليوم وحدة من وحدات الحكم المحلى بمركز السنبلاوين تحت اسم قرية السرسى.

زيارة مريم الليلية لحفيديها لتأتيهما بالطعام لم تكن لتحسم الخلاف الصامت الذى نشب بينهما، والذى لم يعلن عن نفسه، فسيد احمد يعتبر أن ما قام به موسى مع مساعد سيطيل أمد الصراع معه، وسيضيع على الأسرة فرصة للسلام قد لا تتاح ثانية، وإذا رأى الأعرابى أن ينتقم للإهانة التى لحقته من موسى فإن الحرب ستشتعل، وقد تنتهى بهزيمتهم واقتلاع جذورهم التى جاهدوا ليغرسوها فى المكان، وكأن نار الحرب ليست متأججة بالفعل!!، وكأن دخانها لا ينتشر فى المكان حتى لكأنه يحجب الرؤية!!.

لو أن موسى كان يعلم بأن حكايته مع السمدانى ستوقع فى نفس أخيه ما أوقعته فربما فضل لو يغفل الحديث عنها، حتى إذا ما انعقد مجلس التحقيق والصلح وأعلن الأعرابى خبرها يكون ما ينطبع فى أذهان الآخرين عنها ومن بينهم سيد احمد أنها مجرد تنفيس عن الغضب الذى شعر به فى تلك الليلة، ولكن هل يجدى القول بذلك الآن؟!، فسيد احمد ومنذ تلك الليلة البعيدة شعر بأن أخاه لن يكف أبدا عن جرجرة الأسرة إلى صراعات يقررها ويتحكم فى مساراتها وحده، ويفرض إيقاعها عليهم فرضا، وفى قرارة نفسه قرر ألا يلتزم بعد ذلك إلا بما يقبله هو.

انعقد مجلس الصلح فى دار الشيخ هيكل فى كفر غنام، المحكمون

خليط من العمد ورجال قبائل جاءوا بخيولهم في صباح يوم شتوى صحو، كفر غنام عن بكرة أبيها كانت هناك، متحلقة حول الدار التى تتوسط القرية، فلم يكن الشيخ هيكل عمدة من أولئك العمد الأفظاظ الذين يحترفون إحكام القبضة على رقاب رعاياهم، وكذلك كان الحاج على أبو سيد احمد عمدة برقين، والذى كان حاضرا هو الآخر، بل إنه اختير فى ذلك اليوم كبيرا للقضاة، وذلك لما له من صلات بباقى العمد أعضاء اللجنة وبشيوخ القبائل القادمين من قلب الصحراوات البعيدة.

قبل يوم الجلسة نشط سيد احمد بصورة جعلت موسى يفضل الابتعاد، فربما يقوده الصدام معه إلى الوقوف من آراء أبيه مواقف تغضبه، وبدلا من ملازمة أبيه فى الروحة والمجئ عاد إلى مندرة الغيط، وإلى رجاله وعماله، وبدلا من المجئ إلى الدار بين الحين والحين استقر فى الغيط حتى أنه لم ير وجه أمه لأيام، وكلما أوحشته وأراد رؤيتها أرسل السيد ليحضرها إليه فى المندرة الجديدة، وكانت تقضى معه النهار بعلم الشيخ، الذى رأى فى مسلك ابنه الأكبر شيئا فضل أن يرجئ مناقشته إلى ما بعد.

الترتيبات تجرى على قدم وساق، وتحت غطاء الرغبة فى الصلح والحاجة الماسة إليه ضاعت فرصة تعديل عقوبة المخطئ، من عقد بيع بخمسين فدانا يحصل عليها صاحب الحق إلى خروج المعتدى من المكان، ومن ثم إنهاء حالة الجيرة التى تخلق مع الأيام أسبابا لتأجيج الصراع لا تنتهى، وازداد موسى إصرارا على الابتعاد عن الأمر برمته لما قبل أبوه بدأ الجلوس مع خصمه خارج زمام القرية التى ينتمون إليها، حتى أنه أرسل إلى جدته مريم لتحدث أباه بشأن أن يكون التحقيق فى دار الشيخ

دسوقى عمدة المقاطعة، ولكن أباه أعطى كلمته على أن تكون الجلسة فى كفر غنام، وكانت الرغبة فى الذهاب بعيدا عن دار عمدة المقاطعة هى أحد شروط مساعد السمدانى، وإن كان قد طلبها بنعومة لم يفطن الشيخ أحمد إلى أبعادها، وكان من نتيجة القبول بذلك أن غضب الشيخ دسوقى وأعلن مقاطعته جلسة التحقيق العرفية، فالخروج بالتحقيق من زمام عموديته برغم أن الاعتداء وقع على عزبة تتبعه أحرجه أمام خصومه فى قريته، هؤلاء الذين وإن كانوا لم يجاهروا بعداوتهم له إلا أنهم يتمنون لو يتخلصوا منه ومن سطوته، ومن تذكيره لهم على الدوام بأنه هو الذى عصم دماءهم من أهل أبى داوود السباخ، وحدث أول شرخ فى جدار الحلف الذى انعقد ذات يوم بمناسبة الحرب مع الجياصى.

تداعيات الإعلان عن غياب عمدة المقاطعة عن الجلسة العرفية توالت، فلقد أعلن الشيخ أبو كريمة عمدة كفر سعد هو أيضا مقاطعة الجلسة، فمضارب السمدانى تقع فى زمام قريته، وكذلك جل أراضيه، وإذا كان السمدانى لا يوافق على أن تنعقد الجلسة فى المقاطعة فإن البديل الوحيد هو أن تنعقد فى داره، أو دار الحاج سويلم عمدة الحجايزة، والتى تعد هى وكفر سعد فى عرف أبناء القريتين بلدا واحدا، وازداد الشرخ امتدادا، حتى أن الحاج سويلم الذى قبل على مضض حضور الجلسة لم يكن متحمسا لما يجرى، و لم يأخذ كما اعتاد جانب الشيخ أحمد الذى يعده برغم صغر سنه واحدا من أصدقائه، ويرى أنه بالنسبة إليه فى مقام الصهر بدلا من الصديق الطوخى الراحل.

لا أدرى كيف قبل الشيخ أحمد السرسى المضى فى ذلك وهو فاقد

لأركان حربه ومعظم قواته، خرج من أرضه إلى أرض بعيدة، و لم يوقفه تخلى أصدقائه عنه، لم يأخذ فسحة من الوقت يراجع فيها نفسه، و لم يتوقف ليرى تفاصيل ما هو مقدم عليه. حكايات ابى المحت إلى تأثير ابنه سيد احمد الذى كان يرغب فى السلم بأى طريق، لكن جدتى لأبى رأت أن موسى خذل أخاه سيد احمد، وحسب رأيها خذل أباه نفسه، لما انزوى بعيدا عن الأحداث و لم يسهم فى مجرياتها، واكتفى بالجلوس هناك فى مندرة الغيط الجديدة، والمرور على الأرض المتزرعة والامتناع عن المجيئ إلى العزبة فى ذلك الظرف العصيب.

لم ينسب إلى مريم قالة واحدة فى أحداث ذلك الوقت العصيب، وفى هذا إشارة تكفى للبعد عن اللجاجة فى التعامل مع الموضوع، إذ تورى الحكايات أن موسى لم يقاطع ما يجرى بالكلية، فقط أراد أن يبرئ نفسه من أية صلة بما سيترتب على ذلك من نتائج تذهب بالنصر الذى حققوه على المنسر وتجعله والعدم سواء، وقد تقلب النصر إلى هزيمة، فإذا أفلت مساعد بفعلته وبدا أمام القضاة من العمد والأعيان وشيوخ القبائل بريئا من الاتهامات الموجهة إليه تكون هى الهزيمة بعينها.

لكن موسى شارك فى حراسة موكب أبيه إلى كفر غنام، ولما استدعوه ليسمعوا ما كان من أمر لقائه برجال المنسر فى صدفا وما قالوه له جلس أمامهم فى ثقة وحكى كل ما كان من ذلك الأمر، وتطرق إلى لقائه بمساعد بعد تسليم المنسر للجند وحكى الحوار الذى دار بينهما، وقال إنه كان غاضبا بشدة وكان يتمنى فى ذلك الوقت لو بادره الرجل بالاعتداء فيرد بقتله، والحقيقة أن استباقه الأحداث وحكايته لأمر ذلك اللقاء حرم

مـساعدا من أهم ميزة كان يدخرها ليكسب بها الجولة، فالفتى الذى بنى الإعرابى على رعونته كل آماله يجلس أمام القضاة هادئا رزينا يعرف كيف يتحدث، ومتى، وكيف يخاطب من هم فى مقام أبيه، بل وكيف يستدر عطفهم أو يجعلهم يتبنون وجهة نظره أو يلتمسون له الأعذار، كل ذلك لم يكن يسعد غريمه الجالس هناك فى عمق المندرة الكبيرة التى انعقدت فيها الجلسة، ولا أستبعد أن يكون قرار مساعد بالتخلص من موسى قد حظى بالمزيد من التأكيد فى تلك الليلة.

أعلن الشيخ أحمد عن وجود رجلين من رجال المنسر، وأنه احتفظ بهما ليدليا بأقوالهما فى الجلسة، وحدث لغط شديد، فلقد فوجئ السمدانى بذلك واحتج على ما طلبه غريمه، مبررا احتجاجه بأنه لا يعقل أن يخفى خصمه اثنين من المهاجمين ليحضرهما للشهادة وهو الذى أعلن على الملأ أنه سلم المنسر للجنود، وهما ليسا إلا لصين يفتقدان أى شرف.

اعتراضات السمدانى أحدثت دويا فى المندرة الفخيمة، وفى أوساط المتحلقين حول المكان، وتعالت الأصوات تستكر الاستعانة بمجرمين للشهادة بين رجلين من الأعيان، واعتبر البعض أنها من علامات الساعة، لكن الشيخ على أبو سيد احمد عمدة برقين وكبير القضاة قبل أن يمثل الرجلان أمام المجلس ويدليا بما يعرفانه، وأحدث ذلك لغطا حتى بين صفوف زملائه المحكمين، وراح أحدهم يضرب كفا بكف متعجبا للأمر، ومعلنا بتعبيرات وجهه وحركة يديه أن سماعهما لن يقدم أو يؤخر.

غياب العمدتين الشيخ دسوقى والشيخ أبى كريمة وانزواء الحاج سويلم فى أحد الأركان صب مباشرة فى صالح السمدانى، فحكاية الشيخ أحمد

أمام المجلس تقتضى أن يصادق عليها الشيخ دسوقى عمدة المقاطعة، وخاصة ذلك الجزء المتعلق بإخباره إياه بالاتفاق الذى جرى بين ابنه موسى وبين كبير المنسر فى صدقا، وأيضا فيما يتعلق بإخباره بخشيته أن يكون للمنسر ترتيب آخر، كأن يضربوا ضربتهم فى مكان آخر بعد أن يكونوا قد ثبتوا نظره على الموضع الذى أبلغوه به، وكانوا فى أمس الحاجة إلى وجود عمدة كفر سعد، لا لأنه يعرف شيئا عن أحداث تلك الليلة الرهيبة، ولكن لأنه هو المطلع على كل ما فعل مساعد فور أن استقر به المقام فى المكان، من قيامه بنقل الحدود وترويع جيرانه والضغط عليهم ليبيعوه أراضيهم بأبخس الأثمان، أو لتركها والفرار حفاظا على حيواتهم، وطبعا فى غير وجود هذين الرجلين صارت حكاية الشيخ أحمد المرسى بجرد حديث قاله الرجل بصوت رخيم ولهجة متأسية، لكنه - وعلى غرار ما يقول المحامون فى أيامنا هذه - حديث مرسل غير مؤيد بدليل.

وحدث ما كان متوقعا، طلب مساعد من القضاة أن يتسلموا بأنفسهم رجلى المنسر اللذين كانا محبوسين فى دار واحد من أقارب الشيخ هيكل اسمه الشيخ شندى، وطلب أن يمنحوهما الأمان قبل سؤالهما.

مساعد كان طوال الوقت ومنذ أعلن الشيخ عن مفاجآته يراوده الأمل فى أن ينكر الرجلان صلته بأحداث تلك الليلة إذا ما شعرا بالأمان، وربما ينكرا صلتهما هما أيضا بها.

وهذا هو ما حدث بالضبط، فلقد طلب العمدة الحاج على أبو سيد احمد أن يأتوا بالرجلين، و لم تمض دقائق قليلة حتى أُحضرا أمام المجلس، الناس المتحلقون حول المكان كانوا يشيرون إليهما وهما يسيران بطريقة

تبعث على الضحك، أحدهما يحجل بقدم واحدة، ويسقط على الأرض فيستخدم إحدى يديه محل قدمه المصابة، فجروحه من جراء الكى بالنار تفاقمت بشكل كبير، جعلته لا يطيق مجرد تحريكها، أما الآخر فإن رشات الحشار التى أصابته وهو يندفع خارجا من مندرة الغيط جعلت من وجهه كرة كبيرة من الورم، اختفت معها معالمه، و لم يكن قادرا على أن يرى بعينيه، ولخشيته أن يسقط وهم يقودونه إلى المجلس كان يمد يديه متلمسا طريقه، ومتحاشيا أيضا أن يلمسه أحد، فلقد أحدث البارود جروحا وثقوبا فى صدره وبطنه التهبت وامتلأت بالصديد وجعلته لا يقدر على مجرد الالتفات.

مثلا بتلك الصورة أمام المجلس، و لم يجد العمدة الحاج على أبو سيد احمد بدا من أن يطمئنهما بأنهما بعد أن يدليا بما يعرفانه سيطلق سراحهما، ورجاله هو وليس أحد غيره سيرافقونهما إلى المكان الذى يحددانه، وتحقق ما أراد السمدانى، فما أن شعر الرجلان بالأمان حتى انخرطا فى البكاء، وانفطرت قلوب الجموع التى تحيط بالمكان وبعض من القضاة لبكائهما.

شعر الشيخ أحمد السرسى لأول مرة بأنه إذ خرج من زمام صديقيه الغائبين الدسوقى وأبى كريمة وقع فى خطأ فادح، وأدرك سيد احمد مغبة الخلف الذى وقع بينه وبين أخيه، وظهرت بوادر الهزيمة على الوجوه، وتمنى موسى لو أنه مات قبل أن يرى أباه على هذا الوضع، فلقد خيم على الرجل صمت، وشاخ فى دقائق معدودات، وعندما شرع أولهما فى الحديث انسحب الدم كله من وجهه.

موسى وقف معترضا، فليس من المعقول أن يسمعوا أحدهما فى

وجود الآخر، وتساءل: ماذا لو كذب أحدهما؟!، أو لفق حكاية بعيدة عن الحقيقة؟!، أوَ ليس في سماع الآخر لها دافعا لأن يتبناها وينسج على منوالها؟!، ولقي اعتراضه القبول، أمر الحاج على بخروج أحدهما من المندرة، وذهب الرجال به بعيدا، وإذ هموا باصطحاب صاحب القدم المعطوبة نهرهما العمدة، وقال وهو يضحك:

– أليس في وجوهكم نظر؟!.

وضحك المتواجدون لما قال:

– أم تراكم تريدونه أن يحجل بقدم واحدة رائحا وغاديا؟.

وضج من كان متحفظا بالضحك، وأخذوا الرجل ذا الوجه المتورم، والذى راح يبالغ في تعثره وفى التماس الطريق بيديه استدرارا للشفقة.

خيم الصمت لحظات، ولما اطمأنوا إلى ابتعاد زميله بدأوا في سؤاله، لكن موسى عاد ليطلب من العمدة أن يتعهد بإطلاق سراح الرجلين حتى لو اعترفا بارتكاب جرائم توجب تسليمهما لرجال الحكم، وانخرط الحضور في نقاش دار معظمه حول استهجان تدخل الفتى في أعمال القضاة المحكمين، و لم يقطع اللغط إلا حديث الشيخ هيكل، فبرغم أنه لم يقبل أن يكون قاضيا مكتفيا بانعقاد الجلسة في داره إلا أنه رأى شيئا من الوجاهة في اقتراح موسى.

بحاسته الفريدة قدر أنه ما لم يخرج الطرفان من الجلسة راضيين فإن السلام لن يحل، ولن يصلوا إلى الصلح الذى يريدون، وأدرك أن رجلى المنسر قد يلجآ للكذب حتى لا يعرضا نفسيهما في حضور كل

هؤلاء الحكام لخطر تسليمهما للجند، ومن ثم ينكرا صلتهما بالحادثة وتداعياتها، و لم يشأ أن ينبه إلى هذا فى حضور الشاهد فطلب إخراجه حتى يقول ما لديه.

اقتنع القضاة باعتراض الفتى، ومن طرف خفى حذر الشيخ هيكل موسى من العودة إلى الاعتراض، وأطرق الفتى إلى الأرض مسلما، وجيء بالرجل من جديد، هذه المرة كان محمولا على أكتاف الخفراء، وضعوه فى قلب المندرة وانصرفوا.

حديث العمدة على أبو سيد احمد هذه المرة كان باهتا، بان منه أنه يلقيه رغما عنه، أو استجابة لرغبة صاحب الدار، فهو لم يغفر أبدا أن يرشده فتى أصغر من أبنائه إلى ما يجب أن يفعله كقاض، وبدلا من أن يعنفه الشيخ هيكل ويحفظ على المجلس كرامته تدخل لينتصف له، وها هو يقول للرجل الجالس كالقرد فى وسط المندرة إنه أيا كان الذى سيقوله فى شأن الأحداث المطلوب شهادته عنها فإنهم سيطلقونه هو ورفيقه، وإنه بنفسه هو وكل العمد الحاضرين يضمنون له هذا الأمر.

بدا أن الرجل لم يفهم مغزى الكلام الأخير، وتمنى لو يسأل ما الذى يعنيه، لكنه هز رأسه وآثر السلامة، وتولى الشيخ عزام شرح الأمر للرجل من جديد:

– حتى لو اعترفت باشتراكك فى الهجوم على عزبة الشيخ أحمد، أو فى ارتكاب أية جرائم فإننا سنطلق سراحك، وسنبلغك مأمنك.

نظرة الامتنان التى أرسلها الشيخ أحمد فى اتجاه الشيخ عزام حملت

كل ما كان يود لو سمح المقام أن يقوله، شاكرا له تدخله، لم يكن وهو يفعل قد أدرك بعد أن شاهده انطلق يحكى ما حدث، وكيف وقع فى أيدى سجانيه، حكى عن تلك الليلة التى جاءهم فيها موسى مع رجل السمارة، وعن زعم كبيرهم بأن مساعدا هو من كلفهم بالهجوم على العزبة وقتل أكبر أبناء الشيخ، وأشار إلى موسى، وحكى عن المبالغ التى أخذوها منه للتظاهر بالقيام بالهجوم حتى يخدعوا مساعدا، وحكى عن كل شىء حتى عن الخطة التى وضعوها للتظاهر بمسايرة موسى فى تدبيره، والهجوم فى مكان آخر ليتمكنوا من أحد أبناء الشيخ، ويطلبوا عنه فدية، ورأى الشيخ على أن يسأله:

– هل طلب منكم الشيخ مساعد القيام بذلك؟.

ونظر الرجل إلى الركن الذى يجلس فيه مساعد وأجاب:

– لا.

وكانت الإجابة مسموعة للكافة، شهق المتحلقون حول المكان، ومن موقعه فى ركن المندرة البعيد رنا مساعد إلى الرجل فى امتنان، وعادت إلى وجهه الدماء، وتحرك لأول مرة منذ جلس هناك فى الركن بحثا عن راحة لقدميه، وقبل أن يهدأ اللغط سأل أحد القضاة:

– وهل يكون الاتفاق معكم جميعا أم مع كبيركم؟.

وأجاب الرجل غير منتبه إلى المنزلق الذى يأخذه القاضى إليه:

– مع كبيرنا.

وعاد القاضى يسأل:

– وهل يتم الاتفاق فى حضوركم؟.

فتململ الرجل قليلا لكنه أجاب:

– أحيانا.

ويواصل القاضى السؤال:

– تقول إن كبيركم أخبر موسى أن الشيخ مساعدا هو الذى طلب منكم ذلك وأنه دفع سبعمائة قطعة لأجل هذا.

وكان الرجل يجيب موافقا:

– نعم نعم.

ويستمر القاضى:

– فهل أخبركم كبيركم بعد انصراف الفتى أنه كذب عليه بشأن صلة الشيخ مساعد بما تنتوون فعله؟.

وصمت الرجل و لم يجب، طريقة السائل فى التحقيق مذهلة، والناس فى المندرة وخارجها ينصتون، حتى أن الإبرة لو سقطت على الأرض لسمع الجميع رنتها، و لم يحرك رجل المنسر ساكنا، كان ينظر إلى السائل فى بلاهة ولا يدرى كيف يجيب، وإذ طال بهم الانتظار زعق فيه العمدة على أبو سيد احمد:

– أجب يا رجل.

وامتقع وجه الرجل واطرق إلى الأرض، وقبل أن يصرخ فيه العمدة من جديد سمعوه يقول:

– لا، لم يخبرنا بذلك.

واغرت الإجابة قاضيا آخر فسأل:

– هل اعتاد الشيخ مساعد أن يحضر إليكم في دار تلك المرأة التي تدعى...

واستنجد بالآخرين ليذكرونه باسمها فاجابوه في نفس واحد:

– الجارية... الجارية.

وأجاب الرجل غير مدرك لما يدور:

– لم يأت إلينا في تلك الدار أبدا.

وقبل أن يواصل القاضي سؤاله استدرك:

– فلقد اعتاد أن يرسل في طلب كبيرنا.

فسأله القاضي:

– وهل أرسل في طلبه قبل أحداث تلك الليلة.

واطرق الرجل إلى الأرض من جديد، أدرك مغزى السؤال هذه المرة وأجاب:

– لا أتذكر.

وقبل ان يامروا بتنحيته أحد الجوانب ريثما يسمعوا رفيقه عن للشيخ عزام أن يسأله:

– أين كان زميلك الآخر، معك في الهجوم على العزبة أم مع الكبير في الهجوم على الغيط؟.

وأجاب الرجل دون تفكير:

– مع الكبير فى الهجوم على الغيط.

وعاد ليسأل:

– هل حكى لك كيف وقع فى أيدى رجال الشيخ أحمد؟.

فأجاب أيضا بلا تفكير:

– قال إنهم اتفقوا على الاندفاع خارجين من المندرة المحاصرة، ولما فعلوا واجهتهم الكمائن بالبارود فارتدوا، أما هو فتمكن من الخروج لكنه وقع فى أيديهم.

نظر القضاة إلى بعضهم البعض، وتساءلوا بمجرد النظر إن كان أحد منهم يريد أن يستوضح الشاهد فى شيء، وأعلنوا بمجرد النظر أيضا ألا حاجة لهم به.

رجل المنسر الآخر كان أعقد كثيرا من زميله، أنكر كل شيء، من أول مرورهم فى أرض الشيخ أحمد لتفقد معالمها وسككها، مرورا بذهاب موسى إليهم فى دار الجارية، وانتهاء بالحرب التى دارت فى تلك الليلة، لم يعلل سبب وجوده بين أيدى سجانيه، و لم يقدم سببا لوجوده فى عزبة الشيخ أحمد أو فى أرضه، ولما لم يجدوا فائدة من الاستمرار فى سؤاله ركله أحدهم آمرا إياه بالانصراف من المكان.

مساعد أحضر شهودا على إهانة موسى لرجاله وله، ولكن إقرار موسى المسبق بالواقعتين قلل كثيرا من أهميتهما، وكان القضاة يتعجلون الانتهاء من مسألة يعرفون مسبقا كل تفاصيلها.

وانتهى التحقيق، دخل القضاة إلى حجرة بالدار الفخيمة وتركوا الطرفين وبعض ضيوف الشرف والمتطفلين يضربون الأخماس فى الأسداس، ويستبقون ما سيقضى به القضاة، جرت خارج الدار مراهنات حول الحكم الذى سيصدر، بأحقاق السعوط وأقماع السكر وصناديق التبغ والمعسل، وقليل منها كان بقطع من النقود، وكان أبلغ تعليق ذلك الذى قاله الحاج سويلم وهو ينظر إلى صديقه الشيخ أحمد فى إشفاق، وحرص على أن يكون الصوت مسموعا من الطرفين، أحمد السرسى ومساعد السمدانى:

- صلح الذئب مع الغنم.

وبرغم التعريض بالسمدانى والذى حمله التعليق، وبرغم الإهانة التى ألحقها التعليق نفسه بالشيخ أحمد، إلا أن أحدا من الطرفين أو من ذويهما لم يشأ أن يرد أو يستوضح، أو حتى يوافق أو يعترض، ولو بإيماءة من الرأس أو بإشارة من اليد، أو حتى بمط الشفتين.

فى اللحظة التى غادر فيها القضاة إلى حجرة داخلية بالدار ليتداولوا انفك الصمت داخل المندرة وخارجها، لكن مساعدا ظل جالسا هناك فى الركن وفى عينيه نظرة غريبة، فسرها البعض بأنها نظرة تدبر وتحسب، وفسرها موسى على طريقته، "فالسمدانى"، هكذا قال لأبيه وهم فى طريق العودة " كان يفكر فى وسيلة للتخلص منى دون أن يعرض نفسه ثانية لمثل ما يحدث"، "وأظن"، هكذا أضاف، "أنه عثر على وسيلته".

الأمور التى قام بها موسى فى تلك الليلة البعيدة تمت بغير تنسيق بينه

وبين أبيه، ولا بينه وبين سـيد احمد، بل إنه وبرغم حاجته إلى قوة إبراهيم خشى أن يشركه في التدبير فيبوح لسيد احمد بالسر، لكنه وجد ضالته في شقيقه الأصغر السيد، فبرغم صغر سنه إلا أنه يتمتع بقوة كبيرة وبغدائية تطغى في الكثير من الأحيان على تفكيره، وما هو بصدده لا يحتاج لأكثر من ذلك.

لم ينتظر قرار القضاة وانسـل خارجا من المندرة، وتبعه شقيقه السيد، وهناك عند مدخل القرية وجد رجاله ينتظرون في قلق، فلقد مر بهم الخفراء الواحد تلو الآخر، وسألوهم عمن هم ولماذا يقفون هناك، وأجابوهم بتبعيتهم للشيخ مساعد السـمداني، تماما كما طلب منهم موسى أن يقولوا، بل إن نفرا من أصحاب الدور القريبة استضافوهم، فلما شكروا لهم ذلك وأحجموا عن الذهاب معهم جاءوهم بالطعام والقهوة، وظلوا معهم إلى أن بدأت وقائع الجلسة فانصرفوا ليتابعوها وتركوهم حيث هم.

أما السيد فإنه ما أن غادر المندرة حتى كمن غير بعيد من مبنى ملحق بدار العمدة يتواجد فيه رجلا المنسر، وكانا في انتظار أن يسمح لهما بالانصراف، ويبدو أن العمدة على أبو سيد احمد وبعد أن استقر بهم المقام في الحجرة الداخلية سأل القضاة إن كانوا يريدون الشاهدين فأجابوه بلا، إذ لم تمر دقائق حتى نودى على أحد الخفراء وأسر له العمدة بالمطلوب، وفي غفلة من المتواجدين جهزت ركوبتان إحداهما حملت كلافا في زرائب الشيخ هيكل والأخرى خصصت لحمل الشاهدين، وما أن وضعوا الرجل ذا القدم المصابة على ظهر الدابة وتهيأوا لوضع الآخر

ردفه حتى انطلق السيد قاطعا المسافة من دار العمدة وحتى مكان تواجد موسى والرجال فى لمح البصر.

الليل فى أوله، لكن السكون الذى حط على أطراف كفر غنام أعطى الانطباع بأنه قد أوغل بما فيه الكفاية، لم يشأ موسى أن يتم الأمر فى زمام القرية التى استضافتهم فابتعد إلى منتصف الطريق الهابط فى اتجاه أبى الشقوق، وهناك أخفى ثلاث مطايا كانت مع الرجال فى عريشة قريبة وكمنوا على جانبى الطريق، استوضح السيد المرة تلو المرة عما إذا كان الرجل المصاحب لرجلى المنسر مسلحا، وفى كل مرة أكد السيد أنه مجرد كلاف ولا يحمل فى يده إلا عصا صغيرة لقود المطيتين.

سمعوا وقع أقدام المطيتين القادمتين من بعيد، الكلاف المصاحب للرجلين كان يسألهما عن حقيقة الأحداث التى جرت والتى جىء بهما ليشهدا عليها، أحدهما راح يقص عليه ما جرى، لكن الكلمات كانت مضغومة فلم يستطع موسى أن يتبين منها الشىء الكثير، واقترب الركب وصار بإمكان الكامنين أن يسمعوا أصوات نخر الحمارتين من أنفيهما، واقتربوا أكثر حتى صاروا بموازاة الكمين، أراد موسى أن يتأكد من أن الرجل المصاحب للشاهدين ليس مسلحا، فلم تفد فى تهدئة مخاوفه تأكيدات السيد المتكررة، وإذ تأكد له أن الرجل غير مسلح وكانوا قد سبقوا بخطوات قليلة انطلق هو والرجال يهاجمونهم من الخلف.

استغرق الأمر أقل من دقيقة، فما أن اقتربوا منهم حتى أوقف الكلاف مطيته سائلا المهاجمين عمن هم وماذا يريدون، وإذ أمروه بالترجل أعاد

عليهم السؤال، ثم سألهم إن كانوا يعرفون من هو ولمن يتبع، ولكن أحد الرجال وبإشارة من موسى وضع السكين فى رقبته وهدده بقطع زوره إذا لم يمتثل، وأخذ الكلاف يُعَرّف بمخدومه، ولما لم يغير ما قاله شيئا نزل من فوق مطيته.

لم يكن فى مقدور أى من الرجلين الفرار، فالأول لا يقدر على مجرد الوقوف والثانى أعمى تقريبا، ورجل الشيخ هيكل الذى ترجل ممتثلا لأمر المهاجمين سأل مستنكرا إن كانوا سيأخذون المطيتين لكن أحدا من المهاجمين لم يجبه، كانوا مشغولين بإنزال الرجلين ورفعهما فوق ظهر مطية من مطاياهم، وكان الرجلان يصرخان بأصوات عالية جعلت موسى يضربهما على رأسيهما ليظلا صامتين، وبعد أن وجه لفكى كل منهما عدة لكمات أمكن إسكاتهما، و لم يكن أحد غيرهم على الطريق الممتد من كفر غنام إلى أبى الشقوق.

الآن بات بوسع الرجال أن ينطلقوا برجلى النسر من جديد، وحتى لا يعود الرجلان إلى الصياح أو يفكرا فى المقاومة مرر الرجال النصال عند زور كل منهما فأحسا ببرودة المعدن وحدة الشفرة فأطبقا فميهما، أما الكلاف الذى كان واقفا يمسك بعقود المطيتين فقد تركوه من خلفهم ومضوا، و لم يستوعب ما جرى فظل واقفا فى مكانه لحظات، وبعد قليل أدرك أن المهاجمين كانوا يريدون الرجلين و لم يرده أحد منهم بسوء، لا هو ولا المطيتين، فهز رأسه متعجبا وقفل عائدا.

استغرق الأمر قرابة نصف الساعة، أو يزيد قليلا، بعدها قفل موسى عائدا إلى مندرة الشيخ هيكل تاركا السيد يذهب مع الرجال، لم يلحظ

أحد غياب موسى، فقط سأله أبوه عن سبب ابتعاده عنه، خشى أن يشتبك خارج المندرة مع مساعد أو أحد من رجاله، لكنه طمأنه وتعلل بالخروج قليلا ليشم الهواء، وكان الجو في المندرة من كثرة الزحام خانقا، أما مساعد والذى كان قد ترك المندرة هو الآخر فإنه لم يعد إلا بعد أكثر من ساعة، قضاها بين رجاله فى الخارج حتى لا يضطره الموقف إلى النظر فى وجه الشيخ أحمد وولديه، موسى وسيد احمد.

الوحيد الذى لحظ غياب موسى وخرج ليتفقده كان سيد احمد، سأل عنه إبراهيم و لم يجد لديه جوابا، وتفقده فى الدوار والشوارع المحيطة الغاصة بالناس، وإذ تفقد السيد أيضا و لم يجده أيقن أن أخاه غادر إلى مكان ما، وانتوى أن يستدرج السيد ليعرف منه كل شىء، فلقد بات على علم بأن موسى لم يعد يتحدث إلى إبراهيم عن شىء لا يريد له أن يعرفه، فيما يزداد اعتماده على السيد يوما بعد يوم.

وأخيرا خرج القضاة، وكانوا قد غابوا ساعات فى الداخل، حتى أوشك الليل على الانتهاء، كل ما يخشاه موسى أن يكون الكلاف قد أخبر الشيخ هيكل بواقعة اختطاف الشاهدين، ولكن يبدو أن الرجل وقد عاد بالمطيتين سالمتين لم ير فائدة من إبلاغ أحد بما جرى، إذ لما دخل القضاة يتقدمهم العمدة الحاج على أبو سيد احمد إلى المندرة وطلبوا من الحضور قراءة الفاتحة اطمأن موسى إلى أن الحكاية فى طى الكتمان، وكان فى اطمئنانه يشذ عن الموجودين الذين اصفرت وجوههم من التوتر والترقب انتظارا للحكم.

طلب العمدة أن يقترب الخصمان من المجلس، وقبل أن يتقدما طلب

قراءة الفاتحة من جديد، الناس هذه المرة كانوا يقرأون فى تعجل باعتبار أنها هى التى تعطل سماعهم الحكم، بل إن بعضهم وبعد أن مضى فى قراءتها انشغل بترقب الحكم فنسى إتمامها، و لم يدرك ذلك إلا والرجل يقول مختتما إياها بصوت جهورى:

– ولا الضالين، آمين.

وإذ اقترب الخصمان من المجلس شرع العمدة فى التقديم للحكم، بدأ بحديث نسبه إلى النبى إذ سأله أحدهم أن يعلمه فى أقضية الناس فقال ردوهم إلى الصلح، ولما نطق باسم النبى انطلق الجميع، فى داخل المندرة وفى خارجها، بل وفى الشوارع المحيطة:

– عليه الصلاة والسلام.

وأخذ فى شرح الإجراءات التى اتبعها المجلس العرفى منذ طلب الطرفان الاحتكام إليهم ذاكرا أنهم سمعوا الطرفين وسألوا الشاهدين اللذين أتى بهما الشيخ أحمد، ولما كان المجلس قد تيقن من أن رجال المنسر الذين أنهوا للشيخ أحمد نبأ ضلوع الشيخ مساعد فى تدبير الهجوم على العزبة والغيط كذبوا فيما أبلغوا به فإن المجلس يبرئ ساحة الشيخ مساعد من تهمة الاشتراك فى الأحداث التى وقعت، ويعتبر أنه ليس مسئولا عنها.

الجملة الأخيرة لم يسمعها تقريبا إلا الطرفان الماثلان أمام المجلس، إذ ما أن أعلن العمدة تبرئة ساحة السمدانى حتى ضج الحضور بالصخب، فى القاعة قبل أن ينهر القضاة الصاخبين، وفى الخارج حيث لا يقدر أحد

على السيطرة، ومن موقعه فى المندرة بحث سيد احمد عن موسى، كان يتمنى لو استطاع أن يلج إلى نفسه ويرى ما فيها، فها هو ينتصر للمرة الألف، وكما قال لجدته مريم وهو يستخدمها لإثناء أبيه عن القبول بعقد المجلس العرفى بعيدا عن دار الشيخ دسوقى، إن أباه يتنازل طواعية عن أقوى أسلحته، وها هى نبوءته تتحقق، وها هو الوحيد بين الحاضرين من جانبهم الذى يبتسم فى أسى ولا تشوب وجهه المشرب بالسمرة أمارة من أمارات الغضب أو الهزيمة.

لكن موسى لم يكن أبدا كما ظن سيد احمد، فهو لم يكن شامتا فيهما، ولكنه كان يفكر فى كيفية الاستفادة من وجود الرجلين فى حوزته، والتعبير الذى رآه سيد احمد حياديا ليس إلا نتيجة الاطمئنان لوجود أسباب بين يديه لما تزل صالحة للاستخدام، تلك الأسباب التى لن يفرط فيها أبدا إلا بعد أن يعود للنصر الذى حققوه فى ليلة الأحداث معناه الكامل، و لم يكن الشيخ أحمد بعيدا عما يفكر فيه ولداه، فهو وإن استراح إلى هدوء سيد احمد وجنوحه للسلم لم يكن ليغفل قيمة أن يكون ابنه الأكبر معتدا بنفسه وذا همة تطال السماء، وهو وقد أخطا عليه أن يعترف بأن تفكير موسى كان الأصوب، وأن الفتى الذى عاقر الليل والغيطان كان طوال الوقت يفكر بطريقة رائعة، ربما لا تعجب أخاه، بل وقد لا تعجبه هو أيضا، ولكنها فى كل الأحوال رائعة، فهى لا تترك شيئا للمصادفة، ولا تغفل الحقائق بدواعى الرغبة فى السلم من أى طريق.

أريج العنبر

في طريق العودة كانت رائحة مساعد لما تزل في أنف الشيخ أحمد السرسي، فلقد تصافحا وشد كل منهما على يد الآخر، الشيخ أحمد متمنيا أن تكون الأحداث التي جرت هي خاتمة المطاف بينهما، ومساعد حاسما أمره ومقدرا أن العقبة الكؤود تتمثل في الابن الأكبر للشيخ، والذي إذا تخلص منه صفا له الجو واستطاع أن يعالج الأمر كما يهوى، بل وربما يكون في تلك اللحظات التي تسلم فيها يد الشيخ ليصافحه كطلب اللجنة رأى أراضي الشيخ وهي تنضم إلى أراضيه، في حياة تخلو من ابنه الأكبر.

الشيخ أحمد السرسي يعتلي ظهر مهرته وهو لا يدري إن كان لما يزل قادرا على الحديث إلى أحد، فالصمت الذي خيم عليه والذي جعله يكف حتى عن إجراء تلك الحوارات الداخلية التي لا تنتهي خيم بالمثل على جميع مرافقيه، وبخاصة ولديه موسى وسيد احمد، اللذين يمتطيان دابتين كانتا طوال الوقت تجتهدان لمسايرة خطو المهرة، موسى عن يمين أبيه وسيد احمد عن شماله، متخلفين قليلا عنه كأنهم يشكلون سهما ينطلق

في صمت، ويرتد إليهم، بل إن الأصوات التي تصدر عن كل راكب تستحث دابته على المضي بهمة لم تصدر عن أي منهم طوال الطريق، أما الرجال الذين يرافقونهم ففضلوا أن يصمتوا حتى يأذن الله ويفتح واحد من ثلاثتهم فمه.

الليل ساج، والسماء التي كانت صحوا قبل قليل تلبدت، والنجوم التي تبين القليل من معالم الطريق اختفت، لم يعد هناك إلا حس المطايا وهي تجد في المسير، كأن شيئا لم يتغير، وإذ أسلموا القياد لمطاياهم ابتسم موسى في وجه الليل، ولكن بمرارة، فما أشبههم الآن بحالهم وهم يتركون عربتهم ويقبلون بمصالحة دون إسهام من أصدقائهم، فلقد تركوا قيادهم للظروف لتمضي بهم إلى ما تشاء، وها هم يعودون وهم يجرون ذيول الخيبة، وصرخ في داخله متسائلا إن كانوا قد نالوا الصلح الذي يتغون.

حال سيد احمد كانت الأسوأ، هو لم يفعل إلا ما أراد أبوه، وعندما اعترضت جدته على طلب نقل التحقيق إلى كفر غنام وبان أن لموسى يدا في رأيها وجد نفسه منساقا وراء رغبة أبيه، لا لشيء إلا لينعموا بالسلام، وألا ينساقوا وراء رغبة موسى في إشعال نار الحرب إلى ما لا نهاية، والآن وهو في طريق العودة إلى العزبة بعد أن خيب القضاة آمالهم ها هم يعودون ولا تلوح في الأفق أية بادرة على أن الحال أفضل مما كانت عليه، إن ما يفاقم حنقه هو انتصار موسى، صحيح أن هذا لا يغير من الأمر شيئا لكنه قدر أن الأمور ستتغير كما لم تتغير من قبل، وهو لا يدري كيف سيكون ذلك، وصمت أخيه ينبئ بالكثير.

وقع حوافر الدواب انتظم فوق الطريق المتجه إلى أبى الشقوق، وصفت السماء لبرهة فرأوا أشباح الخيام المهجورة فى ساحة السوق الشهير، سوق الأحد، وسياجات سوق البهائم وهى تتلوى هنا وهناك، وعما قريب سينعطفون يسارا ليمروا بالحجايزة وقبر جدتهم الكبرى، وكفر سعد، وتكون غزالة عن يسارهم قبل أن يصلوا إلى العزبة، وتساءل الشيخ أحمد، كيف يفوته أن يصحب صديقه الحاج سويلم فى رحلة العودة، فالواجب يحتم ذلك، لشد ما هو آسف وهو يرى زلاته تزداد، وها هو ينصرف دون حتى أن يبحث عن كيفية عودته وهما سيسلكان نفس الطريق، ولو أن أحدا من أبنائه الذين يرافقونه يستطيع أن يرى فى الظلام لرأى وجها لم يألفه طول حياته، محتقنا ومبقعا بالسواد والأسف.

فى الحجايزة نبحت عليهم الكلاب، وكأنما هى حفل ليلى للنباح إذ خرجت كلاب كفر سعد هى الأخرى، وجاوبتهم من بعيد كلاب غزالة، انشغلوا بالنباح وخرجوا من بوتقة أفكارهم المهزومة، موسى الغاضب حتى أذنيه والمبتسم فى مرارة، وسيد احمد الحانق الذى يتمنى لو أنه لا يضطر إلى النظر إلى أخيه بعد اليوم، أما الشيخ أحمد فإنه كان فى تلك اللحظة يفكر وهو يقرأ الفاتحة على روح جدته الكبرى فى إعادة تقويم كل شيء، فلقد اعترف لنفسه بأنه لم يعد يفكر على نحو ما كان يفعل من قبل، واستمرأ لعبة الابتعاد عن أمه، تلك التى طالما أعانته على إحكام التدبير وإتقان العمل، وعلى غير توقع رأى موسى أن يخبر والده بما قرأه فى عينى مساعد السمدانى عندما كان يختلس النظر إليه فى الجلسة العرفية، وبعد أن فرغ من حديثه ساد الصمت من جديد.

لم يتنبهوا إلى غياب موسى إلا عندما وصلوا إلى العزبة، موسى ليس وحده الغائب، إبراهيم أيضا، ومحمد الطوخي، وبدون أن يسأل أدرك الشيخ أن أولاده الثلاثة عرجوا على الطريق الجانبي الموصل إلى مندرة الغيط، والذي يتماس في جزء كبير منه مع مضارب السمداني، لكنه لم يجزع، فهو على يقين من أن كل شيء سيكون هادئا الليلة، ولن يتحول موسى إلى أن يكون أخرقا ويصدر عنه شيء يختتم الليلة بعاقبة السوء.

كل النساء، حتى الأم الخبيرة كن في الانتظار، مريم عند المشارف تستند إلى كتف سليمان، وحورية وسرية وشام وزكية والأم الخبيرة عند ركن المندرة الكبيرة، الأم الخبيرة وقد أجلسوها على حشية من القش ووضعوا خلف ظهرها وسائد كثيرة وغطوها بحمل صوفي، وزكية إلى جوارها، فلم يستطع أحد أن يمنعها من الخروج في انتظار زوجها، حتى الأطفال الصغار الذين لم يجيدوا الكلام بعد كانوا معهم، فاطمة وأم الرزق ابنتا سرية، وإسماعيل ابن شام الذي كان جالسا هناك إلى جانب جدته الأم الخبيرة، وعندما سمعوا دبيب حوافر المطايا وقفوا، كأنهم لا يصدقون أن الرجال سيعودون.

مريم أول من رأت ركب العائدين، وميزتهم جميعا، وأدركت أن موسى ليس معهم، أعطاها هذا فكرة مسبقة عن مجريات الحكم، فالانتصار كما عرفها زوجها الراحل ذات يوم له آباء متعددون، أما الهزيمة فهي على الدوام يتيمة، بلا أب، ولكنهم عادوا وهذا ما يثلج صدرها، ويجعل طيور قلبها القلق تهجع في أمان، فأي شيء يفوت يمكن استدراكه، وأي خسارة تحدث يمكن تعويضها، وأي عقبات تعترض الطريق يمكن الالتفاف من

حولها ومواصلة المسير، وغياب موسى وأخوته إبراهيم ومحمد الطوخى والسيد يعنى أن ما حدث فى التحقيق ستعقبه قلاقل، وهذه القلاقل تحتاج من الجميع إلى تضافر الجهود وصدق العزائم حتى لا توقع فى الصفوف الوهن.

الرجال مضوا بالركائب، يزيلون من فوق ظهورها السروج والبرادع، ويربطونها إلى مذاودها، ويقدمون لها العلف التى افتقدته طوال اليوم، أما الشيخ أحمد فقد مضى من فوره يتبعه سيد احمد إلى الدار القديمة، وحملت النساء الأم الخبيرة وعدن بها إلى حجرتها، و لم تمض إلا دقيقة حتى امتلأت بهم الدار، لم يكونوا قد تناولوا أى شيء من الطعام طوال اليوم، وعلى الفور جهزت النساء الطعام، واستدعى الشيخ رجاله فجاءوا على عجل وأقبلوا على الطعام يردون جوع يوم بأكمله، و لم يكن الشيخ العازف عن الطعام ليظهر ما به أمام الرجال الجائعين فتظاهر بتناول الطعام، وكذلك فعل سيد احمد، فلم تكن به هو أيضا حاجة إلى الطعام، وإنما إلى الانفراد بنفسه ليحسن التفكير فيما هو قادم.

وكان الشيخ قد اطمأن على دخول الأم الخبيرة حتى استقرت فوق سريرها، وجلس إليها بعض الوقت، لا يدرى كيف وجدت يدها طريقها إلى يده، ولا كيف استطاعت تلك اليد المغضنة أن تعبر عن كل ما كانت تود صاحبتها أن تقوله، و لم تشأ مريم أن تقتحم عليهما خلوتهما، وتركتهما يتناجيان فى هدوء وسكينة، فهى لم تكن ترغب فى الحديث إلى ابنها حول ما جرى، وإنما حول ما سيجرى فى العزبة التى لما يزل صاحبها وكبيرها حيا وقائدا، فما البال لو أنه ليس هنا، أيكون لها وحدتها وتماسكها، أم

تراها سيجرى تقسيمها إلى قطع صغيرة بين الأبناء المختلفين، والمنقسمين إلى معسكرين لا تدرى متى أو كيف نشآ بمعزل عن بعضهما البعض.

لم تشأ وقد علمت أن موسى وأخوته توجهوا إلى مندرة الغيط أن تذهب إليهم بالطعام كما فعلت منذ ليال، فهى لم تعد تقبل أن يظل موسى على حساسيته المفرطة، وهو القائد الفعلى للأسرة التى اتسعت عداواتها باتساع مصالحها، ولقد حان الوقت الذى يجب عليه فيه أن يتحمل أكثر مما ينبغى، وإذا كان سيد احمد قد اقترب منها ومن أبيه كثيرا فقد حان الوقت ليعرف أن هذا التقارب ليس موجها إليه، ولا يمكن أن يكون موجها إليه، فقط عليه أن يكون قائدا حقيقيا، كما فعل جداه سيد احمد «الثانى» وأحمد «الأول»، وكما يفعل أبوه، فالقائد الحقيقى لا يكون حساسا إلى هذه الدرجة، بل هو الذى يتحمل ويطرح من وراء ظهره، ويعرف متى يغضب ومتى يرضى.

حورية وشام لم تتركا فرصة إلا وعبرتا عن ضيقهما من وجود أبنائهما فى الغيطان دون طعام، لكن مريم قالت بلهجة حاسمة:

– سيرسلون فى طلبه متى جاعوا.

وسمعها الشيخ فاطمأن إلى أنها لما تزل هناك، ترعى أسرته وتلاحظ ما يدور، وتناول لأول مرة لقمة سائغة، وكذلك فعل سيد احمد لما رأى أبوه مقبلا على الطعام بشهية مفتوحة بعد طول صدود، وكان الرجال قد أوشكوا على الانتهاء فاضطرت سرية إلى إحضار المزيد، وعندما دخلت مريم لتطعم بيديها الأم الخبيرة عرف الشيخ أن جدته لم تتناول الطعام طوال اليوم، وتمنى لو يستطيع أن يعاتب أزواجه، وقدر أن إخفاقاته فى

هذا اليوم كثرت إلى حد يفرض عليه أن يعيد التفكير فى كل شىء، حتى فيما يتمنى، فربما يكون فيما يفعل إخفاق آخر ينضم إلى سوابقه.

لأول مرة منذ تزوج يبيت ليلته بعيدا عن أية واحدة من نسائه، أرسل حورية لتبيت مع زكية التى شعرت وهى فى الانتظار ببشائر آلام الولادة، تمنى لو ينعزل عنهم ويعيد التفكير فى كل شىء، لماذا صور له عقله أن حرمان جدته الأم الخبيرة من حلمها هو سبب إخفاقه الأكبر فى هذا اليوم؟!، وماذا لو حملها إلى هناك لتنعم بأريج عنبرها؟!، سرس القديمة الغالية، ما أشبه وضعه بما كانت عليه الأسرة فى سرس القديمة، عندما داهمهم الوقت وتجهمت فى وجوههم الأيام وتجرأ المملوك القديم على أقدارهم، والآن هو فى هذا المكان البعيد يواجه وضعا مشابها، فالأعرابى الماكر يعرف كيف تدار اللعبة، ويمارسها باقتدار، مثلما فعل ذات يوم المهتار القديم، فإذا كان المطلوب من مساعد هو إقرار عمد المنطقة وأعيانها بأنه بعيد كل البعد عن الكيد لخصمه والإضرار به فهو سيد اللعبة، حتى ولو فشل تدبيره، وها هو اليوم يكسب جولة فى معركة قد تطول إلى ما لانهاية، وطالما استشعر طعم الفوز فلن يعود عن غيه.

نام الشيخ بملابسه التى كان يرتديها طوال اليوم، وحدق فى ألواح السقف الخشبية وعروقه الضخمة، وتذكر ذلك اليوم الذى جلب فيه تلك الأخشاب من السنبلاوين، وكيف وجهته أمه إلى ما غمض عليه، والآن ها هو يواجه وضعا مشابها، وعليه أن يعترف أنهم فى المنطقة ما زالوا غرباء، وحتى يصيروا من أهلها عليهم أن يتعاملوا مع جارهم بنفس المنطق، فإذا أراد أن يسلبهم أرضهم وحقوقهم وأن يمارس ضدهم العنف ويغرى بهم

قطاع الطرق فلا مفر من أن يعاملوه بنفس الطريقة، وفى هذا فإن رأى موسى هو الأصوب، نعم هو يعرف هذا الآن، ويعرف أنه ما لم يصرخ جاره طلبا للسلام فإنهم لن يصلوا إليه أبدا.

السمدانى يعرف بأن الزمن هو زمن تراخى القبضة فى مواجهة الأعراب، تأمينا لقوافل الانجليز فى طريقها للسويس، ولتحقيق مآرب السياسة البريطانية، لذا فهو لا يخشى تدخل الحكومة إلى جانب خصمه، وكما فعل عندما نجح فى تحييد عمد المنطقة وأعيانها، فإنه يستطيع ليس فقط تحييد رجال الحكم وإنما استمالتهم إلى جانبه.

وهذا أيضا ما كان يعرفه الشيخ أحمد السرسى، فمساعد لم يكن فى ذلك الوقت ممن يستهان بهم فى المنطقة، فبين ليلة وضحاها صار مالكا لأكثر من خمسمائة فدان، و لم تقنع نفسه بذلك فراح ينظر بعينين طامعتين إلى كل الأراضى من حوله، وأراضى السرسى دون غيرها من الأراضى المجاورة مملوكة للشيخ ملكية تامة، بموجب الأمر العالى الصادر فى العام 1842، الأعرابى يتمنى لو ينتزع الأرض من الشيخ، بالقوة أو بالترهيب، أو بجعل حياته فى المنطقة لا تطاق، وهو الأمر الذى يدركه موسى، ويدركه أيضا سيد احمد، ومن قبلهما أبوهما، لكنهم اختلفوا حول وسيلة دفع العدوان.

نعم، أراضى مساعد السمدانى كانت ممنوحة له طبقا لنظام العهدة، وهو نظام بديل لنظام الالتزام اضطر محمد على باشا للجوء إليه لما ترتب على إلغاء الالتزام واحتكار الأرض والتجارة أن هجر الفلاحون الأراضى وتركوها خربة تعوى فيها الرياح، وصاحب العهدة يقوم بدفع المطلوب

عن الأرض للدولة لمدة ثلاث سنوات ويتولى هو جمع المال من الفلاحين، ولكن بالقدر التى تحدده الدولة، وفى المقابل يتسلم مساحات من الأراضى ليزرعها دون أن يدفع عنها ضرائب، وبرغم أن عباس أصدر فى العام 1850 أمرا عاليا بتصفية نظام العهدة إلا أنه لم يتمكن من تصفيتها فى أماكن كثيرة، وظلت العهدة معمولا بها.

الغيرة كانت الدافع لأن يبادر السمدانى بمعاداة جاره الذى يمتلك أراضيه بخلاف السائد فى المنطقة، وكان هذا الوضع استثنائيا تماما، ويثير غيرة أعيان المنطقة ممن يحوزون الكثير من الأراضى، ولكن بنظام الانتفاع بمسمياته المختلفة، ولو أنهم كانوا يعرفون بما سيصير إليه أمر الأبعدية التى حصل عليها الشيخ أحمد السرسى لنافسوه عليها، ولكان من المؤكد أن يفشل فى الحصول عليها، ولكن لأن الأرض كانت مجرد مستنقعات وبرك وأراضى سبخ لا تزرع فإنهم زهدوا فيها وظنوا بالرجل الظنون وهو يدفع نقودا كثيرة فى سبيل الحصول عليها، ولما اجتهد وأنفق أموالا طائلة لإصلاحها وصدر الأمر بجعلها مملوكة له بكافة حقوق الملكية وأخصها البيع ونقل الملكية صاروا ينظرون إليه على أنه رجل محظوظ، وأن حظه فى قدميه، يرافقه أينما يذهب.

كل ذلك دار فى عقل الشيخ أحمد السرسى وهو يحلق فى سقف حجرته، ومريم التى تعرف أن ابنها لن يتذوق طعم النوم فى ليلته جلست فى سريرها هى الأخرى وحرمت على نفسها النوم، فإذا كان ابنها لم ينم فالأولى بها هى الأخرى ألا تنام، فما يواجهه ابنها يعود فى الكثير منه إلى تقاعسها، وهى وإن كانت قد رأت فى تدخلها فى حياته وقراراته بعد

ان اصبح أبا وكبر أبناؤه ما يخجله أمام الناس إلا أنها وبدلا من أن تجعل تدخلها لا يظهر لأحد تركته دون معاونة، تركته دون مرشد أو دليل، كالمركب الذى تتقاذفه الأمواج ولا يعرف لمستقره شاطئا، فانشطر بين ولديه الكبيرين اللذين صارا يكنان لبعضهما البعض شعورا غريبا لم تره عائلة السرسى الجديدة، شعورا يجعل موسى يفضل أن يتصرف بمفرده دون أن يدخل في جدل مع سيد احمد، ودون أن يقيم وزنا لرأيه، مدعيا أنه يعرفه قبل أن يفصح عنه، وهو نفس الشعور أو ربما يكون قريبا منه، الذى يجعل سيد احمد يفكر في البحث عن طريق آخر غير ذلك الذى يسلكه أخاه، لا لشيء إلا ليقنع نفسه بأنه لا يقل عنه قدرة على سبر أغوار الناس وفهم دواخلهم، بل ولا يقل عنه قدرة في مواجهة الصعاب إذا ما اقتضى الأمر، ولكن بطريقته.

لكم تمنت أن يأخذ سيد احمد نفسه ويلحق بأخوته في الغيطان، ليشاركهم ما يفعلونه هناك، ولقد حاولت أن تلفت نظره إلى هذا، لكنها فضلت لو تصرف هو من نفسه، لكن سيد احمد كان غائبا تماما عن هذا التصور، فما كان يشغله منذ فرغ من تناول طعامه هو أن يخرج إلى الخلاء قليلا ليبحث بينه وبين نفسه دون تدخل أو مشاركة من احد أمورا كثيرة، أهمها علاقته بأخيه الأكبر الذى يبدو أنه اتخذ قرارا بشأنها وهو في الطريق عائد من كفر غنام، وعندما كان في الدار الثانية سمع طرقات إبراهيم على نافذة جدته، وردت الجدة المستيقظة فأبلغها بأنه يريد طعاما لهم في مندرة الغيط، وعدد لها العدد على أنهم عشرة، معنى هذا أن موسى ليس

مع أخوته فقط فى المندرة الجديدة، فبالإضافة إلى أخوته إبراهيم والسيد ومحمد الطوخى معه ستة آخرون، فمن هم هؤلاء؟!.

ود لو خرج وسأل إبراهيم، ولكنه فضل ألا يفعل، فقد يؤدى ذلك إذا عرف موسى إلى تفاقم الحالة القائمة بينهما، وربما فجر خلافا لن يغفره له أبوه، وربما قلب عليه جدتيه وعماته، بل وأمه إذا احتدم الأمر، لذا فإنه أسلم أذنه للعزبة ليلتقط ما يدور فى الخارج. السماء الملبدة بالغيوم بدأت فى إنزال قطرات كبيرة من المطر، ولكن على فترات متقطعة، فلا هى تواصل وتلقى بمائها كله، ولا هى تحتفظ به وتصحو، فقط ترسل نقاطا كبيرة متفرقة، لا يربطها رابط.

المطر الذى تضرب نقاطه شيش النافذة جعله يشعر بالمزيد من الحنق، فها هى السماء تحرمه الانفراد بنفسه والتمعن فيما جرى، منذ جاس الغرباء فى أرضهم وحتى عادوا من كفر غنام بخفى حنين، لا يعرف ما الذى يمنعه من التفكير فى الأمر وهو فى الحجرة، فمن حوله ينام سليمان والبنتين الصغيرتين فاطمة وأم الرزق، وتنتظم أنفاس النائمين فتجعله يعجز عن مواصلة التفكير، وإذ كفت النافذة عن أن تصدر أصوات تلقيها قطرات المطر نزل من على السرير ودس قدميه فى النعلين المتأهبين للمغادرة وانسل خارجا. أمه لم تكن فى الدار، لا يعرف كيف خرجت دون أن يشعر بها ولا أين ذهبت، وشعر براحة لخلو الدار من أحد يكبره، حتى ولو كانت أمه، وبعد أن وقف قليلا استجمع أمره وفتح الباب وانسل إلى الخارج.

صوت حركة صادر من اتجاه دار عمته زكية جعله يمعن النظر هناك،

خيل إليه أنه يسمع أصواتا وأحاديث متعجلة، تساءل: أتراها تضع مولودها الآن؟، واتجه إلى هناك، قدماه غاصتا فى طين لزج، فلقد تشبعت الأرض بالمطر وتغطت بطبقة من الطين تعوق المسير، اقترب أكثر وأكثر، وكلما اقترب ميز أصوات أمه وعمته حورية وجدته مريم، وميز على نحو خاص صوت عمته شام وهى تهون على ضرتها آلامها، كما تفعل النساء المصاحبات للوالدة فى كل الأزمان، أراد أن يعرفهم بأنه هناك عند النافذة فنادى جدته، ولما لم تسمعه أعاد النداء مرات ومرات، وكأنما شعرن بأن أحدا ينادى فخفتت الأصوات، وردت جدته فسألها إن كانت تريد شيئا، وقالت الجدة المتحمسة إن الأمور تسير فى طريقها المعتاد، لكنها قد تحتاج إليه، وعليه أن يظل قريبا.

كأنما كان نداؤه حافزا لأن تطلق زكية المزيد من الصرخات، وراحت تطلق من جديد صرخات متتابعات كأنها تخرجها من أمعائها، وتعالى الصراخ إلى درجة جلبت رجال الحراسة وعمال الحظائر، وإن هى إلا دقائق حتى كان جميع الرجال فى العزبة يقفون معه بالقرب من النافذة، ويتعجبون من خاتمة أحداث اليوم العجيب، وتوجه سيد احمد إلى المندرة الكبيرة وفتح بابها، وهناك على يمين الداخل بعد عدة خطوات رفع الفتيل المشتعل فأضاء المكان، وعلى ضوء اللمبة اتجه الرجال إلى الداخل وجلسوا هناك، فوق الكنبات التى أشرفت أمه من قبل على ترتيبها.

الأصوات تواصل المجيئ من هناك، لكنها صارت أكثر عمقا، ونداءات عماته وأمه وجدته أكثر إلحاحا وتحريضا، حتى أن زكية كانت – ولا بد– تأتى بأفعال رهيبة تنتهى دائما بانفجار الصراخ. ظل الأمر على

ذلك المنوال لفترة بدت طويلة، وفهم سيد احمد أن الأمور لا تتقدم كما يجب، وها هى العمة البائسة توشك أن تفقد وليدا جديدا، ربما للمرة السابعة أو الثامنة.

شيء ما دفعه لأن يخرج من المندرة، لكنه لم يحسم أمره فوقف عند الباب، يريد أن يوقظ والده، ورأى ألا يفعل، فقد يكون أبوه فى حاجة إلى النوم أكثر من أى أحد آخر، فقبل أن يدخل إلى حجرته كانت علامات التعب تشكل كل ملامحه، حتى تلك اللحية التى نبتت فجأة، والتى ابيضت بأكثر مما كانت لم تضف إلى وجهه إلا المزيد من الإيحاء بالتعب والحاجة الماسة إلى النوم، وطالت وقفته عند الباب فجاءته الصرخات من جديد، وكانت قد خفتت قليلا، ذكرته بولادة أخيه السيد عندما أشرفت عمته حورية على الموت، لكنهم هذه المرة لا يعرفون هل يكون من حظ عمته زكية أن تنعم بولد مثل كل نساء الشيخ أم كتب عليها إلى الأبد أن تكون بلا ولد.

دفعته صرخة هائلة لأن يخرج من الباب ويتجه إلى هناك، ومن تحت النافذة نادى على جدته يسأل إذا كان وقت الاحتياج إليه قد حل، لكن مريم كانت تواصل إصدار الأمر لزوجة ابنها لتدفع من جديد، وكانت المرأة الواهنة بكل ما تحمله من رغبة وشوق إلى الولد تستنقذ نفسها من براثن الغياب وتصحو، وتدفع بشدة، وعندما يطفح الكيل تنهى الدفع بصرخة طويلة ممطوطة، وتظل الصرخة تضعف وتضعف حتى ليخيل للمرء أنها تموت، ويشعر سيد احمد بالخوف، فيعود ينادى جدته، ولما احجمت عن إجابته أدخلت شيئا من الطمأنينة إلى نفسه، وأخيرا رأى أن

يعود إلى المندرة، وهناك وجد أباه جالسـا، والرجال يطرقون إلى الأرض ويفردون أكفهم ويتلون ما يعرفون من أدعية.

تلقى تحيته بابتسـامة واهنة، كان يقرأ أوراده القديمة ويرفع وجهه إلى السـماء، ولما تعالت الصرخات انطلق يدعو بدعاء واحد لايكف عن ترديده:

- يا لطيف يا لطيف

يا لطيف يا لطيف

حتى أن الرجال رفعوا رؤوسـهم وصوبوها نحو السـماء وطفقوا يرددون:

- يا لطيف يا لطيف

يا لطيف يا لطيف

لم يتوان الشيخ لحظة، فالدعاء لا يتوقف كأنه السيل، والرجال يرددون من ورائه، وينصتون إذا انتقل الشيخ إلى دعاء جديد، حتى إذا ما حفظوه انطلقوا يدعون به دون أن يخطئوا أو يلتزموا بإطلاقه فى تزامن مع الشيخ، ووجد من المناسب أن يخرج من المندرة ويبلغ جدته بأن أباه يجلس فى المندرة يتلو أدعيته، واقترب من النافذة فسـمع جدته تعجل الوالدة بأن تواصل الدفع، وتبلغها بأنها تمكنت من الإمسـاك برأس المولود وأنه بسبيله للخروج، ولأنه كان ينتظر تلك اللحظة وجد نفسـه يدفع مع زكية، وفى لحظة جاء صوتها مكتوما وممطوطا حتى إذا ما أشرف على الانتهاء كانت جدته هى التى تصرخ هذه المرة:

- خلاص يا ستي، الحمد لله.

وانطلقت زكية في بكاء ممزوج بالضحك، لا تصدق أنها وضعت حملها، واستدارت تطلب بصوت واهن أن تريها مولودها لترى إن كان حيا، فهي لم تسمع صراخه، وبدلا من أن تجيبها علا صراخ المولود فانطلق صوب المندرة يبشر أباه، وينادي قبل أن يصل:

- الحمد لله، الحمد لله.

اغرورقت عينا الشيخ بالدموع، كان يواصل الدعاء، لكن صوته تهدج، وبان أمام الجميع أنه يبكي.

يا لفعل القدر! في اليوم الذي يعرف فيه طعم الهزيمة يأتي مولود زكية فيدخل على قلبه السكينة، وتنضم الزوجة الصابرة إلى زمرة نسائه، لها ما لهن وعليها ما عليهن، وهي في هذه الليلة تؤسس للخروج من بوتقتها التي عاشت فيها سنوات، نامتها على ظهرها مرات ومرات، ووضعت خلالها مواليد نزلوا إلى الدنيا أمواتا، والليلة تصله صرخات المولود كأنها نغمات قيثارة سماوية تعزف ألحانا قادمة من هناك، من خلف كل معلوم ومن وراء كل الحدود ومن فوق كل السماوات، ألحانا لا يعرفها إلا من كابد الشوق وعرف الحرمان، وظللته غيامات الحزن الداكنة، وهو يشارك زكية كل ذلك، فلم يطلب منها يوما أن تصرف النظر عن محاولة الإنجاب، إذ كان في نظرها متهما بأنه لا يعنيه الأمر، فله من الأبناء ما يجعله مستغنيا.

ود لو يقتحم عليهن الحجرة الآن، ويأخذها في حضنه ويقبلها عند مفرق شعرها، فها هي النعمة تنبثق من حجب الأسى، وراح فكره إلى

موسى العائد إلى الغيطان كجندب من جنادب الليل، والذى يستدرج إلى تلك الحياة الغريبة باقى أخوته، فوجود طفل رضيع فى الدار إلى جوار الطفلتين فاطمة وأم الرزق يستحق من ابنه الأكبر أن يحسن التفكير فى أى طريق يختار، طريق إعادة الوئام إلى الأسرة المهددة فى وحدتها، أو طريق الانقسام الذى ليس بعده طريق، ود لو يستطيع أن يرسل فى طلب أبنائه جميعا ليعرفوا أن معاناته الصامتة، والتى لا يكابدها إلا هو قد انتهت إلى خير، وأن المرأة التى تعذب معها طوال سنوات انضمت الليلة إلى قطيعه، تعطى خيرها وتأكل كلأها وتسبح بحمد الله فى الأعالى.

قبل أن يفرغ من أفكاره جاءته أمه، دخلت عليه المندرة وانحنت لتقبل رأسه، نهض وتسلم يدها وقبلها عدة مرات، قالت:

– إن مع العسر يسرا

دموعه لم تكن قد جفت، وأردفت:

– هكذا الدنيا يا ابن المشايخ، ابنة الضيق والظلمات، ولكنها فسيحة.

وإذ قبل يدها من جديد ربتت على رأسه:

– قم إلى زوجتك لتطيب خاطرها، ولتبارك مولودها.

وضحكت مل فيها وهى تقول:

– قالت أسميه أحمد، وظننا أنها ستقف عند ذلك، ولكنها أضافت إلى الاسم صفة تطلقها عليه تميزا له.

فتبسم ضاحكا من قولها وسأل:

- ماذا أضافت؟!.

فأجابته وهي لا تستطيع أن تكتم المزيد من الضحك:

- قالت إنه أحمد الضبع.

وأردفت بعد أن استردت أنفاسها:

- حتى يخشاه الموت.

صيد الليل

مولد أحمد الضبع بعث الدفء في أوصال العزبة الصغيرة، تسابق الجميع لإعلان الترحيب بالوافد الجديد، كانوا يسهمون عن عمد في إسعاد الشيخ ويشاركون زكية الفرح، فلطالما تضامنوا معها، حتى حورية وسرية وشام كن يطلبن إلى الله أن يكرمها بالولد، وها هو الطفل جاء، وها هم جميعا يروحون إلى الدار ويجيئون منها، ويحملون الطفل الصغير ويتظاهرون بأرجحته في الهواء، فيما تشهق زكية من الخوف، فلكم خشيت أن يسقط في إحدى المرات على الأرض وينتهي بذلك حلمها الذى قاست من أجله كثيرا.

لكن الأمر سرعان ما عاد إلى طبيعته، وعادت الأسرة للانقسام، بعضهم يرى أن منطق إثارة الغبار حول أى عمل نافع هو الذى يسود الآن، وأن الانتصاف لموسى يستتبع بالضرورة التشيع له، وأن أفعال موسى التى أسهمت في إعلاء شأن الأسرة وتنمية مواردها والحفاظ على كرامتها قوبلت بجحود لا تفسير له، اعتنق هذا الرأى فضلا عن موسى، محمد الطوخي والسيد وحورية وشام وكثير من العمال في الغيطان والحظائر،

وفي بعض مراحل نشاطها تبنت الأم الخبيرة هذا الرأى، وإن كان على غير الكيفية التي يتبناه بها الآخرون، كانت متضامنة مع موسى ولا تخفى ذلك، وكانت في معظم ما تقول ترد على مريم قصدها، فلقد كانت مريم حريصة على أن تباعد بين ابنها وبين المنغصات، الأمر الذى جعلها تنساق وراء الرغبة في السلام دون التفكير في العواقب.

وبعضهم الآخر رأى أن ترك الأمور لموسى قد يورد الأسرة موارد التهلكة، وأن الحوار هو الوسيلة الوحيدة لإقرار أى شيء يتعلق بمستقبل الأسرة أو بثروتها، وليس الإملاء والفرض، وهذا الرأى يخفى نوازع إنسانية ومشاعر لا تخفى على لبيب، فموسى لم يكن أبدا صاحب إملاءات وفروض، وإنما يدفعه إلى سرعة الفعل همة عالية ونشاط وافر، ورغبة لاتقاوم في اجتياز العقبات في قفزة واحدة، وفي المقابل كان سيد احمد في قرارة نفسه يرى أن الفارق في العمر بينه وبين أخيه الأكبر ليس إلا أياما، وأن ذلك الفارق الضئيل لا يبرر أبدا أن يظل عائقا أمام المساواة المفترضة بينهما باعتبارهما معا أكبر أبناء الشيخ، وبديهى فإن ذلك البعض بالإضافة إلى سيد احمد ضم شقيقه سليمان وأمه سرية، وكانت مريم تنحاز إلى رأى سيد احمد في المسألة والبعد عن الصراعات، وقد صادف ذلك الاتجاه بعض الهوى في نفس الشيخ، وكان مؤخرا يشعر بالإرهاق، ويتمنى لو تختفى من الحياة كل الصراعات، ولا أشك لحظة في أن زكية بخوفها على وليدها ورغبتها في أن تكون قريبة من كل الأطراف رأت أنه من الأفضل لها ولمستقبل ابنها أن تنأى بنفسها عن ذلك الانقسام.

قبل أن ينفرط العقد قادت مريم محاولة لجمع الشمل. ما فعله موسى ليلة

عادوا من كفر غنام كان هو الفاتحة التى مكنتها من الدخول بنعومة، فعندما عرج هو وأخوته إبراهيم ومحمد الطوخى إلى الطريق المختصر المتماس مع مضارب السمدانى وصولا إلى مندرة الغيط كان يود لو أخبر بما فعل، لكنه عجز عن الكلام فاختار أن ينعطف دون أن يبلغ أحدا بوجهته، وانفصل أخواه محمد الطوخى وإبراهيم عن الركب وتبعاه، لم يتنبه إلى ما فعلوا إلا الرجال الذين يسيرون على أقدامهم فى المؤخرة، وفى قلب الليل تقدم موسى وأخواه حتى صاروا بموازاة مضارب غريمهم، ونبحت عليهم الكلاب، كانت من الكثرة بحيث تعرقلت فى بعضها البعض وهى تتبارى فى النباح.

لم يشاهدوا أى حراسة للمضارب، فقط الكلاب التى لا تكف عن النباح والجرى، وتعجب موسى، أو يمكن أن يترك الرجل مضاربه دون حراسة؟!، وهل يكون صاحب غفلة مثلما يفعل أبوه وأخوه سيد احمد ويترك الأمور إلى مجرد الأمنيات؟!، وقبل أن ينتهى من سؤاله فوجئ بصوت سقوط أحدهم فى المصرف العميق، والتفت ليجد محمد الطوخى واقفا يشير بيديه إلى عمق المصرف ولا يقدر على الحديث، رجع إلى الخلف خطوات، رأى إبراهيم ومعه آخر يتصارعان فى عمق المصرف، وكان إبراهيم قد تمكن من الرجل وطرحه على وجهه فى الماء، وجعل يديه خلف ظهره، كل ما يخشاه هو أن يعلو صياح الرجل فيوقظ أو ينبه من بالمضارب، وكانوا قد فاتوها لتوهم، كما وعادت الكلاب إلى مواقعها بعد أن يئست منهم، ولكنها وهى تعود كانت تواصل النباح ولكن بغير حدة.

أخرجوا الرجل من المصرف، كمموا فمه وحملوه وانطلقوا إلى مندرة

الغيط. إنه أحد رجال السمداني، يحمل في يده بندقية قصيرة محشوة بالبارود، ويضع في غمدين معلقين إلى خصره خنجرين، وطوال الطريق إلى المندرة كان يجاهد ليفلت، وحاول أن يعض يد موسى التي تحكم تكميم فمه حتى لا ينطلق بالصراخ، ولما ابتعدوا به عن المضارب أمره موسى بلهجة حاسمة أن يكف عن التلوى وإلا ناله منهم ما لا يرضيه، وامتثل مكرها فوضعوه على الأرض وقادوه إلى وجهتهم.

فكروا في طريقة يتعاملون بها مع الصيد الذى وقع في أيديهم، لكنهم كانوا في حاجة قبل أى شيء إلى أن يعرفوا على وجه اليقين هويته، سأله موسى عن اسمه فعرف أنه أحد حراس السمداني، وأنه ينتمي إلى فخذ ضعيف من أفخاذ قبيلته، وابتأس موسى، فالرجل لن يؤلم غريمه إذا هم قتلوه، ورأى من الأفضل أن يرسلوا معه برسالة إلى سيده، يبلغوه فيها أن الصراع بينهما لن ينتهي، وأن الطريق الذى بدأ بالمكيدة لن ينتهي إلا بالدم.

كل ما فعله موسى في تلك الليلة البعيدة لم يستشر فيه أحدا، فضل ألا يذهب بصيده إلى المندرة الجديدة، فلقد تبين له أن الرجل لا يعرف من هم، إذ كان يسأل طوال الوقت عمن هم، وعن قصدهم من الإمساك به، لذا فإنه طلب من أخويه محمد الطوخي وإبراهيم ألا يتحدثا بغير مناسبة، وإذا تحدث الواحد منهما إليه أو إلى أخيه فليكن حديثه همسا، ولكن إبراهيم كان طوال الوقت يحاول أن ينبه موسى إلى حقيقة غابت عنه، فالرجل يعرفهم، ولا شك لديه في ذلك، فلقد هاجمه بغتة وهو يسير في المؤخرة، وأراد بما فعل أن يقتله، وقد شعر بشفرة حادة تلمس زوره،

وكانت لها برودة المعدن، وفهم موسى ما يعنيه أخوه وسأل الرجل عن حقيقة ما كان يريده من الهجوم عليهم، ولكن الرجل التزم الصمت، وإذ رفض أن يجيب على اسئلته أدرك أنه يعرف من هم، وأنه ربما كان فى طريقه لأن يحقق لمخدومه بالمصادفة البحتة ما عجز المنسر عن تحقيقه بالتدبير والمخاتلة والقوة.

تجاوزوا المندرة، مروا بعيدا عنها حتى لا يراهم الرجال ويحدثوهم فى شىء، فلقد أشعت فى دماغ موسى فكرة ابتسم لها، لماذا لا يذيق السمدانى من نفس الكأس؟!، وكما فعل الأعرابى وأنكر صلته بهجوم المنسر سيفعل هو أيضا وينكر صلته بما جرى لأحد رجاله، وإذ فطن الرجل إلى أنهم تجاوزا المندرة وانطلقوا به فى عمق الغيطان حاول أن يتخلص من قيده وأطلق عقيرته بالصياح، شقت الصرخة فضاء الليل فجلبت المطر، سقطت قطرات كبيرة بللت وجوههم وثيابهم وجعلت أقدامهم تحمل فى النعال طينا كانوا لا يتوانون عن نفضه كلما منعهم من التقدم، وعندما تجاوزوا أملاكهم ودخلوا فى غيطان أخرى بحثوا عن عريشة قريبة واتجهوا إليها.

سأل موسى إبراهيم عن اليد حاملة السكين التى هاجمه الرجل بها فأشار إلى اليمنى، وبدون أن يتمهل طرح الرجل على وجهه فى الظلام، وما أن نال منه حتى أخذ يقطع ملابسه ويصنع منها قيودا، كبل قدميه وكمم فمه، وقبل أن يواصل لحق به محمد الطوخى، وكان قد همس فى أذنه أن يتوجه إلى المندرة ليحضر ساطورا، وجاء محمد بالمطلوب، فك قيد يدى الرجل وأمسك محمد بإحدى اليدين فيما جثم إبراهيم بجسده الهائل فوق ظهره ضاغطا على كتفه بقوة، وما أن انفردت الذراع اليمنى

على استقامتها حتى هوى عليها موسى بالبلطة، في ضربة واحدة انفصلت الكف من منتصف الساعد، وتدحرجت بعيدا عن الجسد النحيل، الصرخة الرهيبة التي صدرت عن الرجل اختلطت بانفجار الدم في وجوههم، وأحسوا بأن ملابسهم غرقت في بحار من الدم الساخن، لكنهم سرعان ما أحكموا ربط الذراع المبتورة بباقي ملابس الرجل، وعندما توقف الدم كان الرجل فاقدا الوعي، لم يعد فيه من أثر للحياة إلا اختلاجات قصيرة ولحظية تصدر عن جسده بين الحين والحين.

لا أشك لحظة في أن ما حدث أخاف إبراهيم ومحمد الطوخي، لكنهما أمام ثبات أخيهما الأكبر تصنعا الجلد، وعندما أمرهما بأن يقلبا الرجل على ظهره ارتعدا، وتلكآ في تنفيذ الأمر فنهرهما، وأمرهما بالإسراع وإلا داهمهم واحد من المارة أو أصحاب الغيطان، لا يعرفان ما الذى يريد أن يفعله برجل ميت، لكنهما قلبا الرجل على ظهره فسقط رأسه على أحد الجانبين، وبين أستار الرعب أحكم موسى قبضته على الفكين وضغط بشدة فانفتح الفم، وضع السكين في فمه ومد أصابع يده الأخرى وأخرج لسانه، أدرك أنه لن يستطيع أن يقطعه دون معاونة من أخويه فأمر إبراهيم بأن يضغط على الفكين ليتمكن من إتمام المهمة، و لم يتوان إبراهيم في فعل ما طلب أخوه، كاد محمد الطوخي يسقط من طوله وهو يرى في غبش الظلمة ما يدور، فما أن تمكن إبراهيم من الفكين حتى جذب موسى اللسان إلى الخارج، وبضربة واحدة فصل الجزء الذى كان في يده فصدرت عن الرجل شبه صرخة انتهت بغرغرة فسارعوا إلى قلبه على وجهه حتى لا يختنق بالدم.

حملوه وهو يقطر دمه وتوجهوا به إلى حدود أراضى السمدانى من ناحية كفر سعد وألقوا به فى الغيطان المجاورة، وكانوا قبل أن يلقوا به قد تأكدوا من توقف النزيف من ذراعه المبتورة ومن لسانه المقطوع، كما وتأكدوا من أن انفاسه لما تزل تتردد فى صدره، الذى يهتاج بين الحين والحين فيسعل ليطرد الدماء التى تسربت إليه، ووضعوا إلى جواره اليد المبتورة والقطعة التى اجتثوها من لسانه، وقفلوا عائدين.

فى المندرة أدركوا كم هم غارقون فى الدماء، لم يجد تخلصهم من ملابسهم شيئا، فلقد تسربت إلى ملابسهم الداخلية بقع الدم، وكان موسى أكثرهم غرقا، غطت الدماء وجهه وصدره وذراعيه حتى منتصفهما، وصب واحد من الرجال الماء ليزيل عنه الدم، تمنى لو يسأله إن كان قتل مساعدا وسار فى دمه، فقدماه غارقتان فى الدماء، واحتاج إلى زلعتين كبيرتين من الماء ليتخلص منها. رائحة الدماء وهو يغتسل صعدت إلى أنفه فانطلق يفرغ معدته، وأخرجت سائلا غريبا، إذ لم يكن قد تناول طعاما طوال اليوم.

فى ركن المندرة كان رجلا المنسر يتكومان والخوف يخرس لسانيهما، كادت عينا صاحب القدم المصابة أن تخرجا من محجريهما وهو يرى الدم يغطى موسى وأخويه، فدمه هو ورفيقه سيغطى بعد قليل أقدام الرجال، وهو لا يدرى أى قدر ذلك الذى دفع بهما فى طريق هذا السفاح، ولم يكن ذعر الآخر المتورم الوجه والذى لا يرى شيئا بأقل من ذعره، فلقد توهم فى الظلام أشياء جعلته يجفل حتى من تردد أنفاسه، لكنهما وقد أدركا أن مذبحة وقعت فى مكان ما آثرا أن يخرسا ولا ينبسا ببنت شفة،

حتى لا يثيرا السفاح الجالس قبالتهما، وما أن وصلا إلى هذا الرأى حتى باغتهما صوته القادم من فوق الأريكة المقابلة:

– كذبتما، وتصورتما أنكما ستفلتان من قبضتي!.

لم يدر أحد منهما كيف يجيبه، وواصل حديثه:

– سأجعلكما تتذكرانى ما عشتما فى هذه الدنيا.

أزادهما التهديد رعبا فانطلقا يتحدثان، كل منهما كان يبرر ما فعل، الأول الذى اعترف بالعملية وأنكر صلة السمدانى بها، والثانى الذى أنكر، تعللا بالخوف من سطوة السمداني، فهما إن قالا كل شيء لم يكونا ليفلتا من قبضته.

برغم تعجله إتمام ما ينتويه بشأنهما كان عازفا عن القيام بذلك بنفسه، وخرج من المندرة يتشمم شيئا من الهواء الخالى من رائحة الدم، وهناك طلب من رجاله أن يقطعوا رجلى الرجل القعيد، ويد ولسان الرجل المتورم، وشرح لهم كيف يتمكنوا من فعل ذلك فى أقصر وقت، واقترح أحدهم أن يضربهما على الرأس قبل البدء فى ذلك، فإذا فقدا الوعى سيكونا أسلس قيادا وستنعدم مقاومتهما، ووافقه موسى على ما قال، وطلب أن يكمموا فميهما قبل أن يشرعوا فى التنفيذ.

نصف ساعة قضاها متبعا القناة التى تنقل الماء من البوهية إلى الخندق، هو ومحمد الطوخي والسيد، فلقد بقى إبراهيم مع الرجال ليساعد فيما سيفعلون كطلبهم، وإذ وجد موسى نفسه بالقرب من ترعة البوهية فضل أن ينزل إلى الماء ويغتسل تماما، وأيضا يغسل ملابسه فلا يعود فيها أثر للدم،

وكذلك فعل محمد الطوخى، وجلس السيد قبالتهما على شاطئ الترعة، كانا يغتسلان فى الماء ويفركان الدم الذى جف عند منابت شعرهما وعلى طوقيهما مما لم يفلح الماء القليل الذى صبوه عليهما فى إزالته، وبعد أن فرغا وتيقنا من زوال رائحة الدم من خيشوميهما خرجا إلى الشاطئ وشرعا فى عصر ملابسهما قطعة قطعة، وارتدياها فشعرا بشىء من الدفء بعد أن كاد البرد يجمدهما ويدق مسامير حادة فى أجنابهما.

عادوا ليجدوا المندرة مليئة بالدماء، والرجال ينظرون إلى بعضهم البعض فى ذهول، واقترب موسى، وتأكد له أن أحدهما وهو الرجل المتورم مات، فلقد تركوه يختنق بدمه بعد أن قطعوا لسانه، لكن الرجل الآخر الذى قطعوا رجليه كان ملقيا فى ركن المندرة ينزف آخر قطرات دمه، وعبثا حاول موسى أن يوقف النزيف لكن الدم كان يواصل الخروج من كل مكان، فى صورة خرخرات تقوى وتضعف مع دقات القلب المتجه إلى السكون، وبعد فترة توقف النزيف، وظنوا أن الرجل أسلم الروح هو الآخر، ووضع موسى أذنه فوق قلبه فجاءته الضربات شديدة الوهن، كأنها تصدر من مكان بعيد، وقلب إبراهيم الرجل المتورم على وجهه ففوجئوا به يسعل ويخرج شلالا من الدماء من فمه ومنخريه، وكان لما يزل حيا.

حملوهما إلى المكان الذى ألقوا فيه بالأعرابى صيد الليل، وهناك سمعوه يصدر أصواتا غريبة هى خليط من الألم والبكاء والخوف، وإلى جواره وضعوهما، وفى حضن أحدهما وضعوا قدميه المقطوعتين، كما وضعوا يد الآخر ولسانه عند أنفه الممرغ فى الوحل، وعادوا أدراجهم

إلى المندرة، فيما توجه الرجال ومعهم إبراهيم إلى الترعة للاغتسـال، في المندرة راح موسى يحفر في التراب المحيط بحافة الخندق لينحي الطين الحادث من جراء المطر ويصل إلى التراب الجاف، وطفق يأخذ منه في مقطف ويلقي به على الدماء الغزيرة التي تملأ المكان، وكذلك فعل محمد الطوخي والسـيد، وإن هي إلا دقائق حتى كان التراب يغطي كل الدماء ويتشربها، ولما خشوا أن يأتي أحد فيرى ما فعلوا أرسل محمدا الطوخي والسـيد ليتسـقطا أخبار العزبة ويطلبا الطعام للرجال.

كل ذلك وأبوهم ينفرد بنفسه ويحلق في سقف حجرته متدبرا أموره كلها، قبل أن تصل إليه نداءات ميلاد طفله الجديد.

مع الصبح عادوا إلى العزبة، وسمعوا بنبأ مولد طفلهم الجديد، ملابسهم جفت، لكنهم كانوا شعثا وتفوح منهم رائحة الطمي والدم، و لم يفطن أحد إلى شيء، سنحت الفرصة ليغيروا ثيابهم، وداخل شام الشك في أن ملابس ابنها تحمل رائحة غريبة، أرادت أن تستدرجه للحديث لكنها آثرت ألا تفعل، فلقد رأت كم ارتاح قلبها عندما انخرط مع أخوته في أمور الكبار، وصار يقوم من أجل الأسرة بأعمال يفخر بها، واكتفت بأن قدمت له من وراء الباب ثيابا نظيفة وأسرعت وهي التي لم تذق طعم النوم طوال الليل تضع الملابس التي خلعها في طشت كبير وتصب عليها الماء وتباشر غسلها، وهذا بالضبط ما طلبه ابنها، رأت في عينيه لأول مرة نظرة لم ترها من قبل، نظرة الرجل الذي يخبئ بين حاجبيه أسرارا تعجز عن أن تدركها.

اغتسلوا وغيروا الثياب، وفاجأهم صياح الأهالي في الغيطان البعيدة، وتناقل الناس الخبر، قالوا إن رجال كفر سعد عثروا على ثلاثة من الرجال مقطوعي الأيدي والأرجل والألسنة، وعرفوا أحدهما وهو أعرابي من أتباع السمداني، وقبل أن يتحروا الخبر أبلغوهم بأن الناس يلصقون الفعلة بمساعد ورجاله، لما تبين له أن أحد رجاله عين عليه، ينقل الأخبار إلى خصومه، وأن الرجلين الآخرين من رجال المنسر، وهما اللذان شهدا في التحقيق العرفي في مندرة الشيخ هيكل في كفر غنام، وقبل أن يتحرك الشيخ أبلغوه بأن رجلا من أهالي كفر غنام شهد أنه رأى رجال السمداني يكمنون خارج القرية ومعهم مطايا مجهزة للسفر، تنطبق أوصافهم على هؤلاء الذين خرجوا على كلاف الشيخ هيكل وخطفوا رجلي المنسر المنكوبين.

أخبار كثيرة تناقلها الناس في ذلك الصباح، كلها تصب في طريق توجيه الاتهام إلى السمداني ورجاله، ولما أراد سيد احمد أن يذهب إلى هناك ليرى بعينيه ما يجرى منعه أبوه، وكان عنيفا وهم يأمره بالمكوث حيث هو، وعلى مائدة الإفطار الذى أعدته مريم لابنها وأولاده اختلس موسى النظر إلى وجه أبيه، كان الرجل غارقا في تأملات غامضة أوحت إلى موسى أنه إن لم يكن يعرف فهو على الأقل يخمن ما حدث، و لم يمنعه هذا من الإقبال على الطعام بشهية افتقدها أياما طوالا.

الأبناء يتسابقون في التهام الفطير الذى صنعته من أجلهم جدتهم، يقطعون منه لقما كبيرة ويغمسونها في العسل والقشدة، أو يحشونها

بالجبن القديم ويحشرونها فى أفواههم حشرا، كأنهم لم يتناولوا الطعام لأيام عديدة، ترقبهما عن كثب عينا أبيهما، لعله فى ذلك الوقت كان يقول لنفســه: ها هم الأولاد كبروا حتى أنهم صاروا يخفون أمورهم عنى، ولعله وهو ينظر إلى موسى تساءل: ما الذى تخفيه أكثر مما ظهر أيها الفتى العنيد؟!، لكن موسى كان منهمكا فى تناول الطعام، وكان نزقا بصورة أدهشت أباه وجدته، بل وأمه التى تتعلل بأى شىء لتصعد إلى الصالة وترى الأولاد وهم يلتهمون الطعام التهاما، واحتاجوا إلى المزيد فنادت مريم على النسـاء اللاتى يسوين الفطير فى الفرن طالبة إحضار بعضه فجئن به على عجل.

كل الأمور فى ذلك الصباح دفعت فى اتجاه تكريس قيمة الرسائل التى تلقاها السمدانى، بكرت مريم وأمرت بذبح عجل لعقيقة المولود الجديد، وتوالت أخبار الرجال المعثور عليهم فى غيطان كفر سعد مع قيام الجزار بتعليق العجل أمام المندرة الكبيرة، بعد أن سلخه وراح يقطعه، فيما تقوم سريه بترتيب الوزنات التى يقطعها تمهيدا لتوزيعها على العمال ورجال الحراسة والكلاف والرعيان، والفلاحين الذين يزرعون الأرض من كفر سعد وشبراسندى وبرقين والحجايزة، والذين كانوا موزعين بين الذبيحة والبحث عن نصيبهم منها وبين متابعة أخبار الرجال المبتورى الأيدى والأرجل والألسنة، وأخيرا عندما انتهى الجزار من تقطيع الذبيحة وتقسيمها تولت سريه توزيعها على الناس واستبقت كومتين كبيرتين للوليمة التى ستكون فى المساء، ولما نقل لمساعد خبر الذبيحة ظن أن غريمة يتبهج بما فعل.

نعم، كان الشيخ أحمد متأكدا من أن أولاده موسى وإبراهيم ومحمد الطوخى والسيد يعلمون عما جرى فى غيطان كفر سعد الكبير، لكنه لم يشأ أن يفاتحهم حتى يمر اليوم الذى كان ينتظره لأعوام، فبإمكانه الآن أن ينفذ ما انتواه من الانعزال عن زوجاته لبعض الوقت، فكل أربعة أسابيع ينعم بنفسه أسبوعا، يقرأ فيها كتبه ويسامر فيها أمه وجدته، والأهم، يجلس فيها مع أبنائه ويتابعهم، فلعله ينجح فى إحداث الوئام بينهم بدلا من الخلف الذى يرى بعينيه بوادره، وبإمكانه أيضا أن ينعزل بموسى وسيد احمد ويضع حدا للتوتر الحادث بينهما، وهو سيمهد من اليوم لذلك، وأول شيء فعله هو منعه سيد احمد من الذهاب إلى الغيطان لرؤية ما يجرى هناك، فلقد شعر بأن فكرة الذهاب لم تكن خالصة لوجه الفضول، واشتم فيها رائحة الرغبة فى البحث هناك عن آثار أخيه.

مريم سبقته ورأت أن تنفرد بالولدين الواحد بعد الآخر، فإذا كان ابنها يفضل التعامل مع المشكلة وكأنها ليست قائمة فإنها تستطيع أن تنهض بالمسألة بنفسها، وتفرغ الصدور المشحونة من توتراتها، والقلوب المشغولة من عللها التى لم تصل بعد إلى حد المرض، استغلت الغضب الذى ووجه به سيد احمد لمنعه من الذهاب إلى غيطان كفر سعد واصطحبته إلى صحن الدار القديمة بحجة مراجعة الخزين، وفيما هى تفحص علب السمن والكسبة والطحينة وأقماع السكر وبلاليص العسل توقفت فجأة ثم نظرت إليه، أدركت خلجة فى وجهه فسألته:

– لماذا أردت الذهاب إلى هناك؟!.

وفاجأه السؤال، لكنه سرعان ما تمالك، وأجاب:

– لا لشيء بعينه.

لكنها عادت لتفاجئه:

– أتظن أن لأخيك يد في الأمر؟!.

وأسقط في يده، وغضب من نفسه، فهو لم يكن مكشوفا أمام أبيه فقط وإنما أمام جدته أيضا، وهذا يعني أن التخفي وراء أمور عادية في هذه الأسرة لم يعد يجدي، وتساءل: ما الذي جعلهما يفطنان إلى أنه معني بالبحث وراء أخيه، وفكر في سؤال جدته، وحضرته خبرته بها من الاستهانة بذكائها، فلكم جرب ذلك الشيء ووجدها هناك في آخر النفق تطل عليه في سخرية وهو عريان، لكنه استطاع أن يجد كلمات يقولها:

– لا أكن لأخي إلا الحب.

فابتسمت لقوله وهي تواصل حصر الحزين، لكنها توقفت فجأة ونظرت في وجهه المرتبك:

– الحب ليس مجرد كلمة.

وواجهته:

– وأنت في الفترة الأخيرة لم تعمل كأنك تحبه.

ووجد نفسه مضطرا لأن يقول:

– وهو أيضا يا جدتي، لم يعمل كأنه يحبني.

فرفعت سبابتها في وجهه:

- هناك ما يستوجب أن نناقشه معا.

وانصرفت إلى الأرفف التى تحتوى الخزين وأردفت:

- بعيدا عن أبيك وعن باقى أخوتك.

وتوقفت قليلا قبل أن تستدير إليه:

- أنا وهو وأنت فقط.

فى المندرة الكبيرة كان الشيخ يجلس إلى أبنائه الباقين، لم يتغيب إلا سيد احمد، ولأنه ينتوى أن يصل إلى حقيقة ما حدث أثناء الليل ولكن بطريقة ناعمة تحاشى ذكر أى شيء عنه، بل إنه حتى لم يسأل عن الأحوال التى دعتهم إلى المبيت فى الغيط فى حين لم يكن هناك أعمال ملحة تستدعى ذلك، وهو السؤال الذى توقعه الجميع وأعدوا العدة للإجابة عليه، بل وراجعوا الإجابة مع بعضهم البعض حتى لا يختلف أحد منهم عن الآخر، وتذكر الرجل وهو يسامرهم أن موسى انصرف ليلة أمس من مندرة الشيخ هيكل فى كفر غنام، وغاب قرابة الساعة، وعندما عاد كان وجهه متغيرا، كان مطمئنا على نحو أو آخر، وعلامات الظفر تعلو وجهه، وهم كانوا شبه واثقين من أن التحقيق العرفى سينتهى إلى خذلانهم.

شيء آخر حدث بالأمس أدركه الشيخ مؤخرا، فالسيد الذى أصر إلى حد البكاء على مرافقتهم إلى كفر غنام لم يكن بصحبتهم فى رحلة العودة، من موقعه على الأريكة فى مواجهتهم تعجب: أيكون قد ابتعد عن أبنائه إلى هذا الحد؟!، وتساءل بينه وبين نفسه: أى تدبير دبرتموه يا أبناء حورية؟، لكن شيئا مما يدور فى رأسه لم ينعكس على صفحة الوجه

الوقور، والذى ظهرت لحيته الرمادية بصورة تنبئ أنه سيطلقها، وهذا ما دفع موسى لسؤاله:

- هل تترك لحيتك يا أبى؟!.

وابتسم:

- ما رأيك؟.

فانطلق محمد الطوخى:

- ستكون جميلة يا أبى.

وتنهد الرجل فى ارتياح:

- أما وقد أصبح لزكية ولد فإننى أكاد أسمع نداء جدى الأكبر الشيخ موسى السرسى وهو يقول، الدنيا لا تغنى عن الآخرة يا أحمد.

وسأل السيد فى شغف:

- أو كان ذا لحية يا أبى؟.

فمد الشيخ يديه وأدناه منه:

- وأية لحية!، تقول جدتكم الأم الخبيرة إنها كانت عظيمة ومهيبة، رمادية يختلط سوادها ببياضها، وتحيط بوجهه كما تحيط الهالة بالبدر.

وتحمس سليمان:

- إحك لنا عن قتل المملوك القديم يا أبى.

وابتسم الرجل فى رضا:

- لا حاجة بنا للحديث عن القتل اليوم يا بنى.

وليطيب خاطره أردف:

– أعدكم بأن أحكيها عما قريب.

واستدرك:

– ربما في سبوع أحمد الضبع.

واندهش الأولاد:

– أتقول الضبع يا أبي؟!.

فضحك كثيرا:

– أي والله، أصرت أمه على أن تطلق عليه اسم أحمد الضبع.

وضج الأولاد بالضحك، وعندما تجهم موسى صمتوا، وقال الشيخ متوجها بالحديث إليه:

– أتستكثر علينا لحظة صفاء يا ذئب الغيط؟!.

و لم يغضب موسى، إذ كان أبوه ينعته بذلك على الدوام، وبالأخص عندما يكون قريبا منه، واضطر موسى إلى القول:

– خشيت أن يغضبك ضحكنا.

وتنهد الشيخ بصوت مسموع، وأدنى منه سليمان والسيد، ثم انحنى وقبل رأسيهما، وكذلك فعل مع إسماعيل الصغير، بعد أن رفعه ووضعه على رجليه وأخذ يؤرجحه في الهواء:

– حج حجيج وبيت الله

والكعبة ورسول الله

حميدة ولدت ولد

سمته عبد الصمد

مشته عالمشاية

خطفت راسه الحداية

حد حد يا مكلوبة

يا خطافة اللمونة

ورفعه بقدميه:

– طازة طازة طازة يا ملوخية.

والطفل الذى خاف بشدة لما رفعه أبوه برجليه فى الهواء عاد ليغرق فى الضحك عندما رأى أخوته جميعا يضحكون.

هكذا كانت بداية الخطة التى وضعها الشيخ للم شمل أسرته، صحيح أنه أدرك غياب سيد احمد لكنه لم يشأ أن يلفت الأنظار إلى غيابه، ولما كان سيد احمد فى ذلك الوقت مع جدته مريم فى حجرة الحزين، وكانت تنفرد به كبداية لتنفيذ خطتها هى الأخرى، فإن التكامل بين رؤيتى الأم والابن أعادت إلى الأسرة المضطربة زخم أيامها وجمال حضورها ورقة حواشيها، وانطلق من قلب الشيخ غناء جميل كان قد احتبسه خلف التجهم والنكد والصراعات التى فرضت نفسها عليه.

اقترب النهار من الانتصاف، كانوا فى انتظار قدوم أهل العمة زكية من كفر عزام، لكنهم فوجئوا بقدوم الصديقين الشيخ عزام والحاج سويلم،

ودهش الشيخ لقدومهما، فهو لا يصدق أن تعود المياه بينهم إلى مجاريها بهذه السرعة، أو أن الحاج سويلم سيغفر له خطأه الكبير في القبول بانعقاد مجلس الصلح بعيدا عن عرينه، لكن ها هما بالفعل، والعمال أمسكوا بمهرتيهما واصطحبوهما إلى الحظائر، وضج صوت الحاج سويلم بالضحك وهو يقول:

– طفل جديد يا شيخ أحمد؟!، أتريد أن تقصد علينا نساءنا؟!.

لكن الشيخ عزام سارع إلى القول:

– نحن أخوال هذا الطفل يا رجل، فهل تستكثره علينا؟!.

وصادق الحاج سويلم على قوله:

– طيب يا سيدى، يا بخت من كان النقيب خاله.

الانفصال

ما تلى ذلك ترصده الحكايات فى بضع جمل قصيرة، لكنها من الإيحاء بحيث تعطى للخيال الفاعل القدرة على رواية التفاصيل الدقيقة ورؤية النفوس وهى تتقلب بين الإقدام والإحجام، بين الفعل ورد الفعل، وبين الاتصال والانفصال.

دعونا أولا ننتهى من حكاية القدوم المفاجئ للعمدتين الصديقين الشيخ عزام والحاج سويلم، فهما لم يأتيا للتهنئة بقدوم المولود، وأنى لهما أن يعرفا و لم يمض على قدومه إلى الدنيا إلا بضع ساعات؟!، ولكنهما قدما بطلب من السمدانى، فهو يتهم الشيخ وأولاده بأنهم وراء ما حدث لرجله، خطفوه من المضارب وعذبوه وقطعوه يده ولسانه، كما بتروا أعضاء رجلى المنسر اللذين شهدا لصالحه فى الجلسة العرفية وألقوهما مع قريبه فى جواره، وهذا تعد شديد وخرق للهدنة التى لم يجف مدادها بعد، حتى أن عقدى البيع الموقعين من الطرفين لما يزالا فى حوزة الشيخ هيكل و لم يستردهما بعد. أصابت المفاجأة الشيخ أحمد بالدهشة، فهم بعد أن عادوا من كفر غنام لم تذق أعينهم النوم، زوجته كانت متعثرة فى

ولادة طفلها، و لم يحدث الميلاد إلا مع صلاة الفجر، فمن أين لهم الوقت لتدبير ما يدعيه الأعرابى من خطف وبتر أعضاء وقطع السنة؟!.

الشيخ عزام جنح إلى تصديق رواية الشيخ أحمد، وبالأمس حيث كان عضوا فى لجنة المصالحة فى كفر غنام كان ميالا أيضا إلى تصديق ضلوع السمدانى فى مؤامرة الهجوم على العزبة والغيطان، لكن الحاج سويلم أطرق إلى الأرض مبتسما، شيء بداخله يوحى إليه بأن وراء الأكمة ما وراءها، وأن الوقوف عند حدود المظاهر لا ينبئ عن حقيقة، و لم يشأ أن يرفع عينيه فى وجه صديقه حتى لا يضطره إلى الخجل، وبطبيعته المدققة أدرك أن الشيخ ربما لا يعلم شيئا يقينيا، ولكنه على كل حال يدرك أن لأبنائه وبخاصة ذلك الفتى الجالس هناك عن يمينه يد فيه، ورفع عينيه فالتقتا عينى موسى اللتين تلمعان بالظفر، واضطر للابتسام فى وجهه فبادله الفتى ابتسامة حيية، مع إيماءة خضوع لا تخطئها العين.

كل ما يخشاه موسى هو أن يتوجه الضيفان إلى مندرة الغيط ليعايناها، وهناك يعثران على آثار المذبحة، متحققة فى كل مكان فيها، فهو منذ جاء إلى العزبة لم يعد إلى هناك ليرى ما إذا كان الرجال قد أزالوا كل الآثار. لم تخطئ عينا الحاج سويلم اضطراب الفتى، اختلاجة يسيرة فى صدغيه أخفاها بالضغط على أسنانه، كأنه يعنف نفسه، لم يكن الشيخ ليغفل فطنة الحاج سويلم وذكاءه الوقاد، ورأى أن يتجاذب معه أطراف الحديث ليصرفه عن متابعة ابنه، فالآن، والآن فقط، وبعد ما رآه بعينيه لم يعد الأمر مجرد شك، فموسى وبقية الأبناء عدا سيد احمد وسليمان وإسماعيل الصغير لهم أياد فيما حدث للرجال الثلاثة، ولكن كيف كان ذلك؟!.

الضيفان أرادا الانصراف، لكن الشيخ أقسم ليبقيان لتناول الغذاء، وضحك الحاج سويلم:

- ويتهمنا السمدانى بالانحياز إليك؟!.

وكان رد الشيخ جاهزا:

- أو بغير الطعام من هو فى مقامكم يا كبير العمد؟!.

وضجوا بالضحك، حتى الأبناء الذين كانوا جالسين فى المندرة الكبيرة، وحتى موسى الذى أزالت الفكاهة المتبادلة بين أبيه وبين الحاج سويلم الشىء الكثير من توتره.

بعد الغذاء انصرف الرجلان على وعد بأن يتركا هو ومساعد السمدانى العقدين اللذين وقعاهما للتحقيق فى الواقعة السابقة لدى الشيخ هيكل ويجريا التحقيق من جديد حول الواقعة الراهنة، ولأول مرة يرى الشيخ أحمد فيما حدث للرجال الثلاثة نفعا، فهذا هو مساعد يطلب الجلوس معه ثانية ويلح فى طلب ذلك، وربما يكون راغبا بحق فى إنهاء حالة العداء التى بدأها بنفسه، فلقد تأكد له أن التكلفة لن تكون هينة، ولكن ما يجعل عقل الشيخ يكاد يحترق هو السؤال الذى لا ينفك يطرحه على نفسه: هل وصل الأمر بأولاده بالفعل إلى الدرجة التى يقدمون فيها على هذا الفعل؟!، هل يقوون على قطع أرجل خصومهم وأيديهم وألسنتهم؟!، وعاودته ذكريات قديمة، واستعادت أذناه صوتا قديما كان قد نسيه أياما، صوت سن البلطة القديمة وهى تشق لنفسها طريقا فى دماغ المملوك القديم، ووجد نفسه يقول:

- نعم يقدرون.

البحث عن موسى بعد انصراف الضيفين كان متوقعا، لذا فإن موسى اصطحب أخواه إبراهيم ومحمد الطوخي وقصدوا إلى مندرة الغيط، وهناك وجدوا الرجال وقد قاموا على تنظيف المكان بحيث لم يعثروا على أثر لما حدث، وملابسهم التي غسلوها في البوهية كانت قد جفت وارتدوها، والدم المتجلط في المكان والذي تشربه التراب أزالوه عن آخره، دفنوه في تراب حافة الخندق وغطوه بأتربة جافة، ثم رشوا فوقها الماء لإخفاء معالمها، أما طرطشات الدم التي طالت الجدران فقد كشطوها حتى زالت تماما، وقاموا على فرش الأرائك وغسلوها في ماء البوهية أيضا، وقبل أن يؤذن للظهر كانت قد جفت وأضحت جاهزة للفرش من جديد.

لا تقول الحكايات إن موسى أخبر أباه بحقيقة ما حدث في الليل عقب عودتهم من كفر غنام، ولا أخبره عن كيفية اصطياد الأعرابي البائس الذي قطع يده ولسانه بنفسه، لكنني أميل إلى تصديق ما قاله أبي:

- لا بد أنه أخبره.

تمعن كثيرا في سؤالي قبل أن يجيب، وعاد إلى صمت متدبر ثم أردف:

- شيء مثل هذا لا يمكن إخفاؤه.

وكما لو أنه يضيف حجة أخرى:

- وإذا لم يقل هو فسيقول غيره.

لكن ما حدث بعد ذلك واستجابة الشيخ أحمد لما طلب موسى تقطع

بأنه عرف بكل ما جرى، وهذا محض اجتهاد منى وليس منسوبا إلى أحد ممن تلقيت عنهم حكايات أسرتنا.

تريثوا حتى يمر سبوع الطفل الجديد أحمد الضبع، وحتى تفرح زكية بمولودها، وغصت العزبة بأنساء الشيخ الذين قدموا من كفر عزام يهنئون بقدوم المولود وبزوال الغمة، وقدم معهم أطفال وأولاد فى عمر بعض الأبناء فتحولت العزبة الهادئة إلى كيان حقيقى فيه من التنوع ما يغرى بالمتابعة والرصد، وتعلم أولاد الشيخ ألعابا لم يسمعوا عنها من قبل، فلقد علمهم أطفال وصبية كفر عزام التحطيب والحمارة الطويلة وطاحت وأولها خرة والبطة والطاقية فى العب والعشرة والعشرين وعسكر ومنسر والاستغماية وصَلّع، كما لعبت البنات الآل والنطة والطاب وغيرها من اللعبات التى أطارت الألباب، حتى أن الكبار منهم، موسى وسيد احمد ومحمد الطوخى وإبراهيم وسليمان كانوا مبهورين بكل شىء، ولا يصدقون أن الدنيا فيها كل تلك الأشياء الرائعة.

وجاءت ليلة السبوع فرأى الأطفال الجمال قادمة من بعيد، ولما اقتربت رأوا فوق ظهورها رجالا ونساء يجلسون فوق أخراج كبيرة تحمل فى جيوبها الحَبّ والفول السودانى وأقماع السكر والدواجن التى راحت تخرج رؤوسها لتستطلع ما يدور من حولها، ومن خلفهم ربطت عجلة صغيرة إلى عُدّة واحد من الجمال، وكانت تمنع وترفض الانقياد، لكن الجمل كان يجرها جرا فتضطر إلى السير بضع خطوات قبل أن تعود إلى سيرتها ويعود الجمل إلى جرها، ذلك المنظر الجميل سينطبع فى عقول وقلوب كل الأبناء، كبارهم وصغارهم، فتلك كانت أول مرة يشعرون

فيها بأن لهم فى المنطقة أقارب يزورونهم ويحملون إليهم الهدايا، كما يفعل الناس فى كل مكان، ولما وصل الركب أناخ الرجال جمالهم، حملوا الأخراج من فوق ظهور الجمال وتسلم أحدهم العجلة وتوجه بها إلى الحظائر، وترجعت فى سماء العزبة زغاريد طويلة طاردت بقايا الكدر فى الأركان.

كل شيء جرى فى تلك الليلة البعيدة كانت له فى عقول وقلوب أبناء الشيخ أحمد السرسى معان جديدة ورائعة، حتى وقائع الاحتفال بالسبوع والتى عاشوها من قبل كانت لها فى تلك المرة معان جد مختلفة، لا تتعلق بالشموع الكثيرة التى أشعلوها، ولا الغربال الكبير الجديد والحبوب السبعة المخلوطة بجريش الملح الخشن، والتى نثروها هنا وهناك، قمح وشعير وفول وعدس وذرة وبرسيم وحلبة، ولا تلك الروائح التى انطلقت تعبق بشذاها أجواء الدور كلها، والتى يحدثها قلى عجوة البلح فى سمن الضأن، ولا رائحة شراب الحلبة والمغات اللذين يتناولونهما منذ يوم قدوم المولود الجديد، لا ولا تلك الأغانى الجميلة التى يغنونها والتى ألهبت حماس الأم الخبيرة فجلست على سريرها دون مساعدة من أحد وراحت هى الأخرى تغنى.

كل ذلك لم يكن هو فقط الذى أعطى لسبوع الطفل الجديد المعانى المختلفة، ولكنها أشياء عدة أسهمت فى إعطائه كل معانى روعته، فى أجواء ذلك اليوم اكتشف سيد احمد أنه كان مخطئا، أسر بهذا إلى جدته مريم وإلى أمه، وكاد يعترف به لأخيه الأكبر لولا ذلك الشيء اللعين الذى

يجعلهما يتواصلان عبر النظرات الشاردة نحو المجهول وليس عبر الكلمات، وفي تلك الأجواء أيضا اكتشف محمد الطوخى أنه قريب جدا من أخوته، وليس كما كان يظن عندما استسلم لغواية النقود التى يعاون أمه فى عدها وإخفائها، وأنه يحب موسى أكثر من اى أحد آخر، وفيها أيضا أدرك الشيخ أحمد السرسى أن أبناءه لم يعودوا أطفالا، بل صاروا رجالا يمكنهم الذود عن عزبتهم، بل والفتك بخصومهم إذا لزم الأمر، وأدرك يقينا أن التنافر الحادث بين ولديه موسى وسيد احمد يمكن أن يتحول إلى تناغم يثرى الحياة فى عزبتهم الصغيرة، كما اكتشفت مريم أن ابنها الشيخ الذى دخل من أقرب طريق إلى قلوب عمد المنطقة وأعيانها لما يزل فى حاجة إليها، وهى التى أعجزها فى السنوات القليلة الماضية الإحساس البغيض بعدم الجدوى، وبأنها لم تعد صاحبة السلطة الأولى فى أمور العزبة، فلقد صارت بيوتا متعددة بعد أن كانت دارا واحدة.

لكن أهم ما جرى تلك النظرات التى صوبتها لموسى فتاة قدمت مع الركب القادم من كفر عزام، كانت راكبة فوق أحد الجمال وكادت تسقط وهم ينيخونه، أسرع ليمنع سقوطها وامتدت يده ليمسك بها، قسا عليها بقبضته فأرسلت إلى وجهه نظرة خجولة ومتألمة، نظرة جعلت قلبه ينفطر لحاله، ومنذ تلك اللحظة لم يعد الفتى كما كان من قبل، كيف رققت تلك النظرة من خشونة فتى الغيطان فجعلته يسرح فى خيالات رحية وطيبة؟!، وكيف حرمت عليه النوم وجعلته يهوى الصمت والعزلة؟!، ويتمنى لو يسافر ليرى كل شيء ويتأمله من بعيد؟!، بل كيف جعلته يحب

كل شيء، ويغفر لكل من أساء إليه، حتى مساعد السمداني؟!، وكيف تاقت نفسه إلى حياة الحضر ورأى في الانعزال في الغيطان شيئا من الجهامة في وجه الحياة؟!.

أول من تنبه إلى التغير الذي حدث له كانت حورية، فالوجه الذي أيقظته في الصباح لم يكن أبدا وجه ابنها الذي اعتادته في السنوات الأخيرة، فيه شيء من العذوبة، أحسن حلاقة ذقنه، جلس بالأمس أمام داوود حلاق والده وطلب أن يزيل شعرها الخشن، ولما استيقظ في الصباح سوى شعره الذي كان على الدوام منكوشا، ابتسم في وجهها ابتسامة لا تخطئ دلالتها أم، وعندما بدل ملابس نومه ارتدى جلبابا جديدا لم يضعه على كتفيه من قبل فبدا شابا رائعا، دمعت لمرآه عيناها، و لم يلبث أن توجه إلى دار عمته زكية متعللا بالرغبة في رؤية الصغير أحمد الضبع الذي لم يتمكن من رؤيته وحمله بالأمس. استمهلته ليتناول فطوره فعاد وتناول شيئا منه وهو واقف على عجل، ثم انصرف إلى مقصده متلهفا.

هناك كانت عمته سرية تقوم ببعض الأعمال، رأته وهو يصفق بيديه مستأذنا في الدخول فابتسمت بطرف عينيها، ليس في العزبة كلها شخصا، رجلا كان أو امرأة في حدة إدراك عمته سرية، هي التي ستلهمه الصواب فيما ينتويه، وطالما هي هنا فلا بأس في أن يجاذبها أطراف الحديث، وفهمت العمة الأريبة مراده فقالت:

– عمتك لا تزال نائمة.

وسوت طرحتها فوق رأسها وأردفت:

– والضبع الصغير يغط في نوم لن يستيقظ منه قبل ساعة.

وضحكت ملء فمها واستطردت:

– أما الضيوف فقد رحلوا مع الفجر.

وعقدت لسانه الدهشة، وهمهم:

– رحلوا؟.

وبرغم أنها سمعت همهمته وأدركت مقصده إلا أنها هبطت إلى صحن الدار لتعلف الدواجن والحمائم التى تربيها زكية وتركته واقفا فى الصالة لا يعرف كيف يعود إلى نفسه.

الجميع كانوا فى تلك الحالة التى وجدوا أنفسهم عليها بالأمس، وأدركت مريم أن الظرف مناسب لتنفيذ خطتها فأرسلت فى استدعاء سيد احمد، جاءها يخطر فى جلباب جديد، طوله الفارع ونحافته البالغة جعلها تتمنى بصوت مسموع لو أنه يقبل على الطعام ليملأ هذا الطول، فسيد احمد لا يحب الطعام، ولا يقبل عليه إلا لسد رمقه وإسكات جوعه، وما عدا ذلك ليس شيئا ذا بال، لا يطلب أبدا أنواع بعينها من الأكل، ولا يفضل طعاما على طعام، كله طعام، فقيره ودسمه، جافه ولينه، ابتسم كعادته وقال:

– ألم تقولى إن الزواج سيفعل ذلك؟!.

أطلقت ضحكة رائعة وسألت:

– أوقعت على عروس؟.

فعابثها كعادته:

– ازيحى موسى من طريقى فأقع على العروس فى يوم واحد.

أخرجت من صدرها تنهيدة حارة:

– يتمنى أبوك لو يزوجكما في ليلة واحدة.

فابتسم:

– يفتح الله يا ستي، زوجوه أولا.

وأدركت أنه في حال تسمح بالمضي في خطتها فطلبت أن يرافقها إلى الغيط، فلقد حان وقت الاجتماع المتفق عليه.

وجدته أمام منبرة الغيط يستمتع بشمس شتوية، جالسا على حصيرة صغيرة ومسندا ظهره إلى مسند قطني يبعده عن صلابة الجدار، لم تعرفه لأول وهلة، وعندما هب واقفا ليستقبلها تعجبت، تبدلت هيئته في يومين اثنين، وتناول يدها ليقبلها فرأت شعره المرجل أسفل الطاقية التي أرجعها إلى الوراء، كان جميلا في ذلك الضحى البعيد، راحت تراجع نفسها فيما ظنته فيه، فلكم ظنت أنه نبت خشن لا يصلح إلا للغيطان، وهي الآن ترى حفيدا رائعا، يرتدي جلبابا صوفيا رماديا ويضع على رأسه طاقية من الوبر، وفي بنصر يده اليمنى خاتم من الفضة بفص رائع من العقيق الأحمر، وعند حافة الحصيرة يصطف مركوب من جلد السختيان الأحمر، لم تره لديه من قبل، وإذ رآها تنظر إلى هيئته متعجبة قال:

– ذهبت إلى السيلاوين، وعرفني صديقي حسن الكفراوي برجل له خان لبيع المراكيب يدعى أبو ستة، وقطعت هذا الجلباب من خان اسماعيل السروي وفصلته لدى العبادي الخياط.

جلست، و لم تجد إلا أن تقول:

- إذن فأنت من يجب أن يشترى الكسوة للأسرة.

جذبته من يده لتجلسه، كان عازفا عن الكلام منذ جاء إلى الغيط فى الصباح، وأجبره قدوم جدته على الحديث، فها هى تأتى إلى الغيط، وهى لا تأتى إلا لداع لا يحتمل التأجيل، وتساءل: ترى ما الداعى لقدومها؟!، ولم تتركه كثيرا لتخميناته.

يعرف أن جدته حصيفة، وقائدة يندر وجودها، لكنه لا يتصور أنها لا تزال تحمل فى قلبها هموم أسرتها الكبيرة، الدور الأربعة ونسائها وفتيانها وأطفالها، ونظرت فى عينيه الصافيتين تنتظر كلمته فأجابها:

- فات الوقت يا جدتى.

واطرق إلى الأرض آسفا، نحى طاقيته فظهر شعره المرجل فاحما، ومن أعلى رأسه تراقصت أهدابه الطويلة فخيل إليها أنها مبللة بالدموع، وبدلا من أن تتكلم هى انطلق يقول:

- سيد احمد ليس أخى الأصغر كما تقولون، هو قرينى ورفيق عمرى، ما بيننا بضعة أيام لا تستأهل ذلك القيد الكبير الذى تضعونه فى عنقه.

ورفع رأسه:

- لا أطلب أن يعاملنى على أننى أخوه الأكبر، أنتم الذين تطلبون، فإذا كان يستقل فرضكم فإن العقل هو من يكون صاحب الفرض فى هذه المشكلة.

تساءلت مندهشة:

- تقول مشكلة؟!.

أجابها متحديا:

– نعم يا جدتي، مشكلة، وإذا شئت الدقة هي مشكلة كبيرة، قد تذهب بكل العرى بين الأخوة.

راحت تتمتم:

– لا حول ولا قوة إلا بالله.

وكان مصمما على المضي قدما:

– اتفقنا أن العقل هو صاحب الفرض في هذه المشكلة، والعقل يقول إن استمرارنا أنا وهو في نفس المركب سيغرقها، فلا هو سيرضى بأن أقود المركب، ولا بأن يقودها هو، وإن صار لها رئيسان تغرق، إذن...

وصمت قليلا فكاد قلبها يتوقف، ووجدته يقول:

– يقسم أبي الأرض بيننا، يعطيني نصيب أمي لأختص به أنا وإبراهيم السيد، وليأخذ هو نصيب أمه ليختص بها هو وأخوته، وساعتها لن يكون بيننا إلا المودة والأخوة، ولا شيء غير.

لم تكن تعرف أن فتاهم البرى يمكنه الحديث بمثل المنطق الذى تحدث به، فلقد أدهشها كما فعل فى ذلك اليوم الذى أخذ منهم العقود وردها إلى أبيه، واليوم هو مصمم على الفراق ولكن بحجة منع تفاقم الموقف، وهى حجة بالغة الوضوح والصحة، فسيد احمد المتأرجح بين الانصياع لأخيه وبين الاستقلال عنه سينحاز إلى الاختيار الأخير فى النهاية، وبرغم وجاهة الفرض الذى يفرضه العقل كما يقول حفيدها فإن البائس الوحيد فيه لن يكون إلا ابنها، الشيخ الذى بلغ من السن نيفا وأربعين عاما، وبدلا

من أن يخلد إلى الراحة وينعم بثمار كفاحه ها هو يواجه انقساما فى أسرته وهو على قيد الحياة، بل وفى أوج قوته.

رأت عزم الفتى أكيدا، لا يرده شىء، اللهم إلا إذا رفض أبوه، ساعتها ستكون للموال نهاية حزينة، الاتفاق بينها وبين سيد احمد أنها إذا رأت تجاوبا من موسى مع مشروعها ترسل فى طلبه، لم تكن لتجمع الأخوين على لا شىء، ورأت أن تقترح شيئا قريبا مما قاله موسى، بدون قسوة، تعقد اللواء لموسى على أن يكون لسيد احمد الرأى فيما يقوم به، وبخاصة فى النزاعات التى تهم الأسرة كلها، وحسنا فعلت إذ هى اشترت من حفيدها قبل أن تبيع له أى شىء، فالذى قاله موسى لا ينبئ عن نفس تواقة إلى الرئاسة أو السيطرة، وإنما هى همة يراها موظفة لصالح الأسرة، لا يضجر منها إلا سيد احمد، الذى يملك القدرة على استمالتها إلى جانبه هى وأبيه، والذى قاله موسى يقطع الطريق على أى خلاف، ولكن كيف السبيل إلى مفاتحة ابنها فى الأمر؟.

لم ترسل فى طلب سيد احمد كما وعدت، أجهز موسى على مشروعها من الأساس، ورآها سيد احمد عائدة فدق قلبه من الجزع، أتراه رفض أن يسامحه؟!، أتراه توعده فغضبت وغادرت؟!، كل الأسئلة جالت بخاطره المهموم وهو يراها تكاد تنكفئ على وجهها وهى تسير فوق الطريق الضيقة، لكنها وصلت بعد مشقة، وقصدت من فورها إلى دار زكية، وفيما هى تحمل الرضيع بين يديها وجدته شاخصا قبالتها، زكية كانت تمارس أولى خطواتها خارج الدار، فهى منذ رحل ذووها بعد الفجر ملأت حجرتها بكاء، وألحت فى طلب بقاء عز ابنة أخيها لكن أمها

رفضت بشدة، فالدار التى تموج بهذا العدد من الشبان لا يصح أن تبقى فيها فتاة فى سن الزواج، هذا ما قالته، وكانت قد راقبت موسى وهو ينظر لحفيدتها وتخشى إن هى تركتها أن يزداد الأمر رسوخا ويوقع الفتى بها.

زكية احتفظت لنفسها بما قالته أمها عن موسى، فقط صححت لها مفاهيمها الخاطئة، قالت إنه لولاه لكانت العزبة كلها تحت رحمة السمدانى، وأضافت إنها لاتعرف لو أن فتى مثل موسى لم يكن هنا ما الذى كان يمكن أن يفعلوه. كل ذلك لم يشفع لطلبها، واصطحبت الأم العنيدة حفيدتها التى تمنت لو توافق جدتها على طلب عمتها، لكن الجدة التى لاحظت تلكؤها قرصتها فى ساعدها قرصة آلمتها، فانسحبت إلى خارج الدار والدموع تملأ عينيها، ورحلت مع الراحلين، حتى من دون أن تودع عمتها، وبعد أن هدأت نفسها ونظرت إلى الأمر فى روية فهمت زكية الأمر على حقيقته، ورأت رأى أمها، فلم يكن يليق أبدا بالفتاة – هكذا أكدت لنفسها – أن تبقى فى دار تغص بالشبان.

بودها لو استطاعت أن تحكى كل ما دار لحماتها، فمن جهة تقترب منها أكثر إذ تصارحها حتى بما يجمل أن تخفيه، ومن جهة تجس النبض حول رغبة موسى فى ابنة أخيها، فهو ليس مجرد شاب فى سن الزواج، وهو أيضا ليس مجرد شاب قوى مهيب يحسب له الناس ألف حساب، إنه ابن الشيخ أحمد السرسى، كل هذا كانت تعده لتقولها لحماتها، لكن مجىء سيد احمد منعها من الاسترسال، فأرجأت إكمال الحديث إلى وقت آخر، وحمدت لحماتها أن طلبت من سيد احمد أن يسبقها إلى الدار القديمة، إذ خرج الفتى على الفور متوجها إلى حيث قالت، ولكن بعد أن

انحنى بطوله الفارع فوق أخيه الوليد وطبع قبلة رقيقة فوق جبهته الحمراء المليئة بالزغب.

فهمت مريم سر التأنق الذى رأت عليه حفيدها الأكبر، وأدركت أنه مقبل على مشروعات عديدة، كبيرة ومتشابكة، الرغبة فى الزواج والاستقلال والانكفاء على الذات، وكل مشروع منها يكفى بذاته ليستغرق كل وقته، لكنها لم تستطع أبدا أن تفهم كيف لم تلحظ ما لاحظته جدة الفتاة وهى التى كانت محيطة بكل ما يدور فى حفل السبوع، أو هكذا كانت تظن، وتساءلت: أيكون ما قالته زكية صحيحا؟!، أم أنها وأمها تنسجان خيوطا حول الفتى وتلفتان نظره للفتاة؟!، ولم تنكر فى نفسها أنها هى الأخرى انبهرت بجمال الفتاة وخفرها، وبعودها الذى يشبه إلى حد كبير عودها وهى فى مثل سنها، وانبهرت أكثر بعينيها المكحولتين المشروطتين اللامعتين بذكاء أنثوى أخاذ، وتعجبت إن كان الفتى يرغب فيها حقا فلماذا لم يفاتحها أحد فى الأمر، ولكنها سرعان ما أجابت، فالأمر ابن يوم واحد، وربما يكون موسى فى مرحلة استجماع النفس ليرى ما يكون، وساعتها لا بد سيطلب عونها ومشورتها.

فى الدار القديمة كان سيد احمد يجالس أباه، كانا يتجاوران فوق كنبة صغيرة وضعت فى الصالة بين بابى حجرة الجدات وحجرة عمته حورية، وعندما دخلت ساد الصمت، ووضح أن الشيخ يبحث عن وجهة أخرى للحديث، وابتسمت فى داخلها، فما يخفيانه سيكون فى متناولها بعد دقائق، وحتى إذا لم يكن ما تتوقع فإن ما لديها يفوق بمراحل ما يحاول حفيدها وابنها أن يخفياه، وأزاحت الطرحة عن رأسها فبانت جدائلها

منسدلة على ظهرها، فيها ظهرت الشعيرات البيضاء فأعطت الضفائر لونا رماديا، وبعد أن تفقدت الأم الخبيرة فى حجرتها سألت:

– اى سر تخفيانه عنى؟!.

وضحك الشيخ ضحكته الصافية، هو أعرف الجميع بأمه، فهى إذا ارادت أن تعرف شيئا تصنعت المزاح وهى فى الحقيقة تقصد ما تقول، ولكى لا يتفاقم الأمر اجابها:

– شأن من شئون سيد احمد سيسعدك.

فسألت مندهشة:

– لا تقل إنه يريد أن يتزوج هو الآخر!.

فأغرق الشيخ فى الضحك، وسأل:

– وهل من آخر يريد الزواج؟!.

فأجابت بصوت ملؤه البهجة:

– ألم تمنى تزويجهما فى ليلة واحدة؟!.

ونظرت إلى وقع حديثها فى نفسيهما ثم قالت:

– إفرح يا ابن السرسى فموسى هو الآخر يريد أن يتزوج.

وعاد الشيخ ليسأل:

– هل قال من؟، أم طلب أن تبحثى له عن عروس؟.

فأجابت وهى ترقب أطياف القلق تدور فى وجهه وتتقاطر من لحيته:

– لا هذه ولا تلك.

– فزورة؟.

– ابدا، زكية أخبرتنى أنه لم يرفع عينيه عن عز ابنة أخيها ليلة أمس.

واغرقت فى ضحك قلق وهى تستطرد:

– وأصبح الصبح فإذا به وقد حلق ذقنه ولرتدى جلبابا صوفيا جديدا ووضع طاقية من الوبر على رأسه بعد أن رجل شعره إلى الخلف، ووضع خاتما فى إصبعه، وفى رجليه مركوبا من عند أبى ستة.

نزل كلامها على رأسيهما كالصاعقة فأدركت على الفور ما كانا يتحدثان فيه، وحرصا على أن يخفياه عنها إلى حين.

ما قامت به مريم فى ظهيرة ذلك اليوم البعيد سيظل فى تاريخ أسرتنا من الأسرار التى لم تبح بها إلا قرب رحيلها. تقول الحكايات إنها ما أن أدركت ما كانا يتحدثان بشأنه حتى تداركت نفسها وعادت إلى مرحها، وراحت تقص عليهما ما كان من أمر الفتاة وجدتها، فلقد لمّحت زكية إلى أن الفتاة قد مالت هى الأخرى إلى موسى، وأنها وهى ترحل مع ذويها كانت تتلفت فلعلها تراه فى أى مكان، فى العزبة أو فى الخلاء المحيط.

جزء كبير مما قالته لم يكن له أصل، فقط أرادت أن تقطع الطريق على معركة أخرى بين الأخوين، وبرغم أنها وهى تحكى رأت وجه سيد احمد يمتقع مرة ويحتقن مرة إلا أنها واصلت الحكى، فالمطلوب أن تجهز تماما على أى أمل له فى الفتاة التى هفا إليها قلب أخيه، وستظل هذه الحكاية الرقيقة سرا من الأسرار الشديدة الخصوصية فى محيط الأسرة القديمة، إلى أن تطلقها مريم من عقالها وتجعلها معروفة، وحتى بعد أن أطلقتها من عقالها

وعَرَفَت بها احتفظت بخصوصيتها، حتى أنها لم ترد على لسان أحد من أبناء موسى، وصارت من خصوصيات أسرة سيد احمد، تقولها عنهم جدتى لأبى انتصافا لجدها سيد احمد «الثالث»، ويرددها أبى تحقيقا للتوازن الذى صرحت به فى الرواية الأولى «الخروج»، فلقد كان ينتمى إلى كلا الرجلين، موسى «الثانى» وسيد احمد «الثالث».

لم يعرف موسى أبدا بما دار بين جدته وأبيه وأخيه، فقط نقلوا إليه خبر حديث جدته مع أبيه حول مسألة إعطائه وسيد احمد أرض أبيهما ليتخفف منها، وليكون كل منهما مسئولا عنها، سواء تلك التى استصلحت وتمت زراعتها، أو الأخرى التى لا تزال تحت الإصلاح.

وكانت بعد انصراف سيد احمد الجريح قد فاتحت ابنها فى الأمر، على أنه من عندها هى وليس من لدن موسى، وكان ذلك التصرف منها هو الذى ساعد على أن يوافق الشيخ، ولكن بتعديلات، كان لما يزل واقعا تحت صدمة ما قصته عليه وعلى سيد احمد من أخبار رغبة موسى فى الزواج من عز فاستمهلها أسابيع ليضيف إلى الاقتراح التعديلات التى تدور فى ذهنه ولا يستطيع التعبير عنها فى ذلك الظرف.

تقول الحكايات إن سيد احمد سرعان ما تجاوز محنته وقتل فى داخله أية رغبة فى الفتاة التى اختارها أخوه لنفسه، وعندما اصطحبه أبوه ذات يوم إلى شبراهور ليريه فتاة هى ابنة أحد أصدقائه امتثل لمشورته، وأصر على اصطحاب موسى معهما، حتى إذا ما رأى الفتاة ورأى فى عيون أبيه وأخيه الأكبر أنها مناسبة أعلن أنه يقبل بها زوجة، لكن الشيخ رفض الإعلان عن رغبة ابنه قبل أن يعود إلى داره ويستشير أمه وجدته الأم الخبيرة، ويستشير

سرية التى أرادت أن تصاحبهم ولكن رغبتها ووجهت بالرفض، خشى الفتى أن تتعارض رغبة أبيه مع رأى أمه فى الفتاة، وقبل أن يغادروا إلى شراهور انتحى بأمه جانبا وانحنى يقبل يدها، ثم طلب منها فى أدب أن تبقى فى الدار ولا تذهب معهم، ومن بين دموعها - إذ كانت تدرك أزمة ابنها الحقيقية - وافقت على البقاء، واحتضنت ابنها طويلا لتسرى عنه.

فى الأسابيع التالية حدث كل شىء، تزوج الولدان فى ليلة واحدة، ودخل كل منهما بعروسه، موسى فى الدار القديمة حيث أفردوا العز حجرة مستقلة، وسيد احمد فى دار أمه حيث أفردوا الفاطمة حجرة مستقلة أيضا، على وعد بالبدء فى بناء دار جديدة لكل منهما فى القريب العاجل. فى تلك الليلة الشتوية البعيدة أضيف إلى الأسرة فتاتان كانتا تتنافسان فى كل شىء، حتى فى التباهى بزوجيهما، لكنهما سرعان ما انخرطتا فى أجواء الأسرة وتشربتا عاداتها وتقاليدها ومعتقداتها الخاصة، وعندما كانت إحداهما تفعل شيئا كانت ابنتا العم حورية وسرية تجتمعان لتقررا كيفية التصرف حيال ذلك، و لم تفلح واحدة منهما فى إثارة الفرقة بين ابنتى العم أو بين الأخوين، والتزمتا جادة الصواب، وسرعان ما حملت كل منهما فى مولود سيرى النور عما قريب.

تسلم موسى وسيد احمد الأرض التى أعطاهما إياها أبوهما، فبعد إجراء حسابات معقدة انتهى الشيخ إلى عبثية الفكرة التى ترمى إلى تسليم الشابين أرض أبيهما وترك الباقى له ليقوم على زراعته، فذلك هو بالتحديد ما كان قمينا بإفساد ابنى شام، محمد الطوخى وشقيقه إسماعيل، لذا وجد أن الأجدر بالاتباع هو أن يسلم الأرض كلها لأبنائه، كل حسب حصته،

وبعد أن أعطى كل من موسى وأخوته إبراهيم والسيد، وسيد احمد وأخوته سليمان وفاطمة وأم الرزق ربع الأرض المنزرعة وكانت تقريبا خمسة عشر فدانا لكل فريق، عاد وأعطى كل فريق أيضا خمسة أفدنة حصة كل من زوجتيه حورية وسرية في ميراث الجدة الكبرى الراحلة، ثم عاد وأعطى كل من الفريقين أيضا عشرة أفدنة من حصة أمه مريم يزرعونها لحسابها مقابل نصف محصولها، كما وأعطاهما أيضا خمسين فدانا من الأرض الغير مستصلحة لكل فريق خمسة وعشرين فدانا هو حصة أميهما بمقدار الربع، وأعطاهما كذلك خمسة عشر فدانا لكل فريق نصيب أميهما في تركة الجدة الكبرى الراحلة، فضلا عن اثنى عشر فدانا ونصف الفدان لكل فريق هي نصيبهما في حصة جدتهم مريم، يستصلحونها لحسابها ومقابل ذلك يحصلون على ريعها خمس سنوات بعد الاستصلاح.

صار بحوزة كل من الفريقين أرضا تربو على الثمانين فدانا منها ثلاثين تزرع وتنتج كل أنواع المحاصيل، وعاد ليقسم باقى الأرض على أبنائه الآخرين، أعطى لمحمد الطوخي وأخيه إسماعيل عشرة أفدنة من نصيب جدتهما مريم يزرعها محمد لحسابها، وفرض مثلها لطفل زكية، وأعطى لابنى شام أيضا اثنى عشر فدانا ونصف الفدان من الأرض الغير مستصلحة ليصلحوها لحساب جدتهم مريم بنفس الشروط التى فرضها على أولاد حورية وسرية، وفرض مثلها كذلك لزكية وطفلها، وتبقى من الأرض المنزرعة أربعين فدانا، إذ كانت الأرض المنزرعة كلها مائة وعشرين فدانا، وبقى من الأرض الغير مستصلحة سبعين فدانا قسمها على أبنائه بالربع، فأعطى لكل فريق عشرة أفدنة منزرعة وسبعة عشر فدانا ونصف أرضا

غير مستصلحة، يزرعون الأولى لحسابه وحساب جدته الأم الخبيرة مقابل نصف المحصول ويستصلحون الثانية لحسابه أيضا ولحساب جدته الأم الخبيرة مقابل الحصول على ربعها خمس سنوات بعد إتمام زراعتها، وإذ تضررت زكية من الثلاثين فدانا الغير مستصلحة والمفروضة لابنها الرضيع أمر بإعطاء عشرة منها لموسى وإخوته ومثلها لسيد احمد وأخوته.

تلك كانت ملكيات الأسرة بأفرعها المختلفة، موسى وأخوته يحوزون مائة وعشرين فدانا، منها أربعين منزرعة، وسيد احمد وأخوته يحوزون مثلها، ومحمد الطوخي وشقيقه إسماعيل يحوزان خمسين فدانا منها عشرين منزرعة، فيما يحوز الشيخ أحمد باسم ابنه الرضيع أحمد الضبع ثلاثين فدانا منها عشرين منزرعة، وإذا جمعنا نصيب كل فريق تصبح الأرض جميعها ثلاثمائة وعشرين فدانا هي مساحة الأبعدية التي روينا قصتها، والتي نافحوا عنها بكل قوة، حتى أنه اضطروا إلى ارتكاب وقائع الضرب والدهم وبتر الأعضاء، وقطع الألسنة ليذودوا عن اعتبار الأسرة وأرضها، وليردوا أي اعتداء عليها، ومن ثم يضمنوا لمسيرتهم المضي قدما في الطريق المأمول، وما أن راحوا يلعبون متبعين نفس القواعد التي ظن مساعد السمداني أن أحدا غيره لا يجيدها حتى كف عن المطالبة بالتحقيق في أمر رجله المعتدى عليه.

فی الطریق

فى ليلة صيفية من ليالى شهر يوليو من العام 1854، وبينما كانت القوات المصرية تخوض حربا شرسة ضد القوات الروسية المهاجمة التى تستهدف الامبراطورية العثمانية وسلطانها عُثِر على الوالى عباس مقتولا فى قصره، وكانت فرنسا هى الرابح الأول من إزاحته، تولى الحكم من بعده عمه محمد سعيد باشا، والذى سعى إلى إصلاح أحوال الفلاحين وقدم إليهم لائحته الشهيرة باسم اللائحة السعيدية، والتى صارت قاعدة التشريع الخاص بملكية الأراضى فى مصر، بموجبها تمتع الفلاحون بوجه عام بحق الملكية العقارية للأراضى الزراعية، بدءا من ملكية الرقبة وحتى انتقالها إلى الخلف بالميراث، واقترن ذلك بإلغاء الاحتكار فأصبح الفلاح حرا فى زراعة أرضه بما يشاء من المحاصيل وبيعها بالثمن الذى يرتضيه، وتنازلت الحكومة عن الديون وألغيت ضريبة الدخولية التى تجبى على الحاصلات والسلع المتبادلة فى داخل البلاد، وواكب ذلك العودة إلى إحياء بعض المشروعات الكبيرة، ولكن الوالى الجديد وبرغم استنارته كان مسلوب الإرادة أمام كل ما هو أجنبى، و لم يكن لديه ذلك الطموح الذى

ملأ أباه وأخاه إبراهيم فى إنشاء دولة عصرية مستقلة، وجنى على مصر جنايته الكبرى التى مهدت للتدخل الأجنبى، إذ منح صديقه ديليسيس امتياز حفر قناة السويس، وفتح باب الاستدانة من المصارف الأجنبية بفوائد تصل بالمبلغ المقترض إلى أضعاف أضعافه، وانفتح باب التدخل الأجنبى الأوروبى حتى صارت مصر فى عهده محط أنظار المغامرين والأفاقين وأصحاب المشروعات الوهمية، والباحثين عن الثروة من أى طريق.

لكن أخطر شيء كان تركه الفلاحين نهبا للمرابين الأجانب الذين تقاطروا على البلاد من كل صوب، فكأنما ألغى الاحتكار لتصير التجارة الداخلية فى أيدى الأجانب، الذين تهربوا من الضرائب مستفيدين من قيود الامتيازات الأجنبية، فإذا ما أضفنا إلى ذلك اتباعه لسياسة الباب المفتوح فى التجارة بنوعيها الخارجية والداخلية أمكننا معرفة الأسباب التى من أجلها تم القضاء على الصناعات المحلية الصغيرة قضاء مبرما.

لو أنك نظرت إلى عزبة الشيخ أحمد السرسى فى تلك الأيام البعيدة لعجبت من أمر أسرار الاجتماع الإنسانى بكل جوانبه، فها هى العزبة تنمو نموا كبيرا فى زمن قياسى، والدار القديمة التى صارت أربعا أصبحت الآن عشرا، بنيت على أساس أن تتحلق حول الدار القديمة والمندرة الكبيرة، فبالإضافة إلى موسى وسيد احمد تزوج محمد الطوخى وإبراهيم وسليمان، وبنى الشيخ أحمد أو سمح لكل واحد من أبنائه أن يبنى دارا مستقلة، يذهبون إليها وقت النوم، أما طوال اليوم فإن كل فريق كان يعيش فى كنف الأسرة التى تتبع الأم معيشة كاملة، يعملون معا ويطهون الطعام لأنفسهم

ولأنفار الزراعة فى الغيطان معا ويأكلون معا، وفى الغيطان يزرع كل فريق أرضه على السوية، وبالإضافة إلى ذلك كان موسى وسيد احمد يزرعان أرض أخيهما أحمد الضبع الذى كان فى ذلك الوقت طفلا تلاحقه أمه فى كل مكان، وتخشى عليه من مجرد الهواء، وتتحسب لأى طارئ حتى ولو كان وهما، و لم تكن تكف عن ملاحقته بالطعام حتى صار بدينا ثقيل الحركة، و لم يفلح فى إثنائها عن ذلك كل محاولات ضرائرها وأخوة إبنها، بل إن محاولات الشيخ أحمد نفسه والجدة مريم ذهبت أدراج الرياح، إذ كانت زكية تواصل تقديم الطعام لطفلها فى الخفاء حتى «لا ينظر أحد فى اللقمة التى يتناولها»!!.

الناظر إلى العزبة فى تلك الأيام البعيدة أيضا سيدرك أن الأم الخبيرة رحلت، فالجدة مريم هى الوحيدة التى تسكن حجرة الجدات، تقوم على خدمتها البنتين فاطمة وأم الرزق بنتى سرية، وكان يحلو لها أن تنعم فى كل صبح برؤية أبناء أحفادها، فكانت عز زوجة موسى تحضر لها صغيريها زكريا وعبد الرحمن فيما تأتيها فاطمة زوجة سيد احمد بصغيريها يحيى ومريم، وتظل تلاعبهم لفترة، وقد تطعمهم بعض الحلوى، حتى إذا جاء وقت الظهيرة عادت الزوجتان لتأخذا أطفالهما، فالجدة مقبلة على استكمال طقوسها اليومية التى لا تتغير، فهى تستيقظ قبل الفجر بساعة، تتوضأ وتسلم وجهها للقبلة تدعو لابنها ولأحفادها ولأبناء أحفادها كل باسمه، ثم تدعو للأموات من أول جدها الأكبر سيد احمد الأول مرورا بكل الأسلاف اللاحقين، تنخرط فى صلاة الفجر ولا تفرغ منها إلا مع تباشير الصبح، عندما تصيح الديكة من دور ابنها وأحفادها، فتستلقى

على جنبها ساعة، قد تقضيها فى النوم أو فى التسابيح والأدعية التى توارثتها الجدات على مدى الأجيال، وتستيقظ عند طلوع الشمس، ويكون إفطارها جاهزا، تقدمه لها حورية أو سرية، وفى الغالب تقدمه لها الحفيدتان فاطمة وأم الرزق، وبعد أن تلهو قليلا مع أبناء حفيديها تكون الشمس قد علت فتوضأ من جديد وتصلى ركعتين للضحى، ثم تعود لتلهو مع الأطفال ساعة قبل أن تأمر بصرفهم لأميهم وتتهيأ لصلاة الظهر، ربما تنظر فى الحجرة من حولها بعد أن تفرغ من الصلاة فترى طيف جدتها الكبرى فى الركن البعيد أو تشم الروائح الزكية للأم الخبيرة فى السرير المقابل، ولا تشعر إلا وعيناها تذرفان الدمع، ففى هذه الحجرة بالذات، حجرة الجدات، تقررت كل مصائر العزبة، التى راحت تتسع يوما بعد يوم حتى صار الرائى لها من بعيد يدرك أنها عزبة حقيقية، وليست مجرد دار فى الخلاء.

ويجيء العصر فتكون قد نالت بعض النوم فى قيلولة قصيرة تعمل كل الأمهات على جعلها هادئة، وإلا ثار الشيخ لأنهم يمنعون أمه راحتها وينغصون عليها قيلولتها، لكنها لا تصلى العصر فى حجرتها، تأمر بأن يسطوا المصلى فى شرفة الدار القديمة وتؤدى الصلاة أمام جميع من فى العزبة، من الأحفاد والزوجات والأطفال، وتظل جالسة هناك تدعو لكل من يخطر ببالها، من الأحياء والأموات، حتى إذا ما هدأت سورة الشمس فى الصيف أو مالت إلى الاصفرار فى الشتاء اعتمدت على كتف إحدى حفيداتها وهبطت السلمات القليلة وتجولت فى العزبة، تبدأ بدار شام، فتتفقد نظافتها وترتيبها، وقد تتفقد دواجنها وحمائمها، ثم تعرج على

دار زكية، وهناك تداعب أحمد الضبع قليلا، وقد يطلب منها الطفل المدلل أن تمكنه من الركوب على ظهرها لكنها فى كل مرة ترفض ضاحكة، وقد تقبض عليه وتداعب بطنه أو باطن قدمه فيغرق فى الضحك بعد أن تقول:

- قل لأمك أن تمنع عنك الطعام قليلا.

وكان هذا الحديث يحزن زكية، لكنها مرة بعد مرة اعتادت عليه و لم تعد تغضب، فلقد نبهها الشيخ أحمد ذات يوم إلى أن ما تفعله أمه فوق أى حساب، بل إنه يقبل التضحية بهم من أجل شعرة واحدة تسقط من رأسها، وكانت زوجاته كما كان أولاده يضحكون فى أنفسهم، فلطالما سمعوا هذا الحديث مرات ومرات، و لم يعص أحد منهم مرة أمرا للجدة مريم، و لم يتعرضوا مرة للتضحية بهم من أجل شىء لم يفعلوه.

وبعد أن تمر مرور الكرام بدور موسى وسيد احمد ومحمد الطوخى وإبراهيم وسليمان تعود إلى دار سرية، وهناك تتوضأ لصلاة المغرب، وفيما يجهزون طعام العشاء تكون هى قد أدت الصلاة فى الصالة وتهيأت للانصراف إلى الدار القديمة، حيث تلحق بها فاطمة أو أم الرزق وفى يدها طبق يحوى أشهى ما أعدته سرية لهذا المساء، تتناول العشاء فى صالة الدار القديمة هى وابنها الشيخ، الذى يلازمها من ذلك الوقت وحتى تهجع إلى حجرتها، حيث تصلى العشاء وتتهيأ للنوم، ولكنها لا تفعل إلا بعد أن تجاذب ابنها أطراف الحديث حول كل شىء رأته فى هذا اليوم، أو حول ما قد تراه من تحسينات يتوجب إدخالها على العزبة، أو من مشاريع ترى أن يسارعوا للبدء فيها، ومن تلك الجلسات الليلية شارك الشيخ فى

مطحنين بحق النصف، أحدهما في كفر غنام بالاشتراك مع واحد من عائلة هيكل، والثانى أقيم فى الغيطان قرب أبى الشقوق بالاشتراك مع أسرة من الحجايزة، وكان المطحن الأخير يسمى ماكينة الغيط، وفى تلك الاجتماعات المغلقة عليهما تقررت مصائر جديدة وتفتحت أبواب هائلة للرأى بين الأم وابنها.

لكنى لم أستطع أبدا أن استوثق من أمرين كان بطلهما الجد الأكبر موسى «الثانى» إما وحده أو ومعه شقيقه إبراهيم، الأول حول واقعة رغم أهميتها وردت فى الحكايات فى صورة جملة عفوية، والثانية حول حكاية خرافية أفردت لها الحكايات فصلا من فصولها الرحبة.

لنبدأ بالواقعة ذات الدلالة وخطورة الشأن، ذلك أن الأم الخبيرة كانت وقبل رحيلها تعانى كما رأينا من تباريح الشوق، وكانت تعطى ظهرها لكل شيء وتبدأ في التجوال فى شوارع سرس القديمة وأزقتها، وتتغزل فى دورها ودواويرها ثم تقف عند بوابة الدار الكبيرة وتأخذ فى مناداة كل شيء فيها، سلالمها الرخامية وعتباتها، ونوافذها العالية وأبوابها، وتنادى على غرفها غرفة غرفة، كأنها كائنات تسمع نداءاتها وتدرك مناجاتها وأشواقها، وبعد أن تتغزل في الدار من الخارج تلج إلى الداخل.

كل ذلك لم يفت فى عضد مريم ولا فى عضد الشيخ، فلقد مرت بهما سنوات عباس الأول كثيبة وثقيلة ومخيفة، وإذ خاضوا صراعا مريرا مع جارهم مساعد السمدانى وصل إلى ما تعرفون فإن الخوف من تفاقم الأمور جعلهما يصمان الآذان فى مواجهة النداءات اليائسة التى أطلقتها، وكان ذلك على نحو خاص يؤلم الأخوين موسى وسيد احمد، فهما

وحكايات سرس القديمة لما تزل على طزاجتها وعنفوانها كانا كبيرين بما فيه الكفاية، وبرغم أن واحدا منهما لم يرها أبدا و لم يمر حتى بجوارها أو ير أحدا من أهلها فإنهما كانا متضامنين مع جدتهما الأم الخبيرة، وكانا يبكيان لبكائها ويتمنيان لو استطاعا أن يعودا بها إلى هناك، ولو لمجرد أن تملأ صدرها لآخر مرة ببعض من هوائها.

فى الشهور الأخيرة من حياتها دارت دنيا الأم الخبيرة فى غرف الدار الكبيرة، حتى وهى تتناول طعامها، أو وهى تتجاوب مع الآخرين، إن كانت مريم أو حفيدها الشيخ أحمد أو زوجات حفيدها أو حتى أبناء حفيدها، كانت فى كل ذلك قد صنعت مزجا رائعا بين الواقع والخيال، تمثل فى إدراكها لكل ما يدور من حولها ومعرفة من يتحدثون إليها وصلتهم بها، كل ذلك كانت تدركه، ولكن على أنه يدور هناك، فى الدار الكبيرة فى سرس القديمة، وإذ أدرك موسى وسيد احمد ما صارت إليه حالها تحدثا إلى أبيهما فى شأن أخذها لزيارة بلدهما القديم، وكان حديثهما فاتحة حالة من الوجد أصابت العزبة كلها، وما فسره الأخوان موسى وسيد احمد على أنه غضب أبيهما لطرحهما الأمر عليه كان فى الحقيقة شجن بعثه الذكريات فى نفسه، لم يصدق وولداه يحدثانه فى الأمر أنه صار بالإمكان أن يعود أحد منهم إلى هناك.

وهى الحالة التى أصابت جدتهم مريم أيضا، كانت تتعثر فى خطوها كأنها لم تعد معنية بالنظر إلى الأشياء، وإنما إلى ما ورائها، وكانت هى الأخرى ترنو ببصرها إلى بعيد، حيث تغلق أبواب الدار الكبيرة من ورائها وهى تتجول فى الغرف الفسيحة، ثم تفتح النوافذ وتنظر من خلالها إلى

الغيطان البعيدة، والدور الواطئة المحملة بالأحطاب القديمة، ولكن شيئا جديدا طرأ على حالة الأم الخبيرة، ذات صباح أخذت تنادى على أبنائها الذين تبعثروا على طول الطريق من سرس القديمة إلى عزبة حفيدها، وهكذا لم يعد من مفر للتعامل مع الأمر بحسم، وبعد أن كانت الجدة مريم والشيخ أحمد يسوفان ويسوقان التبريرات، لم يعد بد من أن يقول الشيخ كلمته في الاقتراح الذى اقترحه عليه ولداه، موسى وسيد احمد، وكان الاقتراح بسيطا إلى أبعد حد.

ماذا لو حملا جدتهما وذهبا إلى هناك؟!، يمران بها عبر شوارع القرية في جولة يسيرة لتملأ رئتيها من هوائها ثم يعودون دون أن يلتقوا أحدا، أو يتحدثوا إلى أحد، وكما خرجوا من هناك على أنهم بدو يرعون قطعانهم لماذا لا يعودون وهم على نفس الهيئة، بدو ومعهم جدتهم، أو تجار يبيعون ويشترون، يقطعون بها القرية من شرقها إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها، ويمرون بالدار الكبيرة ودوارهم القديم ليروا ما الذى حدث في غيبة طالت لأكثر من ربع قرن، وقد يتزيدون فيعاينون مشوار الخروج في النهار، ويمرون بالمحلة في طريق العودة ليروا إن كان هناك أثر لرجل القطعان، وبقطارس ليعرفوا ما كان من أمر رجل الاستطلاع، إذ قد يعرف أحد منهما شيئا عن العمين الذين تركا غيطان كفر عزام إلى غير رجعة.

مريم طلبت إرجاء الأمر عدة أيام، أتراها روادها الحنين فرأت نفسها تعود إلى هناك؟!، على كل فإنها على مدى أيام ثلاثة صلت صلاة الاستخارة قبل النوم، ورأت في منامها رؤيا تكررت على مدى الأيام الثلاثة، رأت الأم الخبيرة تتجول في أنحاء العزبة الوليدة التى لم تكن إلا سرس القديمة،

وتعجبت كثيرا، و لم تفارقها الدهشة فى كل مرة، إذ كانت شابة تدق الأرض بقدميها، وبعد تكرار الرؤيا مرات ثلاث اقترحت على ابنها فى حضور ولديه موسى وسيد احمد، وفى حضور حورية وسرية أيضا، أن يذهب بها واحد منهما فقط، وليس الاثنان، لم يكن هناك أى غموض فى اقتراحها، فالعزبة الناهضة لا تتحمل غيابهما معا، هذه واحدة، والثانية هى أنه إذا حدث لا قدر الله مكروه فلا يصيبهما معا، و لم يملك الشيخ إلا أن يصادق على اقتراح أمه فأصدر أوامره بإعداد العدة للسفر، واختار موسى ليرافق جدته فى رحلة العودة إلى هناك، ومعه إبراهيم.

فى تلك الأيام البعيدة كانت العلاقة بين موسى وصديقه حسن الكفراوى قد توطدت كثيرا، وإذ وقع الاختيار عليه للعودة بجدته إلى هناك استأذن فى السفر إلى ديرب حيث التقى صديقه وأسر إليه بما هو مقبل عليه، وطلب معاونته فى إتمام الرحلة على أكمل ما تكون، كما طلب تزويده بعربة يجرها حصانان لترافقهما فى الرحلة الطويلة، واقترح عليه صديقه أن تبدأ الرحلة من العزبة إلى السنبلاوين، ومن هناك يأخذ الطريق الذاهب إلى ميت غمر، حتى إذا ما عبر النيل إلى زفتى يأخذ الطريق الصاعد إلى حدود المنوفية، تقابلهم شبين الكوم، ومنها يتجهون إلى منوف، وهناك سيجدون سرس الليان لما تزل فى مكانها، لم تبرحه، ولكن هذا الطريق فى حاجة إلى صحبة، إذ قد يهاجمهم قطاع الطرق وينهبونهم، وقد يقتلونهم، واقترح عليه صديقه أن يستأجر ثلاثة من أبناء الليل الذين يقيمون عند أطراف ديرب، فيخرجون معه بخيولهم، حتى إذا ما فرغوا من الزيارة عادوا من نفس الطريق.

الحال مع السـمدانى هادئة، والحدود الفاصلة بين الملكين امتلأت بالحشائش والغاب إلى درجة موحشـة، امتلاك مساعد للأرض بموجب ما تقرر من قواعد فى اللائحة السـعيدية جعله يقنع مؤقتا بما لديه، وكانت أكثر من خمسـمائة فدان أمكن إصلاح الكثير منها باستخدام العنف مع الفلاحين، وإذا فروا بزوجاتهم وأبنائهم يأتى رجاله بآخرين، ويجبرونهم على الزراعة بأجور أقل من أن تفى بإطعامهم. كان الأعرابى فى ذلك الوقت غارقا حتى ذقنه فى أمور استصلاح المزيد من الأرض ليكافئ ما قام الشيخ أحمد السرسى بإصلاحه، وكان ذلك كفيلا بأن يهدئ الحال فى المنطقة التى كانت قبل سنوات مسرحا لصراع كبير وصل خبره إلى كل قرى السـنبلاوين.

فى قلب الليل دخلت العربة ذات العجلات إلى العزبة، دخلت من جهة المقاطعة، و لم يرصدها من رجال السـمدانى راصد، وفى زمن قياسى وضعوا الأم الخبيرة فوق العربة، ومن تحتها حشية من القطن حتى لا تؤذيها صلابتها، وفى وداع مهيب وصامت انطلق موسى وإبراهيم بجدتهما الأم الخبيرة فى اتجاه برقين، ومن هناك أخذوا الطريق الذاهب إلى السـنبلاوين. الأم الخبيرة كانت ومنذ أسر لها سيد احمد فى أذنها بخبر الرحلة قد عادت إلى هدوئها، وبدلا من أن تنادى على الغائبين راحت تبتسـم فى صمت، وترفع بيديها المرتعشتين حاجبيها لترى على قدر ما يمكنها، وبدلا من الصمت الذى ران عليها سنين أفلحت فى أن تخرج صوتها بشكل إرادى لتنادى على أحفادها وعلى مريم، وتمد ذراعيها الواهنين لتحتضنهم وهى تنطلق فى رحلتها التى أعادت إليها الحياة.

أربعة من بين المودعين من أهل عزبة الشيخ أحمد السرسى وقفوا عندما تحركت العجلات بالركب العائد إلى هناك فى وداع الأم الخبيرة وقلوبهم تنخلع من أماكنها، الشيخ أحمد والجدة مريم والعمتين حورية وسرية، فلقد عاشوا هناك، وتنسموا عبير الحبية البعيدة، ربما يكونوا قد استغلوا الليل ليذرفوا الدمعات دون أن يدرى أحد، أصواتهم الخفيضة لم تكن لتفضح بكاءهم، كانوا يهمسون لبعضهم البعض وهم يودعون جزءا غاليا منهم، الأم الخبيرة، وموسى وإبراهيم اللذين كانا بصدد القيام بمغامرة ظلوا لأكثر من ربع قرن يتهيبون القيام بها. لا أشك أنهم مروا بأصابعهم وراحاتهم على عيونهم ليمسحوا الدمعات، حتى ليخيل إلى أنهم كانوا أقرب إلى حالة الأم الخبيرة عندما انطلقت تعيش بكليتها فى الدار الكبيرة وتنادى الغائبين.

فى الطريق إلى برقين تجنبوا الحديث إلى أحد ممن تصادف وجودهم على الطريق، وعندما نبحت عليهم الكلاب وطاردتهم وهم يمرون على القرى الراسية على الطريق كان ذلك مزعجا إلى حد بعيد، ومن مكانها فوق حشيتها اللينة فوق العربة التى يجرها حصانان جاءهما صوتها:

- تنبح على العائدين كما فعلت مع الخارجين.

إبراهيم طلب أن تحكى لهما قصة خروجهم من هناك، لكنها كانت مستغرقة بكليتها فى ذكريات بعيدة. و لم يكن ليخرجها أحد من البستان الذى تشم عبير أزهاره:

- كل الكلاب نبحت علينا إلا كلابها.

ولما سألها إبراهيم:

– كلاب من يا جدتي؟!.

أجابته هذه المرة:

– كلاب سرس أيها الأحمق.

وابتسم موسى في وجه الليل، فالأم الخبيرة تستعيد عافيتها، وهو لا يستبعد إذا ما وصلوا إلى هناك أن تترجل وتتركهم، وتهيم على وجهها في القرية، وإذ تمثل له ما يمكن أن تفعل تعكر وجهه، ثم عاد إلى رشده قائلا: إنها الأم الخبيرة وليست أي أحد آخر، وصادق على ما قال: نعم، إنها الأم الخبيرة.

الرجال الثلاثة في انتظاره عند بداية الطريق الصاعد من السبلاوين إلى ميت غمر، يربطون خيولهم إلى شجرة جميز ضخمة، وشعروا بقدومهم فتأهبوا للرحيل، حلوا أربطة الخيول ووضعوا أرجلهم في الرُكب واعتلوا ظهورها، كبيرهم يدعى حسن، وكان الصديق الكفراوي قد دفع لهم مقدم الأجر مبقيا جزءا منه لما بعد انتهاء المهمة. ما أن تعرفوا على موسى وإبراهيم حتى راحوا يتحدثون إلى بعضهم البعض، وتعجب موسى إذ لم يجد معهم علائف لخيولهم، ونظر إلى كيس التبن المخلوط بالجريش والذي يثوي فوق العربة بجوار جدته وقال في نفسه: لن يكفي العلف للأحصنة الخمسة، وهز رأسه في أسى: بالتأكيد لن يكفي، وقبل أن يكمل حديثه اقترب كبيرهم وسأل:

– أنت موسى إذن؟!.

فأجابه متعجبا:

- نعم، أنا هو.

بحاسته المتشككة أمعن النظر في السؤال، لم يكن هناك ما يريب، فصديقه حسن الكفراوي لا بد وأبلغهم بمن هو، والمؤكد أنه تحدث إليهم عن المشوار الذي هم بصدد الاندفاع لتحقيقه، الحديث الذي اتفق عليه معه حتى لا يعرف رجال النسر أن الأسرة الهاربة تعود لتنسم عبير قريتها القديمة، وبرغم كل ذلك، وبتلك الحاسة التي فرضتها عليه الأيام وصقلتها الليالي الطوال في الغيطان وجد نفسه غائصا في بحيرة هائلة من الشك، قال لنفسه: هناك شيء غامض في هذا الأمر ولا بد عن كشفه، وقدر أن أسرع طريق للكشف عنه هو إبقاء رئيس النسر إلى جواره، ولم يستطع إلا أن يتبسم في داخله، فلقد واتته الشجاعة ليتصنع الهدوء برغم خوفه الشديد.

أخوه إبراهيم كان عملاقا من نوع خاص، فهو يمضي طوال الوقت على سجيته، وعندما يضطر إلى استخدام قوته يفعل ذلك ببساطة مدهشة، ودون مباهاة أو فخر، أو حتى إحساس بالتميز، يفتقر على الدوام إلى الإحساس بالخطر، وهذا ما جعل موسى يشعر بالخوف ويجتهد ليجعل كبير النسر قريبا منه، فهو بذلك يأمن المختبئ خلف السؤال الغامض الذي وجهه إليه، وإذ شعر بحاجته إلى أن يكون إبراهيم مستيقظا مد يده خلسة وقرصه في أذنه قرصة أيقظته على الفور، ولكن إبراهيم ظل يبحث من حوله عن السبب الذي من أجله يشعر بألم شديد في أذنه، ولما لم يهتد إلى سبب عاد إلى نومه، لا يمنعه الحديث المضطرد الذي يدور بين أخيه وبين

كبير المنسر، والذى يحاول من ورائه أن يعرف سر السؤال الذى قلب مغامرته إلى مخاطرة تمنى للحظات لو أنه لم يقم بها.

ارتفع آذان الفجر فى بلد مروا به، ربما يكون كوم النور، وتعالى نباح الكلاب، فمع الليل المتأخر، وحتى مع الفجر تمر أمام أعينها خيالات تخيفها فيزداد هياجها، حتى إذا ما طلع الصبح وانقشع غبار التخيلات واطمأنت إلى أن الدنيا صارت آمنة هدأت وألقت برؤوسها عند أقدامها وأرخت آذانها وراحت فى النوم، كل ذلك شغل موسى للحظات، فمحطتهم الأولى ستكون فى ميت غمر، حيث يقفون هناك فى انتظار المعدية ليعبروا النيل، أو بعد أن يعبروه ويصيروا هناك فى زفتى، وسيقضون ساعة أو أكثر، يتناولون فيها طعامهم ويقدمون لخيولهم العلف والماء، ثم يرحلون بعد أن تكون الخيول قد نالت من الراحة ما يعينها على مواصلة الرحلة، تلك كانت الخطة، كما تحدث موسى معهم بشأنها، لكن اقتراب الرجل كثيرا منه جعله يشعر بالمزيد من الخطر، و لم يرجع إلى نفسه إلا عندما جلست الأم الخبيرة على العربة وشرعت تقدم لصلاة الفجر.

رجال المنسر تعجبوا من العجوز التى جلست فوق ظهر العربة تؤدى صلاتها، واستأذن منهم موسى، ثم انتحى جانبا وراح يصلى هو الآخر، صلاة قلقة، إذ لم يفلح فى أن يعيد إبراهيم إلى حالة الصحو، وكان كلما ركع أو سجد هيئ إليه أن أحدهم من خلفه ويهم بضربه على رأسه، أو بإطلاق النار عليه، أو بطعنه بسكين أو بخنجر، لكنه صبر حتى تمكن من إتمام صلاته، وإذ سلم منهيا الصلاة استدار حول نفسه دورة كاملة يطمئن بها على أن أحدا لا يوجد هناك، فلقد اختار مكانا بعيدا عن الرجال حتى

لا يعثروا عليه إن كانوا يريدون به شرا، وفى طريق عودته إليهم دار من حولهم دورة كاملة، كانوا يقفون من حول العربة فى انتظاره، ورأى كما لو أنهم يتهامسون، لكنه عجز عن أن يدرك حرفا واحدا مما يقولون.

بإمكانه لو أراد أن يصرفهم ويستغنى عن خدماتهم، ولكن ركبه سيكون طوال الطريق عرضة لأى هجوم، حتى ولو من قبل الخفراء فى القرى التى يمرون بها، والذين قد يوقفونهم لمعرفة هويتهم ووجهتهم، وكانوا قبل الانطلاق من العزبة قد اتفقوا على أنهم إذا ما أوقفوا سيقولون إنهم من السنبلاوين، وهم فى طريقهم إلى شبين الكوم حيث عمتهم المتزوجة هناك، وهم ذاهبون بجدتهم لترى ابنتها قبل أن تفارق، فاللقيا نصيب، وكانت سرية قد وضعت إلى جوار الأم الخبيرة فوق ظهر العربة سبتا كبيرا مملوءا بالفطير والعسل والجبن، وسبتا آخر به بعض البطات والفراريج، كأنهما فى طريقهما بالفعل لزيارة عمتهما، وهذه هى جدتهما، وتلك هى الهدايا التى سيقدمونها إليها، والرجال المصاحبون يقومون على حراستهم حتى لا يهاجمهم أحد فى الطريق.

عند النهر كانت المعدية تتأهب للمغادرة إلى الشاطئ الآخر، ونادوا على المعداوى فأعاد الألواح إلى مكانها، ووجدوا صعوبة كبيرة فى نقل العربة، فى البدء رفض المعداوى أن ينقلها، وعندما مُنِّىَ بأجر محترم عاون بنفسه فى سحب الخيول إلى المعدية، وكان إبراهيم قد حمل جدته إليها قبل أن يحاولوا بشأن الخيول والعربة، و لم يجد المعداوى بدا من أن يحمل الرجال العربة ويسيروا بها فوق الألواح حتى استقرت على ظهر المعدية، ولاقوا فى ذلك عناءً شديدا، وإذ أصبحوا عند الشاطئ الآخر نزلوا من

المعدية واختاروا مكانا ظليلا جلسوا عنده، الهواء ورجرجة العربة طوال الطريق أعادا إلى الأم الخبيرة الكثير من حيويتها، وبرغم الآلام التى تشعر بها فى عظامها لم تشك من شىء. ربطوا الحصانين اللذين يجران العربة إلى إحدى لأشجار وقدم لهما إبراهيم العلف، وفوجئوا برجال المنسر وقد أطلقوا خيولهم فى الغيطان القريبة، غير هيابين ولا متحسبين.

أفطروا جميعا كما لم يتناولوا إفطارا من قبل، وأقبلوا على الفطير والعسل والجبن والقشدة بنهم، لكن إبراهيم بزُّ رجال المنسر وجعلهم يتركون الطعام وينظرون إليه فى دهشة، كان يقطع الفطيرة الضخمة عدة لقم، وفى كل لقمة يحمل عليها نصف طبق الغموس قبل أن يدسها فى فمه، فتغيب بعد مضغها عدة مرات، واضطروا إلى العودة إلى تناول الطعام وكأنهم لم يروا شيئا، إذ لم يأبه إبراهيم لنظراتهم، واكتفى بالابتسام.

تبادل موسى وكبيرهم الحديث من جديد، لأول مرة منذ التقاهم فى جوف الليل يراهم ويعرف ملامحهم، كبيرهم المدعو حسن رجل نحيل طويل يرتدى جلبابا بلديا صوفيا، يضع فى قدميه نعلا أحمر وفوق رأسه عمامة بيضاء فوق طاقية من وبر الجمال الأحمر، كان مليحا، ولقد بادره موسى بأن قال:

– نعود إلى ما كنا بدأناه ونحن فى الطريق.

وتنبه الرجل لحديثه، وكان قد فرغ لتوه من تناول الطعام، وانحنى ورفع القلة على فمه وظل يجرع الماء بصوت مسموع، وبعد أن أنزل القلة نظر فى اتجاه موسى الذى واصل حديثه:

– تقول إنك تعرفنى من قبل أن يحدثك صديقى حسن الكفراوى عن مطلبى، فكيف عرفتنى؟!.

وتجشأ الرجل فى وقاحة، ثم أطرق إلى الأرض يبتلع لعابه ورفع رأسه ليقول:

– ألستَ من قاتل منسر صدقا وقبض عليهم وسلمهم للحكومة؟!.

أجاب موسى فى ذهول:

– هو أنا.

وابتسم الرجل وهو يردف:

– وتسألنى كيف عرفتك وممن سمعت عنك؟!.

سيرته إذن معروفة لدى المنسر فى المركز كله، وربما تكون معروفة لهم فى نطاق المديرية، كل ذلك لشهرة منسر صدقا، الذين كانوا مشهورين على نطاق واسع، وكانوا يستدعون من قبل كثيرين لأداء مأموريات فى طول الوجه البحرى وعرضه، قبل أن يقعوا فى مصيدة الليل والجشع وخيانة العهد.

لم يشأ أن يترك الرجل دون أن يفهم منه ما الذى يعرفه عن تلك الواقعة بالتحديد، فهما سيتصاحبان أياما عدة، وعليه أن يكسب وده، ولكن بحذر، أطرق إلى الأرض قليلا ثم اتكأ على إحدى ذراعيه وسأل:

– ما الذى حكوه لك عنى؟!.

ونظر الرجل إليه فى دهاء:

- دعك مما حكوه، فلقد حكوا الكثير.

وأشار إلى زميليه اللذين يجلسان غير بعيد فانضما إليهما:

- جاء الوقت لنسمع منك أنت.

ونظر إلى زميليه ثم قال:

- أنا لا أصدق تلك الحكايات التي تروى حول الجوزة وفي جلسات الحشيش.

ونظروا إلى بعضهم البعض فيما اعتدل موسى وأخذ يقص حكاياتهم مع السمداني والمنسر، من ألفها إلى يائها، ومهد لقصته بذكر ما كان من أمر حربهم مع الأعرابي الهارب عبد الله الجياصي.

ارتفعت الشمس ودخل إبراهيم بجدته في الغيطان حيث قضت حاجتها، ثم صب عليها الماء فتوضأت وتهيأت لصلاة الضحى، لم يكن موسى قد فرغ بعد، وكان الرجال يتحلقون من حوله كأنهم يسمعون إلى منشد أو شاعر. اكتشف موسى في نفسه في ذلك اليوم القدرة على جذب انتباه من يتحدث إليهم، وأن لحديثه وقعا لدى سامعيه كان حتى ذلك الوقت يجهله. حكى عن الواقعة بتفصيلاتها وشواردها وسوانحها ودقائقها، لم تفته همسة واحدة جرت، أو إيماءة صدرت عن أحدهم، وكانوا وهم يستمعون يقلبون النظر في وجوه بعضهم البعض ويمصمصون الشفاة ويقلبونها، وقد يستعيد الواحد منهم كلمة أو جملة لم يحسن سماعها وهو يعتدل في جلسته أو يكون قد طغت على سمعه أصوات طارئة على الطريق، من أناس يمرون بهم ودواب رائحة وغادية، وانتهى

من القص وهم فى ذهول، وإذ انتفض واقفا ونفض التراب عن ملابسه نهضوا هم الآخرون، وقبل أن يصل إلى العربة كان إبراهيم قد حمل جدته ووضعها فوق حشيتها بعد أن علق العربة إلى رقبتى الحصانين، واعتلى الرجال ظهور الجياد وتأهبوا لاستكمال المسير.

هناك

تقول الحكايات إنهم لما أبلغوا الأم الخبيرة بأنهم مقبلون على سرس رفعت جفنيها ونظرت في اتجاه القرية القريبة، ورأى الرجال دموعها تنساب من عينيها، وإن موسى مر بالعربة في الشوارع بحجة أنه تاجر جلود، يبحث عما قد يوجد منها لدى الناس ليشتريها، وإنه لما قصد إلى موضع الدار الكبيرة لم يجدها هناك، ورأى بقايا البوابة الكبيرة وآثار أبنية متهدمة ودورا جديدة يلعب أمامها أطفال صاخبون، وتمنى لو يوغل في قلب المشهد ليرى موضع دار الضيافة التي كانت مسرحا لعملية قتل المملوك القديم، لكنه خشى من مغبة ذلك، بل إن جدته التي رفعت جفنيها المنطبقين على عينيها وتمعنت في المشهد وطلبت أن يتوقف برهة أمام بقايا البوابة الكبيرة هي التي عادت وطلبت منه أن يعود إلى التجوال.

وكانت عندما أوغلوا في القرية قد أرهفت سمعها لتلتقط كل كلمة تقال في الشارع، أو تأتي عبر ردهات البيوت، وأسلمت أذنيها لنداءات الأطفال وأحاديث الرجال وثرثرات النساء عند العتبات، تمنت لو أنها نزلت عن العربة وسارت في الشوارع والأزقة وتحدثت إلى الناس ولكنها

خشيت على حفيديها، وعندما وجدت الدار الكبيرة ليست قائمة، وإنما تهدمت ونهبت تمنت لو عرفت كيف صارت إلى تلك الحال، لكنها ثابت إلى رشدها وذرفت على الأطلال دمعات أسالت الدمع من عيني إبراهيم، ونظر موسى عبر بقايا البوابة ورأى بعيني خياله أبوه وهو يفرد طوله في الهواء ويهوى على رأس المملوك القديم ببلطه، ورأى أناسا لم يعرفهم يشاركونه قتل المملوك، ورأى جدته مريم واقفة هناك تمنى المملوك ليأتي إلى حيث يلقى مصيره.

مع صفار الشمس خرجوا من القرية التي دخلوها مع الصبح، وهناك عند المشارف سألها موسى:

– هل اكتفيت يا جدتي؟!.

فأجابته:

– الآن أستطيع أن أمضي وأنا مرتاحة.

وصمتت قليلا قبل أن تردف:

– هواهما واحد، له رائحة الزعفران.

وتمتمت كأنها تؤكد لنفسها:

– نعم، هما كذلك، هنا وهناك.

مكثوا أكثر من ساعة في انتظار قدوم الرجال الثلاثة، وكانوا قد فارقوهم عندما دخلوا القرية على وعد باللقاء قبل المغرب بساعة، وفي تلك الساعة التي انتظروها رأوا الفلاحين وهم يعودون إلى القرية مع المساء، يسوقون بهائمهم ومطاياهم ويتبادلون أحاديث بقايا اليوم، وعادت الأم الخبيرة

لترهف سمعها، فلطالما اشتاقت إلى لهجة أبناء سرس، وطريقتهم المحببة فى الاندهاش والسؤال والتعجب، وها هى تنتظر عند المشارف وتغرق فى خضم هائل من الأحاديث والنداءات وأحاديث ما قبل الليل، وتمنت لو يتأخر الرجال أكثر، وها هو الوقت يمر والناس لا يأتون، وها هى الشمس تنسحب من الأفق وتسقط هناك فى بحيرة الغروب، وفى ذلك الوقت صارت الأحاديث أكثر تسارعا والنداءات أكثر إلحاحا، وعندما هبط الظلام وانسحب الضوء تأهبا لأن يطبق الليل جاء الرجال الثلاثة وقدموا الاعتذار عن التأخير.

تمنت الأم الخبيرة لو يستطيعون أن يعودوا عبر الطريق الذى سلكوه فى رحلة الخروج، لكن رجال الحراسة أبوا إلا أن يعودوا من الطريق الذى قدموا منه، وطوال الطريق كان كبير المنسر يحكى لموسى حكاياته التى لا تفرغ، عن غاراتهم هنا وهناك، وعن مغامراته مع النساء والزوجات اللائى تزوجهن الواحدة بعد الأخرى، ثم إنهم عندما شقوا طريقهم فى اتجاه الطريق الهابط إلى زفتى المقابلة لميت غمر كان الحديث بينه وبين موسى قد أخذ وضعا حميميا عجيبا، كأنهما صديقان عاشا مع بعضهما ردحا من الزمن، ولم يكن الليل ليخفى تلك النظرة المحبة التى لا ينفك يطلقها الرجل فى اتجاهه، فمنذ حكى له موسى كل شىء عن حقيقة منسر صدقا والرجل ينظر إلى الفتى نظرة إعجاب لا تخلو من دهشة، ربما تمنى لو يكون الفتى أحد رجاله، وربما تمنى أيضا أن يكون إبراهيم واحدا منهم.

مع الفجر وصلوا إلى زفتى، وفى انتظار طلوع الصبح ليعبروا إلى الشاطئ المقابل جلسوا فى نفس المكان الذى جلسوا فيه من قبل،

وأحست الخيول بنوع من الألفة فى المكان، وشعروا هم أيضا بنفس الألفة، كأن روائحهم لما تزل هناك، صلوا الصبح، الأم الخبيرة وموسى وإبراهيم، ثم استلقى إبراهيم نائما و لم يفلح شىء فى إثنائه عن ذلك، برغم أن موسى أخبره عن شكه فى رجال الحراسة المرافقين لهم، وإحساسه بأن من ورائهم سرا يخفونه عنه، ونبه عليه أن يتناوبوا النوم حتى لا يأخذهم المنسر على غرة، لكن إبراهيم بحسه المنعدم للخطر غرق فى النوم، وظل موسى مستيقظا، فهو لم ينم فى الأيام الأخيرة إلا الساعة التى قضوها فى انتظار عودة رجال المنسر إليهم عند مشارف سرس، ولما جاءوا وتأهبوا للعودة لم تغفل عيناه لحظة.

عبروا النهر فى اتجاه ميت غمر وسلكوا الطريق الهابط إلى السنبلاوين، تأهب رجال المنسر لمغادرة الركب. تعبت الخيول من المسير فراحت تبطئ من سيرها التقاطا للأنفاس، وعند مشارف السنبلاوين احتضن كبير المنسر موسى وصافح إبراهيم، وكان زميلاه قد سبقا إلى ذلك وانتظما بالفعل فى الطريق الصاعد فى اتجاه ديرب، وانتحى حسن بموسى:

– فكرت كثيرا قبل ان أخبرك بما سأقوله لك الآن.

ابيض وجه موسى كأنه يصارع الموت، وأردف الرجل:

– وُعِدْت بأجر لم أنله طيلة حياتى مقابل أن أقتلك.

وشد على يد موسى:

– لكنك صديق الكفراوى ولا حيلة لى.

وانطلق ليلحق بزميليه، وأمسك موسى بتلابيبه:

- عرفني من هو غريمي.

وأغرق الرجل في الضحك:

- أحقا لا تعرف؟!.

وأجابه موسى:

- أهو السمداني؟!.

وأومأ الرجل موافقاً، ورأى أن يقول وهو يغادر:

- خذ حذرك.

وانطلق في أعقاب رفيقيه.

الفتى الذي عاد إلى جدته حيث ترقد في سلام فوق حشيتها اللينة على العربة وإلى شقيقه إبراهيم الذي يمسك بمقود الحصانين لم يكن هو نفسه الذي رافقهما في الرحلة من حيث بدأت وإلى تلك اللحظة، كان مختلفا تماما، وجهه ممتقع بصورة دعت إبراهيم إلى أن يسأله عما به، وما الذي أخبره به كبير المنسر الذي انصرف لتوه، ونظر موسى في وجه أخيه ولم يجب، فالدنيا تدور به، وهو يوشك أن يفقد توازنه، وحتى لا يسقط على الأرض استند إلى حافة العربة، وعندما هم بالقفز ليأخذ موقعه منها خانته قواه فكاد يسقط، لولا أن يد إبراهيم أعانته على التوازن، ثم لما شعر بثقل أخيه مكنه من الصعود إلى موقعه، وما أن اطمأن إلى استقراره حتى بادر لتسليمه مقود الحصانين، لكن موسى ودون أن يتكلم أشار إليه ليظل محتفظا به.

الطريق من السبلاوين إلى عزبة الشيخ أحمد السرسي يستغرق مسير

ساعات، لكن الحصانين قطعاها فى أقل من الوقت المنتظر، فموسى كان مستغرقا بالكلية فى أفكاره الخاصة، فهذا الذى قاله كبير منسر ديرب نجم يستلزم أن يمعن النظر فيه، وإذا اهتدى إلى كيفية التصرف حياله عليه أن يعمل من منطلق أنه وحده المعنى بما حدث، فالبادى أن السمدانى حصر خلافه مع الأسرة فيه هو، ولا بد أنه علم بأمر الخلاف الذى ثار ذات يوم بينه وبين سيد احمد، ويتصرف على هدى من هذه المعرفة، يستأجر المنسر للتخلص منه وقتله، ثم إذا ما نجح يتولى تأديب الأسرة، وكيف لا وأسرته الغافلة ترى فى مجرد الهدوء سلاما مقيما، وفى مجرد الهدنة أمانا لا يعكره خوف أو قلق، وهذا هو بيت القصيد، فكيف يرد الصاع للسمدانى صاعين ولا يتهم بأنه يجر أسرته جرا إلى الحرب؟!.

استلقى على ظهره فيما إبراهيم يقسو على الحصانين ليسرعا، وكانا متعبين إلى درجة أنهما كانا يتلكآن ويتظاهران بشم بقع الماء على الطريق، لكن إصرار إبراهيم جعلهما يستجيبان إلى حثه لهما فنهبا الطريق نهبا، وفى صفحة السماء الصافية أوحى الليل إلى موسى بأن يرمى من وراء ظهره كل الهموم، ورأى وجوها باسمة تطل عليه من هناك، من أصفى بقعة فى السماء التى تصدح أنجمها بأناشيد علوية فاتنة، وسمع هاتفا يقول: إنهم أسلافك، من سيد احمد «الأول» الذى خرج فى الركب القديم مصطحبا ابنه للأزهر الشريف، وحتى أحمد «الأول» الذى برق كالشهاب فى حياة الأسرة ومضى فى غموض، كلهم كانوا يتسمون له، ويتحدثون بكلمات لم يستطع تبينها، وبعد أن ذابوا فى قطع السحاب المتفرقة جلس ليجد جدته مستيقظة، كانت ترفع جفنيها وتنظر فى الغيطان عبر الطريق،

وسألها إن كانت رأت جدها سيد احمد «الأول» فأومأت بالإيجاب، وعاد ليسألها إن كانت هيئته كما رآها، وانطلق يصف ما رآه، كما وصف هيئات جده موسى «الأول» وسيد احمد «الثانى» وأحمد «الأول»، كأنه يراهم، والجدة التى تركت جفنيها من الدهشة كانت مبهوتة، فأوصافه للأجداد متطابقة تماما مع هيئاتهم، وسألته:

– من وصفهم لك؟!.

فأجابها:

– رأيتهم الآن.

– أين؟!.

– فى صفحة السماء.

– هل تحدثوا إليك؟!.

– قالوا كلاما لم أستطع أن أسمعه.

– وهل كانوا مهمومين؟، حزانى؟!.

– أبدا يا جدتى، أبدا.

فمدت يديها لتستقبله، واحتضنته وقبلت ما بين عينيه:

– لا تقص رؤياك على أحد.

وسألها متعجبا:

– لماذا؟!.

وأجابته:

- لن يصدقوك.

والتصق بها فشعرت بدفء جسده:

- هل تصدقيني أنت؟!.

وأشعت ابتسامة غريبة من وجهها:

- ومن غيري يصدقك؟!.

وهناك عند مشارف العزبة كانوا يقفون جميعا في انتظارهم، الشوق يلهب قلوب السراسوة الأقلمين، مريم وأحمد وحورية وسرية، وها هي الأم الخبيرة تعود من هناك، حاملة في ثناياها روائح الجنة التي حرمت عليهم، و لم يلحظ الآخرون أنهم هم الأربعة بالذات كانوا وهم يتلقفون الأم الخبيرة لينزلوها من فوق العربة يتنسمون عبير ثناياها الذي حملته من هناك، لينعموا هم أيضا به، و لم يلحظ أحد أيضا تلك الدموع التي جرت غزيرة تتخفى وراء اللهفة على اللقاء، دموع تباريح الشوق التي لا تذرف إلا في الخفاء.

وقادت الرؤيا التي رآها موسى في يقظته إلى اعتباره مباركا في عرف جدته الأم الخبيرة، ومن يوم أن حكى لها عنها وتناول بالوصف جدوده الأوائل وحتى فارقت وهي تنافح عنه وتغضب لأجله وترد كل كلمة تقال فيه، بل وتأمر جدته مريم ألا تدع باقي الأبناء يتجراون عليه، فهو أخوهم المبارك الذي يستطيع أن يرى أجداده رأى العين، بل ويراهم يتحدثون إليه وإن كان لا يسمع حديثهم، و لم تكن الجدة مريم قد رأت أحدا منهم، فلقد ماتوا جميعا قبل مجيئها للحياة، وعندما طلبت من موسى أن يصف

لها الهيئة التى رأى عليها جده أحمد «الأول» سقطت الدموع من عينيها وقامت لتضمه إلى صدرها، فلقد رأت زوجها الحبيب وهو بصفه شاخصا أمامها، و لم يلبث الشيخ أحمد أن عرف بأمر الرؤيا التى رآها ابنه فقال لمريم:

– موسى هو قلب هذه الأسرة وخيالها.

ولكن الشيخ كان على موعد مع خبر آخر، فلقد اهتدى موسى إلى ضرورة إبلاغ أبيه بما قاله رجل منسر ديرب، و لم يرض الشيخ بغير أن يسمع بأذنيه من فم الرجل، وفي ذات صباح، وبعد أن صلوا الفجر انطلقا متجهين إلى ديرب، الشيخ أحمد على حصانه وموسى على مطية رائعة جلبها من سوق الأحد واحد من عماله، ومع الضحى وصلوا إلى ديرب، وهناك في دار حسن الكفراوى أرسلوا فى طلب كبير المنسر فجاء على عجل، وبدون أن يطلب حسن الكفراوى شيئا فهم الرجل بخبرته ما هو مطلوب منه، وقدم لحكايته بأن قال:

– ما قلته للفتى هو ما حدث.

وسأله الشيخ:

– كيف عرف بأنك ستلتقى ولدى؟!.

فأجابه:

– هو لم يستأجرنى لقتله عندكم.

وسأل حسن الكفراوى هذه المرة:

– أين إذن؟!.

فأشار الرجل إلى الأرض وقال:

- هنا.

وأكد:

- هنا في ديرب.

وانطلق يقص عليهم ظروف لقائه بمساعد، قال إنه ورجاله توجهوا معه مرات إلى الصحراء حيث شاركوا في نهب قوافل عديدة، وفي إحدى المرات كان رجال منسر صدقا معهم، بل إن رجال منسر السمارة كانوا معهم أيضا، وإنه في المرة الأخيرة اقترب منه كثيرا وسأله إن كان يعرف الفتى الذي يصاحب ابن الكفراوي فأجابه بالنفي، وحكى له عن ظروف خلافه مع أسرة الشيخ وكيف أن موسى قد وجه إليه صفعة لا يمحها إلا أن يسفك دمه، وفرض له مبالغ طائلة إن هو قتله، واقترح عليه أن يقتله وهو في زيارة لصديقه، وساعتها سيظن الشيخ أن ابنه قتل في صراع غامض في مكان بعيد، وفي ظروف لا يمكن الاستدلال منها على الحقيقة، وأنه قبض بالفعل جزءا من المبلغ ووعد بقبض الباقي بعد التنفيذ، وعندما طلبه ابن الكفراوي لمرافقة موسى في رحلته الغامضة عرف أنه لن يستطيع أن ينجز المهمة، فمهما كانت صلته بالسمداني إلا أن صلته بابن الكفراوي هي الأبقى، وأكد أنه بسبيله لإرجاع المبلغ لمساعد والاعتذار عن إتمام المهمة.

طوال الطريق وهما عائدان من ديرب لم يتبادلا كلمة واحدة، كل منهما كان مستغرقا في أفكاره، الشيخ مهموم إلى درجة أضافت إلى عمره سنوات، وموسى غارق حتى أذنيه في البحث عن سبيل للتعامل

مع الأعرابى الذى لن يهدأ كما قال كبير المنسر إلا بقتله، كل الاحتمالات كانت مطروحة، بدءا من الهجوم على المضارب وانتهاء باستجار من يقتل السمدانى، ولو سئل موسى فى ذلك الوقت أى السبل يختار لفضل الهجوم على مضاربه، على طريقة ما فعله أبوه مع الأعرابى الطريد عبد الله الجياصى، لكن قواعد اللعبة التى توافقوا عليها بغير اتفاق تقضى بألا يتصرفوا على نحو عنيف وظاهر يستدعى تدخل الحكام، وإنما يمكنهم التصرف بنعومة، قاتلة نعم ولكنها فى النهاية ناعمة، لا تقلب حياة المنطقة ولا تنال من هدوئها الظاهر، ولا تورط أعيانها وعمدها فى صراع لا طائل من ورائه.

وكان الشيخ قد عوض كبير منسر ديرب بمبلغ يساوى تقريبا ما وعده به السمدانى، وطلب منه أن يلفه بعلمهم بالأمر، عند هذه النقطة توقف كبير المنسر عن الحديث، فما يطلبه الشيخ لا يمكن إلا أن يكون إعلان حرب بينه وبين مساعد، وهذه الحرب وبرغم عدم جدواها، إذ منسر ديرب فى مكان ومساعد فى مكان آخر، ومنسر ديرب سائبين ومساعد مربوط فى مضاربه ومصالحه القائمة، إلا أن سمعة الرجل ستأذى كثيرا فى عالم الأعمال التى يطلب لها، فيما لو انتشرت الحكاية وأصبحت على لسان الأعيان والكبار والغرماء والخصوم الذين يطلبونه لمهام من مثل ما طلب مساعد، و لم يجد تدخل حسن الكفراوى فى تذليل العقبات بين الرجلين، الشيخ أحمد السرسى وكبير منسر ديرب، ورفض الرجل ما طلب الشيخ مقررا أن مسألة الانسحاب من الاتفاق وكيفية معالجة الأمر ترجع له هو وليس لأحد آخر.

وجدا الجميع في حالة وجوم، فيما كانت العيون مبللة بالدموع، فلقد رحلت الأم الخبيرة مع العصر، وكانت قد طلبت سيد احمد فجاءها على عجل، وقبل أن ينطق بكلمة عثرت أصابعها المرتعشة على يده فأمسكت بها، وقالت في وهن:

– أنت وموسى حياة هذه الأسرة.

ولما أراد أن يتحدث نحت وجهها جانبا وسقطت في بحيرة صافية، ابتسمت لأطياف تستقبلها، ولما انصرف سيد احمد انتحت به جدته مريم وسألته عما تريد، و لم يجبها، كان حانقا إلى درجة شعر فيها بالرغبة في الخروج من الدار القديمة في الحال، تصور أن أخاه قطع الطريق من العزبة إلى سرس القديمة ذهابا وعودة يعبئ جدته ضده، ويفهمها الأمور على غير حقيقتها، وإذ لم يقل شيئا للجدة مريم مما حدث من الأم الخبيرة له تركته ودخلت عليها الحجرة، وجدتها تنطق بالشهادتين بصوت مسموع، وتبش لاستقبال أحد لم تعرف إلا عندما سقطت رأسها على أحد الجانبين أنه ملك الموت.

دخلا حجرة الراحلة الرائعة، و لم يتمالك موسى فارتمى على سريرها، وضع رأسه فوق صدرها الضامر وذرف دموعه كلها، وقبل أن يستقيم نحى الملاءة من على الوجه، وربا لروعة ما رأى، كانت تبتسم في وداعة فيما الوجه خال من الغضون التي عرفوه بها، وهي إليه وهو يقبلها أنها تفعل معه بالمثل، استنهضته يد أبيه ومضيا بعد أن وضع الأب على الجبين المضيء قبلة أخيرة، وبعد أن سحب الملاءة البيضاء فوق الوجه من جديد.

الكلمات التي قالتها الأم الخبيرة لسيد احمد وهي تحتضر ستظل طي

الكتمان حتى إلى ما بعد رحيل موسى، سيقولها سيد احمد فى وقت وموضع لا يجدى فيه الندم، لكن الكلمات التى قالتها بعد عودتها من رحلة الوداع ستظل محفورة فى أذهان أهل العزبة الصغيرة لأجيال عديدة، فلقد اجتمعوا من حولها وسألوها عما رأته هناك، فى سرس القديمة، فأجابتهم أنها رأت روحها ترفرف فى سماء الحبيبة، محفوفة بأرواح أسلاف لم تزل روائحهم هناك، وسمعت كلمات كأنها الأغانى، ينطقها الأطفال والأمهات والرجال العائدون من الغيطان، وسمعت نباح الكلاب الرؤوفة التى ليس كمثلها كلاب فى البر كله، ولما سألوها هل ارتوت ضحكت ملء فمها الخالى من الأسنان، وحمدت الله ثم قالت:

- شبعت وارتويت من كل شىء، حتى من الأيام.

أقاموا مأتمها فى سرادق اتسع لمن حضر من أهل المنطقة، سرادق ظل الناس يتناقلون أخباره سنوات طوال، جاءوا بمقرئين كبار من المنصورة والزقازيق، وذبحوا عجولا وخرافا وأطعموا كل من جاء يعزيهم، وكانوا قد دفنوها إلى جوار الجدة الكبرى، وأبت الجدة مريم إلا أن تصحبها حتى شفير القبر، وكان موسى هو الذى دخل القبر معها، وبعد أن جمع عظام جدته الكبرى ولملم ما تبقى من شعيرات وضعها فى مقطع قماشى جديد من الكتان، ونحاها جانبا، ثم سوى الرمال براحته، واستقبل جدته الأم الخبيرة بيديه وأرقدها على جانبها الأيمن، وكشف رأسها فوجدها لا تزال تواصل ابتسامتها، وبشاشتها التى أذهبت عن الوجه غضونه، ولما انحنى ليقبلها انبعث فى القبر عبير عطر عجيب، قالت الجدة مريم إنه عطر ربانى لا يشمه إلا المحبون.

في ليلة المأتم جاء كل الأصحاب، ومعظم أهالي المنطقة، من كفر عزام جاء آل عزام جميعهم، ومن شبراهور جاء أصهار سيد احمد، وكذلك جاء أصهار الشيخ أحمد والأبناء الآخرين، ومكثوا أيام المأتم الثلاثة، ثم رحلوا على أمل العودة في الخميسين، وأيضا في الأربعين الذى تحييه الأسرة وكأنه إحياء للمأتم من جديد.

وجاءت اللحظة التي انتظرها الشيخ، فلقد جاء مساعد السمداني معزيا، دخل السرادق وسط جمع من رجاله كأنه يستعرض قوته، وبين دهشة الحضور احتضن الشيخ أحمد وشد على يديه طالبا منه على عادة المعزين أن يشد حيله، لم يشأ الشيخ أن يتعجل تنفيذ ما انتواه، فالسرادق غاص بالحضور وهو لا يرغب في إفساد ليلة مأتم جدته، وكان في الحقيقة يشبه العرس، أفردوا لمساعد مكانا بين الأعيان الذين اصطفوا فوق المقاعد المذهبة التي تحتل جوانب السرادق، ومن مكانه في صف استقبال وتوديع المعزين نظر موسى إلى الرجل في تمعن، تمنى لو يفطن إلى نظراته لكن مساعدا كان مشغولا بالعبث في شاربه والنظر في فراغ السرادق تيها وإعجابا، وقبل أن يختتم المقرئ الربع فوجئ موسى بسيد احمد يتوجه إلى مساعد ويسلم عليه مرحبا، وسط دهشة الجميع، فلم يكن سيد احمد واقفا في الصف عند قدومه، وما أن فعل حتى التفت الشيخ أحمد إلى موسى وهمس في أذنه:

- هو لا يعرف مما نعرف شيئا.

وأفلحت كلمات الأب في تهدئة خاطره قليلا، لكنه عاد لينظر في اتجاه أخيه، ويتبعه أينما يذهب، وكانت العادة ولا تزال أن يمر أحد من

أهل المتوفى فى السرادق لتحية المعزين، بكلمات بسيطة تشكر سعيهم وبيدين مرفوعتين تحييهم قبل أن تربت على الصدر محبة وامتنانا، وذلك بطريقة تبادلية يقوم بها أهل المتوفى الواحد بعد الآخر، وحتى ينتهى العزاء، وكان سيد احمد وبعد أن قصد إلى مساعد بالذات وصافحه مرحبا قد انطلق يحيى المعزين ويشكر سعيهم ويمتن لحضورهم، وكان بطوله الفارع ونحافته المفرطة ينحنى وهو يمتن لهم ويحييهم، و لم تنقطع نظرات موسى إليه، ضاع أثر الكلمات التى قالها أبوه، وعاد ليشعر بالكثير من المرارة، ويتمنى لو أنه لم يولد على النحو الذى هو عليه، ولكن على نحو ما عليه أخوه، تمنى ألا يرى من الأشياء إلا ما يرغب فى رؤيته، ولا يهتم لشىء إلا لما يريد.

انتهى ربع القرآن فظل مساعد جالسا، لم ينصرف مع المنصرفين، ووضح أنه سيبقى لربع آخر. نسى الشيخ أمره مؤقتا وانشغل باستقبال المعزين الذين كانوا يشدون على يديه بصورة مبالغ فيها، تحت تأثير الانبهار بالترتيبات والأضواء التى تسطع فى المكان، والسرادق الضخم الذى يترامى فى الجرن الكبير، لكن موسى وبعد أن جاء سيد احمد ليقف إلى جواره ويستقبل المعزين تركه وانطلق إلى داخل السرادق يحيى المعزين ويمتن لهم، وبدأ فى التلويح بيديه وشكر المساعى حتى إذا ما بلغ الموضع الذى يجلس فيه مساعد وقف قبالته، نظر فى وجهه مليا ثم انصرف دون أن يتحدث بكلمة واحدة، نظرة فهم منها مساعد أن ما يفعله وإن انطلى على الآخرين لا ينطلى عليه هو، وأن تحديه له سيمتد إلى ما لا نهاية، وربما يكون مساعد قد فهم أن الفتى يعلم شيئا مما دبره له.

وجاء الوقت مع نهاية الربع الثانى، لكن مساعدا لم ينصرف أيضا، وظل جالسا هناك لحضور ربع ثالث، وانتهى الربع الثالث و لم ينصرف، وفهم الشيخ أن الرجل يريد أن يراه فى العزاء كل أهالى المنطقة، حرافيشها وأعيانها، صغارها وكبارها، حتى إذا ما تمكن من ابنه أشهد الجميع على أنه تصرف مع جيرانه على نحو لا يفعله إلا الجار الحقيقى، فلقد اعتبر أن المأتم مأتمه، وظل جالسا فى العزاء طوال الليل، وهو نفس ما أدركه موسى، وكاد يفقد صبره واتزانه، لكن نظرات أبيه المحذرة منعته من التصرف على نحو يسىء إلى الأسرة كلها، وكان سيد احمد مبهورا ببقاء الرجل فى مأتمهم طول الليل، ولا ينفك ينبه أباه إلى هذه الحقيقة، كما لو أن أباه لا يدرك أن الرجل ظل جالسا هناك فى صدر السرادق من بعد آذان العشاء وحتى انتهاء العزاء.

انصرف المعزون فى نهاية السهرة، وانشغل الرجال فى جمع المقاعد والبسط والمناضد، وصعدوا ليحلوا أربطة قطع السرادق الطولية المزخرفة، وإذا بمساعد يقوم ومعه أعوانه، يتحلقون حوله فى مظاهرة مفضوحة، وتقدم إلى الصف الذى يقف فيه الشيخ أحمد وأولاده موسى وسيد احمد وإبراهيم ومحمد الطوخى وسليمان، وغير بعيد وقف السيد وإسماعيل، وما أن وصل إلى الصف حتى توقف المصاحبون وفتح الرجل يديه بمهد لاحتضان الشيخ، لكن الشيخ اكتفى بمد يده ليصافحه، وفهم مساعد أن الشيخ راغب عن احتضانه، وأسر الشيخ فى أذنه:

– أعرف تدبيرك مع حسن الديرى يا مساعد.

وانصرف الرجل دون مصافحة الواقفين فى الصف كالمعتاد.

جميع من فى الصف لاحظ ما دار بين الشيخ والأعرابى، وفهم إبراهيم والسيد ومحمد الطوخى كل شىء، وكانوا على علم بكل ما جرى من كبير منسر ديرب، وما أبلغ به أباهم، الوحيد عدا الأطفال الذى لم يكن يعلم هو سيد احمد، وإذ رأى أن الجميع يعرفون ما يدور امتلأ بالغضب وترك السرادق وانصرف إلى داره.

تقدير الشيخ أحمد السرسى أن مساعدا سيسلك ردا على ما جرى واحدا من طريقين، إما يدعى عدم العلم بما جرى حتى ليقسم بأن ما بلغهم هو الكذب بعينه، وإما يتجاهل الأمر ولا يعيره انتباها، وتصرفهم سيعتمد على أى الطريقين يتبع، فإن كان الأول فإنهم لن يقبلوا تحقيقا فى الأمر، وسيعتبرون أن إنكاره يكفى مؤقتا للتجاوز عن الموقف والرجوع إلى حالة الهدنة، فالشيخ لا يظن أن الرجل من الغباء بحيث يسرع من وتيرة الاعتداء وهو الذى يحرص على أن يبدو بريئا، أما إذا كان الثانى فإنه ما يطلبه موسى من إعداد العدة للهجوم على المضارب أو رد الصاع فى الخفاء، لمساعد نفسه، وبالطريقة التى اتبعها مع ولده.

كلهم كانوا فى ذلك الصباح البعيد حاضرين، حتى الفتيان والأطفال، وحول نوافذ المندرة الكبيرة وقفت النساء وعلى أكتافهن الأطفال الرضع، كان يوما عظيما بحق فى تاريخ عزبة السرسى، ذلك اليوم الذى جمع فيه الشيخ كل أبنائه ليعرض عليهم ما كان من أمر مساعد مع أخيهم الأكبر موسى، فى ذلك اللقاء المشهود والذى تفرد له الحكايات مساحة عظيمة أعلن موسى فى حضور أبيه وجدته مريم أن ما فعله الأب إذ قام بتوزيع الأرض بينهم لم يكن ليفتت وحدتهم ويفرق جمعهم، ولكن ليعالج

اعتبارات تتعلق بنمو الأرض المستصلحة وخلق حالة منافسة بينهم لصالح الجميع، وأن صراعه مع مساعد ليس شخصيا ولا يمكن أن يكون كذلك، فالأعرابى يهدف إلى قتله ليتمكن منهم كلهم وليس هو بمفرده، وأن من يتعامل من أخوته مع الأعرابى لن يكون له به صلة إلى أن يموت.

طلب سيد احمد أن يوضح أخوه كلامه، ويبين من يقصد بهذا التحذير، وأجاب موسى فى هدوء:

– لا أحد بعينه يا ابن أبى.

ورمق الشيخ سيد احمد بنظرة معاتبة، فهو لم يعد صغيرا ليشق الأسرة فى وقت هى أحوج ما تكون فيه إلى الوحدة، وما قاله موسى بالنظر إلى ما يتعرض له من مؤامرات الأعرابى مُبَرَّراً، لا، بل مطلوبا، حتى لا تضيع المعانى فى التراب وتسقط العزبة فى هاوية الانحدار ويكتب عليها أن تتشتت من جديد، لكن سيد احمد لم يكن راضيا عما اعتبره تعريضا به، هكذا على الملأ، وأمام زوجته التى كانت تمسك بيحيى بإحدى يديها وتضع على كتفها صغيرتها مريم التى راحت تتابع ما يدور فى براءة وتدس قبضتها فى فمها، ولما وجد أن اعتراضه لا يحظى بإقرار الجميع اندفع خارجا، ووجد الشيخ نفسه مضطرا إلى مطالبته بالبقاء، ولكن بحسم هذه المرة، وعندما لم يمتثل للطلب زعق فيه زعقة ألجمته، وجعلته يقف حيث هو، ثم يعود إلى مكانه صاغرا، وجلس هناك ينظر بين يديه ويغالب الرغبة فى البكاء.

كل من كانوا فى المندرة الكبيرة أو متحلقين حول نوافذها فى ذلك

اليوم البعيد عرفوا أن الأعرابى استأجر رجالا لقتل موسى، لكن الرجال رفضوا المضى فى المؤامرة، وأيقنوا أن موسى يتعرض لتهديد حقيقى بالقتل، وإذا أصيب بسوء فإنها بداية النهاية لوجودهم فى المكان، وإن هى إلا سنوات أو شهور حتى يعودوا إلى الشتات من جديد، ولكن هذه المرة بدون الجسارة التى كانت، والبطولة التى كانت، واللحمة التى كانت، والإرادة التى كانت، ومن مكانها فى المندرة الكبيرة طلبت الجدة مريم أن يبدى سيد احمد رأيه، كانت تبحث عن وسيلة لإعادته إلى قطيع الأسرة الكبيرة، والعزبة التى تنمو بطريقة رائعة، وكان سيد احمد عازفا عن الكلام، إن هى إلا خشيته من غضب أبيه التى جعلته يقف ويقول:

– جميعكم تأخذون على رغبتى فى مسالمة السمدانى، لكنكم تتجاهلون أن تلك الرغبة لا يقصد منها التفريط فى حق أو التجاوز عن إساءة، كل ما هنالك أننى أرغب فى أن يمكننا الهدوء والاستقرار من استصلاح المزيد من الأرض، والتوسع أكثر فى البناء، حتى يكون لكل منا داره ودواره ومخازنه وحظائره، وحتى تصير هذه العزبة الصغيرة قرية عمدتها واحد من أبنائنا أو أحفادنا.

وقاطعه أبوه:

– ما رأيك فيما قام به السمدانى.

وسأل سيد احمد:

– بخصوص ماذا؟.

فقال الشيخ حانقا:

- بخصوص استجار من يقتل أخاك.

وانبرى سيد احمد:

- نطلبه للتحقيق لنرى إن كان ما قاله رجل المنسر حقا.

وهم موسى ليرد، لكن إشارة من مريم الجمته، كانت وهى تودع الأم الخبيرة قد فقدت كثيرا من رونقها وعافيتها، وصارت عجوزا إلى حد أن ابنها وأحفادها لم يصدقوا أن من تجلس هناك وتتحدث هى مريم، الجميلة العفية التى تقهر الزمن، قالت فى وهن:

- لم تتقدم كثيرا يا ابن إبنى، طلبتك لتتحدث بما يقوى عزيمة أخيك، وليس بما يناهضها، بما يعين أباك على أن يرى رأيه لا بما يسلب قدرته.

وتدخلت سرية، كانت واقفة هناك عند الباب، وإلى جوارها وقفت حورية ودموعها تنساب حزنا على ابنها وإشفاقا:

- سيد احمد ليس إلا أخ موسى الأصغر، وما يراه أبوه وأخوه طوق فى رقبته.

ونظرت لابنها معاتبة، و لم يجد سيد احمد بدا من أن يقف ويصادق على ما قالته، ويردده بحروفه، وانتهوا فى ذلك اليوم إلى نتيجة حاسمة، فالأعرابى ليس إلا عدوا للأسرة كلها، والتعامل معه عن غير طريق الأب مرفوض، وكانوا قد قرروا أن يرسلوا فى طلب الشيخ دسوقى والحاج سويلم ليعرضوا عليهما الأمر، وليشاركا فى إقرار ما يجب فعله.

بغلة الليل

هي غواية القص، أو استراحة محارب، أو هي قيلولة تعود بعدها الأمور إلى مجرياتها ويستقيم الراجل ليكمل مشواره. لست مدفوعا بالغواية وحدها، كما ولا أرغب في الخروج عن السياق، أنا فقط تواق لأن أقص حكاية صغيرة لتكمل حكايات الأسرة، فأنا وبرغم كل شيء لم أستطع تجاهلها، أو التظاهر بأنها ليست هناك، قابعة في ثنايا الحكايات، وهي وإن استعصت على أن أضفرها ضمن السياق لتكون فصلا من فصول الحكاية الكبرى إلا أن ذلك لا ينكر عليها الحق في كونها حكاية من حكايات أسرتي، قائمة هناك في قلب وعقل وذاكرة الحكائين، فهي بالذات لم ترو أبدا ضمن السياق، فقط نحكيها عندما نتطرق إلى الحديث عن الجن.

تفتتح الحكاية بابتسامة ذات معنى، أو بضحكة قصيرة، كأنما ليوحي الحكاء للسامعين أن ما سيبدأ في قصه عليهم هو شيء مغاير، أو لنقل إنه حدث فانتازي قد لا يكون صحيحا، وإن كانت له في داخل الحكايات الأسرية قيمة يقيسها الحكاؤون بمعيار الطلب عليها، فما قصصته حتى الآن من أخبار وحكايات أسرتي وغطى زمنا يزيد على مائة عام لم يتضمن

حكاية من هذا النوع، فمنذ خرج الركب القديم فى منتصف خمسينات القرن الثامن عشر وحتى اجتماع الأسرة للبحث فى كيفية الرد على ما فعله مساعد السمدانى فى بداية ستينات القرن التاسع عشر يكون قد مر أكثر من قرن من الزمان، وطوال تلك الرحلة الطويلة لم نصادف مثل هذه الحكاية.

فى تلك الأيام البعيدة كان جدنا الأكبر موسى «الثانى» معتادا على أن يغادر العزبة ويتسلل إلى مندرة الغيط، يتفقد الخندق الكبير وغيطانه فى سكون الليل وظلمته، وينفرد بنفسه ليتأمل أحوال الدنيا وتصاريف القدر، لم يعد الأمر متعلقا بأمور يقوم بها نيابة عن الأسرة، فكل فريق من الأخوة كان قائما على زراعة أرضه واستصلاح ما يقدر على استصلاحه، لكن موسى كان عاشقا للخوض فى غمار الليل، ينفرد ويرى من خلال الظلمة حقائق الليل والنفس، ويتدبر أحوال البشر والدنيا، وربما يجد العزاء لما جرى له من الخصوم والأخوة على حد سواء. مولد أبناء الليل والاستعانة بهم انفض، فمنذ قسم الشيخ أراضى عزبته على أبنائه رفضوا الإسهام فى تكلفة الاستعانة بالمنسر، و لم يعد هناك من أحد إلا رجلين أو ثلاثة تكفل موسى بأجرهم ليقوموا على حراسة حظائره وأدواته وأجرانه.

كان جالسا هناك عند ركن المندرة يمعن النظر فى الليل، وإذا به يسمع نخيرا آتيا من مكان قريب، لرهف السمع وحدق فى الظلام فرأى شبحا يقف غير بعيد، عند حافة الخندق، وتحقق منه مليا، وعندما اعتاد النظر إليه تأكد له أن ذلك الكائن العجيب ليس إلا بغلة تنقل أقدامها فى توتر وتنخر بمنخريها وهى تواصل التقاط شيء من الأرض كأنه طعام، شيء ما أقعده

عن النهوض لاستطلاع أمر تلك البغلة العجيبة، ظل جالسا في موضعه يتأمل حركتها ويتعجب من أفاعيل الليل في بقعته الرائعة. أدركت البغلة أن موسى لا يحرك ساكنا فظلت واقفة هناك تتناول ما قد يكون طعامًا وتدق الأرض بقدميها الأماميتين، وتنخر بمنخريها طاردة الهواء في وجه الليل الساكن.

ما الذي ظنه موسى في ذلك الوقت البعيد؟!، ما الذي دعاه لأن يعجب من معجزة الليل التي تقف على أقدام أربع وتجد الطعام في حافة قاحلة جرداء، وتتظاهر بالتغافل عن الجالس هناك عند الركن يرقب الليل ويرقبها، ويتمعن في الظلام؟!، ما الذي دعاها لأن تقترب وتستعرض نفسها أمامه كأنها الغواية؟!، كل ذلك كان يجري وهو جالس عند الركن، فاردا رجليه على استقامتهما ومسندا ظهرة إلى الجدار ومستسلما لإحساس مفعم بالغموض والسحر، وعندما اقتربت أكثر لمع شعرها الداكن بانعكاسات الأنجم البعيدة، ودارت دورة كاملة تعرض نفسها عليه حتى طالت أقدامها رجليه المفرودتين ومست وجهه شعيرات ذيلها الطويل وصفرت في أذنيه حركة ذيلها تنش به اللاشيء في قلب الليل.

أتراه عرف في تلك اللحظة أنها هي ولا أحد غيرها؟!، أم تراه ظل جالسا هناك يشاهد الاستعراض الغريب الذي يجري بين بغلة الليل والإنسان؟!، تقول الحكاية إنه فطن إلى الأمر منذ اقتربت ومست قدميه، وبحث عما يعينه عليها فعثر في جيب صديريه على مسلة يستخدمها في رتق أجولة الحبوب وأكياس التبن، وما أن تيقن من وجودها في يده حتى قام في هدوء واقترب منها، كل شيء منذ قام من مكانه تغير، فالبغلة

الليلية الرائعة وقفت بمحاذاته وأناخت ظهرها لتغريه بركوبها، وموسى اقترب منها حتى لفحت أنفاسها المتوترة وجهه، نظر فى عينيها ورأى التماع نفاذ الصبر وبريق الترقب، ومر براحته على كفلها فاقشعر جلدها وأطلقت مئات التوترات الصغيرة التى سرت فى جسدها متابعة كموج البحر، ثم مدت رقبتها نحو الأرض تمهد ليعتليها.

فى قفزة واحدة مفاجئة صار فوق ظهرها العارى من أى شىء إلا شعرها الدافئ، أحاطت رجلاه ببطنها الضامر، وما أن شعرت به فوقها حتى انقلبت إلى مارد رهيب، رفعت قائميها الخلفيين ورفست بهما رفسة هائلة جعلته يطير فى الهواء، لكنه عاد إلى موضعه من الظهر المقشعر كأنه الشوك، وظلت تتلوى فى عنف وتجاهد لتلقيه من فوق ظهرها، لكن يده الممسكة بالمسلة كانت الأسبق، وبضربة واحدة انغرست المسلة فى كتفها الأيمن، وشعر بالجسد المارد تسكن حدته، وتهدأ ثورته، ومن خلال أنفاسها المتلاحقة شعر بجسدها المتقلص المتصبب عرقا يستقيم، والتفتت تنظر إليه، وفى عينيها رأى دمعتين، فلقد تمكن منها و لم تعد أبدا تلك الجنية التى تغرى المرصود بالركوب فتقتله، لقد تمكن منها الشاب الذى طالما رصدته وتمنت لو تقضى عليه لتنعم بمواصلة الحياة.

تقول الحكايات إن البغلة التى كانت جنية من جنيات الليل عاهدت موسى على أن تظل مطيته طالما هو حى، وتمنت عليه أن يحررها إذا شعر بدنو أجله، أو بقرب رحيله، وإنه رفض أن يعاهدها على ما طلبت، فلا عهد لإنسان مع الجن، وإن كان قد مد أصابعه ومسح دمعتيها المنحدرتين فوق الصدغين الرائعين، وكانت قد تبدت له فى صورة أخرى ذات مرة،

ولكنه أفلت من غوايتها وندائها فأعادت الكرة، ولكن في صورة بغلة رائعة تغريه على ركوبها.

في المرة السابقة كانت جالسة هناك، عند شاطئ ترعة البوهية، امرأة ترتدي السواد تقعي إلى جوار جرة مملوءة بالماء، كان الليل بهيما والطريق خالية إلا منهما، ابتعد عنها وجلا وواصل سيره، لكنها نادته، صوتها كان واهنا كأنها عجوز:

– موسى... موسى.

ولما وقف غير بعيد قالت:

– أعني على حمل الجرة يا ولدى.

وداخله شك في حقيقتها، ما الذى يأت بامرأة مثلها في ذلك المكان وفي ذلك الوقت؟!، لكنها كانت تتوسل إليه:

– ارجوك يا ولدى أعنى على حملها.

واقترب ليساعد في رفع الجرة فوق رأسها فإذا بعينيها المشقوقتين تخرج منهما النار، وإذا بذيل طويل يلعب تحت جلبابها فقفز مبتعدا، وإذ لم تتمكن منه راحت تلعنه بصوت عجوز متقطع، وتتوعد بألا تتركه يحيى.

تقول الحكايات إن البغلة الشهيرة، بغلة جدنا موسى «الثانى» لم تكن في الحقيقة إلا تلك الجنية التى روضها بغرس المسلة في كتفها في تلك الليلة البعيدة، وإنها ظلت على عهدها معه حتى فقدت في أحداث جسام سيأتي ذكرها، لكن تلك الحكايات هي نفسها التى تقول إنه لم يأت بها

أبدا إلى العزبة، بنى من أجلها عريشة إلى جوار مندرة الغيط، وكان يتركها هناك فى الليل بعد أن يملأ مزودها بالعلف ويعود إليها فى الصباح فيجدها كما هى، ولشهرتها ومعرفة الناس بحكايتها خافوا الاقتراب منها، كما خشوا التلصص عليها لرؤيتها والاطلاع على أحوالها.

تلكم هى حكاية جنية الليل مع موسى، وهى على ما ترون حكاية غير مسبوقة ولا ملحوقة فى تاريخ الأسرة القديمة، فنحن على ما أسلفنا نعرف أن أساس هذه الأسرة رجال تربوا فى مناخ علم دينى راشد، بعيدا عن حكايات العفاريت والجن وكائنات الليل العنيدة التى تستهدف الإنسان، لكننى عثرت على أسباب لوجود تلك الحكاية بالذات فى تاريخ الأسرة القديمة، ولتعلقها بموسى بالذات، فالذى نعرفه أن موسى كان مستهدفا بالقتل من قبل مساعد السمدانى، وكانت أول محاولة للنيل منه فى تلك الليلة الرهيبة التى وقع فيها الهجوم على مندرة الغيط لخطفه وقتله، أما الثانية فكانت عندما استأجر الأعرابى رجال منسر ديرب لتنفيذها، وكانت هاتان العمليتان فى حياة أبيه الشيخ أحمد المرسى، وأبى الشيخ إلا أن يُعَرِّف أبناءه وعلى الرأس منهم سيد احمد بتفصيلات محاولات الأعرابى لقتل أخيهم، حتى إذا ما رحل يجتمعوا من حوله ولا يمكنوا الرجل منه، فالذى كان الشيخ أحمد على ثقة منه أن مساعدا يعد موسى العقبة الرئيسة فى طريقه لاستلاب أرضهم وضمها إلى أملاكه، كعادة الأعراب فى ذلك الوقت، وهى عادة راجعة إلى النظرة المتعالية التى كان الجميع ينظرون بها إلى الفلاح المصرى، باعتبار أنه الأقل قيمة، وأنه يتصف بصفات تجعله الأدنى، كذلك شعر العثمانيون الأتراك، والمماليك والبدو،

حتى الدلاة والمغاربة والشوام والأحباش والأرناؤود والأرمن، ومن بعدهم الأوروبيون من فرنسيين وانجليز وهولنديين وبلجيك وإيطاليين وغيرهم وغيرهم ممن تعاقبوا على البلاد لنهب خيراتها والاستعلاء على أهلها.

لكن كل محاولات مساعد لقتل موسى ذهبت سدى، ولا أستبعد أن تكون الحكاية التي جاءت مواكبة لتلك المحاولات الفاشلة قد توطنت في نفوس أبناء عزبة الشيخ أحمد السرسي تبريرا لفشل المحاولات، فإذا كان الجن قد انطاع لأمره أوَ يقدر أحد حتى ولو كان مساعد السمداني على النيل منه؟!، أظن أن ذلك هي أصل الحكاية، وإن كانت كل الحكايات التي تتعلق بكائنات الليل الغامضة لا يمكن إرجاعها إلى أسباب معروفة أو محددة.

أنشودة الصعود

في تلك الأيام المشحونة بحكايات الليل ومحاولات النيل من موسى وقع الشيخ أحمد مريضا، ولزم الفراش في الدار القديمة، قامت على رعايته ابنتا عمه، حورية وسرية، وزاحمتهما شام وزكية في محاولة للقيام بأي دور، وجلست عند قدميه أمه الجدة مريم وقد ربطت رأسها بطرحتها، كانت قد تبدلت، لم تعد هي مريم التي يعرفونها، ومثلما كان وجه الأم الخبيرة في بداية قعودها امتدت الغضون إلى وجهها، وحفرت لنفسها أخاديد تمتد من كل مكان لتتجمع عند زاويتي فمها الذي تساقطت أسنانه.

قبل أيام قليلة من سقوطه مريضا شارك الشيخ في قياس الأراضي التي تقع إلى الغرب من أبعديته وتتماس مع زمام شبراسندي، اشترتها من مدير المديرية امرأة تدعى عقيلة هانم الفاغ، وهي امرأة من أصل تركي يشاع أنه ينتهي إلى السلطان سليمان الفاغ، ومتزوجة من رجل مصري لقبه مرسال، وتقيم مع زوجها في «مصر» المحروسة. فور أن تم الشراء جاء القياسون لقياس الأرض، وحضر الشيخ أحمد لوضع الحدود الفاصلة بين الملكين، وشرعوا في بناء عدة دور لما يسمى الآن بعزبة الفاغ.

ليس هناك من سبب معلوم لما أصاب الشيخ، فالحياة كانت تمضى كعادتها بحلوها ومرها، وحلوها لديه فى تلك الأيام كان أكثر من مرها، وكذلك لدى أسرته، حيث أكمل موسى استصلاح الأرض التى يحوزها هو وأخوته إبراهيم والسيد، كما وأتم سيد احمد استصلاح ما يحوزته هو وسليمان وفاطمة وأم الرزق، وإن كان محمد الطوخى وإسماعيل والشيخ نفسه لم ينجزوا شيئا يذكر بخصوص استصلاح ما يضعون الأيدى عليه، وكان الأبناء يمضون فى حياتهم دون عقبات كثيرة تعوق تقدمهم وتحققهم فى المكان، وبين الناس الذين ينظرون إليهم نظرة إكبار واحترام وود.

الأحوال فى البلاد كلها كانت طيبة، إلى حد معقول، فالحرب الأهلية الأمريكية التى اندلعت ما بين العامين 1861 و1865 منعت القطن الأمريكى من الوصول إلى أسواق العالم، واتجهت إلى الاستعاضة عنه بالقطن المصرى، وزاد سعر القطن إلى درجة أن القنطار الواحد بيع باثنى عشر جنيها، وهو لم يكن يباع قبلها بأكثر من جنيه، وترتب على ذلك أن تراكمت الأموال فى أيدى الأعيان وفى خزينة الخديوى الجديد إسماعيل، الذى راح ينفق ببذخ على مشاريعه بتعديل قواعد وراثة الحكم وحصرها فى أكبر أبنائه وليس فى أكبر الذكور من نسل محمد على باشا كما كان مقررا من قبل، وأيضا فى منحه حق وضع القوانين والأنظمة الداخلية وعقد القروض الخارجية وغيرها، وقد حصل على ما يريد عن طريق الرشاوى التى دفعها للسلطان وللصدر الأعظم ولغيرهم من أصحاب النفوذ فى الآستانة.

فى ذلك اليوم البعيد كان الشيخ أحمد فى دار زكية، إلى جواره يجلس

صغيره أحمد الضبع الذى حرصت أمه على أن تجنبه العمل مع أخوته فى الغيطان، وفجأة وفيما هى تقضى شأنا من شئونها فى صحن الدار سمعت صرخة ابنها فجاءت مسرعة، كان الشيخ قد سقط على أحد جانبيه وأمسك بصدره، الآلام التى تهاجمه تبدو على وجهه المتقلص بشدة، وظنت لوهلة أنه يموت، لكنه بالكاد أشار إليها لتنادى أحدا من الدار القديمة، فخرجت مسرعة، وهناك أبلغت سيد احمد الذى عبر المسافة بين الدارين فى بضع خطوات. لا يعرف أحد كيف انتشر الخبر فى العزبة، وتقاطر الأبناء جميعهم، وإن هى إلا دقائق حتى كانت المطايا جاهزة للذهاب إلى السنبلاوين، طلبا للطبيب الشامى الذى افتتح هناك عيادة منذ شهور، ولم يفت موسى أن يسارع بالذهاب إلى قرية أبى داوود السباخ فى طلب رجل يلجأ إليه الناس فى مثل تلك الحالات، يدعى الحاج منصور.

سرعان ما عاد موسى وبرفقته الحاج منصور، وكانت حالة الشيخ قد استقرت، لكن الآلام لا تزال تهاجمه فى يسار صدره وكتفه وذراعه الأيسر وإن بدرجة أقل حدة، قال الحاج منصور إنها علة فى القلب، وإنه فى أمس الحاجة إلى راحة تامة لعدة أسابيع، لا يتحرك فيها ولا يتكلم، ولا يكلمه أحد أو يزوره، فقط يتركوه لينام، وأوصى بمنع الطعام عنه مكتفيا بإعطائه سوائل وماء لمدة أيام ثلاثة، وأخرج من حقيبة يحملها قارورة أعطى منها للشيخ سائلا شربه، ومكث أكثر من ساعة ملازما له ثم أعطاه جرعة ثانية، وقبل أن يستغرق فى النوم طلب الشيخ بأحرف غير مسموعة أن ينقلوه إلى الدار القديمة ليكون إلى جوار أمه، وحمله إبراهيم وأوصله إلى هناك، وما أن استقر فوق سريره حتى راح فى النوم.

يبدو أن العقار الذى أعطاه منه الحاج منصور كان يبعث على النوم، إذ ظل الشيخ نائما حتى عاد سيد احمد من السنبلاوين وبرفقته الطبيب الشامى، و لم يكن الحاج منصور قد انصرف، إذ لما عرف بأنهم أرسلوا فى طلب الطبيب الشامى بقى فى انتظاره، وبالدهشة الجميع عندما رأوا الطبيب الشامى وهو يحتضن الحاج منصور، ويمتدح الفكرة التى جعلتهم يستعينون به، وجلس الطبيبان يتحدثان، شرح له الحاج منصور رأيه فى مرض الشيخ والعقار الذى أعطاه إياه، وإذ اطمأن الطبيب الشامى إلى أن الشيخ قد لقى إسعافا مناسبا أخرج سماعته وراح يضعها على صدره وظهره، وبعد أن فرغ من ذلك أخرج قارورة صغيرة وأخذ منها بعضا من السائل فى حقنة وحقنها فى جسده، وكان الشيخ قد استيقظ لما أرادوا تهيئته لكى يكشف عليه الطبيب.

أيام عديدة كان الشيخ أحمد ينام فيها طوال اليوم، من حوله تناوب الأبناء التواجد، حتى كان يوم دخلت حورية لتجده جالسا فى السرير يطلب الطعام، لم يكن طلبه معتادا، فطوال فترة المرض كان عازفا عن الطعام، ولا يقبل حتى رائحته، والآن هو يطلب الطعام بفمه، وأسرعت فأعدت فروجا طهته بدون ملح كأمر الطبيبين، وقدمته مع قليل من مرقه فتناول جزءا منه راضيا، وشكر ربه، وعاد الحاج منصور الداوودى لعيادته، وأوصى بأن يظل فى حجرته ولا يخرج منها أسبوعا آخر، وبألا يجاذب زائريه أطراف الحديث، وأن يتحلى أهل الدار بالشجاعة فيُعَرِّفوا الزائرين بحرج حالته وحاجته إلى الراحة والهدوء، وإذ خشى موسى أن يتهاونوا الزم بنفسه الدار، ونام أمام باب حجرته الأيام السبعة المطلوبة.

في ذلك الأسبوع حدث شيء استلزم جدالا محتدما بين الأبناء، جاء سيد احمد ذات ظهيرة بخبر طلب مساعد السمداني عيادة الشيخ في مرضه، خشي لو أنه سمح للرجل بالحضور أن ينفجر الوضع ويجد الشيخ نفسه وسط صراع لا يتحمل وطأته فينتكس، أو أن يُعْتَدى عليه، وعندما امعن الفكر راى أن يفاتح جدته مريم.

أجملت الحكايات الأمر في صورة تؤسس للخلافات بين الأخوين موسى وسيد احمد، و لم تنس أن تضع من التفصيلات ما تجعل الصورة داخل الإطار واضحة إلى درجة يستحيل معها تغافل ما تعطيه من دلالات، أول هذه الدلالات هي الأسئلة التي عاشت في أدمغة الأبناء موسى والسيد ومحمد الطوخي، لماذا اختار مساعد سيد احمد بالذات ليوسل معه في طلب السماح له بعيادة الشيخ؟!، كيف التقاه؟!، ومتى؟!، هل أرسل في طلبه فذهب سيد احمد إليه في مضاربه؟!، أم التقاه في مكان آخر؟!، وإذا كان الأخير فأين التقيا؟!.

مريم لم تكن في حاجة لأن تطرح على حفيدها كل هذه الأسئلة، اكتفت بالنظر إليه وتعجبت:

– ما حكايتك مع الأعرابي يا أبا يحيى؟!.

فقلب كفيه متعجبا، يعترض على منطق السؤال، وعادت لتسأل:

– كيف تلتقي رجلا يحاول أن يقتل أخاك؟!.

شعر سيد احمد بأنه يفقد آخر سند له في الأسرة، سند له من القوة ما يستطيع أن يعوض به فقدان اى شخص آخر، حتى ولو كان أباه، فأبوه

أمامها إذا جد الجد ليس إلا ابنا يلتزم رأى أمه، ولعل الجدة مريم كانت تعرف ذلك، وتعرف أن حفيدها يتمتع بخصال تؤهله لأن يكون رجلا عظيما، لولا حالة الخلاف مع أخيه الأكبر، وإذ أدرك أن جدته لن تطرح أسئلة أخرى أجابها:

– أنا لم ألتقه، جاءنى أحد رجاله وسألنى إن كان يمكن للرجل أن يعود أبى فى مرضه.

ونظر فى وجه جدته ليعرف أثر حديثه، ولما رأى تباشير انفراجة فى الملامح المجهدة أردف:

– لم أشأ أن أجيبه بلا، فقد يكون لكم ولأبى رأى آخر، و لم يكن من الممكن أن أجيب بنعم للسبب الذى تعرفين.

وإذ هدأت ثورة غضب الجدة قالت:

– قل لرجله إننا لا نستقبل فى دورنا من يستأجر المنسر ليقتل أبناءنا.

موسى أدرك أن هناك سرا بين سيد احمد وجدته، وخمن أن يكون السر متعلقا بغريمه الأعرابى، وربما يكون قد أدرك أن الأعرابى يطلب أن يعود الشيخ فى مرضه، وعلى الفور جمع أخوته وحرضهم على رفض الزيارة، ومضى يوم ووراء يوم، والجدة ترافق ابنها الشيخ وتنام عند رجليه حتى وجدته ذات صباح جالسا هناك على حصيرة صغيرة فى ركن الحجرة، لا تعرف كيف أخذها النوم إلى أعماقه فلم تشعر به وهو ينهض، ثم وهو يتخطاها فوق السرير ويهبط إلى الأرض، وإذ وجدته جالسا هناك مسحت عينيها وهبطت إلى الأرض هى الأخرى وجلست إلى جواره،

وكأنما كان فى انتظار أن تستيقظ إذ سألها بالطريقة التى حرصته عليها قديما والتى تحبها منه:

– ما العمل الآن يا مريم؟.

لم تنزعج، فهى تعرف أنه عندما يكون فى حاجة إلى الفضفضة يبادرها بمثل هذا السؤال، وبالطبع لم تكن هناك إلا إجابة فى صورة سؤال:

– فيم يا شيخ أحمد؟!.

مد قدميه معتذرا وانطلق يفضفض.

طالت جلسة الفضفضة إلى ما بعد العصر، وعندما قدموا له الطعام عزف عنه، كان فى حاجة لأن يستكمل حديثه لأمه، وظلت الأم الرائعة تحتفظ لنفسها بأحاديث إبنها لا تخرج منها إلا بقدر الحاجة، لكنها فى ذلك اليوم البعيد كانت تعرف أنه يودعها، يأمنها على ما ينغص عليه صفوه، ربما استطاعت أن تتدارك ما عجز عنه، وكانت قد توضأت وصلت الظهر، ثم عادت لتصلى العصر، وعندما انتهى من حديثه، أو لنقل عندما شعر بالتعب وفضل أن يستريح قليلا خرجت لتقضى حاجة، و لم تغب إلا دقائق معدودات ثم عادت لتجده منكبا على وجهه يعتصر صدره من الألم، أنهضته من كبوته وجلست من خلفه وأسندته إلى صدرها، كان مدركا لكل شىء، وأن أمه جاءت لتأخذه إلى صدرها فنطق بالشهادتين، ثم أغمض عينيه واستسلم للموت.

إن ما فعلته الجدة مريم فى ذلك الأصيل البعيد هو عين ما فعلته جدات أخريات فى تاريخ هذه الأسرة القديمة، فعندما ثقل فوق صدرها وتراخى

جسـده أدركت أنه مات، شيء ما انقطع في داخلها، وكان لانقطاعه دويا مؤلما، لم تشعر بمثله من قبل في حياتها، شيء متعلق بكينونتها، وبرؤيتها لكل شيء في الحياة الغادرة، التي تقلب الإنسـان على كافة الوجوه، ومن أذنيها انبعث طنين غريب جعل رأسها يدور في الفراغ، شعرت بأن صدرها مملوء بالنار، وأن لظاها ينبعث من عينيها المحشوتين بالرمال، ووجدت نفسـها ترتعد من الخوف وتنطق بكلمات لا تعرف كيف أو متى تعلمتها، وبعد قليل أدركت أنها لا تزال تحتضنه بشدة، كأنها تستبقيه، أو تتمنى لو تحمله بداخلها من جديد، انسحبت وهي تتمتم بكلمات غامضة، وأراحته إلى الأرض، كان كالنائم فمسـحت بأصابعها فوق عينيه حتى تأكدت من إغلاقهما، ثم قامت إلى السرير وسحبت الملاءة وغطته بكامله.

لم يدرك أحد ممن كانوا في الخارج ما يدور بداخل الحجرة، فلقد كانا يتحدثان منذ دقائق، و لم يكن الجزع الذي ترتعد من أجله مريم مسموعا، كان كالرعد يترجع في جنباتها الخاوية، فيما اللسـان لا يمل تكرار الكلمات التي تعلمتها ذات يوم، ربما في الواقع وربما في الحلم، وربما في تجربة سابقة كانت بين الحقيقة والحلم، وبعد أن فعلت من أجله ما تعلمته طوال حياتها خرجت عليهم، قالت إن أباهم الشيخ قد أسلم الروح، وإنه ينام الآن غير هياب أو جزع، وإنها لا ترغب في أن يصوت أحد من النسـاء لموته، ليبكوا ما شاء لهم البكاء، رجالا ونسـاء، ولكن بلا صويت أو نواح، وقبل أن تكمل حديثها اندفع الأبناء إلى داخل الحجرة ووجدوا أباهم راقدا فوق

الحصيرة فكشفوا وجهه، وانهالوا يقبلونه، يقبلون وجهه وجبهته ولحيته الرمادية الجميلة، التي تضيء ملامحه بنور غامض.

رحيل الشيخ أحمد السرسي البناء العظيم والمؤسس الأول لعزبة السرسي من أعمال مركز السنبلاوين أكبر مراكز مديرية الدقهلية كان في حوالى العام 1865، أى بعد عامين اثنين من رحيل الخديوى محمد سعيد باشا ومجيء ابن أخيه الخديوى اسماعيل. لا أظن أنني كنت أقدر على تصور جنازة الشيخ أحمد السرسي ما لم أكن قد مررت بتجربة مماثلة، فعندما وقفت في جبانة الحجايزة لأتلقى العزاء ممن جاءوا ليشيعوا أبى إلى مثواه الأخير غرقت في بحر من البشر، جعلني وأنا واقف أسلم يدى أو كفى أو حتى أصابعى لهؤلاء المشيعين أتصور ما قاله أبى نقلا عن عمه زكريا الذى رأى جنازة جده رأى العين، فلقد وصفها على نحو ما رأيت في جنازة أبى، طوفان من البشر تموج بهم الجبانة الفسيحة، والطرق المؤدية إليها، حتى أن الناس في غزالة والحجايزة وكفر سعد، ومن قبل في العزب التى يمر بها الطريق المتجه إلى الجبانة، صعدوا إلى الأسطح ليشاهدوا تلك الجمهرة العظيمة التى لم يروا مثيلا لها في حياتهم، والتى تتبع نعش أبى الذى عرفوه لأربعة وثمانين عاما.

في مأتم الشيخ أحمد السرسي جاء الناس من كل البلاد، ورأى أبناءه لأول مرة رجالا جاءوا من بقطارس، قالوا إنهم أبناء عمومتهم، وظل السرادق مقاما أياما ثلاثة، حتى إذا ما هدأت حركة الناس وعاد الأبناء إلى أنفسهم جمعتهم جدتهم في حجرتها، صغيرهم قبل كبيرهم، وإناثهم

قبل ذكورهم، أبناء حورية: موسى وإبراهيم والسيد، وأبناء سرية: سيد احمد وسليمان وفاطمة وأم الرزق، وأبناء شام: محمد الطوخى وإسماعيل الطوخى، وابن زكية: أحمد الضبع، ثمانية من الذكور وبنات لا أعرف عددهن، جميع الذكور عدا السيد وإسماعيل الطوخى وأحمد الضبع متزوجون، ولهم من زوجاتهم أبناء.

في ذلك الاجتماع عادت مريم مضطرة إلى موقعها من الأسرة، تعلم أن ترك الأمر لمجريات الأحداث سيوقع الفشل في صفوف أحفادها، خاصة إذا ما وضعت في الاعتبار أن المال يجرى في أيديهم جميعا، وبغير استثناء، فما حدث في مأتم أبيهم جعل سيد احمد يعرض عن موسى وينأى بجانبه، فبرغم أن الجدة مريم لم تبلغ أحدا من أحفادها عما قاله سيد احمد عن رغبة مساعد في عيادة أبيه في مرضه، إلا أن الجميع عرفوا بالأمر كأنه حادث أمامهم، وعندما انتقل الشيخ إلى رحاب ربه أرسل موسى إلى مضارب السمدانى من يطلب منه عدم الحضور للعزاء، وهكذا ظل سيد احمد يتلفت حواليه طوال الليل ويتعجب كيف لم يحضر الرجل ليعزيهم، وعندما أصبح الصبح أرسل مساعد من يخبر سيد احمد بما حدث فثارت ثائرته، و لم يهدأ إلا عندما هددته جدته باتخاذ ما يمكنها من تدابير لمنعه من تدمير الأسرة وكسر شوكتها.

في ذلك الاجتماع قالت إن عدوهم هو من يريدهم جميعا أو أحدا منهم بسوء، ومساعد السمدانى يريدهم جميعا بسوء، ولكنه يخفى ذلك، وبدلا من أن يواجههم في وضح النهار يعمل في الخفاء على الانتقام من أخيهم الأكبر موسى، ويستأجر المنسر لقتله، مرة في مندرة الغيط ومرة في

رحلة العودة بالأم الخبيرة إلى سرس القديمة، ونقلت إليهم قبسا مما أوصاها به أبوهم يوم رحيله، كانوا جميعا يتحلقون حولها فى صالة الدار القديمة، قالت إنه طلب منها أن تجمعهم من حولها إذا قدر الله له أن يرحل قبلها، وأن تأتى بحزمة من أعواد الحطب، حزمة قوية وتحكم ربطها إلى بعضها البعض، وتطلب من كل واحد بمفرده أن يكسرها، وإذا عجزوا عن ذلك وسيعجزون تحل رباطها وتعطى كل واحد عودا ليكسره.

إبراهيم هو الذى أحضر حزمة الحطب، انتقاها من أعواد قوية وجمعها إلى بعضها وربطها فى إحكام، وكان موسى هو أول من دعى، وبرغم أنه يعرف هدف جدته - فلقد سبق وقرأ له أبوه تلك الحكاية فى أحد كتبه - إلا أنه احتراما لذكراه مضى ينفذ ما طلبته منه جدته، حاول أن يكسر حزمة الأحطاب لكنه لم يستطع، وكذلك فعل سيد احمد وإبراهيم والسيد وسليمان ومحمد الطوخى وإسماعيل الطوخى، حتى أحمد الضبع، كلهم فشلوا فى تحطيم الحزمة القوية، وعندما أمرت السيد بحل رباطها أعطت لكل واحد منهم عودا وطلبت أن يكسره، على الفور كانت الأعواد ترقد هناك فى أرضية الصالة عند أرجلهم، مكسورة بغير عناء.

لاحظت الجدة أن سيد احمد لم يَصْفُ لأخيه تماما فانتهزت الفرصة واستبقتهما لديها بعد انصراف الآخرين، وإذ كانت الدار تعج بالمتواجدين و لم تستطع أن تختلى بهما طلبت أن يصحباها إلى مندرة الغيط لترى آثار ابنها الراحل من بعيد، ولتعرف كيف استطاع أن يؤسس الصرح الذى ينعمون بخيراته ويأمنون فى دوره وينهلون من ينابيعه، وكانا يعرفان أنها تريد أن تبتعد بهما عن الباقين مثلما أرادت أن تفعل ذات يوم، وكان

السـيد وبناء على طلبها قد أحضر العربة التى ذهبت بالأم الخبيرة إلى سرس القديمة، وفرش فوقها حشية لينة وأعان جدته على الصعود إليها بعد أن علقها إلى مطية نشيطة، وما أن صعدت إلى العربة حتى انطلقت الركوبة فى اتجاه مندرة الغيط، كأنها تدرك ما تريده الجدة.

لم تعد مندرة الغيط كما كانت فى الأيام الخوالى، لم تعد كنباتها وثيرة ونوافذها محكمة وبابها ينتصب فى شموخ، كانت فى ذلك اليوم البعيد تشكو الإهمال، وتحكى نوافذها وفرشها هجران أصحابها وتركها بغير اعتناء، لكنهما وجدا طريقة لتمهيد المكان خارجها، وضعوا المساند من خلف جدتهم بعد أن فرشوا حصيرة وأجلسوها هناك، كل شيء كان فى ذلك اليوم البعيد يدرك أن المؤسس العظيم قد رحل عن الدنيا، الزروع المنكسة، والسماء الملبدة، والهواء الحزين، والأفق المصطبغ بلون الدم والدخان، والذى يعجز المرء عن سبر أغواره، وكذلك الخندق الكبير الذى امتدت إليه يد الإهمال فتكسرت حوافه وانهال ترابها فى قعره فامتلأ به، حتى القناة التى حملت إليه ولا تزال ماء البوهية كانت تشكو الإهمال هى الأخرى، فلقد تركوها بغير تطهير أو اعتناء حتى صار بطنها بارتفاع شاطئيها.

لكن تغيرا كبيرا جرى فى المكان، فها هى الخضرة تغمر كل الأرض، من موضعها وحتى نهاية أرض موسى وإخوته، وأيضا حتى نهاية أرض سيد احمد وإخوته، ووجدتها فرصة لتبدأ حديثها بالقول:

– بعد رحيل أبيكم لن تقوم لكم قائمة إلا إذا مد كلاكما يده لأخيه.

كانا صامتين ينتظران المزيد من الحديث، فما يمكن أن يقولاه يتوقف

على ماهية ما ستثيره من أمور، وهى فى الحقيقة لا تريد أن تفتح أبوابا قد لا تغلق، فموسى على حق، لكن سيد احمد عنيد، وهو على الدوام يشكو إغفال أخيه لحقه فى أن يشارك فى اتخاذ القرار، وبرغم أنها أبطلت حجته من زمن عندما اقترحت بناء على طلب موسى أن توزع الأرض بين أحفادها واستجاب لرجائها ابنها الراحل، أقول برغم ذلك فإن سيد احمد لم يبرأ من حساسيته تجاه أى شىء يتعلق بأخيه، وظنت أنه يجعل من الأمر حجة ليخالفه.

موسى بادر إلى القول:

– لم يعد هناك ما يبرر الخلف يا جدتى، لنا سنوات كل واحد منا يتصرف فى أرضه وزراعته وداره باستقلال.

وكأنما انتظر سيد احمد أن يتحدث أخوه فقال:

– نعم، ولكنك تواصل الاستهانة بى وجعلى عرضة لسخرية الآخرين.

وأحنق القول موسى:

– إعطنا مثلا.

وأجاب سيد احمد بعد قليل من التردد:

– كان من الواجب أن تخبرنى بأنك سترسل لمنع الشيخ مساعد من القدوم للعزاء.

ولاحظ موسى أن أخاه يجل غريمه على نحو يغضبه، وها هو يتجاوز عن كل شىء فعله الأعرابى ويقف عند ترهات من مثل إخباره برغبته

فى منع الرجل من القدوم للعزاء، و لم يعرف كيف يجيب فنظر إلى جدته وابتسم فى أسى وأطرق إلى الأرض.

ران صمت ثقيل، لم يستطع أى منهما أن يفلت من وطأته، وكذلك شعرت الجدة مريم بشىء من الغضب، ذلك أن سيد احمد وبدلا من أن يقترب من أخيه يحافظ للابتعاد عنه، لم يناقش ما ارتكبه الأعرابى فى حق موسى، ولا يستطيع أن يدعى عدم علمه بما فعل الرجل، فلقد وضعه أبوه ذات يوم فى الصورة وأحاطه علما بتفاصيل الرحلة إلى ديرب لرؤية كبير المنسر والوقوف على حقيقة استجاره من قبل مساعد لقتل أخيه، لكنها لم تشأ أن تطلق لغضبها العنان، فما هم مقبلون عليه يتطلب منها أن تقوم فضلا عن دور الجدة بدور الأب، فحفيداها اللذان يجلسان أمامها يحتاجان إلى من يقومهما ويردهما إلى جادة الصواب، وكأنما علم موسى ما يدور فى رأسها فقام إلى أخيه وأمسك برأسه وقبله، وقبل أن يعود إلى مكانه قال:

– لا أقصد أن أتجاوزك أو أهينك، أنت أول من يعرف أننى أقدر رأيك، وألتمسه كلما احتجت إليه.

ثم وهو ينظر فى اتجاه جدته:

– وأعدك بألا أقرر أمرا قبل إطلاعك عليه والتباحث معك بشأنه.

الجدة مريم مذهولة من البساطة التى تعامل بها موسى مع الموقف، وكانت وهى تنقل البصر بين حفيديها تتمنى لو تحتضن الشابين وتمزجهما ليصيرا كيانا واحدا، رجلا واحدا، يتسم بالإقدام والشجاعة والقوة

والايثار والسخاء والرغبة في المسالمة والعناد معا، ولم تكد تفرغ من تأملاتها حتى كان سيد احمد قد تناول راس أخيه وقبلها هو الآخر، وانخرطا في البكاء.

الصعيدى

برحيل الشيخ تغيرت الكثير من الأمور، انتقلت عز زوجة موسى للعيش مع حورية والجدة مريم، وامتلأت الدار القديمة من جديد بالأبناء، وحدث تعديل، التحقت حورية بحجرة الجدة مريم فيما أخلت حجرتها للزوجين موسى وعز، وشغل الأبناء الحجرة الثالثة، وصارت دار موسى مخزنا للحبوب وللقطن الذى تنتجه أراضيه هو وأخوته.

علاقة موسى بسيد احمد تتراوح بين المضى قدما والتعثر، شعر سيد احمد بشىء من الحرية بعد رحيل أبيه، وصار إذا أراد ينطوى تحت جناح أخيه، وإذا لم يرد يزور عنه ويمضى فى حياته مستقلا، وشيئا فشيئا صارت الأمور تأخذ طريقها نحو تقسيم العزبة بصورة تبعث على الأسى، لكنهم سرعان ما تأقلموا على الأوضاع الجديدة، و لم يعودوا يجتمعون إلا فى مناسبات بعينها، كأن تمرض الجدة مريم فيجتمعون من حولها، أو تلد إحدى الزوجات فيحضرون عقيقة المولود، وينعمون بليلة أخرى من ليالى وحدة الأسرة واجتماع شملها.

ظلت سرية تتواجد فى الدار القديمة أكثر من تواجدها فى دارها،

وصارت إذا ما طلع الصبح تترك دارها للفتاتين فاطمة وأم الرزق وتأتى لتطمئن على عمتها، وتشرف على إطعامها ونظافتها، لا يسعدها ابتعاد ابنها الأكبر عن أخيه، كما ولا يسعدها امتناع موسى عن محاولة التقرب منه، وإذ لم تستطع أن تفعل شيئا اكتفت بالدعاء ومراقبة ما يدور، لا تملك إلا مصمصة الشفاة والدعوة من قلبها أن يوقع الهدى بين الأخوين.

شام لم تعد سعيدة بانحياز ابنها الأكبر محمد الطوخى إلى جانب موسى على طول الخط، تمنت لو استطاع أن يكون محايدا، لكن انبهاره بموسى أفشل مخططها فى سحبه إلى الطريق الذى تريد، وكذلك فعل سيد احمد مع إبراهيم وإسماعيل الطوخى، اقترب كثيرا منهما حتى صارا يلازمانه ولا يتركان مجلسه، وحفز هذا الأمر السيد، فازداد التصاقا بأخيه الأكبر موسى، وصار كلما سنحت الفرصة يجتهد ليسحب إبراهيم من جانب سيد احمد، لكن الأمور تحددت على نحو لا يرجى تغييره فى أمد منظور.

وخرجت علاقة سيد احمد بالأعرابى مساعد السمدانى إلى النور، تبادلا الزيارات فى العلن، الأمر الذى أدهش الكثيرين وجعلهم يأخذونه عليه، حتى أن سرية – وهى أمه – لم تخف استياءها، وتحمل موسى كل ذلك فى شجاعة، تعامل مع الأمر بعقلانية حسدته عليها جدته مريم، وأشفقت عليه منها أمه وعمته سرية، وتمنت شام وزكية لو يثوب سيد احمد إلى رشده، ويعيد للأسرة تماسكها ووحدتها.

وجاء رمضان فنزل موسى إلى المندرة الكبيرة، أعاد إليها رونقها، جدد فرشها وحصائرها واشترى لمبات كبيرة تضاء بالزيت وعلقها فى سقفها،

واستقدم شيخا ليقرأ القرآن طوال الشهر، وأرسل إلى إخوته ليشاركوه الإفطار فاستجابوا لدعوته، ومثلما كانوا يفعلون فى حياة أبيهم صاروا يجتمعون على مائدة الإفطار طوال الشهر، وعلى مائدة السحور أيضا، ويشاركون فى السهرة طوال الليل ولا ينصرفون إلا بعد أن يصلوا الفجر. اجتمع من حولهم الرجال من العمال والكلاف والفلاحين، حتى أن المندرة فى وقت الإفطار كانت تغص بالرجال إلى درجة تسر العين وتفرح الخاطر، وتجعل مما يجرى دليلا على عودة الحياة فى العزبة إلى مجرياتها.

وضعت الحرب الأهلية الأمريكية أوزارها، وعاد القطن الأمريكى إلى الأسواق فقل الطلب على القطن المصرى، وعاد الكساد ليعبث فى البلاد طولا وعرضا، واستدان الناس من المرابين الأجانب الذين انتشروا فى البلاد، ولما عجزوا عن السداد استولى هؤلاء على أراضيهم، وواكب ذلك حاجة الخديوى اسماعيل إلى المزيد من المال فعاد إلى فرض الضرائب الباهظة، ولما عجز الفلاحون عن السداد هجروا الأرض وتنقلوا من مكان إلى مكان بحثا عن لقمة خبز يقيمون بها أودهم وأود أطفالهم، و لم يقف الأمر عند هذا الحد، فلقد تعسفت الحكومة فى جمع الضرائب إلى حد توقيع عقوبة الجلد على العمد المتقاعسين عن جمعها، وتناقلت الحكايات أخبار جلد بعض العمد فى المنطقة، ممن أوقعهم حظهم العاثر فى طريق الحاجة الماسة إلى المال لتغطية النفقات الباهظة للخديوى المتلاف.

فى تلك الأثناء لم يكن يمر يوم دون أن يأتى إلى العزبة رجال يطلبون أن يعملوا ولو بلقمتهم، ولما كانت العزبة تغص بعمال أكثر من طاقتها لم يجدوا بدا من الانصراف للبحث فى مكان جديد، وجاء رجل صعيدى،

وجدوه في نهار رمضان جالسا عند ركن مندرة الغيط فجاء به أحدهم ليتناول معهم طعام الإفطار، يحمل على كتفه صرة فيها ملابسه وأغراضه، ويتكئ على عصا من الشوم، وقدم نفسه على أنه من مديرية أسيوط، و لم يضف إلى ما قال حرفا واحدا.

أيام ثلاثة قضاها الرجل في ضيافة موسى، يأتي الصباح فيذهب إلى مندرة الغيط، ويظل هناك حتى يأتي وقت الغروب فيعود إلى العزبة، وشيئا فشيئا عرف الجميع أنه يتقن أعمال تطهير القنوات والمصارف وتعيين الحدود وقياس الأرض بالقصبة الجديدة، بل وبناء الأفران البلدية والكوانين وصنع المقاطف والقفف والبرانيط من الخوص، وفتل الأحبال من التيل، وغيرها من الأمور التي كانت العزبة في أمس الحاجة إليها. بعد أسبوع واحد من مجيئه عادت الحياة إلى مندرة الغيط، امتلأت بالخوص وكومات التيل، وبالفئوس والكواريك والمناجل وكل ما يلزم لأن يؤدي الرجل عمله.

لم تتح لموسى الفرصة ليتحدث للرجل إلا عندما ركب مهرة أبيه ذات أصيل وانطلق يتفقد أحوال أرضه، هناك عند حدود أرضهم مع مساعد وجدهما يجلسان سويا، الأعرابي وسيد احمد، لم يأبها لرؤيته، وطالت جلستهما حتى كاد الغروب يلحق بهما، وفي طريق العودة صحب الرجل الصعيدي موسى وتحدث معه لأول مرة، قال إنه من فرشوط، وإنه مطارد لثأر عليه، وإن قدماه قادتاه إلى هذا المكان، و لم يكن موسى ليقل عن الرجل شغفا بمواصلة الحديث، وهكذا، فبعد أن تناولا فطورهما وصليا

المغرب والعشاء انطلقا إلى الغيطان من جديد، وفى مندرة الغيط أعطى موسى للرجل أذنيه كاملتين.

ملامح صداقة رائعة كانت تبدو فى الأفق بين موسى المحاصر بأفعال أخيه وبين الصعيدى الحاذق الفار من قدره، صداقة كان موسى فى أمس الحاجة إليها، فمهما كانت علاقته القوية بأخويه السيد ومحمد الطوخى، إلا أنه لم يشأ أن يسر إليهما بما يوغر صدريهما ضد أخيهما فيزداد تفكك الأسرة، كانت كلمات الصعيدى ممزوجة بأسى غريب، أعطى للأحرف ألوانا قاتمة، وللزفرات أطيافا تستدر الدمع، ووجد موسى نفسه ولأول مرة يحكى للرجل حكايته مع أخيه سيد احمد، ومع الأعرابى الذى يتحين الفرصة للنيل منه.

تقارب من نوع خاص جدا جمع بين الرجلين، موسى والصعيدى الهارب من قدره، وقرب نهاية رمضان كان الرجل يقوم من أجل صديقه بأشياء لا تخطر على البال، يشرف على إطعام الضيوف الذين يأتى بهم موسى من على قارعة الطريق، فيتناولون فطورهم ويمضون إلى حال سبيلهم، ويشعل المواقد ويدس فيها أباريق القهوة، ويفصد الدم من أفواه المطايا فيما يعرف باسم «التحنيكة» ويستخرج منها الشوك الذى يمنعها من الإقبال على الطعام، يخصى الجديان ليسمنوها للذبح، يقلم حوافر الخيل والمطايا والبهائم ويزيل منها البثور وأوساخ الطريق، ويطهر أرحامها بالزيت والشيح ويفتح مغاليقها لتحمل فى جحوش وعجول جديدة، وكان آخر شىء فعله هو صنع معجنة من الطمى النقى تمهيدا لطلاء الدور والمندرة الكبيرة بعد عيد الفطر.

مع انتهاء رمضان انطلق الصعيدى يؤدى أعماله المؤجلة، صارت العزبة فى وجوده أفضل كثيرا مما كانت، حتى أن الأطفال والصبيان كانوا يتحلقون من حوله فى الليل فيحكى لهم حكايات رائعة، ويلعب معهم ألعابا غريبة، وبفضله صارت العزبة حقيقية إلى حد أن الأطفال أخذوا يعتادون الخروج من الدور والالتقاء فى الأجران لممارسة اللهو واللعب، قبل أن تنادى عليهم أمهاتهم ليهجعوا إلى مضاجعهم ويستسلموا للنوم انتظارا ليوم جديد.

لم يأت عيد الأضحى إلا وصار للصعيدى شأن كبير فى حياة العزبة، تعلم كيف يسرح إلى الغيطان ويقوم عن موسى بتفقد أراضيه ومزروعاته، وعندما حان وقت الفيضان طهر القناة الآخذة من البوهية وأعاد الحياة إلى الخندق، وفى ذات ليلة قطع جسر البوهية و لم يأت الصباح إلا وقد امتلأ الخندق عن آخره، وكان هو الذى اجتذب أحمد الضبع ليذهب إلى الغيط وشجعه على العمل، ولما فشل فى تعليمه كيفية الإمساك بالفأس والمنجل والكوريك والعمل بها علمه صنع المقاطف والقفف والبرانيط من الخوص، وصنع السلال وأطباق الخبز وبطانات القلل التى تحفظ على مائها برودته وتحميها من التلوث بالطين، وصنع مع إبراهيم ثنائيا جبارا كفيلا بحمل أية أثقال، بالغة ما بلغت، وكانا يتباريان فى قوة الاحتمال فيغلب الواحد منهم مرة وينهزم مرة.

وأهم ما حققه وجوده إلى جانبه هو تمكين موسى من التواجد فى العزبة لأطول وقت، فضلا عن إمكانية السفر إلى الأصدقاء ليوم أو ليومين، وقد تمتد الزيارة لعدة أيام دون أن يقلق، فالصعيدى يقوم عنه بكل شىء ويرعى

مصالحه، ومن وراء ظهر موسى اعتاد الجميع أن يعهدوا إليه بالكثير من مصالحهم، فكان يجد الوقت ليقوم عنهم بما يريدون، حتى أن الجدة مريم والتى اعترضت فى البداية على استخدامه لأنهم لا يعرفون عنه شيئا، وقد تكون وراءه مصيبة لاقبل لهم بها، حتى هى اعتادت أن تأنس إلى وجوده فى العزبة، وراحت تكلفه بمهام لحسابها وحساب الأسرة جميعها، الأمر الذى جعل من وجوده وقيامه عنهم بما يعهدون إليه من مهام ضرورة لا تنفك تتضح مع مرور الأيام.

الأرض المزروعة فى العزبة تربو على المائتين وخمسين فدانا، وهى مساحة شاسعة لا يمكن لأحد أن يديرها بمفرده، ولا بد من رجال أقوياء يعينونه على إدارتها، وكتبة يسجلون مصاريفها وتكاليفها، وعمال يرعون ثيرانها ومحاريثها وطنابيرها، ويقومون على تجهيز أجرانها ومخازنها، ويقودون تلك الجيوش الجرارة من عمال الزراعة وتنقية الحشائش والديدان وجمع الأقطان وقطع الأحطاب، هذا غير أنفار الرى والعمل فى إدارة الطنابير ومجارى السواقى وغيرهم وغيرهم، والصعيدى الذى هبط عليهم ذات يوم أمكنه متابعة كل ذلك، لكنه ذات يوم طلب أن يستعين بأحد ممن يحسنون الكتابة والحساب فجاءه موسى بفتى من السنبلاوين اسمه عبد العال، وهو ابن لرجل يدعى داوود كان يحلق لأبيه الشيخ أحمد المرسى، وكان الرجل يتردد على العزبة مرة فى كل شهر، يحلق للشيخ وللأبناء ويعالج الأشياء البسيطة، مثل القوب والدمامل وبثور الرؤوس، وكان فى كل مرة يأتى فيها يصطحب ولده هذا، لذا فإن عبد العال داوود لم يكن غريبا على المكان، حتى أن نساء الأسرة كن أيضا يعرفنه، فكم

كلفنه بإحضار أشياء من أجلهن من السنبلاوين، وبحضوره اكتملت دائرة الصديق الصعيدى وصار بحق ناظرا لزراعة أبناء الشيخ أحمد السرسى، أو لنقل إنه كان على الأقل ناظرا لزراعة موسى وسيد احمد، إذ رفض محمد الطوخى أن يشارك فى أجر الرجلين على سند من أن مساحة أرضه هو وأخيه لا تستأهل ناظرا لزراعتها، وهو نفس الأمر الذى رفضته زكية وفضلت أن تواصل العمل على زراعة أرض ابنها بنفسها أو بمعونة من إخوته، وليس عن طريق ناظر للزراعة يكلفها الكثير.

لم تشأ الجدة مريم أن تترك الأمر دون تدخل منها، وفوجئ الصعيدى النابه بها تقتحم عليه المندرة الكبيرة، وتطلب إليه وهو واقف بين يديها بنظر فى الأرض أن يضم أرض حفيدها أحمد الضبع إلى أراضى نظارته، وستكفل بأجره الذى يطلبه مقابل ذلك، و لم يملك الصعيدى إلا أن يوافق الجدة على طلبها، لكن الفتى عبد العال داوود تململ، ولما انصرفت قال للصعيدى إنه لا يمكنه أن يساعد فى هذا الأمر، ما لم يعرف الأجر الذى سيناله فى المقابل.

وجاء وقت جنى القطن فأرسل حسن الكفراوى إلى موسى ثلاث مائة رجل وامرأة من ديرب نجم، أقاموا فى العزبة طوال موسم الجنى، واحتاج ذلك لأن يدبر موسى مكانا لإقامة هؤلاء، فلقد قدموا بصررهم المليئة بالخبز الأصفر الغريب والمش والبصل الجاف، طعامهم الذى سيقتاتون عليه طوال أيام العمل التى تمتد إلى أسابيع، وبفضل من نظارة الصعيدى وحسابات عبد العال أمكن لأول مرة جنى القطن جميعه من الأرض، فلقد كانوا يجنون الجنية الأولى ثم لا يجدون مفرا من تقطيع الأحطاب

حتى يعدوا الأرض للزراعة الشتوية، الآن صاروا يجنون القطن مرة ومرتين، بل وثلاث مرات حتى تقف الأحطاب جرداء لا تحمل أثرا لتفة قطن واحدة، فى تلك المساحات الشاسعة التى تمتد من زمام برقين إلى قرب المقاطعة.

وجاءهم عبد العال داوود بخبر أدخل السرور إلى قلوبهم، فلقد وفد إلى السنبلاوين يهودى يونانى يدعى بنايوتى، اشترى مساحة كبيرة من الأرض عند أطراف المدينة من جهة شريط السكة الحديد ليقيم عليها محلجا للقطن ومضربا للأرز، الذى كانت زراعته قد بدأت فى الانتشار بالمناطق القريبة من الترع الرئيسة، وهذا يعنى أنهم بدلا من أن ينتظروا مجيء تجار القطن من المنصورة أو الزقازيق سيكون المشترى قريبا منهم، خاصة وأن تجارة القطن كانت قد تراجعت بتراجع الطلب عليه فى الأسواق الخارجية.

أخلوا مندرة الغيط وجعلوها مكانا لمبيت النساء، وكانوا قد جددوا سقفها وأعادوا تغطيتها بطبقة من الطين المخلوط بالتبن والقش، وطلوا جدرانها بطبقة رقيقة من الطمى، ولأن الفتاتين فاطمة وأم الرزق كبرتا بما فيه الكفاية كانت الجدة مريم هى من وقفت فى طريق جعل أجران العزبة مكانا لمبيت هؤلاء العمال، فالجدة الأريبة تعرف أن النساء العاملات فى الحقول فى سبيل أن تمضى بهن الحياة المريرة إلى غايتها يتحدن الحديث بغير تحفظ، ويشاركن الرجال أحاديث مكشوفة عن العلاقات بين الرجال والنساء، وهو ما سبق وأن عاينته بنفسها فى سرس القديمة، عندما كانت وهى صغيرة تحاول الاقتراب من عمال التراحيل القادمين إليهم من بعيد، كانت تحب قصصهم وحكاياتهم وألعابهم الغريبة، وجرأتهم، لكنها

اكتشفت مع الوقت أن الأمور لديهم ليست محدودة بحدود، إلا فيما يتعلق بأرزاقهم التي لا تقيم الأود، ونصيبهم المنعدم من مباهج الحياة.

ربما تكون الجدة مريم هي التي فكرت في الأمر، إذ افترضت أن الحياة يمكنها أن تمضي إلى الأحسن إن هي استبقت الفتى الصعيدي إلى جوار أبنائها، وربما تكون هي التي لفتت نظر سرية إلى أن الفتى سيكون زوجا مناسبا لابنتها فاطمة، فمن جهة سيظل ملتصقا بالأسرة ويقوم من أجلها بما يقوم به، ولن تتجزأ أرض العزبة قبل الأوان، ومن جهة لن تخرج الفتاة من نطاق العزبة، وستظل مقيمة فيها وتتقدم في الحياة أمام أعين أخوتها، وستنجب أطفالا ينتمون إلى الأسرة التي لن يعرفوا لهم أسرة سواها.

استدعى الأمر أن تجرى نقاشا مع سيد احمد، حتى إذا استوثقت من موافقته فاتحت موسى وباقي الإخوة، ورأت سرية أن تترك لها الجدة أمر مفاتحة ابنها، خشيت أن يبادر إلى رفض الفكرة ويقف عند حدود الرفض لا يبرحها، ومن ثم يُجْهَض الموضوع قبل أن يبدأ، ورأت الجدة في طلبها وجاهة فأجابتها إليه، ومر يوم ويومان وثلاثة و لم تعد إليها بجواب، وبدت كأنها أهملت الموضوع من الأصل، وفي اليوم الرابع التقطتها الجدة مريم وهي تعبر الصالة تحاول التسلل إلى الخارج. نادتها فوقفت مستسلمة، وأرخت ذراعيها وغمغمت:

– تلقى وعدك يا سرية.

قالت:

– أراهن أنك لم تفاتحي ابنك في الأمر.

أجابتها:

- بل فاتحته يا عمتى.

سألت:

- ورفض؟.

- طلب وقتا ليفكر.

هزت الجدة رأسها وقالت مؤكدة:

- يريد أن يستوثق إن كان موسى هو الذى يطلب ذلك.

لكن سيد احمد لم ينظر إلى الأمر من تلك الزاوية، فالذى لا تعرفانه أن سيد احمد كان من داخله رافضا لأسباب ترجع إلى غموض موقف الفتى، وحرج وضعه كرجل مطارد، وبرغم التحفظات التى يحملها فى داخله تجاه أخيه الأكبر لجأ إليه طلبا للنصيحة، و لم تكن معارضة موسى بأقل من معارضته، فلقد تصارح الأخوان، صحيح أن العزبة تغيرت كثيرا بوجود الفتى، والأعمال التى كانت تدار بالمجالدة والتصميم صارت تدار بتخطيط ودراية وتنظيم، لكن تسيير أمور العزبة شىء ومصاهرتهم شىء آخر، فغموض موقف الفتى والثأر الذى يلاحقه يجعله وفاطمة إن هم وافقوا على زواجها منه فى خطر لا ينتهى طوال حياتهما، بل ويمتد إلى أبنائهما.

الجدة مريم لم تستسلم، قررت أن تفاتح سيد احمد بنفسها، ففاطمة بلغت من العمر خمس عشرة سنة، وهذا فى عرف الأسرة سن خطرة، إذ لم يتحدث بشأنها أحد، لا مع الشيخ قبل رحيله ولا مع أى من أخويها

موسى وسيد احمد، وهما لا يشعران بوطأة بلوغ أختهما هذه السن، ولا بملاحقة أم الرزق لها، والتى لا تصغرها إلا بسنة واحدة، من يشعر بهذه الوطأة هى الجدة التى نظرت فى تاريخ الأسرة فلم تجد فتاة وصلت إلى هذه السن دون زواج، وأم الرزق تلاحقها حذو النعل بالنعل، وتطاردها بلا فكاك.

رأت أن تتريث قليلا، فمن يدريها أن يكون الفتى الصعيدى على استعداد للزواج والإقامة فى العزبة إلى الأبد، أليس من المحتمل أن يكون متزوجا وله أبناء فى بلاده البعيدة، خاصة وأن الصعايدة يعتادون على الغربة بعيدا عن زوجاتهم وأولادهم، والفتى فى عمر أكبر أحفادها أو يكبره بسنوات، وهذه السن تفرض كل الاحتمالات، ولكن كيف تتأكد من أنه ليس متزوجا من امرأة فى بلده البعيد؟، وأنه على استعداد للزواج والقبول بمبدأ الإقامة فى العزبة إلى الأبد؟.

اختارت محمدا الطوخى لاستدراجه لمعرفة ما إذا كان متزوجا، وفى إحدى روحاته إلى الغيط اقترب منه إلى درجة سمحت بأن يختصه بأسرار تتعلق بأسرته، تلك أول مرة يقترب فيها أحدهم منه إلى حد النجوى، وبدون أن يفطن سأله محمد إن كانت له زوجة أو أبناء فى بلاده البعيدة، وبعد تردد انطلق الفتى يحكى عن ابنة عمه التى قرأوا فتحتها وهى طفلة، لكنه فر من بلده بعد قتل رجلين من خصوم أسرته أخذا بثار أبيه، وقبل أن يخرج لقتلهما أطلق عمه من قيد الفاتحة، وطلب أن يزوج ابنته لمن يرتضيه زوجا لها، وأنهى إلى محمد أن من هو مثله لا يمكن أن يتزوج ويقيم حياة مستقرة، فهذا لا يعنى إلا أنه يمكن خصومه منه، إذ سيفرض عليه الزواج

الاستقرار فى مكان واحد، وسيعطى إنجابه الأطفال لمطارديه بدائل لتنفيذ مآربهم.

فى المساء كان كل ذلك مطروحا على بساط البحث بين الجدة مريم وسرية، وأشركتا فى الأمر حورية، واضطرب قلب سرية من حديث الفتى عن أن أبناءه القادمين سيكونون فرصة لخصومه للعثور على بدائل معتبرة لتنفيذ القتل، فهى وإن أعجبت بالفتى وهمته إلا أن فكرة أن يستيقظوا ذات يوم فلا يجدوه بينهم جعلتها تجفل، وتمنى من داخلها لو تقف عمتها عند هذا الحد ولا تتقدم خطوة أخرى.

اقترحت حورية أن تتحدث عمتها إلى موسى، فالفتى بكل المقاييس عريس مناسب، ونصيب فاطمة فى الأرض وفى العزبة سيجعل من الزوجين أسرة مستورة، هذا بالإضافة إلى ما يقوم به الفتى من أعمال أعجزت من قبله العصبة من الرجال، ووحده موسى هو من سيحسن تقدير ما تفكرن فيه.

لم تشعر فاطمة بأى شيء مما يدور فى حجرة جدتها، و لم تلفت نظرها الاجتماعات التى لا تنفك تنعقد فى الحجرة التى يغلق بابها فى كل اجتماع، ولا التصرفات المريبة التى تجعل أمها وجدتها وعمتها حورية يصمتن كلما اقتربت منهن، وتواصلن الحديث إذا ما ابتعدت، و لم تفطن إلى دلالة أن تدفعها أمها دفعا إلى المغالاة فى غسل وجهها، وأن تجيء لها بأنواع من الصابون تثير حرائق فى وجهها وتجعله يبدو مثل حبة الطماطم الحمراء، وأن تأمرها بارتداء الملابس الجديدة التى يحضر قماشها من المنصورة كاتب الحسابات عبد العال داوود وتحيكها من أجلها خياطة

ماهرة فى السـنبلاوين تدعى معزوزة، و لم يثر خيالها قيام أمها بتمشيط شعرها بنفسها بعد دهانه بشيء من الزيت الغريب الذى يحمل روائح عطرية، لكن أم الرزق سمعت نثار أحاديث بين أمها وعمتها حورية، وفهمت منها أن عريسا يريد أن يتزوج أختها فأسرعت لتخبرها.

لم تضطرب لسماعها ما أبلغته به أختها الصغرى، فلقد شبت غير مبالية بما يثير خيال الفتيات فى مثل سنها، فقط كانت تحسن العمل فى أى شيء تعلمته من جدتها وأمها، وكانت وحتى وفاة أبيها تحسـن خدمته عندما يكون فى دار أمها، أو عندما يكون فى دار عمتها حورية ويتطلب الأمر أن تكون هناك فى خدمة جدتها، و لم يكن يثير غيرتها خفة أختها أم الرزق ولا تفكيرها الدائم فى نفسها وأنوثتها، وعندما تجرأت أم الرزق وسألتها عن الرجل الذى تتمنى أن يتزوجها استنكرت أن تتحدث فى مثل تلك الأمور، ثم لم تلبث أن قالت:

– من ساكون من نصيبه سيرضينى.

وعابثتها أختها:

– وإذا كان دميما؟!.

فأجابتها:

– الرجل لا يعيبه شكله.

كانت ضحية الأحاديث التى طالما سمعتها منذ كانت طفلة، شأنها شأن كل البنات اللاتى تربين على القوالب الكلامية التى تمجد الرجل فى كل أحواله، وتجعل من المرأة مجرد جارية عند قدميه، وبرغم أن تلك القوالب

القولية لم تكن لتلغى شخصية أية فتاة أو امرأة إلا أنها بحسها الساذج وبساطة روحها لم تعادل بشخصيتها تلك القوالب، وصدقتها، وآمنت بأن نصيبها فى الحياة مقدر، وأنها لن تستطيع مهما فعلت أن تغيره.

لم تصدقها أم الرزق عندما أخبرتها أنها لا تعرف شكل الفتى الصعيدى الذى يتحدثون عنه، وسألتها إن كان يشبه الشاب مطاوع الذى جاءهم منذ أشهر ليشترى القمح الناتج عن زراعتهم، والذى مكث لديهم عدة أيام وكانت تقدم له الطعام فى المندرة الكبيرة، وتجاذب معها فى حضور إخوتها أحاديث بسيطة مكنتها من النظر فى وجهه، لكن أم الرزق قالت إن الصعيدى الذى يتحدثون عنه لا يشبهه، فهو طويل ونحيل، ويميل إلى السمرة، وبإمكانه أن يطلق البارودة بيد واحدة، فى حين أن مطاوع الذى تعنيه أقصر قليلا وأبيض البشرة، وفيه كما قالت أثر من ظل ثقيل، لكن فاطمة نهرتها، فالشكل كما قالت لا يعيب الرجل، وكذلك الفقر وتواضع النسب، وعندما سألتها عما يمكن أن يعيب الرجل فى نظرها هزت كتفيها ومطت شفتيها ثم قالت:

– الرجل لا يعيبه أى شىء.

لكنها فهمت لماذا تحرص أمها على أن تجعلها تبدو فى كامل زينتها، وتعجبت كيف تشعر أمها بالجزع لشىء لا دخل للبشر فيه.

اقترب موعد عودة أنفار الجنى إلى ديرب، وجاءهم حسن الكفراوى صديق موسى، جاءهم هو وزوجته وأطفاله، ومكثوا عندهم أياما لعب فيها الأطفال معا، وركبوا الحمير وقطعوا المسافات فوق السكك المتخللة للأرض الشاسعة، والتى اخضرت كلها عدا تلك التى كانت من نصيب

أبناء شام وزكية، وإذ كان موسى عالما برغبة جدته فى تزويج فاطمة من الصعيدى وجد أن يستشير صديقه، وكان الصديق مبهورا بالتنظيم الذى رآه فى كل مكان، فى الغيطان والمخازن والحظائر والأجران، فأثنى على رؤية الجدة للأمر، وتمنى لو يجد شخصا مثله فيستبقيه لديه، ولو بتزويجه أخته أو ابنته.

لكن شيئا ما كان يواصل الرفض فى داخل سيد احمد، فالمعضلة الرئيسة لم تحل، وهى كيف يطمئن على أخته؟، وكيف يتوايم مع الأخطار التى ستواجهها فى الحياة كونها زوجة لرجل مطارد وبلا غد؟!، لم يكن مثل هذا الشىء هينا بحيث يمكن التجاوز عنه، و لم يناقش أحد من الرجال ما إذا كان الفتى يشعر بالفعل بحاجة إلى الاستقرار والزواج أم لا.

ظلت الأسرة تدور حول نفسها، والكفراوى عاد إلى ديرب بزوجته وأبنائه على وعد بأن يرد موسى الزيارة، كما دعا سيد احمد لزيارته هو الآخر، ولأول مرة فى وجود هذا الصديق شعرت الجدة مريم بأن العلاقة بين الأخوين المتنافرين تعود إلى طبيعتها، إذ كانا يذهبان إلى الغيطان معا ويتفقدان كل شىء معا، بل ويقضيان اليوم بطوله فى معية الصديق، حتى أنها صلت لله شكرا ونذرت إن اكتمل الأمر ووصل الأخوان إلى توافق يتجاوز خلافهما فى الرأى لتحملن الأسرة بكبارها وصغارها رجالها ونسائها وتذهب لزيارة مقام السيد أحمد البدوى، ولتبيتن هناك هى وأسرتها وتطعم الفقراء والدراويش أياما ثلاثة، لكن الكفراوى عاد إلى بلده وسرعان ما عادت الحال إلى ما كانت عليه، وتنافر الأخوان كأن ما ربطهما فى الأيام القليلة الماضية ذهب إلى غير رجعة.

خشيت أن يتسبب الخلاف فى تعويق العمل فى إدارة العزبة، ومن ثم فرار الفتى الصعيدى، ولكى تستبق الأحداث ناقشت سيد احمد فى أمر زواج الفتى من فاطمة، فسمعت منه التحفظات التى سبق وأبداها، وبعد قليل من الصمت سألته:

- أيعنى هذا أنك ترفض؟.

لكنه صمت و لم يحر جوابا، فالحقيقة التى لا يستطيع هو نفسه أن ينكرها أن حاجته إلى وجود الفتى تفوق حاجة أى أحد آخر، حتى موسى، والجدة مريم التى عركتها الأيام وأعطتها خبرات هائلة تعرف أن حفيدها يحتاج إلى من يتخذ القرار عنه، ففى كل مرة يتراوح فيها بين الإقدام والإحجام، بين القبول والرفض، كانت دائما هناك، تتخذ عنه القرار الذى ترى أنه فى صالحه، وهى فى ذلك الأصيل كانت تعرف أنها مطالبة بأن تنوب عنه فى اتخاذ القرار، و لم تجد بدا من أن تقول:

- إذن دع الأمر لى.

تقول الحكايات إن محمدا الطوخى كان هو من أبلغ الفتى الصعيدى بالهمهمة التى دارت فى الدار القديمة حول الرغبة فى البحث له عن زوجة، ولما كان الفتى لبيبا فقد أدرك أن الأسرة التى يعمل فى خدمتها والتى أطلعته على الكثير من أسرارها ترغب فى تزويجه إحدى بناتها، لم يتجاسر على السؤال عمن وقع عليها الاختيار، فالذى لا شك فيه أنه باستثناء أم الرزق لا يعرف أحدا من أهل العزبة من النساء أو الفتيات، فلقد رأى أم الرزق عدة مرات فى مناسبات سريعة مكنته من تكوين فكرة عنها، وفوجئ ذات صباح باستدعائه لمقابلة الجدة مريم.

الأعمال فى الغيطان كانت قد انتهت تقريبا، فبعد أن فرغوا من تقطيع الأحطاب وقلبوا الأرض وحرثوها بذروا القمح، ثم زَحْفوا الأرض قبل أن يغمروها بالماء، وها هى النباتات تخرج من تحت الأرض معلنة عن موسم ناجح لزراعة القمح، وأمدهم الخندق بالماء الكافى لرى المحصول طوال الشتاء، وكان سيد احمد وبعد أن اشترى أقطان إخوته بمن فيهم موسى قد نجح فى انتهاز فرصة بيع الخديوى لأقطانه وباع قطنه هو الآخر، وانتهز موسى الفرصة وسافر مع زوجته وأبنائه إلى ديرب لزيارة صديقه، كما أخبر جدته أنه سيعرج على شبراهور لزيارة أصدقائه هناك أيضا، وانتهزت الجدة مريم فرصة انشغال حفيديها بأشغالهما وأرسلت محمد الطوخى لا ستدعاء الصعيدى.

اللقاء كان فى المندرة الكبيرة، اختار سيد احمد أن يذهب إلى السنبلاوين فى ذلك الصباح، أما السيد وسليمان وإبراهيم فإنهم كانوا فى دورهم لا يعلمون من أمر المقابلة الشيء الكثير، وجدته قادما بقامته المديده وجسده النحيل، وكان مطرقا إلى الأرض لا يقيم عينيه فيها، طلبت إليه أن يجلس فأبى، ولما ألحت جلس عند طرف أريكة بجوار الباب، وجدها تسأل إن كان يمكن أن يقص عليها قصته، فراح يقص ما سبق وحكاه لموسى، ولمحمد الطوخى، طوف بحكاية الثأر، وعاد إلى ظروف قتل أبيه وخطبة ابنة عمه، ثم ألمح إلى أخذه لثأر ابيه ورحيله عن بلاده، كما حكى عن البلاد التى تنقل فيها والأعمال التى عمل بها، وأخيرا ومن باب الأدب انتهى إلى أنه طوال رحلة فراره لم يشعر بالأمان إلا من اللحظة التى وطأت

فيها قدماه أرض العزبة، و لم يشعر بالطمأنينة إلا عندما تعرف إلى موسى وعاهده بأن يكون له الأخ والصديق.

دون أن تشير لما كان بينه وبين حفيدها محمد الطوخى من حديث سألته:

- كم عمرك الآن؟!.

أجاب وهو مطرق إلى الأرض:

- أقترب من الثلاثين.

واندهشت:

- و لم تتزوج؟!.

فاضطر إلى رفع رأسه قليلا، لكن بصره كان متجها إلى بعيد، فالنظر زائغ والأيدى التى عملت كل تلك الأعمال فى العزبة والغيطان أصابتها رعشة غامضة:

- مثلى لا يجب أن يتزوج يا ست الحاجة.

- و لم لا؟!.

وابتسم فى غموض:

- أنا يا سيدتى رجل ميت.

جادلته:

- لك معنا أكثر من سنة، وكنت من قبلها تجوب البلاد طوال تسعة أعوام، ولا زلت تحيا.

فأجاب:

– لإن أحيا بمفردى خير من أن أموت أنا وأبنائى.

ووجدت نفسها مضطرة لأن تصارحه:

– نرغب فى تزويجك إحدى بناتنا.

وحتى تضفى جوا من المرح على الجلسة المتوترة سألته:

– ألا تريد أن تكون صهرا لموسى؟!.

لكن الحديث ظل يراوح مكانه، ولا يكاد يخرج من النفق الذى حرص الفتى على أن يبقيه فيه، وانتهى إلى طلب أن تسمح له بأن يخلو إلى نفسه ويرى إن كان يستحق هذا الشرف.

وفى مساء اليوم التالى أرسل فى طلب لقاء الجدة وسيد احمد، ولما كانا على ثقة من أنه سيطلب أن ينتسب إلى الأسرة استقبلاه فى صالة الدار القديمة، موسى كان لما يزل غائبا فى زيارة أصدقائه، والصالة القديمة لم يكن فيها سوى الجدة مريم وسيد احمد، فيما حجرة الجدة فيها سرية وحورية ترهفان السمع إلى ما سيكون، وعلى غير توقع من الجميع رفض الفتى أن يجلس، تحاشى النظر فى وجه الجدة مريم ونظر إلى سيد احمد وقال:

– أنا لا أستحق أن أنتسب إليكم، فلقد جئت إلى هنا لأقتل أخاك، وبعد أن خالطتكم وعرفتكم أتمنى لو كنت ميتا قبل اليوم الذى قبلت فيه هذه المهمة.

كل الألسنة كانت منعقدة من الدهشة، الجدة التى سرحت الغضون فى ملامحها انسحب الدم من وجهها، لم تكن الكلمات واصلة إلى إدراك سيد

احمد كما هى، بل كانت تتضخم وتمتد أحرفها وتتجوف بصورة عبثية، وكانها تسأل: ما الذى يقوله هذا الفتى؟، ووجدت مريم أخيرا أنها قادرة لأن تسأل:

- تقول تقتل من؟!.

فأجابها وهو مطرق إلى الأرض:

- موسى يا سيدتى.

وكأنما عثر سيد احمد على لسانه فأمكنه أن يسأل:

- من استأجرك؟!.

فرفع الرجل رأسه، ونظر فى عينى سيد احمد وأجاب:

- انتم تعرفون من هو.

وفى لمح البصر اختفى من أمامهما.

لم تمض دقائق حتى كان وسط ذهول الجميع يغادر العزبة، و لم يستطع محمد الطوخى أن يمنع نفسه من مرافقته لخطوات، وإذ استقل الفتى أن ينظر فى وجهه طلب منه أن يبلغ موسى بأسفه، وبأن ما منعه من تنفيذ طلب مساعد السمدانى هو تمكنهم من قلبه، لما اقترب منهم ورأى من امورهم ما رأى.

ليلٌ آخر بهيم

أحدث اعتراف الصعيدى زلزالا فى أركان العزبة، لكن رحيله وموسى لما يزل غائبا جعل الجدة مريم تشعر بالخوف، ولما لم يمكنهم إجبار الفتى على البقاء حتى قدوم موسى طلبت من أحفادها أن يذهبوا ليعودوا بأخيهم وأسرته من لدن أصدقائه، إما فى ديرب نجم أو فى شبراهور، لم تستطع أن تحفظ السر، فحورية وسرية كانتا هناك فى حجرة الجدات، وأم الرزق الصغيرة كانت هناك أيضا تسمع ما يقال فى الصالة، وقبل أن يؤذن للعشاء كانت العزبة كلها تعرف بأمر الاعتراف المذهل، و لم يطق السيد صبرا فانطلق إلى ديرب نجم ليكون فى معية أخيه وأسرته فى طريق العودة، ورافقه إبراهيم، خشيت جدته أن يتعرض السيد لمكروه وهو ذاهب للبحث عن أخيه فأمرت بأن يرافقه، فيما شكل سيد احمد وبأمر من جدته أيضا فريق حراسة على العزبة، منه ومن سليمان ومحمد الطوخى وأحمد الضبع، ومعهم العمال الذين كانوا أكثر ذهولا من أى أحد آخر.

وموسى الذى صعقه الخبر وأخرسه ليومين كاملين تمنى لو كان قابل الصعيدى وجها لوجه، ليعرف منه حقيقته، من أين هو؟!، وما اسمه

الحقيق؟، ولماذا ظل عاما كاملا فى معيتهم و لم ينفذ مهمته؟!، لكن محمدا الطوخى الذى أصر على مرافقة الفتى حتى مشارف برقين عرف منه أشياء كثيرة، فقد أخبره أن السمدانى طلب منه ألا يسارع بقتل موسى حتى لا تفشل مهمته، وإنما يخالطه حتى يأمن له ولا يقدر على الاستغناء عنه، ومن ثم يقتله، وساعتها لن يستطيع أحد أن يتهمه فيه، لكنه وهو يخالط موسى أيقن أن رجلا مثله لا يكون جزاؤه القتل، وأن أسرة لها ما لأسرته من خصال لا تستأهل أن يقتل قائدها عدوانا وغيلة، وعلى طريقته الخاصة أصر محمد الطوخى على أن الرجل طوال الطريق كان يبكى بدموع حقيقية، وكان يطلب من موسى أن يسامحه.

عبثا بحثوا عنه ليعيدوه، وليسمع منه موسى بأذنيه، لكنهم لم يعثروا له على أثر، كأنه لم يعش بينهم عاما بأكمله، يأكل مما يأكلون ويشرب مما يشربون، ولقد جاب عبد العال داوود قرى المركز بحثا عنه فلم يجده. وفى النهاية أوقفوا البحث، ورأت الجدة مريم أن تجتمع الأسرة لبحث كيفية الرد على ما فعله السمدانى، وعندما طلب موسى ترك الأمر له ليتعامل معه بمفرده اغرورقت عيناها، قالت:

– أنا الرابط الأخير الذى يربط بينكم.

وبدون أن تتوقف أردفت:

– لا تتطلب منى أبدا أن أكون خارج الأمر.

فى الموعد المحدد لاجتماع العائلة فاجأ سيد احمد جدته بعرض تقدم به مساعد السمدانى، لم يشعر أحد بالإهانة بقدر ما شعر موسى،

والجدة مريم، فأن يعرض مساعد القسم على كتاب الله أنه بعيد عما زعمه الصعيدى، أو أن يعرض إحضار البشعة ليلحسها وينجو إن كان صادقا، أو يحترق إن كان يكذب، وأن يطلب هذا عن طريق سيد احمد بالذات أعاد الموضوع إلى المربع الأسبق، يوم أن اصر سيد احمد على أن يعطوه الفرصة ليبرئ ساحته على حساب الحقيقة، وبغير حاجة إلى أى إجراء شعر موسى بأن أخاه ربما لا يصدق من داخله ما قاله لهم الفتى الصعيدى، والذى لم يستطع أن يواجهه هو فآثر الابتعاد قبل أن يعود من رحلة زيارته لأصدقائه.

العرض الذى أتى به سيد احمد فتح الباب على المصراعين للتساؤلات التى لا تنتهى، إذ من أخبر مساعدا بخبر الفتى الصعيدى وما اعترف لهم به؟!، وحتى إذا كان إبراهيم - على ما علموا بعد ذلك - هو الذى أخبر أحد رجال السمدانى بطلب من سيد احمد فإن الدافع من وراء ذلك لا بد وأن يتضح للجميع، كبارا وصغارا، رجالا ونساء، إذ ما الذى كان يقصده سيد احمد من إبلاغ الرجل بالأمر؟!، وكيف يقدم على شيء مثل هذا دون أن يستشير أخاه الأكبر والمتضرر الحقيقى؟!، أو أى أحدا آخر؟!، فالذى كان معلوما للكافة فى تلك الأثناء البعيدة أن وجود الفتى الصعيدى قرَّب سيد احمد من ابراهيم إلى درجة أن الأخير لم يكن يبتعد عنه إلا إذا كان فى مهمة بتكليف منه أيضا، وصارت خصوصيات دار إبراهيم تغمض حتى على أمه فى الوقت الذى كانت فيه متاحة أمام سيد احمد، يعلم بها وبدقائقها، ويعالجها على نحو ما يرى.

ما أثيره من أمور من الآن فصاعدا يمضى فى طريق شائك، لكننى أمضى

فيه وأنا راض عما أفعل، فتاريخ أسرتي لأسباب تاريخية، وأخرى متعلقة بالمصادفات السياسية والاجتماعية يعد بصورة أو بأخرى نصا فى تاريخ الوطن، ذلك أن مراحل نمو الأسرة وتطورها منذ فجر العصر الحديث وحتى اليوم واكبت وتفاعلت مع الأحداث العظام والجسام التى جرت فى مصر منذ جاءت الحملة الفرنسية وحتى قامت ثورة يوليو فى العام 1952، بل وما بعدها، وإنى لإن أسهبت فى رصد ووصف تطورات نمو الأسرة فى موطنها الجديد فإنما لأضفر تاريخها فى تاريخ الوطن ككل، منتشيا(*) بفعل الكتابة، وملتفتا عن الأعراض التى يمكن أن تبدو على أى كاتب يجعل من أحداث حقيقية وأشخاص حقيقيين مادة لكتابة روايته.

الأثر المباشر للعرض الذى جاء به سيد احمد كان فشل الاجتماع الذى دعت إليه الجدة مريم، ربما لم يعرف أحد ممن اجتمعوا من حولها فى الدار القديمة سر تينك الدمعتين اللتين انحدرتا فوق الخدين الضامرين، ووجدتا طريقهما للتفرق بين الأخاديد التى صنعتها الغضون المتزايدة، وتسربتا إلى ركنى الفم الذى أدرك فيهما طعم الملوحة والمرارة، راحت تنظر إلى أحفادها الذين فجعهم عرض الأعرابى، وإصرار سيد احمد على السماح له بتبرئة ساحته والضحك علي ذقونهم مرة أخرى، وأخذت تقارن بين الاجتماع العاجز الذى يحتجون فيه على فعلة أخيهم ويزأرون فى وجهه ولكن بلا أنياب حقيقية أو مخالب، وبلا إمكانيات لوضع الأمر فى نصابه، وبين ذلك الاجتماع الذى جرى قبل نيف وثلاثين عاما فى بهو الدار

(*) نقلا عن صديقى الكاتب الجميل جار النبى الحلو فإنه ذات مرة كان يجالس الراحل يحيى الطاهر عبد الله وكانا فى مطلع حياتهما الأدبية، وتبادلا الشكاية من ندرة فرص النشر فقال له يحيى الطاهر عبد الله "يكفينا أننا انتشينا بفعل الكتابة".

الكبيرة فى سرس القديمة، والذى لم يقولوا فيه كلمة واحدة، فقط تباحثوا بمجرد النظر، وقرأوا فى عيون بعضهم البعض ما يريدون أن يقولوه، بلا زيادة أو نقصان، نعم، تلكما الدمعتان كانتا تبحثان عن مخرج لحالة العجز التى أصابت الأسرة، ولما لم تعثرا على ذلك المخرج عبرتا بجلاء عن العجز فى الوصول إلى حل.

خرج موسى من تلك التجربة مجروحا بشدة، وبدون أن يستشير أحدا راح يخطط لنفسه، ويحرص على أن يكون ما يفعله سرا على الجميع، عدا شقيقه السيد الذى كان يتكتم تحركاته ويموهها، فلقد فقد الشقيقان الثقة فى قدرة اجتماع الأسرة على إنجاز شىء، واحتاج التدبير إلى السفر فى اتجاه ديرب من جديد، مرة ومرتين قبل أن تهدأ الحركة ويعود السلام إلى نفسيهما، وعبثا حاولت حورية أن تتدارك الأمر وتعيد ابنيها إلى حظيرة الأسرة المجتمعة إلا أنها فشلت، فالذى فعله سيد احمد أفقد ولديها الثقة فى اجتماع الأسرة وتماسكها، وكما استحل سيد احمد لنفسه التعامل مع الأعرابى من وراء ظهور أخوته فإن موسى والسيد يستحلان لنفسيهما أيضا التعامل فى شئونهما خارج الدائرة الجهنمية التى ليس من ورائها إلا الخسران.

ولما انقسم الأبناء إلى معسكرين توقفت كل المشروعات المشتركة، وفقد الخندق الكبير أهميته، بل إن الأرض التى نجحوا فى استصلاحها فى الأعوام القليلة التى سبقت عادت بفعل نقص مياه إلى حالة البوار، وعاد موسى يسافر فى اتجاه ديرب نجم وشراهور والبهو فريك، حيث أصدقائه الذين يجد فى صحبتهم شيئا من الأمان الذى يفتقده فى عزبته وعزبة أبيه،

وكانت الجدة مريم وهى ترى تكتم موسى والسيد أسرار تحركاتهما تأمل فى أن يكون الوضع مؤقتا، وتراهن على أن يعودا إلى الهدوء ويريا بعيون مفتوحة الحقائق كما هى، فإذا كان سيد احمد قد تصرف على نحو جرح أخاه فإن الجميع لم يوافقوه، بل إن سرية نفسها عنفت ابنها على ما فعل وقالت إنها خجلى مما فعل.

وانتهت أشهر الشتاء فمال القمح نحو الاصفرار، وشرع موسى فى إقامة مصلى أمام داره، فى الحقيقة كان موزعا بين الدار القديمة وداره هو، وكان كلما ذهب إلى الدار القديمة يواجه بسيل من الأسئلة عن حقيقة ما يقوم به هو وشقيقه السيد، توجهها إليه جدته وأمه، قلل على نحو ملحوظ من توجهه إلى هناك، وصار يقضى معظم أوقاته إما فى داره أو فى دار شقيقه السيد.

مهدوا الأرض للمصلى وفرشوها بالقش، وصار موسى يخرج فى كل يوم للصلاة فيها، فى الفجر يأمر فيؤذن السيد للصلاة، وكذلك فى الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وقالت الجدة مريم:

– أخيرا صار فى العزبة مسجد.

وجاءوا برجل من الحجايزة يحفظ بعضا من القرآن ليخطب فيهم ويصلى بهم الجمعة، ولما جاء الرجل ورُفع الأذان خرجوا من الدور بقضهم وقضيضهم حتى يكتمل للصلاة الجامعة نصابها، وتخلف سيد احمد عن أول صلاة، وكان تخلفه ملحوظا من الجميع، حتى من شقيقه سليمان الذى أطرق إلى الأرض عندما سأله إخوته عن سر تخلفه.

بعد الصلاة تحدث موسى إلى إخوته، يحاول منذ فترة أن يجد طريقا

للتجاوز عما فعله أخوه، وفى كل مرة يظن أنه اهتدى إلى طريق يجده فى الحقيقة مجرد سراب، فإذا كانت التجربة قد علمته شيئا فقد علمته أن عدوه مساعدا السمدانى وقد منى بالفشل فى النيل منه عن طريق الغرباء سيحقق مآربه عن طريق أخيه، لذا فهو يريد أن يحتكم إليهم، فإما يكون سيد احمد على صواب ومن ثم ينضوون تحت لوائه، وإما يكون على خطأ فيعتذر أمامهم ويبتعد بالكلية عن أى اتصال بعدوه، ريثما يجدوا طريقة للتعامل مع الأمر.

الطير فوق الرؤوس، تلك كانت الحالة التى وصفتها الحكايات، فالأخوة الذين كانوا فى مصلاهم فى ذلك اليوم جلسوا بعد الصلاة مهمومين، وبرغم ان اخاهم الأكبر يطلب تدخلهم لرأب الصدع إلا أنهم كانوا واقعين فى بحيرة آسنة من الصمت، يعرفون أن سيد احمد أخطأ فى حقه وحقهم، وفى حق ذكرى أبيهم، ويعرفون أن ما يطلبه موسى هو أن يساندوه، ولا يعرضونه للطعن فى الظهر فيما هو يواجه عدوه بصدره، ويعرفون أيضا أن دونهم وموافقة سيد احمد على طلب أخيه عقبات قد تنتهى بهم إلى اليأس، وأن تدخلهم السافر إلى جوار أخيهم الأكبر لن يحل المعضلة التى تواجهها الأسرة، بل قد يزيدها تعقيدا، لذا فإنهم فى تلك الظهيرة البعيدة كانوا يجلسون فى مصلاهم ويستمعون إلى أخيهم الأكبر والطير يحلق فوق الرؤوس.

وحدث تطور أضاف إلى معضلة الخلاف أبعادا جديدة، فلقد أعلن عبد العال داوود كاتب العزبة أنه سيقصر عمله على أرض سيد احمد، ولما ناقشه موسى ألقى بمفاجأة، إذ هو لم يفعل ما فعل إلا بناء على طلب سيد

احمد نفسه. موسى كان موزعا بين سبيلين لا يدرى أيها يسلك، فهو إن ترك ابن الحلاق القديم ينفذ أوامر سيد احمد سينتهي بهم الأمر إلى حالة من الخصومة يشارك فيها أناس من خارج العائلة، خاصة وأن المناسبة التي أفصح فيها عبد العال عن توجيه سيد احمد له كانت استثنائية تماما، ففي خضم الأحداث المؤسفة بين الأخوين رفض الكاتب تنفيذ طلب لموسى بتعلة اقتصار عمله على مصالح سيد احمد، وهذا يعنى أنه لا بد وأن يطرده من العزبة فلا يعود إليها، لكن ذلك الأمر قد يؤجج بين الأخوين صراعا من نوع جديد، ويقود إلى حرب لن تنتهي إلا بتدمير العزبة على كل الرؤوس.

وجد موسى طريقا للتعامل مع الكاتب المتمرد، اكتفى بالتنبيه عليه بالامتناع عن الحضور إلى العزبة أياما حتى ينتهي الخلف بينه وبين أخيه، ومن ثم يرسل في طلبه، وطلب ألا يخبر سيد احمد بذلك حتى لا يفاقم الخلاف، وكان فيما طلبه من الكاتب يستخدم كل أرصدته من المكر الحسن، فإذا انصاع الرجل لرغبته وابتعد قليلا دلل على حسن نيته ورغبته في الإسهام في حل الخلاف، أما إذا نقل الحديث إلى سيد احمد فإن طرده من العزبة وإلى الأبد سيكون هو الحل الأمثل.

لم يرحل عبد العال إلا بعد أن أبلغ سيد احمد بكل ما قاله موسى، ونبه عليه سيد احمد أن يظل في عمله ولا يكترث لشيء، وفي نهاية اليوم وجده موسى يجرى جردا في مخازن سيد احمد فأرسل في طلب السيد وإبراهيم، وأمرهما بأن يحملا الرجل من يديه وقدميه ويقذفان به خارج العزبة، تلك كانت المرة الأولى التي تستخدم فيها القوة في حل خلاف

بين أهل العزبة الناشئة، وإذ رأى الكاتب المتمرد إبراهيم بجسده الهائل والسيد بتصميمه المحتدم قادمين فى اتجاهه أدرك ما يراد به وأطلق عقيرته ينادى سيد احمد لينقذه من أيديهما، لكن سيد احمد لم يخرج من داره، وكان منظر الأخوين إبراهيم والسيد وهما يحملان الكاتب ويلقيان به على الأرض خارج العزبة باعثا على تجمع الأطفال، ومثيرا لضحكاتهم الصغيرة التى لا تدرك حجم المشكلة التى تثيرها عملية الطرد القسرية.

الجدة مريم لم تكن بعيدة عن مجريات ما يدور، تماما مثلما كانت فى تلك الأيام القليلة التى تفاقم فيها الوضع واستفحل الخلاف بين الأخوين، ولما أرادت أن تتدخل لتضع حدا لما يجرى لم تجد إلا حورية وسرية لتجتمع بهما، ودت لو تستطيع أن تنفس عن كربها بالبكاء بين أيديهما، ولكنها تماسكت، فانهيارها لا يعنى إلا شيئا واحدا، هو انهيار العزبة بأكملها، وإذ كانت تدرك أن صبر موسى لم يعد فى قوسه منزع رجت أن تتدخل سرية وتلزم ابنها بالموافقة على التواجد فى الجلسة التى اقترحها أخوه، ولكن فى حضور أعيان المنطقة وليس بالاكتفاء بوجود الإخوة، فهى أول من تعلم أن أحفادها لا يمكنهم حل الخلاف، إذ يفترض فيمن يتدخل القدرة عند اللزوم على فرض الحل على الطرفين، وأحفادها لا يملكون فى مواجهة الأخوين أية قدرة على الفرض.

محاولات سرية باءت بالفشل، طلب منها سيد احمد أن تغلق باب الحديث فى أمر الخلاف بينه وبين أخيه، وتعجب من تحاملها عليه وانحيازها إلى موسى، وسألها متهكما إن كانت أمه بحق، وإن كان سليمان شقيقه بحق، وإن كانتا فاطمة وأم الرزق أختيه، وهددها إذا عادت لمثل ذلك

أن تصحو ذات صباح فلا تجده فى العزبة كلها، هو وزوجته وأولاده، واجتمع إليه أشقاؤه، سليمان وفاطمة وأم الرزق، لكنه كان حانقا بشدة، وكان يفهم الأمور على نحو يختلف عما يفعلون، فما فعله إبراهيم والسـيد بكاتبه عبد العال داوود اعتداء سافر، أما علاقته مع الأعرابى الذى يستأجر القتلة للنيل من أخيه فلا يرى فيها أى اعتداء، واختصاص نفسه بعمل كاتب العزبة دون استشارة شركائه فى عمله لا يجب أن يغضب أحدا، وهذا بالضبط ما اضطرت أمه إلى أن تقوله له، أمام سليمان الذى جلس مطرقا إلى الأرض آسفا، وفى حضور الفتاتين، فاطمة التى لا تدرك مما يدور الشيء الكثير، وأم الرزق التى لا يعجبها فعل أخيها لكنها تحتفظ لنفسها بما ترى.

اضطرت الجدة مريم لأن تعلن غضبها من سيد احمد، الحفيد الذى كان يوما الأعز من بين الجميع، لم تدع مجالا للنعى على ما قام به إلا وفعلت، حتى صارت العزبة كلها بأهلها وعمالها لا حديث لها إلا ما قاله أو فعله، فلقد قررت أن تخوض الحرب حتى نهايتها، و لم يفت ذلك فى عضد سيد احمد، صعر خده ونظر إلى محاولات الجدة باستهانة أججت غضبها، وشيئا فشيئا صار يتحدث عن العزبة التى تريد الجدة أن تتحكم فى مصيرها مثلما فعلت ذات يوم، عندما أجبرت أهلها على قتل المملوك القديم، وتسببت فى خروجهم من بلدهم القديم وتشتيت أبناء عمها فى أصقاع الأرض، وعلى طول الطريق من سرس القديمة وحتى عزبة أبيه.

ذلك كان آخر الشوط بين الجدة وبين حفيدها، أدركت أنه سيصل بهم إلى حد الاحتراب، ورأت بعينى حدسها أن حالة الاحتراب تلوح بالفعل

فى الأفق، فلم تكن تتخيل أن يقدر أحد على فعل مثل ما فعل حفيدها، فلقد مارس تأثيره على الجميع إلى درجة أنهم جميعا، سليمان وزوجته وفاطمة وأم الرزق، فضلا عن أمه وزوجته وأطفاله اعتزلوا العزبة، وردا على هجوم الجدة امتنعوا عن التحدث إلى الباقين، ولما كانت زكية راغبة فى أن تضمن لابنها الوحيد عزوة تعضده وتشد من أزره ووجدتها فى سيد احمد فإنها دفعت بابنها فى اتجاه أخيه الغاضب، بدلا من أن تدفعه فى اتجاه موسى زوج ابنة أخيها، وكانت لعلاقتها بسرية تأثير كبير فى ذلك التوجه، وأصبحت العزبة ذات صباح على أحمد الضبع وهو يفعل كما يفعل سيد احمد وسليمان، فلقد امتنع عن التحدث إلى أحد من الفريق الآخر، بل وامتنع كما يفعل سيد احمد عن الذهاب إلى الدار القديمة لزيارة جدته.

استقطاب حاد حدث فى صفوف الأسرة المتناحرة، فالجدة التى أصابتها كلمات حفيدها بجرح غائر لم تستطع أن تمنع نفسها من البكاء، وبعد أن افرغت حزنها فى الدموع جمعت أحفادها من حولها، وحرصت على أن يجلس الأطفال بالقرب منها ليسمعوا كل الحكايات القديمة، من أول الركب القديم الذى قاده فى فجر يوم بعيد جدهم الأكبر سيد احمد "الأول" إلى "مصر" ليلحق ابنه موسى "الأول" بالجامع الأزهر، وحتى اللحظة التى اتهمها فيها حفيدها بالتحكم فى مصير الأسرة وتفريق شملها من جديد، وشددت على حكاية الخروج القديمة التى استند إليها سيد احمد وهو بصدد الهجوم عليها.

كلهم كانوا هناك، فى حجرة الجدات فى الدار القديمة، موسى وزوجته

وأبناؤه، وإبراهيم وزوجته وأبناؤه، والسيد وزوجته، ومحمد الطوخي وزوجته وأبناؤه، وإسماعيل الطوخي الذى لم يكن قد تزوج بعد، فضلا عن حورية التي جلست غير بعيد، وعادت بذاكرتها إلى تلك الأيام البعيدة التي خرجوا فيها في قلب الليل فرارا بأنفسهم من انتقام الوالى لما قتلوا المهتار القديم، تلك كانت المرة الأولى التي تجمع فيها الجدة مريم الأسرة من حولها لتقص عليهم كل الحكايات، ولتدلهم على الحقائق قبل أن تنطمس ويجترئ عليها المجترئون، من أبناء الأسرة أو من غيرهم، فأول اجتراء على حقائق تاريخ الأسرة جاءت من واحد من أبنائها، وهي لا تعرف إن كانت كلماته ستمضي مع الريح أم ستفرخ في أدمغة الأحفاد حكايات شوهاء وأشباحا.

وهدأت الحرب، لكن حالة الاستقطاب ظلت قائمة، وأرسلت الجدة مريم في طلب سرية فجاءت على استحياء، لكن محاولة رأب الصدع باءت من جديد بالفشل، فلقد تركت سرية كل شيء و لم تجد إلا هجوم الجدة على ابنها لتتحدث فيه، أما زكية فإنها ما أن جلست أمام الجدة حتى انخرطت في البكاء، وقطعت ببكائها الطريق على محاولة إعادتها وابنها إلى صفوف الأسرة، وأخيرا فإن الجدة الحزينة جلست هناك في ركن حجرتها ذات يوم وانخرطت في البكاء، ومثل لها الأقدمون، جداها سيد احمد "الأول" وموسى "الأول" وعمها سيد احمد "الثاني وحبيبها وزوجها أحمد "الأول"، وجدتها الكبرى وعمتها الأم الخبيرة، ومن ورائهم وقف ابنها أحمد "الثاني"، وراحت تتحدث إليهم وتناجيهم، وتشكو لهم فعل

حفيدها الذى ظنته ذات يوم لحمة الأسرة، فإذا به هو الذى يفككها ويبدد شملها.

وأسقط فى يد موسى، فما ظن يوما أنه قادر على اجتيازه وقف قبالته عاجزا، وها هى الأسرة تنشطر إلى قسمين، لا يتحدث منهما أحد إلى أخيه ولا يرق قلب واحد إلى الآخر، ولو حدث ورق قلب إلى قلب فدونهما والتجاوز عما حدث عقبات حرص الطرفان على أن تظل قائمة، كان يعد العدة للهجوم على مضارب الأعرابى، هجوما حاسما يسحقه، أو يرجعه إلى تيه الصحراوات التى قدم منها، ولكنه لم يكن فى حال تسمح له بتقرير موعده ومناسبته، فالرجال الذين سيستعين بهم على أهبة الاستعداد، بنيرانهم وأسلحتهم وأعوانهم، وكل ما يعطى للعزبة نصرا مؤزرا، وكان على وشك الذهاب إلى أصدقاء أبيه ليضمن وقوفهم إلى جانبه إذا ما اتهمه الأعرابى بالتدبير للهجوم، ولكن تطورا مدهشا قلب التوقعات رأسا على عقب.

سليمان كان هو من قصد إلى جدته وانتهى إليها رغبة أخيه فى إنهاء حالة العداء القائمة، ولكن بشرط واحد هو أن يتم الأمر فى حدود الأسرة وليس فى وجود أحد من خارجها، والجدة التى لم تصدق ما تسمعه اسرعت وأعطت حفيدها التعهد الذى يطلبه، وأرسلت من فورها تطلب موسى.

حالة من البكاء الحاد أصابت موسى، ولم تجد الجدة ما تفعله سوى أن تمسح على رأسه وتحرص على ألا يراه أحد، حتى إذا ما انتهى من

البكاء، وهدأت ثورة نفسه وجسده جلس إلى جوارها يسمع نصيحتها، في ذلك اليوم البعيد قالت الجدة إنها لا تعرف إن كان سيد احمد يقصد بما يقول صلحا أم أنها مناورة، وتباحثا حول ما يمكن أن يكون مقصده من وراء ذلك، و لم يجدا إلا أن ما يحدث هو مجرد رغبة في تهدئة الحال، وذلك بعد أن شاعت في المنطقة أنباء الخلاف الحاد والصراع المحتدم، وربما يكون سيد احمد قد وجد صدودا من قبل أصدقاء أبيه، الشيخ عزام والحاج سويلم والشيخ دسوقي، خاصة إذا ما كان الشيخ عزام هو صهر أخيه الأكبر موسى.

عاد الوئام إلى أركان الأسرة، لكن حالة من الجفاء ظلت عالقة في النفوس، وفي جلسة التصالح التي احتوتها الدار القديمة اكتفى موسى بما قاله سيد احمد في حضور الجميع، إذ بعد أن قبل رأس أخيه أعلن أن مساعدا السمداني – بما قام به من استهداف أخيه بالقتل – عدو له، وأنه يلتزم بقرار الأسرة فيما يتعلق بكيفية مواجهة ذلك العدوان، ورأى الجميع قبل أن ينخرطوا في البكاء دموع سيد احمد وهي تجري فوق وجنتيه، وقامت سرية وقبلت رأس عمتها فبكت حورية بحرقة ألهبت حماس الجميع، وانخرطوا في البكاء إلى درجة دعت الأطفال لأن يلتصقوا بأمهاتهم خوفا من تلك الحالة التي أصابت الجميع.

وانقضى الصيف، خاضت العزبة حربها الكبيرة في جني القطن بعمال جاءوا هذه المرة من أولاد صقر والهجارسة وسنجها، وكما فعلوا في العام الماضي جهزوا مندرة الغيط لمبيت النساء وتناثر الرجال في الخارج، وكان عبد العال داوود قد عاد بناء على سعي سيد احمد لدى جدته، ورأى

موسى أنه لم يعد مقبولا فى العزبة على أى وجه من الوجوه، لكنها طلبت أن يتجاوز عن الأمر ويسمح بعودته، وهكذا عاد، وكان فى وقت الجنى يمسك حسابات الأنفار والخوّال، وكذا حسابات المتعهدين الذين يجلبون الأنفار من مختلف البلدان.

وكما فعل سيد احمد فى العام الماضى اشترى قطن أخوته بطريقة جديدة، إذ فرض له موسى ربحا معينا فى كل قنطار مقابل أن يحصلوا على الثمن الذى يبيع به القطن لمحلج بنايوتى، وكان سيد احمد قد توسع فى شراء الأقطان فى تلك السنة بصورة جعلته الذراع الأيمن للتاجر اليونانى الذى أغلق المنطقة على نفسه و لم يسمح بدخول أحد من التجار إليها، وقرب نهاية موسم الجنى امتلأت مخازن سيد احمد عن آخرها بمحصول ارضه وأراضى أخوته، ولكنه كان غارقا حتى أذنيه فى تحميل الأقطان التى اشتراها وتوصيلها إلى المحلج فى السنبلاوين، وقرب نهاية الموسم أفرغ المخازن من القطن وذهب به إلى المحلج ايضا، وغاب هناك هو وعبد العال داوود يوما أو يومين، ثم عاد بعد أن تحاسب مع الخواجة وقبض ثمن اقطانه، وتهيأ لتصفية الحساب مع أخوته.

زُرِعَت الأرض بالمحاصيل الشتوية، وعاد موسى إلى التفكير فى مهاجمة مضارب السمدانى، لكنه ليس مطلق السراح هذه المرة، إذ يجب عليه أن يستشير أخاه وإلا عادت الخلافات إلى الظهور، ولما لم يكن واثقا تماما من انقشاع غبار المعركة فإنه لجأ إلى جدته يستشيرها، كانت مستلقية ومعطية ظهرها للعزبة وأهلها، ولأنها كانت مدركة لكل ما تقوم به فضلت أن تحصر أسلافها فى ركن الغرفة وأن تناجيهم فى صمت،

فاتهامها بالخرف أو المس قد يقضى عليها هذه المرة، بعد أن تسبب اتهام سيد احمد لها بالتسبب فى خروج الأسرة من بلدهم القديم فى التزامها الحجرة وعدم الخروج منها إلا فى رحلة الذهاب اليومية إلى الكنيف، لمرة أو لمرتين فى اليوم، وعدا ذلك كانت تظل فى الحجرة طوال الوقت.

رأت أن ينسى موسى أمر الانتقام من الأعرابى، فلقد مر عام على ذهاب الصعيدى ويبدو أن مساعدا قد وعى الدرس، فها هى الدنيا تسير فى يسر، وها هى العزبة تعود إلى الكثير من وحدتها، وها هو سيد احمد لا يتحرك إلا فى مجال محسوب ولا يقدم على شيء يخالف إرادة إخوته، ويكفيه كل هذا، لأنه إذا اعترض سيد احمد على الهجوم فلن يمكنه القيام به إلا من وراء ظهره، وفى ذلك مخالفة للشروط الضمنية للصلح الذى جرى بينهما، ولكن الذى لم ترد الجدة مريم أن تقوله إنها لا تأمن إن أخبر سيد احمد بالهجوم أن ينقل السر إلى الأعرابى، فإذا كانت العلاقات بين سيد احمد ومساعد على ما يظهر لهم مقطوعة فلماذا يعمل على إعادتها؟!.

الشتاء كان فى بدايته، وعندما خرج موسى من لدن جدته كان موعد صلاة العصر قد اقترب، وبدلا من التوجه إلى أى مكان قصد إلى مصلاه ليصلى ركعتين، وينتظر صلاة العصر، برودة مقدم الشتاء كانت محسوسة إلى درجة دعته قبل أن يتوجه إلى المصلى ينادى على ابنه زكريا ليأتى بلفيته ليتدثر بها.

يحلو له أن يجلس قليلا بعد الصلاة وينظر فى اتجاه مضارب السمدانى، ومن مكانه وهو جالس فى المصلى يرى كل ما يدور هناك، مدخل الخيمة الكبرى التى يجلس فيها مساعد طوال اليوم أو أمامها، وغير بعيد من

المضارب كانوا يقيمون دارا كبيرة، وكانت لما تزل في طور البناء، وفيما هو يرصد حركة المضارب ويعيد التفكير في موضوع الهجوم خيل إليه أن الرجل الذي يقف هناك أمام الخيمة مع مساعد هو أخوه سيد احمد، وأمعن النظر فلم يجد إلا أنه هو، فالهيئة هيئته، والطول طوله، وكذلك الدفية التي يضعها على جسده، وأمعن النظر أكثر، لكنهما ولجا إلى داخل الخيمة، ولما كان العصر قد وجب فإنه ودون أن ينادي على السيد للأذان قام ليصلي بمفرده، وظل متابعا لما يجري عند مدخل المضارب حتى يتأكد من أن الموجود هناك هو أخوه.

فرغ من الصلاة ووجد أن ينادي السيد، ولما استبطأ قدومه عاد لينادي عليه، وجاء السيد يفرك عينيه، فلقد كان نائما، وأراد أن يؤذن للصلاة فأبلغه أن العصر وجب وأنه صلى بمفرده، وقام السيد ليصلي فطلب منه أن يخفف، لا يريد أن يفوته ما دعاه لأجله، قلبه يدق في غضب، فهو لم يشعر في حياته كلها بمثل ما يشعر به الآن، و لم يخدعه أحد مثلما خدعه أخوه، إن كان هو الجالس هناك في الخيمة الكبرى في قلب مضارب السمداني، وتمنى لو أن ما رآه ليس حقيقة، وأنه مجرد وهم، وأنه التبس عليه فرأى من رأى على هيئة أخيه، لكن قلبه الذي يدق في عنف ووجهه الذي يحتقن بالدم، ورأسه الذي يفور كأنه المرجل دفعوه إلى أن يمط رقبته في محاولة لرؤية أية حركة قد تصدر عن المتواجدين هناك في عمق الخيمة.

السيد انتهى من صلاته وجلس يختمها، يسبح ويحمد ويكبر على أنامله كما كان يفعل أبوه، وتعجب من هيئة موسى وهو متنمر ولا تنصرف عيناه عن متابعة المضارب، وإذ كان قد انتهى من ختام الصلاة

وموسى على وضعه المترقب اقترب منه وسأل:

- ماذا هناك؟.

لم يجبه، فلم يسمع ما قاله، لكنه أدرك أنه قال شيئا فاستفسر:

- ماذا؟.

وأعاد السيد السؤال:

- ماذا هناك؟.

فأجاب وهو يواصل المتابعة:

- أنظر معى إلى مضارب السمدانى لتعرف إن كان الرجل الذى يجالسه فى الخيمة الكبرى هو أخوك سيد احمد.

وانعقد لسان السيد من الدهشة، لكنه استطاع بعد قليل أن يسأل:

- سيد احمد؟!.

فأجابه موسى:

- نعم، سيد احمد.

طال انتظارهما حتى مالت الشمس نحو الغروب، وخشى الرجلان أن يهبط الظلام فلا يستطيعا أن يتأكدا من أن الجالس هناك هو أخوهما، وبدأت الشمس فى السقوط عند حافة الأفق، وشاهدا حركة عند باب الخيمة، كان مساعد يسلم بيديه على أخيهما:

- نعم، هو سيد احمد.

هكذا انطلق السيد كبندقية معمرة، وهم بأن ينطلق ليقابله لكن موسى

أمسك به ليظل جالسا، وقال السيد:

– لكنه لم يكن بداخل الخيمة.

وتساءل موسى مندهشا:

– من؟!.

فأجاب:

– سيد احمد.

ولما لم يجبه موسى بشيء أردف:

– وإلا لكنا رأيناهما يخرجان من الخيمة.

الدنيا كانت تدور بموسى، وقدماه اللتان فقدتا الحركة أصابهما الخدر، فالوقت الذى قضاه سيد احمد فى ضيافة مساعد ينبئ عن أن علاقتهما لم تنقطع أبدا، فلقد أمضى هناك ساعتين أو أكثر، وهذا وقت يفضح صاحبه، إذ لو كان متسرعا ويتصرف تصرف اللصوص لقضى هناك وقتا قصيرا، أما أن يظل هناك كل هذا الوقت فذلك ينبئ عن أشياء كثيرة.

تابعاه وهو يدور مع جسر المصرف الفاصل بين أراضى العزبة وأراضى غريمهم، حتى أخذ وجهته إلى مندرة الغيط، ومن هناك عاد أدراجه فى اتجاه العزبة فكأنه قادم من الغيطان، كان معتمرا عمامة بيضاء فوق طاقية من الوبر، ويضع الدفية فوق جلباب من الصوف، ويرتدى فى قدميه نعلين من الجلد الأصفر، كان فى أبهى زينة، وعندما اقترب من العزبة تظاهر بمتابعة العمال وهم يدخلون الماشية والقطعان تمهيدا لمبيتها، وظل موسى والسيد جالسين فى المصلى ولكن دون أن يصليا المغرب، فلقد

خشيا إن هما قاما للصلاة أن يلج إلى داره ولا يراهما.

وأخيرا فإنه بعد أن تابع إدخال القطعان والماشية مر بالمصلى فوجدهما جالسين هناك، وألقى عليهما السلام فناداه موسى:

– أنت من سيقتلني لحساب مساعد بابن أبي.

ورفع سبابته في اتجاهه:

– وهذا فراق بيني وبينك.

تقول الحكايات إن سيد احمد الذى فوجئ بأن أخويه رصدا زيارته إلى مضارب السمداني اضطرب كثيرا قبل أن يقسم أن ما دفعه للدخول هناك هو عزة النفس لا غير، وانطلق يرى جدته الدفية التي سكب فيها فنجال القهوة الذى قدموه له، ولا يعرف أحد من الحكائين شيئا عما قالته الجدة مريم ردا على ما قال، كما ولا يعرفون كيف اتخذ موسى قراره الحاسم، وما إذا كان قراره ابن لحظته، أم أنه كان يفكر فيه من قبل، ولكن الذى لا يمكن التغافل عنه أن تلك الزيارات الغامضة التي قام بها من قبل لأصدقائه، سواء في ديرب نجم أو في البهو فريك، أو حتى في شبراهور، كانت تتعلق على نحو أو آخر بالقرار الذى اتخذه.

أسابيع عديدة عاشتها العزبة في أسى، يصبحون على أناس يرتدون ملابس غريبة يقيسون الأرض التي قالوا إن موسى باعها لبنك جديد يسمى بنك الأراضي، لم يكن أحد من المنطقة يملك من المال ما يستطيع أن يشتري به الثمانين فدانا نصيب موسى والسيد وحورية، فلقد ردوا للجدة مريم أرضها التي كانت تحت يد موسى، كما تركوا نصيب إبراهيم

الذى فضل أن يبقى فى المكان، فهو لا يعرف مكانا غيره، وكان موسى قد اشترى بالاشتراك مع صديقه حسن الكفراوى عزبة مساحتها مائة وعشرين فدانا بالقرب من ديرب، ودفع ثمنها بالفعل، ولكن الجدة مريم أبت إلا أن تحاول للمرة الأخيرة، فربما استطاعت أن تثنى حفيدها عن قراره:

– تبنى العزبة وتقاتل من أجل وجودها، ثم تكون أنت من يخرج منها؟!

أجابها والدموع تلتمع فى عينيه:

– أفضل من أن يقتلنى أخى أو أقتله

وقبل أن تفكر فى الحديث أردف:

– لإن يقولوا افترقوا خير من أن يقولوا قتل أحدهم أخاه

وفى ليلة غاب قمرها خلف السحب المنذرة بالمطر، حملت العربات ذات العجلات أثاثا وحشيات وأشياء كثيرة، وخرجت من العزبة التى لم يعرف الخارجون عنها حورية موطنا لهم إلا هى، وضع السيد الأطفال مع جدتهم حورية فوق إحدى العربات، ووضع نفسه بالكاد فى المقدمة، وأمسك بمقود الحصان، فيما امتطى موسى بغلته ونظر فى أركان العزبة كلها، كأنما يبحث عن أيامه وذكرياته، فى المكان الممتد من مصلاه عند المشارف وحتى الأجران التى تعقب الدار القديمة، ورنا بنظره فى الظلام حتى مندرة الغيط والخندق الكبير الذى أقامه هناك ذات يوم، وبدون أن يلحظ أحد مسح دمعتين تدحرجتا من عينيه، وأطرق الأطفال إلى الأرض،

فيما كتمت حورية شهقة خرجت من صدرها كالنار، ومن خلف النوافذ وقفت النسـاء والصبايا يذرفن الدمع على فراق الأحباب، وأدار الرجال وجوههم ليمسـحوا دموعهم، فيما أعطت الجدة مريم ظهرها للدنيا وانطلقت ولأول مرة بصوت مسـموع تناجي الراحلين.

المنصورة في 2006/10/5

المؤلف في سـطور

أحمد صبري أبو الفتوح

- من مواليد محافظة الدقهلية في العام 1953.
- درس القانون في جامعة القاهرة، ثم عمل وكيلاً للنائب العام، وتدرج في مناصب القضاء حتى عمل رئيسًا للنيابة العامة، ثم استقال من القضاء وعمل بالمحاماة.
- حصلت روايته "ملحمة السراسوة" (الخروج) على جائزة ساويرس لكبار الأدباء في العام 2010.

صدر له:

1 - "طائر الشوك"، رواية، دار زويل، القاهرة 2000.

2 - "وفاة المعلم حنّا"، قصص قصيرة، دار ميريت، القاهرة 2002.

3 - "جمهورية الأرضين"، رواية، دار ميريت، القاهرة 2005.

4 - "ملحمة السراسوة" (الخروج)، رواية، دار ميريت، ط1: القاهرة 2009، ط2: 2010، ط3: 2010، ط4: 2011.

5 - "ملحمة السراسوة" (التكوين)، رواية، دار ميريت، القاهرة 2010.

6 - "ملحمة السراسوة" (أيام أخرى)، رواية، دار ميريت، القاهرة 2010.

البريد الإلكتروني:

ahmd_sbry@yahoo.com

ملحمة
السَّراسْوة
التكوين

" "ملحمة السرّاسْوة" رواية فاتنة، وكاتبها أحمد صبري أبو الفتوح أطار النوم من عينيّ بملحمته البديعة".

د. جابر عصفور

"أكاد أجزم أن رواية "ملحمة السرّاسْوة" سيكون لها شأن عظيم في تاريخ الأدب العربي".

أ. خيري شلبي

"نحن أمام رواية تروي عن الخوف العظيم والمطامع العظيمة، ماذا يفعلان بالناس وماذا يفعل الناس في ظلهما؟ لقد أدرك السرّاسْوة بعد قتل المملوك "قُفُل" والخروج من جنتهم في سرس القديمة ثم صراعهم مع الأعرابي الجبّار في مستقرهم الجديد أن المكان البعيد الآمن الذي كانوا يحلمون بالوصول إليه لن يكون أبدًا مكانًا في الجغرافيا أو زمانًا في التاريخ، بل سيكون دائمًا مكانًا في العقل، منحى في التفكير، رؤية للحياة قادرة على أن تكشف نقاط الضعف عند القوى ونقاط القوة عند الضعيف. دائمًا تعتمد الذكاء والبصيرة والخيال والصبر".

أ. أبو المعاطي أبو النجا

"إن وقفة متأنية بصدد رواية "ملحمة السرّاسْوة" تفصح عن معالجة مقتدرة لروائي فذ وموهوب ساوق بين معارفه العريضة العميقة وبين حرفية فنية نادرة لإنجاز ملحمة، بحق، خليقة بأن تكون منعطفًا في تاريخ القص العربي المعاصر".

د. محمود إسماعيل

"حين يتحمس أحدهم لكتاب يقرأه في نفس واحد، لكن رواية "ملحمة السرّاسْوة" تلتهم قارئها، هذا عمل يعمد صاحبه، ويعبد له طريقًا سالكة، إذ تجلو ملحمته الممتعة موهبته وتظهر طاقته التي لا تباري وإخلاصه الكبير الذي يحفظ على الأدب قدره".

أ. أسامة الرحيمي

الغلاف: بسمة صلاح

دار العين للنشر
Elain Publishing House

9 789774 901481